سيرة ذاتية

# بنيامين فرانكلين

## السيرة الذاتيّة بقلمه

ترجمة

د. أنوار يوسف



# بنيامين فرانكلين

## السيرة الذاتية بقلمه

# بنيامين فرانكلين

## السيرة الذاتية بقلمه

ترجمة: د. أنوار يوسف

*The Autobiography of Benjamin Franklin*

*Translated by Dr. Anwar Yousif*

الطبعة الأولى: يوليو - تموز، 2020 (1000 نسخة)

بيروت - لبنان





لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
دار الرافدين@daralrafidain



ISBN: 978 - 9922 - 623 - 79 - 5

# بنيامين فرانكلين

## السيرة الذاتية بقلمه

ترجمة

د. أنوار يوسف




www.daralrafidain.com

# الفهرس


السيرة الذاتية بقلمه ........ 19
ريتشارد المسكين ـ أمثال مختارة ........ 246
الطريق إلى الثروة ........ 254
نُكات، مقالات، أقوال قصيرة ورسائل مختارة بعناية ........ 267
مرثية نيو إنغلاند ........ 267
محاورة بين (فيلوقليس) و(هوراشيو) بشأن الفضيلة والسعادة، وهما يلتقيان بالصدفة في الحقول ........ 270
محاكمة ساحرة في (ماونت هولي) ........ 276
نصيحة لرجل شاب ........ 279
خِطاب (بولي بيكر) ........ 282
إلى (جَيْن فرانكلين ميكوم) ........ 286
إلى صديق في (بوسطن) ........ 290
تصدير المجرمين إلى المستعمرات ........ 292
ملاحظات حول ازدياد الجنس البشري، إسكان المقاطعات، إلخ ........ 295
الطائرة ........ 306
إلى (كاثرين رَيْ) ........ 308
الزوبعة ........ 310
إلى (كاثرين رَيْ) ........ 313
إلى (ديبورا ريد فرانكلين) ........ 315
إلى (جَيْن فرانكلين ميكوم) ........ 317
منشأ العواصف الشمالية الشرقية ........ 319

حكاية رمزية ضد الاضطهاد 322
حكايات طويلة عن أميركا 324
إلى اللورد (كَيْمْز) 328
إلى (ماري ستيفنسُن) 333
إلى (ماري ستيفنسُن) 340
قضايا يجب دراستها تخص الثروة الوطنية 344
حكايات رمزية جديدة 347
صحيفة (كريفن ستريت) الرسمية 349
إلى (جورجيانا شِپْلي) 359
إلى (ديبورا ريد فرانكلين) 362
أحكام تخضع بموجبها إمبراطورية كبيرة إلى إمبراطورية صغيرة 364
مرسوم من ملك بروسيا 376
إلى (وليام فرانكلين) 382
خمر (الماديرا) والشمس 386
إلى (وليام شتراهان) 389
إلى اللورد (هوو) 390
بيع القوات الألمانية في أميركا 394
نموذج لرسالة توصية 397
إلى (تشارلز فيشنشتاين) 398
ذبابة مايو 406
الصافرة 409
إلى الأب (موريل) 413
إلى الأب (دي لا روشه) 417
إلى مدام (إيليفيسيوس) 421
إلى (جورج واشنطن) 424
محاورة بين فرانكلين ومرض النقرس 426
ملحق صحيفة (بوسطن إنديبيندنت كرونكل) 435

إلى (جوزيف بريستلي)........ 442
إلى السيد (جوزيف بانكس)........ 445
ملاحظات حول همج أميركا الشمالية........ 447
نبؤة بحرب جوية........ 456
إلى (سارة فرانكلين باخ)........ 459
إلى (ماسون ويمز) و (إدوارد غانت)........ 467
إلى (وليام فرانكلين)........ 470
إلى (ماري ستيفنسن هوسَن)........ 473
الخطاب الأخير في المؤتمر الدستوري........ 477
إلى مدام (لافوازييه)........ 480
إلى (عِزرا ستايلز)........ 482

تضمنت الأقوال المأثورة التي وردت في جريدته (بُور ريتشارد ألماناك) والنكات والأقوال القصيرة والمقالات والرسائل التي تم اختيارها بعناية وتنظيمها من قبل كاتب سيرته (فان دورين).

إن قصة بنيامين فرانكلين معروفة لدى جميع الأميركيين، فجميعنا يتذكر قصة الصبي الذي سار خلال شوارع فيلادلفيا وهو جائع يمضغ قطعة من الخبز، الشاب الناشر لأوائل صحف هذا البلد، نعلم أنه مؤسس صحيفة (بُور ريتشارد ألماناك)، وأنه ابتكر مانعة الصواعق وأنه كان رجل دولة عظيم وأنه أحد موقعي إعلان الاستقلال. لكن حالما نقرأ قصة حياة (بنيامين فرانكلين) تصبح الأسطورة حقيقة، والطّيف يصبح إنساناً. في البداية سنضحك لخفة دمه اللّاذعة ثم نتعجب لصراحته التي لا تُصدق وعندما نقترب من النهاية نحبه لحكمته العظيمة ولتفهمه وتواضعه، تواضع رجل نهض من عدم الذكر إلى الشهرة والذي قام بتوقيع وصيته الأخيرة والعهد ب (عامل المطبعة: بنيامين فرانكلين).

في كل عصر وفي كل مكان كان (فرانكلين) سيكون عظيماً، فقد اجتمع فيه العقل والإرادة، الموهبة والفن، القوة واللطف، خفة الدم والفضيلة، وكأن الطبيعة كانت سخية وسعيدة عندما تم تشكيله. يبدو أنه لم يتبقَّ شيء عَدا رغبة متحمسة ـ كرغبة باقي العباقرة ـ كي يصبح حاكماً بمعنى الكلمة، جندياً بمعنى الكلمة، قدّيساً بمعنى الكلمة، شاعراً بمعنى الكلمة، أديباً بمعنى الكلمة، شخصاً موهوباً وفاضلاً وناجحاً بمعنى الكلمة. كانت قدرات فرانكلين أولاً وآخراً في توازن مرن، حتى عبقريته لم تستطع أن تُحدد له التخصص المعيّن. عاش الحياة وهو يتقن روح الدعابة، لطيفاً كما هو، مع القليل من الازدراء تجاه نقص ضرورياته ومستلزماته. لم يكن يقدّر شيئاً في حياته أكثر من تقديره لأناس عزموا على القيام بأمور أفنوا حياتهم لأجلها. لم تكن الممتلكات ذات أهمية بالنسبة له بالقدر الكبير ولا الإنجازات، وبالرغم من تعدد ممتلكاته كتعدد إنجازاته إلا أنها كانت أقل قيمة مقارنةً بشأنه، كل من يعلم بمآثره سيبقى يتذكر ولأمد طويل الرجل الذي حققها. وأحياناً يبدو ـ باتجاهاته الرائعة وبالرغم من سمته الشخصية ـ كأنه أكثر من رجل واحد: حشد متناسق من البشر

**(كارل فان دورين)**

**من كتاب بنيامين فرانكلين لـ (كارل فان دورين). حقوق الطبع 1938 من قبل (كارل فان دورين) وبإذن من مطبعة (فايكنغ) المتحدة، نيويورك.**

## ما قيل في مديح بشأن (سيرة بنيامين فرانكلين الذاتية بقلمه)

(السيرة الذاتية الأكثر شعبية والمكتوبة على الإطلاق).

**(بول ليسستر فورد)**

**مؤرخ وروائي وناقد ومحرر أميركي شهير**

(السيرة الذاتية الأميركية الكلاسيكية الأكثر صراحة والقصصية الغير متصنعة من نوعها في اللغة الإنكليزية إذا لم تكن في العالم)

**البروفسور (والدو هيلاري دَن)**

**مؤلف ـ ثلاثة عصور فكتورية بارزة ـ**

(إن فرانكلين، السيرة الذاتية الأكثر قراءة من كتب السيرة الذاتية الأخرى، قد عرف بشكل أفضل من خلال كتابه ـ السيرة الذاتية بقلمه ـ وهي نموذج الذكريات والأمانة)

**(كارل فان دورين)**

**في كتابه بنيامين فرانكلين**

إضافة إلى السيرة الذاتية لفرانكلين بقلمه تضمن هذا الكتاب كتابات أخرى مختلفة له اختيرت بشكل خاص وتم ترتيبها بتسلسل زمني من قبل كاتب سيرته الذاتية المعروف (كارل فان دورين) والذي ضمَّن عدة عينات لم تطبع من قبل في أية مجاميع مختارة شائعة من أعمال فرانكلين. هنا في هذا الكتاب تم استعراض المدى الواسع لأعمال فرانكلين (ككاتب سيرة ذاتية وككاتب ساخر وككاتب هجاء وكعالِم وكرجل اقتصاد وكرجل دولة وكفيلسوف وكصديق وككاتب رسائل) بيد خبيرة وبشكل جذاب بكلماته التي لا تضاهى.

## السيرة الذاتية بقلمه

مؤلفاتي، رسائل السيدة (دوغود)، الاختلافات بين أخي وبيني (مزاجه ومزاجي) أسبابه بشكل عام، جريدته، الملاحقة القانونية التي عانى منها، استجوابي، تصويت الجمعية، سلوكه بتجنبه لي، كيف أصبحتُ حراً، محاولاتي كي أحصل على وظيفة مع عمال مطبعة آخرين، هو من منعني، توسلاتنا أمام والدنا، المخالفة الأخيرة، دوافعي لترك (بوسطن)، طرق إيجادنا لتسويةٍ ما، تركي له والذهاب (لنيويورك) ـ العودة لأكل اللحم ـ وبعدها إلى (بنسلفانيا)، الرحلة، وأحداثها على الخليج في (أمبوي)، الطريق، اللقاء مع د، (براون)، شخصيته، أعماله العظيمة، عند (برلنغتون)، المرأة الطيبة، على النهر، وصولي (لبنسلفانيا)، أول وجبة طعام وأول رقاد، الأموال المتبقية، حصولي على وظيفة، حصولي على سكن، أول لقاء بزوجتي المستقبلية، مع (جي، رالف)، مع (كيمر)، شخصياتهم، (أوسبورن)، (واطسون)، المحافظ يهتم بي، الحادثة والسلوك، شخصيته، اقتراح للرفع من شأني، عودتي إلى (بوسطن)، الرحلة والأحداث، الاستقبال، أبي يرفض المقترحات، عودتي إلى (نيويورك) و(بنسلفانيا)، المحافظ (برنيت)، (جي، كولينز)، أموال (فيرنون)، مكر المحافظ، (كولينز) لم يجد وظيفة، ذهب إلى جزر (الباربادوس) وهو مدين لي بالكثير، أنا و(رالف) نذهب إلى (إنكلترا)، خيبة أمل رسائل

المحافظ، الكولونيل الفرنسي وصديقه، رسائل (كورنوول)، (كابين)، (د نهام)، (هاملتون)، الوصول إلى (إنكلترا)، الحصول على وظيفة، (رالف) لا، نفقته علي، مغامرات في (إنكلترا)، اكتُبُ منشور واطبعُ 100، مخططات، (ليونز)، د، (بيمبرتون)، اجتهادي، ومع ذلك فقير من خلال رالف، صاحبة المكان الذي أعمل فيه، شخصيتها، (وايغيت)، (ولكيس)، (سيبر)، مسرحيات، الكتب التي استعرتها، المبشرين الذين استمعتُ لهم، (ريدمين)، عند (واط)، الزهد، الشبح، التواصل مع والتأثير بين الرجال، تم إقناعي من قبل السيد (دنهام) كي أعود معه إلى (فيلادلفيا) وأكون كاتبه، رحلتنا ووصولنا، انصرافي للكتابة، إصابتي بالمرض، موته، وُجِدَ (د، آر، ) متزوجاً، ذهابي للعمل مجدداً مع (كيمر)، شروط، سوء معاملته لي، استيائي، مقولة (ديكاو)، أصدقائي في (بيرلنغتون)، موافقتي مع (أج، ميريديث) كي نؤسس لشراكة، عمل ذلك، نجاح الجمعية، صداقة (هاملتون)، تاريخ (سيويل)، صحيفة (الغازيته)، النقود الورقية، (ويب)، كتابة عن الأشخاص الفضوليين، (برايتنتال)، (غودفري)، شخصيته، دعوى ضدنا، عرض من أصدقائي (كولمان) و(غريس)، إكمال العمل وذهاب م، إلى (كارولينا)، منشور حول النقود الورقية، صحيفة (الغازيته)، منحة (جونتو): برنامجه، الزواج، مكتبة تُشَيَد، أساليب تولي المشروع، مشروعه ومنافعه، الأطفال، الألماناك، الفوائد التي جنيتها منها، الصناعة العظيمة، الدراسة المتواصلة، تلميحات أبي ونصائحه، عن الاجتهاد، الشراكة مع (كارولينا)، تعلُّمي للفرنسية والألمانية، رحلة إلى (بوسطن) بعد عشر سنوات، مودة أخي، وفاته، وتركه ولده في رعايتي، فن الفضيلة، حادثة، تحسين حراسة المدينة، دائرة البريد، (سبوتس

وود)، سلوك (برادفورد)، كاتب الجمعية، فقداني لأحد أبنائي، مشروع المرؤوس (جانتو)، الكتابة نادراً في الصحف، النجاح في العمل، شركات الحرائق، الماكنات، الذهاب مجدداً إلى (بوسطن) عام 1743، رؤية الدكتور (سبنس)، (وايت فيلد)، اتصالي به، كرمه معي، عودتي، اختلافات في الكنيسة، دوري فيها، اقتراح إنشاء كلية، لم يحاكم بعد ذلك، اقتراح بتأسيس جمعية فلسفية، الحرب، الكهرباء، معرفتي الأولى بها، شراكتي مع د، (هال)، إلخ، جدال في الجمعية حول الدفاع، خطتنا له، الحقيقة الواضحة، نجاحها، عشرة آلاف شخص انتفضوا وعوقبوا، اليانصيب، إنشاء سلاح المدفعية، نيوكاسل، تأثيري على المجلس، ألوان، معدات وشعارات، الحراسة العسكرية للسيدات، أبناء طائفة الكويكرز اختيروا من قبل المجلس العمومي، ترشيح لجنة السلام، (لوغان) معجب بي، مكتبته، مدير مكتب البريد العام المنتخب، عضو الجمعية المنتخب، إرسال مفوض للتعامل مع الهنود في (كارليزل) و (إيستون)، خطة إنشاء أكاديمية، منشور حول ذلك، رحلة إلى بوسطن، في (ألباني)، خطة اتحاد المستعمرات، نسخة منه، ملاحظات عنه، فشله وسبب الفشل، رحلة إلى (بوسطن) عام 1754، نزاعات حوله في جمعيتنا، دوري فيها، المحافظ الجديد، نزاعات معي، شخصيته، وأقواله لي، عضو المجلس المحلي المنتخب، مشروع مستشفى، دوري فيه، الصناديق، نجاحها، مفوض وزارة المالية، مهمتي في الدفاع عن المقاطعات الحدودية، جمع الرجال وبناء الحصون، قانون الميليشيات بصيغتي الخاصة، صناعة العقيد، عرض عسكري لضباطي، غضب واستياء تجاه الملكية، مناصرة سفراء بوسطن، رحلة مع (شيرلي)، إلخ، اجتماع مع (برادوك)، مناصرته، إلى ضباط جيشه،

تزويده بعلف الماشية، تنازلاته لي وسلوكي تجاهه، نجاح تجاربي في الكهرباء، ميدالية أرسلت إلي، الجمعية الملكية الحالية وخطاب الرئيس، وصول (دنيس) وتودده لي، شخصيته، خدمتي للجيش فيما يخص قضية المأوى، نزاعات مستمرة بسبب ضريبة الملكية، مشروع لتعبيد المدينة، إيفادي إلى (إنكلترا)، مفاوضات هناك، يجب تدمير (كندا)، منشوري، تسلمه وتأثيره، خطة رسمت من قبلي بشأن الغزو، اطلاعات قمت بها وفائدتها لي ـ السيدة (أس، أم سمول)، السيد (جون بي، )، السيد (وود)، السرجنت (شتراهان)، وآخرين، شخصياتهم، دكتوراه من (أدنبرة)، (سانت أندروز)، دكتوراه من (أكسفورد)، رحلة إلى (اسكتلندا)، اللورد (ليسستر)، السيد (برات)، (دي غراي)، (جاكسون)، الظروف الراهنة في (إنكلترا)، تأجيل، رحلة زاخرة بالأحداث إلى (هولندا) وبلاد (الفلاندرز)، قوة عسكرية من (ماريلاند)، لقاء الابن، عودتي، السماح والشكر، رحلة إلى (بوسطن)، المحافظ (جون بن)، تواصلي معه، (باكستون) يرتكب جريمة قتل، منشوري، مثيرو الشغب يتقدمون نحو (فيلادلفيا)، المحافظ يعتزل في بيتي، شني حملة، إرسالي إلى المتمردين، إعادتهم، تشكرات صغيرة، نزاعات تتجدد، قرارات ضد المواصلة تحت ظل الحكومة الملكية، منشور آخر، تفكير هادئ، إيفادي مرة أخرى إلى (إنكلترا) مع التماس، مفاوضات هناك، اللورد (أج)، شخصيته، قوات من (نيوجرسي)، (جورجيا)، (ماساتشوسست)، رحلة إلى (ألمانيا)، 1766، تم استقبالي بكياسة هناك، ملاحظاتي حول (غوتنجن)، الشيء نفسه حصل في (فرنسا) في 1767، وكذلك في 1769، حفلة هناك في الأكاديمية، تم تقديمي إلى الملك وزوجته، وإلى الآنسة (فكتوريا) والسيدة (لا ماغنون)

وإلى دوق (شولن)، (م، بومون)، (لاروي)، (داليبارد)، (نول)، البحث في المجلات، (هواندا)، إعادة طبع مقالاتي وإضافة المزيد، كتب أهديت إلي من قبل العديد من الكتاب، كتابي ترجم إلى الفرنسية، طائرة البرق، اكتشافات مختلفة، طريقتي بتتبع تلك الدراسة، ملك الدانمارك يدعوني للعشاء، تذكري لقول مأثور لأبي، قانون مميز، معارضتي له، توصية ل (جي، هوجز)، تنقيحها، استجواب في البرلمان، السمعة التي حظيتُ بها بسببها، استلطافي من قبل أعضاء الوزارة، مرسوم (تشارلز تاونسند)، معارضتي له، المواقد ولوحات المداخن، الهارمونيكا، معرفتي بالسفراء، إنذار روسي، الكتابة في الصحف، عدسات من (ألمانيا)، منح قطعة أرض في (نوفوشكوسا)، الأمراض، رسائل إلى (أميركا) تعود هنا، النتائج، مكتب التأمين، أسلوبي، لا يكلفني شيئاً أن أكون لطيفاً مع مرؤوسيي ومن الجيد أن أكون مطيعاً للرؤساء، إلخ، إلخ، مهزلة الاقتراح الدائم، رسالة إلى جمعية (جرسي)، رسائل (هاتشنسون)، المحفل الماسوني، دعوى في دائرة القضاء، تعسف أمام مجلس الملكة الخاص، شخصية اللورد (هلسبورو) وسيرته، لورد (دارتموث)، مفاوضات لمنع الحرب، العودة إلى (أميركا)، مؤتمر أسقف (سانت آساف)، الجمعية، لجنة الأمن، إفريز الخيول، إيفادي إلى (بوسطن)، في المخيم، إلى كندا، إلى اللورد (هوو)، إلى فرنسا، المعاهدة، إلخ.

## توايفورد، عند أسقف سانت آساف عام 1771

ابني العزيز:

لطالما كنتُ أسعد بالحصول على أية حكاية عن أسلافنا. ربما تتذكر التحقيقات التي قمتُ بها بين من تبقى من أقاربنا عندما كنتَ معي في (إنكلترا)، والرحلة التي أخذتها على عاتقي لهذا الغرض. أتصور أنه ربما يكون من المناسب لك أن تعرف ظروف حياتي (والتي أنت لا زلتَ على عدم اطلاع بالكثير منها) وأن تتطلع إلى الاستمتاع بعطلة أمدها أسبوع متواصل في عزلتي الحالية في الريف، أجلس هنا لأكتبها لك، إضافةً لدوافع أخرى. كَوْني انبثقتُ من ظروف تتّسم بالفقر والالتباس في الأصل حيث ولدتُ وتربيتُ، إلى حالة من الثراء وبعض من الشهرة في هذا العالم، وكوني عشتُ مدة طويلة من الحياة بنصيب كبير من السعادة والموارد المالية التي نعمتُ بها والتي برحمة الله وفقتُ كثيراً، لذا ارتأيتُ بأنه قد يكون من ذريتي من يريد أن يعلم بشأنها علّهم يجدون فيها بعضاً من الأمور التي تناسب ظروفهم الخاصة وبذلك سيكون من المناسب أن يقتدوا بها. تلك السعادة، عندما أفكر بها، قد جعلتني أحياناً أقول بأنه لو كان الأمر بيدي لما مانعتُ من عيش الحياة نفسها مرة أخرى من بدايتها، وأعمل كما يعمل المحررون في الطبعة الثانية بتصحيحهم بعض أخطاء الطبعة الأولى. لذا (إضافةً إلى تصحيح الأخطاء) ربما

كنتُ سأغيّر بعض الصدف المشؤومة وأحداثها إلى أخرى أكثر إيجابية. لكن لكون ذلك مستحيلاً إلا أنه لا يزال علي أن أقبل بالعرض. ولأن الحياة هذه لن أعيشها سوى مرة واحدة لذا أقرب شيء يشبه العيش أكثر من مرة هو تذكر هذه الحياة وجعل هذه الذكرى متينة قدر الإمكان وذلك بتدوينها. وبموجب هذا أيضاً سوف أحثّ هذه الرغبة لدى كبار السن وبشكل طبيعي كي يتحدثوا عن أنفسهم وعن أعمالهم الماضية وسوف أحثهم لذلك بدون أن أكون مملًّا للآخرين والذين (بحكم سني) ربما سيشعرون بأنهم مجبرين على الاستماع إليّ لأن هذا ربما يُقرأ أو لا كما يرجو أي شخص ذلك. وفي النهاية ربما عليّ أن أعترف بذلك لأن إنكاري له لن يصدقه أحد وهو أني سأرضي غروري بشكل كبير. في الحَقيقة، نادراً ما سمعتُ أو رأيتُ الكلمات الاستهلالية «سأصرح وبلا غرور»، إلخ بدون أن يعقبها مباشرةً شيء تافه. أغلب الناس لا يحب الغرور في الآخرين، حتى وإن كانوا أنفسهم لديهم ذلك الشيء، لكنني أمنحه جانباً عادلاً حيثما أصادفه كوني مقتنعاً بأنه غالباً ما يكون مثمراً للخير لصاحبه وللآخرين الذين هم ضمن نطاق نشاطاته. ولذلك، وفي حالات كثيرة ليس بالشيء السيِّئ تماماً إذا ما شكر الإنسان الله على نعمة الغرور من بين كل نعم الحياة الأخرى. والآن وأنا أشكر الله، أرغب بكل تواضع في أن أعلن بأنني أعزو السعادة التي ذكرتُ لحياتي الماضية لعنايته الكريمة والتي قادتني إلى الموارد المالية التي استفدتُ منها. إن إيماني بذلك يحثني على أن آمل (على الرغم من أنه ليس علي أن أقدّر شيئاً) بأن تستمر نفس النعم ذاتها بأن تُغدَّقَ علي كاستمرارية لتلك السعادة، أو يعينني على تحمل هزيمة قاتلة، والتي ربما سأعانيها

كما عانى منها آخرون، إن مصدر سعادتي المستقبلية معلوم له والذي قدرته ترحمنا حتى في بَلايانا.

إن الملاحظات التي زودني بها أحد عمومتي (والذي يملك نفس القدر من الفضول لاستذكار حكايات العائلة) قد زودتني بعدة تفاصيل لها علاقة بأسلافنا، وقد علمتُ من تلك الملاحظات بأن العائلة قد عاشت في نفس القرية (إيكتون) في (نورث هامبشير) ولثلاثمائة عام على امتداد ثلاثين فدّاناً مُلكية خاصة من أعمال الحدادة والتي استمرّت في العائلة حتى وقته، وإن مدى معرفته ليست منذ الوقت الذي كان فيه اسم (فرانكلين) والذي كان من قبل اسماً لجماعة من الناس والذي اتُّخِذَ من قبلهم كلقب عندما بدأ الآخرون في أنحاء المملكة المتحدة باتّخاذهم ألقاباً. عادةً يوجَّه الابن الأكبر في العائلة لتلك الصنعة وهو عُرْف اتّبعه هو ووالدي بالنسبة لأبنائهم الكبار. عندما قمتُ بالتفتيش في سجلات (إيكتون) وجدتُ إحصائية بمواليدهم وزيجاتهم وبدفنهم رُجوعاً إلى عام (1555) فقط، أما قبلها فلا توجد سجلات محفوظة في الأبرشية بشأن ذلك. ومن خلال تلك السجلات فهمتُ بأنني الابن الأصغر للابن الأصغر لخمسة أجيال خلت. فجدّي لأبي (توماس) والذي ولد في (1598) عاش في (إيكتون) حتى أصبح مُسناً جداً على العمل عندما ذهب للعيش مع ابنه (جون) والذي كان يعمل صبّاغاً في (بانبوري) في (أكسفوردشاير) والذي معه أمضى والدي فترة تدريبه على المهنة. هناك توفّيَ جدي لأبي وتم دفنه. رأينا شاهد قبره في (1758). عاش ابنه الأكبر (توماس) في البيت في (إيكتون) وتركه هو والأرض لطفله الوحيد ـ فتاة ـ والتي مع زوجها الذي كان يعمل

صياداً للسمك من (ويلينغ بورو) باعتهم للسيد (أيستد) الذي يملك الآن مزرعة هناك.

كان لجدي أربعة أبناء نشؤوا وهم: (توماس)، (جون)، (بنيامين) و(يوشع). سأعطيك تقريراً عنهم لهذا الحد من وثائقي، وإذا لم تُفقَد هذه في غيابي فستجد من بينها الكثير من التفاصيل. كان (توماس) قد نشأ حداداً تحت إشراف والده، لكن لكونه ذكيًّا فقد تم تشجيعه على التعليم (كحال إخوتي جميعهم) من قبل المبجل (بالمر) ومن ثم من قبل رئيس تلك الأبرشية، وأهَّلَ نفسه للعمل ككاتب وأصبح رجلاً مهماً في المقاطعة، إذ كان المحرك الرئيسي لجميع المشاريع الحماسية العامة للمقاطعة أو لمدينة (هامبشير) ولقريته نفسها والتي يُعزى الكثير منها له والتي لفتت انتباه اللورد (هاليفاكس) الذي رعاه وعاضده. توفي (توماس) في (1702) في السادس من كانون الثاني، قبل أربع سنوات فقط من اليوم الذي ولدتُ فيه. إن القصة التي وصلتنا عن حياته وشخصيته على لسان بعض الناس المسنين في (إيكتون) على ما أذكر ستصيبك بالصدمة كشيء غير عادي لتشابهها لِما عرفتَهُ عني وستقول «هل مات في نفس اليوم، وسيعتقد المرء بأن هناك تناسخ أرواح»

أما (جون) فقد نشأ كصباغ ـ أعتقد للمنسوجات الصوفية، أما (بنيامين) فقد نشأ كصباغ للمنسوجات الحريرية وقضى فترة التدريب في (لندن). كان رجلاً عبقرياً، فأنا أتذكره جيداً لأنني عندما كنتُ صبياً أتى مباشرةً إلى والدي في (بوسطن) وعاش في المنزل معنا بضع سنوات. عاش لعمر طويل. يعيش حفيده (صاموئيل فرانكلين) الآن في بوسطن. خلّف وراءه مجلدين من الصفحات الرُّبعية، مخطوطة في الشعر من تأليفه، تألفت

من أجزاء صغيرة متفرقة معنونة لأصدقائه وأقاربه، من بينها ما أرسِلَ إليّ كنموذج. كان قد اخترع كتابة اختزالية خاصة به والتي علّمني إياها لكنني لم أستخدمها أبداً والتي نسيتُها الآن. تمّت تسميتي تيمناً بهذا العم لوجود عاطفة خاصة بينه وبين والدي. كان تقياً جداً ومواظباً على الاستماع لخطب أفضل الوعاظ والتي دَوّنها بكتابته الاختزالية والتي تجمّع لديه منها مجلدات كبيرة. كان أيضاً سياسياً، بل أكثر من سياسي ربما بسبب منزلته.

هناك في لندن وقع بين يديّ مؤخراً مجموعة كان قد نظمها وتشمل كل المنشورات الأساسية التي لها علاقة بالشأن العام من العام (1641) ولغاية (1717). العديد من هذه المجلدات مفقودة كما يظهر ذلك من خلال ترقيمها، لكن لا تزال باقية هنا ثمانية مجلدات على شكل أوراق مطوية، وأربعة وعشرون منها على شكل صفحات رُبعيّة[1] وصفحات ثُمانية[2]. هناك تاجر للكتب القديمة قد تعرّف إليهم وعرفني من خلال شرائي لهم فجلبهم لي. يبدو أن عمي قد تركهم هنا عندما ذهب إلى (أميركا) وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاماً خلت، كانت هناك العديد من ملاحظاته في الهوامش.

إن عائلتنا الغامضة تلك قد عاصرت بداية حركة الإصلاح الديني وبعدها البروتستانت خلال عهد الملكة (ماري) عندما كانوا أحياناً في خطر لتعصبهم ضد البابوية. كان لديهم إنجيل إنكليزي، ولغرض إخفائه والمحافظة عليه كان يتم تثبيته وهو مفتوح بشرائط تحت وداخل غطاء

---

(1) رُبعية: حجم صفحة كتاب تنتج من طي كل ورقة مطبوعة إلى أربع أوراق (ثماني صفحات). المترجمة

(2) ثُمانية: حجم صفحة كتاب تنتج من طي كل ورقة مطبوعة إلى ثماني أوراق (ست عشرة صفحة). المترجمة

كرسي بدون مساند، فعندما كان الجد الأكبر للجد الأكبر لجدي (لوالدي) يقرأه على عائلته كان يقوم بقلب الكرسي على ركبتيه ويقوم بتقليب الأوراق وهو تحت الأشرطة. كان أحد الأطفال يقف عند الباب كي يعطي إشارة إذا رأى (المباشر) قادماً، وهو ضابط لدى المحكمة الروحية، وفي هذه الحالة يُقلَب الكرسي ثانيةً على أقدامه فيبقى الإنجيل مختفياً تحته كما في المرة الأولى. إن هذه الحكاية التي لديّ هي من عمي (بنيامين). استمرت العائلة طوال فترة كنيسة (إنكلترا) وحتى نهاية عهد (تشارلز) الثاني عندما تم القبض على بعض الوزراء المنشقين وهم يعقدون اجتماعات عقائدية سرية وغير قانونية في (نورث هامبشير)، كان (بنيامين) و(يوشع) موالين لهم، وبهذه الطريقة قضوا معظم حياتهم: بينما ظلت بقية العائلة موالية لكنيسة الأسقف.

تزوج يوشع (أبي) وهو صغير ورحل هو وزوجته وثلاثة أطفال إلى (نيوإنغلاند) حوالي سنة (1682). كانت الاجتماعات السرية قد تم منعها بالقانون وأعيقت بشكل متكرر مما حدا ببعض الرجال الهامين من معارفه لأن يرحل إلى هذه البلاد وكان قد تم إقناعه بإلحاح كي يرافقهم إلى هناك حيث كانوا يتطلعون لممارسة نمط عقيدتهم بكل حرية. وهناك وُلِدَ له أربعة أطفال آخرين من نفس الزوجة، ومن الزوجة الثانية عشرة آخرين. من بين السبعة عشر طفلاً (والذين أتذكر منهم ثلاثة عشر كانوا يجلسون في وقت واحد على المائدة) الذين كبروا ليصبحوا رجالاً ونساءً وتزوجوا، كنتُ أنا الابن الأصغر والطفل الأصغر ـ عدا اثنين ـ وكنتُ قد ولدتُ في (بوسطن)، (نيوإنغلاند). كانت والدتي (الزوجة الثانية) (أبيا فولجير) ابنة (بيتر فولجير) أحد أوائل المستعمرين ل (نيوإنغلاند)، والذي تم

ذكره بشكل مشرف من قبل (كوتون ماذرز) في كتابه الذي تحدث عن تاريخ الكنيسة لتلك البلاد والذي عنوانه (ماغناليا كرستي أميريكانا) عندما وصفه ب (الإنكليزي المتعلم التقي) إذا كنتُ أذكر بشكل صحيح. سمعتُ بأنه قد كتب قطعاً نثرية عَرَضية صغيرة، لكن واحدة منهم فقط هي التي تمّت طباعتها والتي أراها الآن عدة سنين خلت. كانت قد كُتِبَتْ في عام (1675) على شكل مقطع شعري بسيط وغير متكلف بالنسبة لذلك الوقت وبالنسبة لأولئك الناس وكانت تخاطب المعنيين هناك في الحكومة في ذلك الوقت. كان موضوعها تحرير الضمير وكانت بالنيابة عن المعمدانيين وطائفة الكويكرز والمنتمين لطوائف أخرى والتي كانت تحت الاضطهاد، وتعزو الحروب الهندية والمحن الأخرى التي حلّت بالبلاد إلى ذلك الاضطهاد. ولأن العديد جداً من أحكام الله تعاقِب بشكل شنيع الغضب والاستياء، حثّ على رفض هذه القوانين الغير متسامحة. يبدو كل هذا بالنسبة لي وكأنه قد كُتِبَ بقدر كبير من الصراحة اللبقة وبحرية تليق بالرجال. إن الأسطر الختامية التي أتذكرها ـ بالرغم من أنني نسيتُ أول سطرين من المقطع الشعري ـ إلا أن مغزاها كان أن استهجانه نابع من نية حسنة، لذا رَغِبَ في أن يُعرَف بأنه هو كاتبها، يقول:

«كونك تصبح مدعىً عليه فأنا أكره ذلك من كل قلبي، من مدينة شيربرن حيث أسكن الآن فإني أضع إسمي هنا. بدون غضب، صديقك الحقيقي، بيتر فولجير» تم إرسال جميع إخوتي الأكبر سناً كمتدربين في مهن مختلفة، وتم إرسالي إلى مدرسة النحو[1] في سن الثامنة، كان

(1)مدرسة النحو: مدرسة ثانوية حكومية في بريطانيا يتم قبول التلاميذ فيها على أساس القابليات الفردية وأصبحت سنة 1965 جزءاً من النظام المدرسي العام. (المترجمة)

والدي ينوي أن يكرسني لخدمة الكنيسة (كوني عاشر أبنائه). كانت استعداداتي المبكرة لتعلم القراءة (والتي لا بد أنها كانت مبكرة جداً كوني لا أتذكر متى لم يكن باستطاعتي أن أقرأ) وكذلك آراء أصدقائه بأنني لا بد أنني سأصبح طالباً جيداً قد شجّعتْهُ لتحقيق غرضه. استحسن عمي والذي اسمه (بنيامين) أيضاً هذه الفكرة واقترحَ أن يسلمني كل مجلدات الخطب التي كتبها بطريقة الاختزال كإسناد ـ على ما أعتقد ـ أعتمد عليه إذا ما كنتُ أريد أن أفهم شخصيته. على كل حال، بقيتُ في مدرسة النحو ليس تماماً سنة واحدة مع أن في تلك الفترة تقدمتُ تدريجياً من المستوى المتوسط لتلك السنة الدراسية كي أصبح في الصدارة، وبعد ذلك انتقلتُ للصف الذي يليه وذلك كي أنتقل إلى الصف الثالث في نهاية السنة. لكن والدي في تلك الأثناء (من ناحية نفقات التعليم في الكلية، وكونه يملك عائلة كبيرة جداً لا يتمكن من الإنفاق عليها كما يجب وكذلك وسائل العيش الضئيلة التي يتمكن العديد جداً من المتعلمين الحصول عليها بعد ذلك) ـ كلها أسباب كشفها لأصدقائه وتحت مسامعي جعلَته يعدل عن رأيه، فأخرجني من مدرسة النحو وأرسلني لمدرسة تعلم الكتابة والحساب، كانت تُرعى من قبل رجل شهير في ذلك الحين وهو السيد (جورج براونيل)، كان ناجحاً في مهنته بشكل عام، وذلك بطرق لطيفة ومشجعة. اكتسبتُ تحت إشرافه القدرة على كتابة مقروءة بشكل سريع لكنني فشلتُ في علم الحساب ولم أتقدم فيه. في عمر العاشرة تم أخذي للبيت كي أساعد والدي بعمله والذي كان يتعلق بصناعة الشموع من الشحم الحيواني وصناعة الصابون بالغليان، وهي مهنة لم ينشأ عليها أبي لكنه اتخذها عند وصوله إلى

حجر واحد نحمله على طول الطريق، وقمنا ببناء رصيفنا البحري الصغير. في صباح اليوم التالي، تفاجأ العمال لفقدان الأحجار والتي وُجِدَتْ في رصيفنا، وتم التحقق بشأن مزيلي الأحجار، فتم اكتشافنا والشكوى ضدنا، تم عقاب العديد منا من قبل آبائنا. وعلى الرغم من ادعائي فائدة العمل إلا أن والدي أقنعني بأن لا شيء مفيد إذا لم يكن نزيهاً. أعتقدُ بأنك ستحب أن تعرف شيئاً ما عن شخصه وشخصيته. كان ذا بنية جسدية ممتازة، كان متوسط القامة، متناسقة وقوية جداً، كان ذكياً. بإمكانه أن يرسم بشكل جميل، كان ماهراً بعض الشيء في الموسيقى وكان لديه صوت صافي ومريح، لذا عندما عزف نغمات المزمور على كمانه وغنى معها ـ كما يفعل عادةً في المساء بعد أن ينتهي عمل اليوم ـ يصبح مقبولاً إلى أبعد حد أن تسمعه. كان لديه ذكاء تقني أيضاً وكان في بعض المناسبات بارعاً جداً باستخدام آلات لأصحاب المهن، لكن تميزه الكبير أرسى فهماً راسخاً وحكماً متيناً في أمور تعقلية في كل من الشؤون الخاصة والعامة. بالنسبة للأخيرة، في الحقيقة، لم يتوظف أبداً، وأبقتهُ ـ العائلة الكبيرة التي كان عليه أن يقوم بتربيتها إضافةً إلى ضيق أحواله ـ قريباً من مهنته. وأذكر جيداً بأنه كان يزوره باستمرار أناس مهمون يستشيرون رأيه في شأن من شؤون المدينة أو الكنيسة التي ينتمي لها وكانوا يحترمونه كثيراً لحكمه ومشورته وكان أيضاً يستشيره أناس خاصون بخصوص شؤونهم عندما تحصل أية مشكلة وكان دائماً ما يتم اختياره كحكم بين الأطراف المتنافسة. كان يحب أن يحظى على مائدته ـ كلما أمكنه ذلك ـ بصديق راشد أو جار كي يتحدث معه، ودائماً ما كان يحرص على أن يبدأ مواضيع ذكية أو مفيدة للحوار والتي تميل إلى شحذ فكر أبنائه. كان بتلك الطرق يلفت انتباهنا

لما هو صالح وعادل وحكيم في إدارة الحياة، ولم نهتم يوماً لما هو موجود من طعام على المائدة أو فيما إذا كان معداً جيداً أم لا أو في موسمه أم لا أو فيما إذا كان طعمه جيداً أم سيئاً، مناسب أو دون ذلك أو أشياء من هذا القبيل. هكذا نشأتُ بالتجاهل التام لهذه الأمور وهو أن أكون لامبالياً تماماً لما يُقَدَّم من طعام أمامي وكذلك غير مكترث به، وحتى هذا اليوم إذا ما سُئِلتُ بالكاد سأذكر ما تناولته على العشاء بعد عدة ساعات. كان هذا مريحاً بالنسبة لي أثناء الترحال حيث يكون رفاقي في السفر أحياناً غير سعداء جداً لحاجتهم لإشباع كافٍ لحاسة ذوقهم وشهيتهم المرهفة لأنه تمّت تربيتهم على ذلك.

بالنسبة لأمي فكان لديها طبع مماثل ممتاز: فقد قامت بإرضاع جميع أطفالها العشرة. لم أعرف يوماً فيما إذا كان أبي أو أمي قد مرضا يوماً سوى ممَّ ماتا، هو في التاسعة والثمانين وهي في الخامسة والثمانين من العمر ودُفنا سويةً في (بوسطن) حيث قمتُ منذ عدة سنوات بوضع قطعة من الرخام على قبرهما بهذا النقش:

يوشع فرانكلين

و

آبيا زوجته

يرقدان هنا

عاشا بحب معاً برباط الزوجية

خمسة وخمسين عاماً

بلا ملكية، أو أية وظيفة مربحة

بالعمل المخلص والمثابرة

وبرحمة الله

أعالوا عائلة كبيرة

بشكل رغيد،

وقاموا بتربية ثلاثة عشر طفلاً

وسبعة أحفاد

بشكل شريف.

من هذا المثل، أيها القارئ،

تشجع للاجتهاد في مهنتك،

ولا تثق بغير العناية الإلهية.

كان رجلاً ورعاً وحكيماً.

هي، امرأة حصيفة وفاضلة.

ابنهم الأصغر،

تقديراً لذكراهم،

يضع هذا الحجر

ي.ف. ولد 1655، توفي 1744 عن عمر 89

آ.ف. ولدت 1667، توفيت 1752 ـ ـ ـ 85

أدركُ من خلال انحرافي عن الموضوع بأنني تقدمتُ في السن، فقد اعتدتُ على أن أكتب بشكل نظامي أكثر. لكن المرء لا يرتدي ملابس وهو ذاهب برفقة خاصة كما يرتدي لحفلة عامة راقصة، فذلك ربما إهمال من جانبي. بالعودة إلى الموضوع: استمريتُ على هذا الحال بالعمل في مهنة أبي لمدة سنتين، أي، أصبحتُ بعمر الثانية عشرة. وكان أخي (جون) ـ الذي نشأ على هذه المهنة ـ قد ترك أبي، تزوج وبدأعملاً تجارياً لنفسه في (رودآيسلند)، من كل هذا يظهر وكأنني مقدر لي بأن أشغل هذا المكان وأن أصبح صانع شموع. لكن نفوري للمهنة يزداد، كانت لدى أبي مخاوف من أنه إذا لم يجد لي مهنة مناسبة أكثر فسأهرب إلى البحر كما فعل أخي (يوشع) مما سبب غضبه. لهذا السبب قام أحياناً بأخذي كي أتمشى معه وأرى النجارين والبنائين والخراطين والنحاسين، إلخ، وهم يعملون على أمل أن يلاحظ ميولي كي يسعى لترسيخها في مهنة معينة أو أخرى على البر. إن ذلك قد شكل لي منذ ذلك الحين سروراً كي أرى العمال المجدين وهم يحملون آلاتهم، وكان من المفيد بالنسبة لي أن أتعلم الكثير جداً من ذلك كي أكون قادراً على أداء مهمات صغيرة بنفسي في بيتنا عندما لا نتمكن من جلب العامل بسرعة، وأن أصنع آلات صغيرة لتجاربي عندما تكون النية لعمل تجربة جديدة قوية في فكري. في النهاية ثبت والدي على مهنة صانع السكاكين وكان في ذلك الوقت ابن عمي (بنيامين) وهو (صاموئيل) الذي نشأ على هذه المهنة في لندن قد أقام في (بوسطن) وأُرسلتُ كي أكون معه أحياناً حسب الرغبة. لكن اعتماده على البقشيش مني لم يُرضِ والدي، فتمت إعادتي للمنزل ثانيةً.

منذ الطفولة كنتُ مولعاً بالقراءة، وجميع النقود القليلة التي أحصل

عليها كانت تُنفَق في شراء الكتب. كنتُ مسروراً بكتاب (رحلة الحاج) وكانت مجموعتي الأولى لأعمال (جون بنيان) في أجزاء صغيرة متفرقة. بعد ذلك قمتُ ببيعها كي أتمكن من شراء المجموعة التاريخية ل (آر. برتون)، كانت من نمط مطبوعات (جابمان)[1] صغيرة ورخيصة، أربعين أو خمسين بمجموعها. كانت مكتبة والدي الصغيرة تتألف بشكل رئيسي من كتب عن الجدل اللاهوتي والذي كنتُ قد قرأتُ معظمه، ومنذ ذلك الحين ندمتُ على ذلك في وقت كنتُ فيه متعطشاً للعلم، لم تقع بين يدي الكتب المناسبة لأنه كنتُ قد قررتُ بأنه لا يجب علي أن أصبح قساً. وكان هناك كتاب (حياة بلوتارك) وكنتُ قد قرأتُهُ لأكثر من مرة ولا زلتُ أعتقد بأن الوقت الذي قضيتُهُ في قراءته كان ذا فائدة كبيرة. كان هناك أيضاً كتاب ل (دانيال ديفو) يدعى (مقالة في المشاريع) وآخر للدكتور (ماذرز) يدعى (مقالات لعمل الخير) والتي منحتني انعطافة في تفكيري والتي كان لها الأثر على بعض الأحداث المستقبلية الرئيسية في حياتي. إن ميلي هذا للكتب جعل والدي في نهاية المطاف أن يحسم الأمر بأن يجعلني عامل مطبعة، على الرغم من أن لديه ابناً واحداً مسبقاً (جيمس) في هذه المهنة. في عام 1717 عاد أخي (جيمس) من (إنكلترا) مع مكبس طابعة وكتابات أدبية كي يبدأ عمله الخاص في (بوسطن). أحببتُ ذلك كثيراً أكثر من مهنة أبي، لكن لا زلتُ أتوقُ إلى البحر. ولتحاشي التأثير المقلق لهكذا ميل كان أبي متعجلاً كي يُلحِقني بأخي. قاومتُ لبعض الوقت لكن في النهاية اقتنعتُ وقمتُ بتوقيع عقود العمل عندما كنتُ فقط في الثانية عشرة من

(1) مطبوعات جابمان: كتيبات رخيصة الثمن تُطبَع للطبقات الدنيا الذين لا يستطيعون تحمل تكاليف شراء الكتب. (المترجمة)

العمر. كان علي أن أعمل كمتدرب حتى أصبحتُ في الواحدة والعشرين من العمر عندها فقط أجيزت لي أجرة العامل الماهر خلال السنة الأخيرة. تمكنتُ خلال وقت قصير من أن أحقق مهارة عالية في العمل واصبحتُ مفيداً لأخي. الآن أصبحت لي حرية الوصول لأفضل الكتب. مكنتني معرفتي بممتهني بيع الكتب أحياناً من أن أستعير مجموعة صغيرة والتي أحرص على أن أعيدها بشكل سريع وهي نظيفة، وغالباً ما أجلس في غرفتي وأنا أقرأ خلال الجزء الأكبر من الليل عندما أستعير الكتاب في المساء كي أعيده سريعاً في الصباح خشية أن يُفقَد أو يُطلَب مني. وبعد فترة جذبتُ انتباه تاجر ذكي، السيد (ماثيو آدامز) والذي يملك مجموعة لطيفة من الكتب والذي اعتاد التردد على دار الطباعة الخاصة بنا ودعاني كي أزور مكتبته وأعارني بأدب كتباً كما أريد كي أقرأها. كنتُ وقتها قد أعجبتُ بالشعر وقمتُ بتأليف بعض المقاطع الشعرية وقد شجعني أخي على ذلك ظناً منه بأن بأمكانه أن يستثمرها، فكلفني بتأليف قصص شعبية عَرَضية، الأولى اسمها (مأساة الفنار) وتضمنت وصفاً لغرق الكابتن (وورذيليك) مع ابنتيه، الأخرى كانت أغنية لبحّار وهو يهزم القرصان ذا اللحية السوداء. كانتا من النوع الرديء على نمط قصص شارع (كراب)[1]، وعندما طُبِعَت أرسلني على مقربة من المدينة كي أبيعهم. بيعت الأولى بشكل رائع وأحدث الأمر ضجة كبيرة كون الحدث لا يزال جديداً وهذا قد أطرى غروري. لكن والدي قد سخر من إنجازي وأخبرني بأن الشعراء كانوا

(1) شارع كراب: هو شارع كان متواجداً على أطراف لندن كان يقطن فيه كتّاب وشعراء مغمورون، وأطلِق على كل ما ينتج من أدب رخيص بأدب أو نمط شارع كراب. تم تغيير اسم الشارع إلى شارع ملتون. (المترجمة)

عموماً شحاذين وهكذا تركتُ فكرة أن أصبح شاعراً أو بالأحرى شاعراً رديئاً جداً، لكن ككاتب نثر قد نفعني كثيراً في حياتي وكان وسيلة أساسية لتقدمي. سأخبرك كيف ـ في موقف كهذا ـ اكتسبتُ القدرة المتواضعة التي لدي بهذه الطريقة.

كان هناك فتًى آخر محب للكتب في المدينة (جون كولينز) بالاسم، كانت معرفتي به وثيقة، كنا أحياناً نتنازع وكنا مولعين جداً بالجدال ومتلهفين بإفحام أحدنا للآخر. وبالمناسبة، كانت النوبات الجدالية تلك على وشك أن تصبح عادة سيئة جداً جاعلةً الناس متنافرين بالجماعات بشكل شديد غالباً بالتناقض الذي من الضروري أن نحوله إلى تطبيق عملي ولهذا السبب فإلى جانب أنه يثير ويفسد المحادثة فهو مولد للاشمئزاز والعداوات في مناسبات بإمكانك من خلالها أن تقوم بتكوين صداقات بها. فهمتُ ذلك من خلال قراءتي لكتب والدي عن النزاع حول العقائد، فالأشخاص ذوو الإدراك الجيد ـ كما لاحظتُ وقتها ـ نادراً ما يقعون فيه ما عدا المحامين وأساتذة الجامعة والرجال من كل صنف الذين نشأوا في (أدنبرة). أثير في إحدى المرات سؤالٌ ما بطريقة أو بأخرى بين (كولينز) وبيني حول ضوابط تعليم الجنس الأنثوي وقدراتهن على التعليم. كان رأيه أن ذلك غير سليم وذلك لأنهن بطبيعتهن غير قادرات عليه. بالنسبة لي فقد اتخذتُ الاتجاه المعاكس، ربما لأجل الجدال قليلاً. كان فصيحاً أكثر بشكل طبيعي، يمتلك الكثير من الكلمات الجاهزة، وأحياناً (باعتقادي) يهزمني بفصاحته أكثر من قوة حججه. وعندما نفترق ولم نحسم الموضوع وعندما لن يرى أحدنا الآخر ثانيةً لبعض الوقت أجلس لأقوم بتدوين براهيني كتابةً والتي أقوم بنسخها بشكل جميل وأرسلها له. هو يجيب وأنا

أرد. كان قد تم تبادل ثلاث أو أربع رسائل من كل جانب عندما حدث وأن اكتشف أبي أوراقي وقام بقراءتها. وبدون أن يدخل في النقاش استغل الفرصة كي يتحدث معي بشأن طريقة كتابتي، ملاحظاً بأنه على الرغم من امتلاكي لميزة خصمي من ناحية التهجئة الصحيحة والتنقيط (والتي أعزوها الى دار الطباعة) إلا أنني قصّرتُ كثيراً جداً من ناحية كياسة التعبير وفي الأسلوب والوضوح والذي أقنعني به بعدة مناسبات. رأيتُ استقامة ملاحظاته وبذلك أصبحتُ أكثر اهتماماً بالأسلوب في الكتابة وقررتُ أن أسعى لتحسين ذلك. في ذلك الوقت عثرتُ على عدد غريب من مجلة (السباكتاتور)، كان العدد الثالث. لم أرَ أبداً أي عدد من قبل، فقمتُ بشرائه وقراءته مرة تلو الأخرى، وقد أسعدتني كثيراً. رأيتُ بأن الأسلوب الأدبي كان ممتازاً وتمنيتُ ـ إن أمكن ـ أن أقوم بتقليده. وبهذه الفكرة أخذتُ بضعة أوراق وعملتُ ملاحظات قصيرة عن رأيي بكل جملة وألقيتُها جانباً لبضعة أيام، وبعد ذلك، وبدون أن أنظر للجملة، حاولتُ أن أكمل الأوراق ثانيةً، بالتعبير عن كل جملة مشار إليها بكاملها، تماماً كما تم التعبير عنها مسبقاً، بأي كلمات مناسبة متوافرة. بعد ذلك قمتُ بمقارنة (السباكتاتور) الخاصة بي مع الأصلية، اكتشفتُ بعضاً من أخطائي وقمتُ بتصحيحها. لكنني اكتشفتُ بأنني أرغب بمخزون من الكلمات، أو سهولة إعادة تجميعها واستخدامها والتي اعتقدتُ بأنه يجب عليّ أن أحصل عليها قبل ذلك الوقت إذا كنتُ أريد الاستمرار بكتابة القصائد، لأن السياق المتتابع للكلمات (ذات المعاني المتشابهة والأطوال المختلفة كي تناسب الإيقاع)، أو للكلمات ذات الصوت المختلف لأجل الإيقاع، كان قد وضعني تحت ضرورة ملحة للبحث عن التنوع وكذلك نويتُ أن أحتفظ

بذلك التنوع في فكري، وأن أتحكم به. لذا أخذتُ بعض الحكايات وقمتُ بتحويلها إلى قصائد كي أستعيدها ثانيةً بعد مدة عندما أنسى تماماً الشكل النثري لها وكذلك أقوم أحياناً بخلط مجموعاتي من الملاحظات إلى درجة التشويش وبعد عدة أسابيع أحاول أن أختصرها بأفضل تسلسل قبل أن أبدأ بصياغة الجمل الكاملة وأكملُ المقالة. ذلك كي أعلّم نفسي طريقة ترتيب الأفكار. وبمقارنة عملي بعدئذٍ مع النسخة الأصلية اكتشفتُ العديد من الأخطاء وقمتُ بتعديلها، وأحياناً أكون مسروراً بوَلَعي بذلك. كنتُ في تفاصيل معينة قليلة الأهمية محظوظاً كفاية كي أقوم بتحسين الأسلوب أو اللغة، وهذا شجعني على أن أعتقد بأنه بإمكاني مع الوقت أن أصبح كاتب إنكليزي مقبول وهو ما أطمح إليه بشدة. كان الوقت الذي أقوم به بهذه التمارين والقراءة في الليل بعد العمل أو قبل أن يبدأ في الصباح أو في أيام الآحاد عندما أجد وسيلة أتواجد بها في دار الطباعة محاولاً أن أتفادى قدر الإمكان أماكن العبادة العامة والتي اعتاد أبي أن يفرضها عليّ عندما كنتُ تحت كنفه، والتي في الحقيقة لا أزال أعتقد بأنها واجب على الرغم من عدم قدرتي على منح الوقت لها كي أمارسها ـ كما يبدو الأمر بالنسبة لي. حدث في سن السادسة عشرة أن عثرتُ على كتاب كتبه واحد ترايوني[1] ينصح بالريجيم النباتي. فقررتُ أن أمضي في الموضوع. كان أخي لم يكن متزوجاً وقتها ولم يكن لديه بيت وإنما عاش مع عماله مع عائلة أخرى يحصل على وجبات منتظمة من الطعام مقابل دفع مال أو أداء خدمات لتلك العائلة. إن رفضي لتناول اللحوم سبّب إزعاجاً، وكان غالباً ما يتم توبيخي كوني لا زلتُ عازباً. جعلتُ من نفسي خبيراً

(1) ترايوني: من مدينة ترايون. (المترجمة)

بأسلوب هذا الترايوني بإعداد بعض وجباته، كسلق البطاطا أو الأرز، عمل السجق السريع والقليل غيرها. ثم اقترحتُ على أخي: إذا منحني أسبوعياً نصف المبلغ الذي يدفعه مقابل تقديمي للطعام له فسأقوم بإعالة نفسي. فوافق على ذلك على الفور. واكتشفتُ بعد وقت قصير بأن بإمكاني أن أدّخر نصف ما دفعه لي. وكان ذلك مدخول إضافي لشراء الكتب. وكان لي غرض آخر في ذلك. فعندما يغادر أخي والبقية من دار الطباعة للتوجه نحو تناول وجباتهم، أبقى هناك بمفردي وأقوم في الحال بإعداد وجبتي الخفيفة والتي تكونت عادةً من قطعة من البسكويت أو شريحة من الخبز وحفنة من الزبيب أو كعكة الفواكه من محل الفطائر وقدح من الماء لا أكثر. أما بقية الوقت فأقضيه في الدراسة حتى عودتهم والتي أحرزتُ فيها تقدماً كبيراً بسبب ذلك الصفاء الواضح في التفكير والاستيعاب السريع والذي جاء من عنايتي بالاعتدال فيما آكل وما أشرب.

والآن لدي مشكلة، وهي كوني خجلان من جهلي بشأن الأرقام والتي بسببها فشلتُ مرتين في تعلمها في المدرسة. فأخذتُ كتاب (كروكر) في الرياضيات ودرستُ معظمه بمفردي بسهولة كبيرة. قرأتُ أيضاً كتب عن الملاحة ل (شيللر) و (شيرمي)، وأصبحتُ على معرفة بالقليل من الهندسة التي تتضمنها، لكنني لم أتقدم أكثر في هذا العلم. وقرأتُ في ذلك الوقت كتاب بعنوان (فهم الإنسان) ل (لوك)، (وفن التفكير) للسادة أعضاء مدرسة (بورت رويال)[1]. وعندما كنتُ أنوي تحسين لغتي عثرتُ على

---

(1)بورت رويال: مدرسة من مدارس علم النفس أسستها طائفة فرنسية في القرن 17 ميلادي، اهتمت بالجوانب التربوية والفكرية في السلوك الإنساني واستمرت قرابة ربع قرن ثم انقرضت. (المترجمة)

كتاب عن قواعد اللغة الإنكليزية (أعتقد كان لغرينوود) وكان في نهاية الكتاب مخططان صغيران لفن البلاغة والمنطق، والأخير ينتهي بنموذج للجدل على طريقة (سقراط). وبعد أن اشتريتُ مباشرةً كتاب (أمور جديرة بالذكر عن سقراط) ل(زينوفون) حيث تضمن العديد من النماذج عن نفس الأسلوب. كنتُ مأخوذاً به، فتبنيتُهُ، وأسقط تناقضاتي الحادة وحججي القاطعة وأسس للإنسان المتسائل والمشكك وأصبحتُ وقتها من قراءتي لكتب (شافتسبري) و(كولينز) أصبحتُ مشككاً حقيقياً لنقاط عديدة من مذاهبنا العقائدية، وجدتُ أن هذا الأسلوب موثوق أكثر بالنسبة لي ومحرجاً جداً بالنسبة لأولئك الذين استعملتُهُ ضدهم. لذا ابتهجتُ به وزاولتُهُ بشكل مستمر وأصبحتُ بارعاً جداً وخبيراً في لفت انتباه الناس (حتى أصحاب المعرفة العليا) لأمور مسلم بها، وتبعات لأمور لم يتوقعوا بأنها ستوقعهم في صعوبات لا يستطيعون أن يخلصوا أنفسهم منها، وبهذا أنال فوزاً لا تستحقه نفسي ولا قضيتي. استمريتُ على هذا الأسلوب بضعة سنوات لكنني تركته تدريجياً محتفظاً فقط بعادة التعبير عن نفسي بعبارات غير مؤكدة من دون أن أستخدم أبداً (عندما أذكر موضوعاً يسبب النزاع) الكلمات: بالتأكيد، بدون شك، أو أية كلمة أخرى تمنح صبغة التأكيد لرأيٍ ما، وبدلاً من ذلك أقول: أتصور أو أخشى أن يكون الأمر كذا وكذا، أو يظهر لي، أو أعتقد بأنه كذا أو كذا لكذا سبب وكذا سبب، أو أقول أتخيل أنه كذا وكذا أو أنه كذلك إذا لم أكن مخطئاً.

أعتقد بأن هذه العادة كانت مفيدة بشكل كبير لي عندما تسنح لي الفرصة كي أغرس أفكاري في الأذهان وأن أقنع الناس بمقاييس ملزم بأن أعززها. ولأن الغرض الرئيسي للمحادثة هو: أن توصل أنت فكرة ما أو

أن يتم إيصال فكرةٍ ما لك، أو أن تقوم بإسعاد أحد ما أو ترضيه، لذا أتمنى من الناس العقلاء السليمي النية أن لا يقللوا من شأن طاقتهم على فعل الخير بأسلوب الجازم المتغطرس الذي يسبب النفور ويميل لأن يخلق العداوات، وأن يحبطوا أي من هذه الأهداف التي لأجلها يُلقى الخطاب لنا، وأن ندرك منح أو تلقي المعلومة أو لأنك إذا اعتمدت الأسلوب الجازم والمتعصب في توصيل آرائك فسيولد ذلك الخلاف وستمنع الإصغاء الغير متحيز. وإذا رغبتَ في إحراز المعلومة والتقدم من معارف الآخرين وفي نفس الوقت أن تعبر عن نفسك كشخص ثابت في آرائه فلن يزعجك الناس العقلاء المتواضعين الذين لا يحبون الجدال وسيتركونك رهينة لأخطائك. بأسلوب كهذا سيكون من النادر أن تخسر مستمعيك أو أن تقنع أولئك الذين لديهم نفس رغبتك. قال (بوب)[1] بحكمة: (يجب تعليم الناس وكأنّك لم تعلمهم من قبل، والأمور الغير معروفة بالنسبة لهم افترضْ بأنها أمور قد نسوها).

ويوصينا إضافة لذلك: (إذا رغبتَ بالتحدث ـ حتى وإن كنت متيقناً ـ تحدث بعدم تيقن ظاهر).

ربما يكون قد قرن (بشكل غير صحيح) السطر السابق مع السطر التالي:

(لأن قلة التواضع هو نقصان في البصيرة).

قد تسأل لماذا غير صحيح؟ عليّ أن أعيد السطرين:

(1) بوب: هو الشاعر الإنكليزي ألكسندر بوب من شعراء القرن 18. (المترجمة)

(الكلام الغير متواضع يُسَلّم به بلا مقاومة، لأن قلة التواضع هو نقصان في البصيرة).

والآن، أليس نقصان البصيرة (حيث يكون الإنسان تعيساً إذا افتقدها) هو نوعاً ما تبرير لحاجته للتواضع؟. ألن تُفهَم السطور بشكل أفضل إذا ما أصبحت بهذا الشكل؟

(الكلام الغير متواضع لا يقبل سوى التسليم به، إنّ قلة التواضع هو نقصان في البصيرة).

على الرغم من هذا، عليّ أن أخضع لاجتهادات أخرى.

بدأ أخي في عام 1720 أو 1721 بطباعة صحيفة. كانت الثانية من نوعها والتي ظهرت في أميركا وسميت (مجرى الحياة في نيوإنغلاند). كانت الصحيفة الوحيدة التي قبلها هي (نشرة بوسطن الإخبارية). أتذكر أصدقاءه وهم يحاولون جعله يعدل عن الشروع بالأمر لأنه ليس من المحتمل أن تنجح، فجريدة واحدة (حسب رأيهم) كافية لأميركا. في الوقت الحاضر (أي 1771) هناك لا يقل عن خمس وعشرين صحيفة. رغم ذلك فقد شرع بالأمر، وبعد أن عمل على تركيب الأحرف الطباعية وطبعَ الصحف تم الاعتماد عليّ كي أحمل الصحف خلال الشوارع إلى الزبائن. كان لديه من بين أصدقائه بعض الرجال الأذكياء الذين يسلّون أنفسهم بكتابة بعض المقطوعات لصحيفته والتي أكسبتها سمعة وجعلت الطلب عليها يزداد، وكان هؤلاء السادة دائماً ما يقومون بزيارتنا. وبسماعي لمحادثاتهم وقصصهم عن الاستحسان الذي لاقته مقالاتهم، تحمستُ لأن أحاول أن أفعل شيئاً جديداً بينهم. لكن كوني لا أزال صبياً، وظنّي أن أخي سيمانع

من طبع أي شيء يعود لي في صحيفته إذا علم بأن ذلك يعود لي حاولت أن أقوم بتغيير خطي وكتبتُ مقالة مجهولة الاسم ووضعتُها في الليل تحت باب دار الطباعة. تم العثور عليها في الصباح ووصلتْ لأصدقائه الكُتّاب عندما تم استدعاؤهم كالعادة. فقرأوها وعلقوا عليها تحت مسامعي وتملكني سرور شديد لأنها لاقت استحسانهم وبأنه بتخميناتهم المختلفة عن الكاتب لم يعطوا اسماً سوى لأناس مشهورين بيننا بعلمهم وذكائهم. في الواقع أعتقد الآن بأنني محظوظ بقضاتي وذلك ربما لأنهم لم يكونوا جيدين تماماً كما حسبتهم آنذاك. على أية حال، فقد تشجعتُ نتيجةً لذلك وكتبتُ وأوصلتُ إلى المطبعة بنفس الطريقة عدة مقالات أخرى والتي لاقت استحساناً مماثلاً. واحتفظتُ بسرّي حتى استُنفذ تماماً المخزون الصغير للأحاسيس لإنجازات كهذه. وبعدها قمتُ بالكشف عن الأمر، عندما بدأ معارف أخي باحترامي أكثر قليلاً بطريقة لم تسرّه بالمرة، ربما بسبب أنها كادت أن تجعلني مغروراً جداً (كما اعتقدَ هو). وهذا كان واحداً من أسباب الخلافات التي بدأت تحدث لنا في ذلك الوقت. على الرغم من أنه أخي إلا أنه اعتبر نفسه سيداً عليّ وأنا عامل عنده وعلى ذلك توقع مني نفس الخدمات التي كان سينتظرها من شخص آخر، بينما هو قد قام بإذلالي كثيراً جداً بما كان يريده مني، بينما أنا كأخ توقعتُ منه تسامحاً أكثر. كانت دائماً ما تنشأ خلافاتنا أمام والدنا وكنتُ أتخيل بأنني عادةً على حق أو مترافع أفضل لأن الحكم كان عادةً لصالحي. لكن أخي كان سريع الانفعال وكان عادةً ما يضربني، وفهمتُ خطأً إلى حد بعيد وتصورت أن فترة تدريبي كانت مملة وكنت أتمنى بشكل مستمر أن أجد فرصة لتقليل

مدتها والذي في النهاية تحقق لي ذلك وبطريقة غير متوقعة[1]. كانت تتحدث أحد المواضيع في صحيفتنا عن مسألة سياسية (والتي نسيتها الآن) أساءت لمجلس النواب، فتم اعتقاله وانتقاده بشدة وسُجن لمدة شهر بمذكرة مجلس العموم. أعتقد لأنه لم يكن قد اكتشف كاتبه. وتم اعتقالي أنا أيضاً وتم استجوابي من قبل المجلس، لكن على الرغم من أنني لم أمنحهم انطباعاً جيداً عني إلا أنهم اكتفوا بمعاتبتي وصرفوني ربما لأنهم اعتبروني كمتدرب عنده وملزماً بأن يحافظ على أسرار سيده.

خلال فترة حبس أخي والتي استأتُ منها بشدة، وبالرغم من خلافاتنا الخاصة قمتُ بإدارة الصحيفة، وتجرأتُ وقمتُ بنقد لاذع لحكامنا بسبب ذلك الأمر والذي استحسنه أخي بلطف بينما بدأ الآخرون بالنظر إليّ كشخص سيّئ، شاب عبقري له دور بالتشهير. تم إرفاق تهمة أخي بأمر من قبل المجلس (غريب جداً) وهو «لا يجب على جيمس فرانكلين من الآن فصاعداً بطباعة الصحيفة المسماة (مجرى الحياة في نيوإنغلاند). كانت هناك مشاورة عقدت في دار الطباعة الخاصة بنا بين أصدقائه بخصوص ماذا يجب عليه أن يفعل في هذه الحالة؟ اقترح البعض أن يزوغ من الأمر بتغيير إسم الصحيفة، لكن أخي كان يرى المضايقات في ذلك. في النهاية تم التوصل إلى قرار كحل أفضل وهو أن يتم طباعة الصحيفة في المستقبل تحت اسم (بنيامين فرانكلين) ولتفادي سخط مجلس العموم الذي من الممكن أن يقع عليه فيما إذا استمر بطبع الصحيفة من قبل صانعه، كانت الوسيلة هي أن يعيد إليّ عقد العمل القديم مع براءة ذمة كاملة على ظهره

(1) أظن بأن معاملته القاسية والاستبدادية ربما كانت سبباً بأخذي انطباع نافر تجاه القوى الاستبدادية التي بقيت لصيقة بي خلال حياتي كلها.

كي يتم إظهارها عند الحاجة على أن يحصل هو على أرباح عملي. ووقعتُ عقود عمل جديدة لبقية المدة والتي يجب أن تبقى سرية. كان مشروعاً واهياً، ورغم ذلك فقد تم تنفيذه على الفور وعلى ذلك استمرت الصحيفة بالصدور تحت اسمي ولعدة أشهر.

في نهاية المطاف نشب خلاف جديد بين أخي وبيني. قمت بالدفاع عن حريتي بنفسي مستغلاً بأنه لن يغامر بتقديم العقود الجديدة. كان من الظلم (في داخلي) أن أنال تلك الأفضلية، وبهذا قمتُ بتصفية حساب أولى أخطاء حياتي المطبعية. لكن ذلك الظلم لم يعنِ لي الكثير تحت شعور الاستياء تجاه الضربات التي يمنحها لي والتي دائماً ما يبعث بها انفعاله رغم أنه لم يكن من ناحية أخرى رجلاً شرساً. ربما أنا كنتُ بذيئاً ومزعجاً. عندما اكتشف بأنني سأتركه حرص على أن لا أحصل على أية وظيفة في دار طباعة أخرى في المدينة بالذهاب إلى كل دار طباعة والتحدث مع مسؤوليها الذين بسبب ذلك رفضوا منحي عملاً. عندها فكرت بالذهاب إلى (نيويورك) كأقرب مكان فيه دار طباعة. في الواقع نزعتُ على مغادرة (بوسطن) عندما فكرتُ بأنني جعلتُ نفسي مسبقاً بغيضاً قليلاً لحزب الحكومة، ونتيجة للتبعات الاستبدادية للمجلس في قضية أخي فإنه من المحتمل إذا بقيتُ فإنني سأدخل نفسي مباشرةً في ورطات. وكذلك والدي. والدي الذي ـ نتيجة جدالاتي الغير حكيمة بخصوص الدين ـ بدأ يجعل الناس المؤمنين يشيرون إليّ برعب ككافر وملحد. كنتُ مصراً على الموضوع لكن والدي الآن يقف إلى جانب أخي فكان من المنطقي إذا حاولتُ أن أذهب علناً معناه بأنه سيمنعني. لذا قرر صديقي (كولينز) أن يتدبر الأمر قليلاً من أجلي. فاتفق مع قبطان مركبة شراعية ذاهبة إلى

(نيويورك) على سفري على اعتبار أنني أحد معارفه الشباب الذي جعل فتاة سيئة السلوك حاملاً ويجبرني أصدقاؤها على الزواج منها لذلك لا أستطيع أن أظهر أو أبتعد علناً.

وهكذا، قمتُ ببيع بعضاً من كتبي كي أجمع القليل من المال. وتم أخذي على سطح السفينة سراً. ولأن الرياح كانت لطيفة وجدتُ نفسي في (نيويورك) خلال ثلاثة أيام على بعد ثلاثمائة ميل عن البيت، صبياً في السابعة عشرة بدون أدنى توصية ولا أية معرفة بأي شخص في المكان مع القليل جداً من المال في جيبي. كانت ميولي تجاه البحر في ذلك الوقت قد تبددت وإلّا لكان بإمكاني الآن أن أستمتع بها، لكن كون لدي مهنة وأعتبر نفسي عاملاً جيداً جداً فقد عرضتُ خدماتي على عامل مطبعة في المكان، الشيخ السيد (وليام برادفورد) والذي كان أول طابعي في (بنسلفانيا) لكنه أزيح من هذا المكان عقب مشاجرة (جورج كيث) فلم يستطع أن يمنحني وظيفة ولم يكن لديه الكثير ليعمله من أجلي لكنه ساعدني بشكل كافٍ مسبقاً لكنه قال: «ابني في فيلادلفيا، مات عامله الرئيسي آكويلا روز مؤخراً، فإذا ذهبتَ إلى هناك أعتقد بأنه سيوظفك».

كانت (فيلادلفيا) أبعد عن هنا بمائة ميل. رغم ذلك، بدأتُ رحلة في قارب إلى (أمبوي) تاركاً أشيائي وصندوقي ترحل معي عبر البحر. صادفنا بعبورنا الخليج عاصفة فجائية مزقت شراعنا المنهك إلى قطع ومنعت دخولنا إلى (كيل) وساقتنا وراء (لونغ ايسلند). ونحن في طريقنا سقط رجل هولندي مسافر معنا ـ وكان مخموراً ـ من على متن السفينة. عندما كان يغرق وصلتُ عبر الماء إلى رأسه المصدوم وقمت بجره للأعلى كي ندخله ثانيةً. كان الغطس قد جعله يفيق قليلاً ثم راح في النوم مخرجاً في

البداية من جيبه كتاباً والذي أراد مني أن أجففه له. وتبين أنه كتابي المفضل الأول (رحلة الحاج) ل (بنيان) باللغة الهولندية مطبوع على نحو أنيق جداً على ورق جيد مع فواصل نحاسية ومزين بشكل أفضل مما رأيت بلغته الأصلية. وقد اكتشفتُ وقتها بأنه قد تُرجم إلى معظم اللغات الأوروبية. وأعتقد بأنه الكتاب الأكثر قراءة من أي كتاب آخر ما عدا الإنجيل ربما. كان (أونيست جون) أول من أعرفهم من الذين مزجوا بين السرد والحوار، وهي طريقة تجذب القارئ جداً والذي يجد نفسه في أكثر الأجزاء إثارة للاهتمام، إذا جاز التعبير، مواكباً وموجوداً عند الحوار. كان (ديفو) في قصصه (كروزو) و(مول فلاندرز) و(تود ديني) و(معلم العائلة) ونماذج أخرى، قد قام بتقليد ذلك بنجاح. وكذلك فعل (ريتشاردسون) في قصته (باميلا)، إلخ.

عندما تقدمنا تدريجياً بالقرب من الجزيرة وجدنا بأن مكانها لا يسمح بالرسو كون هناك أمواج متكسرة هائلة على الشاطئ الصخري. لذلك أنزلنا مرساة وتأرجحنا باتجاه الضفة. نزل بعض الناس على حافة الماء ولوحوا لنا كما لوحنا لهم، لكن الرياح كانت عاتية جداً والأمواج المتكسرة عالية جداً بحيث لم نتمكن من سماع ولا فهم بعضنا البعض. كان هناك العديد من قوارب (الكَنوو)[1] على كل ساحل. وعملنا إيماءات عدة، ولوحنا لهم بأنه يجب عليهم أن يصلوا إلينا، لكنهم إما أنهم لم يفهمونا أو رأوا بأن ذلك ليس ممكناً عملياً لذلك ابتعدوا. والليل يقترب بسرعة ولم يكن لدينا حلاً غير الانتظار حتى تستكين الريح، وفي تلك الأثناء قرر الملاح وأنا أن ننام إذا استطعنا ذلك. وهكذا، احتشدنا في الكوّة مع الهولندي الذي كان

(1) الكَنوو: قارب صغير ضيق خفيف الوزن مدبب جداً في مقدمته ومؤخرته. (المترجمة)

لا يزال مبللاً والرذاذ يضرب مقدمة قاربنا ويتسرب نحونا بحيث أصبحنا بسرعة مبللين مثله تقريباً. رقدنا على هذه الحال طول الليل بارتياح قليل جداً. لكن الرياح سكنت في اليوم التالي وبذلنا قصارى جهدنا كي نصل إلى (أمبوي) قبل الليل بعد أن كنا ثلاثين ساعة على سطح الماء بدون مؤن ولا شراب سوى قنينة من شراب مسكر قذر والماء الذي أبحرنا فوقه والذي كان مالحاً. وجدتُ في المساء نفسي مصاباً بالحمى وذهبتُ للفراش، لكن كوني قد قرأتُ في مكانٍ ما بأن الماء البارد إذا شرب بكمية كبيرة، جيد للحمى. اتبعتُ الوصفة، وتعرقتُ كثيراً طوال الليل فغادرتني الحمى. وفي الصباح وأنا أجتاز العبّارة ـ أكملتُ رحلتي مشياً. مشيتُ خمسين ميلاً إلى (بيرلنغتون) حيث قيل لي بأنه يجب عليّ أن أجد قوارب تحملني بقية الطريق إلى (فيلادلفيا).أمطرتْ بشدة طوال اليوم. كنتُ مبللاً تماماً. وفي المساء تعبتُ كثيراً، لذا توقفتُ عند حانة بائسة حيث مكثتُ فيها طوال الليل. بدأتُ أتمنى لو أني لم أغادر البيت أبداً. وقد أصبحتُ أعطي انطباعاً بائساً أيضاً حيث اكتشفتُ من خلال الأسئلة التي يتم توجيهها إليّ بأنني مشتبه كوني خادم هارب ومعرض لخطر الاعتقال بهذه الشبهة. رغم ذلك واصلتُ الرحلة في اليوم التالي ووصلتُ في المساء إلى حانة ضمن ثمانية أو عشرة أميال من (بيرلنغتون)، أديرت من قبل شخص (د.براون). كان قد دخل في حديث معي عندما كنتُ أتناول وجبة طعام خفيفة، وعندما اكتشف بأني قرأتُ قليلاً، أصبح اجتماعي جداً وودود. استمرت معرفتنا طوال حياتنا. كان ـ كما تخيلت ـ طبيب متجول لأنه لم توجد مدينة في (إنكلترا) أو دولة في أوربا لم يعطِ تفصيلاً دقيقاً عنها. كان يملك بعض الرسائل وكان ذكياً، والكثير من صفات الغير مؤمن. وأخذ

على عاتقه بعد عدة سنوات وبطريقة شريرة أن يقلد بسخرية الإنجيل في قصيدة هزلية كما فعل (كوتون) بـ (فيرجيل). أرسى بهذه الوسائل للعديد من الحقائق بصورة سخيفة جداً، وربما يؤذي أصحاب العقول الضعيفة إذا نُشرتْ أعماله، لكنها لم تُنشَر. بتُّ في تلك الليلة في منزله، وفي الصباح التالي وصلتُ إلى (بيرلنغتون) لكني كأني أصبتُ بالحرج لاكتشافي أن القوارب النظامية قد رحلت قبل وصولي بقليل ولا يوجد غيرها متوقع أن ترحل قبل يوم الثلاثاء، وكان ذلك اليوم هو يوم السبت لذا عدت إلى امرأة عجوز في المدينة والتي اشتريتُ منها خبز الزنجبيل كي آكله وأنا في البحر، وطلبتُ منها النصح فدعتني كي أسكن في بيتها حتى يحين السفر عبر البحر. ولكوني متعباً بسبب سفري مشياً، قبلتُ الدعوة. كانت تدرك بأنني عامل مطبعة فودّت مني البقاء في تلك المدينة وأتابع عملي كونها جاهلة بالمال الضروري كي أبدأ منه. كانت مضيافة جداً. قدّمتْ لي عشاءً مكوناً من خد الثور مع قدر كبير من النيّة الحسنة، راضية بالمقابل فقط بوعاء من بيرة الشعير. اعتقدت نفسي محدد الحركة حتى يأتي يوم الثلاثاء. رغم ذلك، مرّ مركب وأنا أتمشى في المساء على جانب النهر، اكتشفتُ بأنه متجه إلى (فيلادلفيا) وفيه عدة أشخاص، فأخذوني معهم. ولأنه لم تكن هناك رياح، جذّفنا على طول الطريق. عند حوالي منتصف الليل ـ ونحن لم نرَ المدينة بعد ـ كان أحد المرافقين واثقاً بأنه لا بد من أننا اجتزناها وأنه يجب أن لا نجذف أكثر من ذلك. لم يعرف آخرون أين نحن، لذا أبحرنا تجاه الشاطئ ودخلنا خليجاً صغيراً ورسينا بالقرب من حاجز صغير أشعلنا بقضبانه ناراً لأن الليلة كانت باردة في تشرين الأول. وبقينا هناك حتى طلوع النهار. بعد ذلك عرف أحد الرفاق المكان بأنه (خليج كوبر)، أبعد

قليلاً عن (فيلادلفيا) والتي رأيناها حالما غادرنا الخليج، ووصلنا هناك حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً ورسونا عند رصيف ميناء (شارع السوق). كنتُ دقيقاً جداً في وصفي لتفاصيل رحلتي وسأكون كذلك عند دخولي أول مرة لتلك المدينة، وستقارن بنفسك بين بدايات غير واعدة كهذه، مع الشخصية التي صنعتُها هناك.

كنتُ في ملابس العمل، كانت أفضل ملابسي تسلك طريقاً غير مباشر عبر البحر. كنتُ متسخاً بسبب رحلتي، أكياسي كانت محشوة بالقمصان والجوارب، ولا أعرف شخصاً ولا أين أقوم بالبحث عن سكن. أصبتُ بالإعياء بسبب الرحلة، أنازع، وأريد أن أرتاح. كنتُ جائعاً جداً وكان كل رصيدي من العملات النقدية تألّف من دولار هولندي وتقريباً شلن نحاسي. كنتُ قد أعطيتُ الأخير لأصحاب القارب الذي سافرتُ فيه الذين رفضوه في البداية لأنني قمتُ بالتجذيف، لكنني أصرّيتُ على أخذهم له، فالإنسان يكون أحياناً كريم جداً عندما لا يملك سوى القليل من المال، أكثر كرماً مما لو كان يملك الكثير ربما مخافة أن يُعتقد بأنه لا يملك سوى القليل. ثمّ مشيتُ خارج الشارع محدقاً هنا وهناك إلى أن التقيتُ بالقرب من السوق صبياً بحوزته قطعة من الخبز. فسألتُه من أين حصل عليه، وتوجهتُ مباشرةً إلى الخباز الذي دلّني عليه، في (الشارع الثاني)، فسألتُ عن البسكويت قاصداً كالذي لدينا في (بوسطن)، لكن على ما يبدو لا يتم صنعه في (فيلادلفيا). ثم سألتُ عن الرغيف ذو الثلاثة قروش، وأخبروني بأنه ليس لديهم شيئاً كهذا. وهكذا عندما لم أفكر ولم أعلم بالاختلاف في العملات والتنزيلات الكبرى ولا بأسماء أنواع الخبز التي لديهم، عرضتُ عليه أن يمنحني أي نوع من الخبز ما يعادل ثلاثة قروش. وعلى ذلك

منحني ثلاثة أقراص خبز منتفخة كبيرة. كنتُ متفاجئاً بالكمية. مع ذلك أخذتُها، ولأنه ليس لدي مكاناً في جيوبي لها، مشيتُ مبتعداً وتحت كل ذراع قطعة خبز وأنا أقوم بأكل الأخرى. وهكذا ذهبتُ إلى نهاية (شارع السوق) حتى وصلتُ إلى (الشارع الرابع) ماراً عبر باب منزل السيد (ريد) ـ والد زوجتي المستقبلية ـ . عندما كانت عند الباب ورأتني، واعتقدتْ بأني بدوتُ (كما هو بالضبط) بهيئة الأخرق والمضحك. ثم استدرتُ ونزلتُ (شارع الكستناء) وجزء من (شارع الجوز) وأنا آكل قرص الخبز الخاص بي على طول الطريق. وباستدارتي وجدتُ نفسي ثانيةً عند رصيف ميناء (شارع السوق) بالقرب من القارب الذي وصلتُ به والذي توجهتُ إليه لأجل تيار هواء ماء النهر. وعندما شبعتُ بواحدة من أقراص الخبز الخاصة بي منحتُ القرصين الآخرين لامرأة وطفلها هبطوا النهر في القارب معنا، وكانوا ينتظرون كي يبتعدوا. وهكذا استرحتُ ومشيتُ ثانيةً نهاية الشارع والذي كان في ذلك الوقت مليئاً بأناس نظيفي الثياب والذين كانوا جميعهم يمشي في نفس الاتجاه. فانضممتُ إليهم، ونتيجة لذلك تم اقتيادي إلى دار الاجتماعات الكبرى لطائفة الكويكرز بالقرب من السوق. فجلستُ بينهم. وبعد أن جلتُ بنظري لبرهة وعدم سماعي لأي شيء مما قيل، ولكوني نعسان جداً بسبب الجهد واحتياجي للراحة في الليلة السابقة، رحتُ في النوم بسرعة واستمريتُ كذلك حتى انفضّ الاجتماع عندما قام شخص لطيف بما يكفي بإيقاظي. وبهذا كان هذا أول دار كنتُ فيه أو نمتُ فيه في (فيلادلفيا). وبانحداري ثانيةً تجاه النهر ومتفرساً في وجوه الناس، قابلتُ شاباً من الكويكرز والذي أحببتُ طلعته. دنوتُ منه طالباً لو يخبرني أين يمكن لإنسان غريب أن يجد مسكناً. أصبحنا عندها بالقرب من لافتة

(البحارة الثلاثة) فقال: «هنا مكان يرفه عن الغرباء لكنه ليس بيتاً حسن السمعة، وإذا كنتَ متعباً تعال معي فسأريك ما هو أفضل». فأخذني إلى حانة (كروكت بيليه) في (شارع الماء). حصلتُ هنا على عشاء، وعندما كنتُ أتناوله سُئلت عدة أسئلة خبيثة وكأنني بدوتُ مشتبهاً به كهارب (بسبب سني الصغير ومظهري). عاد النعاس إليّ بعد العشاء، وبعد أن أروني السرير استلقيتُ بدون أن أقوم بخلع ملابسي ونمتُ حتى السادسة مساءً تم استدعائي لتناول العشاء. فذهبتُ للسرير ثانيةً بشكل مبكر جداً ونمتُ بعمق حتى الصباح التالي. ثم تأنقتُ قدر ما أستطيع وذهبتُ إلى (آندرو برادفورد) صاحب المطبعة. وجدتُ في المحل الرجل العجوز، والده، الذي رأيته في (نيويورك) والذي وصل إلى (فيلادلفيا) قبلي لقيامه بالرحلة على ظهر الجواد. فقدمني إلى ابنه الذي استقبلني بتهذيب وقدّم لي إفطاراً. لكنه أخبرني بأنه لا يحتاج إلى عامل في الوقت الحاضر لأنه تم تزويده بعامل مؤخراً. لكن هناك دار طباعة أخرى في المدينة، تم إنشاؤها مؤخراً (كايمر) والذي قد يوظفني، وإذا لم يوظفني فعليه أن يستضيفني في بيته وأن يمنحني القليل من العمل أؤديه الآن ولاحقاً إلى أن يزداد العمل. قال الرجل العجوز بأنه سيذهب معي إلى صاحب المطبعة الجديد.

وعندما وجدناه قال (برادفورد): «يا جار، جلبتُ معي شاباً كي يراك بخصوص عملك.ربما تحتاج إلى شخص كهذا». قام بسؤالي عدة أسئلة ووضع بيدي عصا التنضيد كي يرى كيف أعمل، ثم قال بأنه سيوظفني حالاً على الرغم من أنه لا يوجد عنده عمل لي في الوقت الحاضر. وأخذ (برادفورد) على حدة ـ والذي لم يكن قد رآه من قبل، فقط على أنه من أبناء المدينة ولديه توصية جيدة له ـ ودخل معه في محادثة بخصوص مشروعه

الحالي وآفاقه. وبينما لم يكشف (برادفورد) على أنه والد صاحب المطبعة الآخر توقع أن يحظى سريعاً من حديث (كايمر) بأكبر قدر من المهنة بين يديه، فاستدرجه بأسئلة ماكرة مستهلاً بعدم معرفة، كي يكشف عن كل أهدافه، وأي الأسهم يعول عليها وبأي طريقة قرر أن يتابع العمل. أما أنا الذي وقف جانباً وسمع كل الحديث ـ فهمتُ فوراً بأن أحدهما كان عجوزاً مغالطاً ماكراً والآخر مجرد مبتدئ. تركني (برادفورد) مع (كايمر) الذي تفاجأ بشدة عندما أخبرتُه عمن يكون الرجل العجوز.

كانت دار طباعة (كايمر) ـ كما اكتشفتُ ـ تتألف من مكبس طابعة قديم ومحطم، وطقم واحد صغير مهترئ من الحروف الإنكليزية والذي كان وقتها يستعمله بنفسه كي ينضّد بها مرثية الشاعر (آكويلا روز) المذكور مسبقاً، شاب ذكي، ذو شخصية ممتازة، محترم جداً في المدينة، كاتب مجلس العموم وشاعر لطيف.

كان (كايمر) يؤلف قصائد أيضاً لكن بشكل لا مبالٍ جداً. لا نستطيع أن نقول بأنه يكتبها لأن أسلوبه كان أنه يقوم بتأليفها على الحروف المطبعية مباشرةً من رأسه. لذا لم توجد هناك نسخة سوى زوج من صندوق الأحرف، ونادراً ما تحتاج المرثية كل الأحرف، لم يستطع أحد مساعدته. سعيتُ لأن أقوم بتنظيم مطبعته (التي لم يستعملها أحد لحد الآن والتي لم يفهم منها شيئاً) كي تكون مناسبة للعمل عليها. ووعدتُهُ بأن آتي وأطبع مرثيته حالما تكون جاهزة. عدتُ إلى مطبعة (برادفورد) والذي منحني عملاً صغيراً كي أؤديه في الوقت الحاضر. وهناك سكنتُ وأكلت. بعد عدة أيام قلائل أرسل (كايمر) بطلبي كي أقوم بطباعة المرثية. كان في تلك اللحظة قد حصل على زوج آخر من صندوق الأحرف ومنشور كي

يعيد طباعته والذي جعلني لأجله أبدأ بالعمل. اكتشفتُ أن هذين الرجلين الطابعيين ليسا كفوءين تماماً في عملهما. فبالنسبة ل (برادفورد) لم يكن قد نشأ عليها وكان جاهلاً جداً. أما بالنسبة ل (كايمر) فعلى الرغم من تثقفه بعض الشيء، إلا أنه كان مجرد منضّد أحرف ولا يعلم شيئاً بشأن عمل المطبعة. كأنه واحد من الشعراء الفرنسيين الملهمين وقد تمكن من تقليد لوعاتهم الحارة. في تلك الأثناء، لم يعلن إيمانه بأية ديانة معينة بل شيء من كل شيء من حين لآخر. كان جاهلاً جداً بالعالم من حوله ويملك (كما اكتشفتُ بعد ذلك) قدر كبير من الخداع في أسلوب التأليف. لم يكن يحب سكني عند (برادفورد) عندما كنتُ أعمل معه (أي مع برادفورد). كان يملك منزلاً فعلاً لكن بدون أثاث. لذا لم يكن باستطاعه أن يسكنني عنده، لكنه تمكن من الحصول على سكن لي عند السيد (ريد) المذكور سابقاً والذي كان مالك منزله. في تلك الأثناء كان صندوقي وملابسي قد وصلوا.ظهرتُ بمظهر محترم أكثر نوعاً ما بعيون الآنسة (ريد)، مما كنتُ قد ظهرتُ عندما صادف ولأول مرة أن رأتني وأنا آكل قطعة الخبز الخاصة بي في الشارع. بدأتُ في تلك الأثناء أحظى ببعض المعارف بين شباب المدينة المحبين للقراءة والذين قضيت معهم أمسياتي بشكل مريح جداً وأكسب المال من صناعتي وتوفيري. عشتُ بطريقة مريحة جداً ناسياً (بوسطن) قدر استطاعتي وغير راغب بأي أحد هناك من أن يعلم أين أسكن عدا صديقي (كولينز) الذي كان يعلم بسري واحتفظ به عندما قمت بالكتابة له. في النهاية، حدث حادث أرسلني عائداً مرة ثانية وبشكل أسرع مما كنت قد نويت. كان لدي صهر (روبرت هولمز)، ربّان سفينة شراعية، وكان يتاجر بين (بوسطن) و(ديلاوير).كان في (نيوكاسل) على بعد

أربعين ميلاً جنوب (فيلادبفيا) قد سمع عني هناك وكتب إليّ رسالة يذكر فيها قلق أصدقائي في (بوسطن) بسبب رحيلي المفاجئ ومؤكّداً لي نيتهم الحسنة تجاهي وأن كل شيء سيتم تسويته حسب رغبتي إذا ما رجعت إلى حيث ينصحني بجدية جداً. قمتُ بكتابة رد على رسالته شاكراً له نصيحته، لكنني ذكرتُ وبطريقة لطيفة الأسباب التي دعتني إلى مغادرة (بوسطن) كلياً كي أقنعه بأنني لم أكن مخطئاً تماماً كما خشي هو.

كان السيد (وليام كايث) ـ حاكم المقاطعة ـ في (نيوكاسل) آنذاك. وصادف أن كان القبطان (هولمز) برفقته عندما تسلّم رسالتي، فحدثه عني وأراه الرسالة. فقرأها المحافظ وبدا متفاجئاً عندما تم إخباره بعمري. وقال بأنني أبدو شاباً ذا مواهب واعدة وأنه لذلك يجب أن يتم تشجيعي، وأن الطابعين في (فيلادلفيا) رديئان، وأنه إذا كنتُ قد أقمتُ هناك فإنه لن يشك بنجاحي، وأنه بسبب موهبتي كان سيجعلني أدير له الأعمال العامة وأن أنفذ له كل خدمة أخرى في استطاعتي. هذا ما أخبرني به صهري بعد ذلك في (بوسطن). لكنني لم أكن أعلم عن ذلك حتى الآن عندما ـ في أحد الأيام ـ كنا أنا و(كايمر) معاً في العمل بالقرب من النافذة عندما رأينا المحافظ ورجلاً محترماً آخر ـ والذي تبين أنه العقيد (فرينش) من (نيوكاسل) ـ ذا بدلة أنيقة، يأتيان مباشرةً عبر الشارع نحو منزلنا وسمعناهم عند الباب. نزل (كايمر) فوراً ظناً منه بأنها زيارة له. لكن المحافظ سأل عني. فصعد (كايمر) وقام بإطرائي بتواضع وأدب لم أكن معتاداً عليهما تماماً ورغب في أن يكون أحد معارفي ولامني بلطف لأنني لم أعرّفه بنفسي عندما أتيت للمكان لأول مرة، وأنه يودّ لو أن آتي معه للحانة حيث كان يذهب مع العقيد (فرينش) كي يتذوق كما قال بعضاً من نبيذ (ماديرا)

الممتاز. لم يكن اندهاشي قليلاً وقام (كايمر) بالتحديق كخنزير مسموم. رغم ذلك فقد ذهبتُ مع المحافظ والعقيد (فرينش) إلى حانة عند ركن (الشارع الثالث)، وأثناء شربنا لل(مادايرا) اقترح عليّ أن أقوم بتأسيس عملي الخاص، ووضعَ أمامي احتمالات النجاح وأكّد لي هو والعقيد (فرينش) أنه يجب عليّ أن أحظى باهتمامهما ونفوذهما في إدارة الأعمال العامة لكلتا الحكومتين. وفي خضم شكّي فيما إذا كان والدي سيقوم بمساعدتي بذلك، قال السيد (وليام) بأنه سيعطي رسالة له، وفيها سيعلن عن منافع ذلك وأنه لن يشك في إقناعه بعد إلحاح. لذا تم التوصل إلى أنه عليّ أن أعود إلى (بوسطن) في أول زورق مع رسالة المحافظ وهي تشفع لي عند والدي. في تلك الأثناء كانت النية يجب أن تبقى سراً، واستمريت بالعمل مع (كايمر) كالمعتاد. كان المحافظ يطلبني من حين إلى آخر كي أتعشى معه ـ فكرتُ بأنه شرف عظيم جداً ـ ويتحدث معي بأسلوب غاية في الدماثة والألفة والصداقة ممكن تخيّله. عند نهاية شهر نيسان تقريباً عام 1724 عرض زورق صغير الذهاب إلى (بوسطن). فأخذت إجازة من (كايمر) بحجة أن أرى أصدقائي. أعطاني المحافظ رسالة مسهبة يطريني فيها أمام أبي وينصح بشدة خطة إقامتي في (فيلادلفيا) كأمر يُكسبني ثروة. ارتطمنا بمياه ضحلة عند نزولنا الخليج وأحدث شقّاً. قضينا وقتاً عاصفاً في البحر واضطررنا أن نضخ الماء بشكل مستمر تقريباً حيث أخذتُ أنا دوري. رغم ذلك وصلنا سالمين إلى (بوسطن) في حوالي أسبوعين. كنتُ غائباً لسبعة أشهر ولم يسمع أصدقائي عني شيئاً لأن صهري (هولمز) لم يكن قد عاد بعد ولم يكتب لهم شيئاً عني. أدهش ظهوري المفاجئ العائلة. جميعهم كانوا سعداء جداً برؤيتي ورحبوا بي ما عدا

أخي. ذهبتُ لرؤيته في دار الطباعة الخاصة به. كنتُ متأنقاً أكثر مما كنتُ عندما كنتُ في خدمته. كنتُ مرتدياً بدلة جديدة وأنيقة من الرأس وحتى القدم، وساعة يد، وكانت جيوبي محشوة بخمسة جنيهات إسترلينية تقريباً من الفضة. في الواقع لم يستقبلني فقد نظر إليّ بسرعة وعاد إلى عمله ثانيةً. كان العمال المهرة فضوليين بشأن أين كنت، وأي نوع من البلاد كانت هي، وكيف أحببتُها. أثنيتُ عليها كثيراً وعلى الحياة السعيدة التي عشتها هناك معبراً عن قوة رغبتي بالعودة إليها. وكان أحدهم يسأل أي الأنواع من النقود لدينا هناك، فعرضتُ ملء يدي فضّة وألقيتُها أمامهم وكأنه نوع من عرض صندوق الدنيا لم يكونوا معتادين عليه، فالمال في (بوسطن) كان على شكل نقود ورقية. ثم بعد ذلك منحتهم فرصة كي يروا ساعة اليد الخاصة بي (كان أخي لا يزال متجهماً وحانقاً). وفي النهاية منحتهم دولار إسباني من أجل الشراب وغادرت. كانت زيارتي هذه قد أهانته بشدة لأن أمي عندما تحدثت معه بعد فترة بشأن المصالحة وبرغبتها أن ترانا معاً باتفاقيات جديدة وأن نعيش معاً كأخوة في المستقبل، قال بأنني قد قمتُ بإهانته بهذا الأسلوب أمام أصحابه بحيث لن ينسى أو يسامح على ذلك. فرغم ذلك في هذا كان مخطئاً.

تلقى والدي رسالة المحافظ بدهشة واضحة، لكن لم يتحدث بشأنها معي لأيام. وعندما عاد القبطان (هولمز) أراه الرسالة وسأله فيما إذا كان يعرف (كايث)، وأي صنف من الرجال هو، مضيفاً رأيه وهو أنه لا بد من أنه قليل التعقل كي يفكر بإشراك صبي في عمل. صبي لا يزال يلزمه ثلاث سنوات لأن يعمل صانعاً تحت إمرة رجلٍ ما. ذكر (هولمز) ما أمكنه في صالح المشروع، لكن أبي كان متأكداً بشأن عدم صحته. في النهاية أعطى

رفضاً صريحاً تجاهه. ثم قام بكتابة رسالة مهذبة إلى السيد (وليام) شاكراً له بلطف شديد رعايته الكريمة التي منحها لي، لكنه مع ذلك يرفض أن يساعدني بتأسيس العمل. كنتُ من رأيه أيضاً، صغير جداً كي نرتب لعمل مهم جداً والذي لا بد أن الاستعدادات له مكلفة جداً.

سُرَّ صديقي ورفيقي (كولينز) والذي كان كاتباً في دائرة البريد ـ بالوصف الذي أعطيتُه له لبلدي الجديدة، عازماً على أن يذهب إلى هناك أيضاً. وحينما كنت بانتظار قرار والدي غادر قبلي برّاً إلى (رود آيسلند) تاركاً كتبه والتي كانت مجموعة رائعة من الرياضيات والفلسفة الطبيعية كي تأتي معي إلى (نيويورك) حيث من المفترض أن ينتظرني. كان والدي ـ على الرغم من عدم موافقته على مقترح السيد (وليام) ـ إلا أنه كان مسروراً كوني تمكنتُ من إحراز صيت نافع جداً من قبل شخص ذي شهرة كتلك حيث كنت أقيم، وبأني أصبحت عاملاً مجتهداً وحريصاً جداً عندما كسوتُ نفسي بشكل رائع في وقت قصير جداً. وهكذا، بالنظر لعدم إمكانية التصالح بين أخي وبيني، منحني موافقته بعودتي إلى (فيلادلفيا) ثانيةً ونصحني أن أتصرف بشكل محترم تجاه الناس هناك وأن أسعى بالحصول على الاحترام العام وأن أتفادى السخرية والتشهير، الصفتان اللتان يعتقد بأنني ميّال اليهما، ناصحاً إيّاي بأنه بالمثابرة المستمرة والاقتصاد الحكيم سيصبح بإمكاني أن أدخر ما يكفي عندما أصبح في الواحد والعشرين من العمر مما سيساعدني على النهوض. وإذا اقتربتُ من تحقيق الأمر فهو سيساعدني في الباقي. هذا كل ما كان بإمكاني أن أحصل عليه (ماعدا بعض الهدايا الصغيرة كتذكارات حبه لأمي). ركبتُ متن السفينة متوجهاً ثانيةً إلى (نيويورك)، لكن هذه المرة باستحسانهما

وبركتهما. عندما دخل المركب الشراعي (نيوبورت، رود آيسلند) قمتُ بزيارة أخي (جون) الذي تزوج وأقام هناك بضع سنوات. استقبلني بحنان شديد لأنه كان دائماً يحبني. كان مديناً لأحد أصدقائه (واحد فيرنوني)[1] في (بنسلفانيا) ببعض المال، حوالي خمسة وثلاثين باونداً نقداً ورغب بأن أستلمها عنه وأن أحتفظ بها إلى أن أتلقى تعليمات منه بإرسالها إليه. وعلى ذلك منحني توصية. وسبّب ذلك لي بعدئذ تعاسة كبيرة. عند (نيوبورت) أخذنا معنا عدداً من المسافرين إلى (نيويورك)، كان من بينهم شابتان ومرافقان وامرأة من الكويكرز ـ رزينة عاقلة تشبه المديرة ـ مع خادمتيها. أبديتُ رغبة كريمة كي أؤدي لها بعض الخدمات والتي أثّرت بها على ما أتصور مع قدر من النية الطيبة تجاهي. لذا عندما رأت الألفة اليومية المتزايدة بيني وبين الشابتين والتي يبدو أنهما تشجعتا على ذلك ـ أخذتني جانبًا وقالت: «أيها الشاب أنا قلقة بشأنك لأنه ليس لديك صديق معك ويبدو أنك لا تعرف الكثير عن الحياة، أو بشأن الأفخاخ التي يتعرض لها الشباب. وعليه فهاتان المرأتان سيئتان جداً، أستطيع أن أرى ذلك في كل تصرفاتهما، وإذا لم تكن متيقظاً فستجرّانك إلى التهلكة. إنهما غريبتان عنك وأنصحك بشكل ودّي وبقلق على شأنك بأن لا تكون لك معرفة شخصية بهما». على الرغم من أنني تظاهرت في البداية أن لا أفكر بطريقة سيئة عنهما كما فعلت هي، إلا أنها قامت بذكر بعض الأمور التي لاحظتْها هي وسمعتْها هي والتي غابت عن ملاحظتي، لكن الآن أقنعتني بأنها كانت على حق. شكرتُها على نصيحتها اللطيفة ووعدتُّها بأن أتبعها. عندما وصلنا إلى (نيويورك) أخبرتاني بمحل سكنهما ودعتاني للمجيء

(1)فيرنوني: شخص من أهالي مقاطعة فيرنون. (المترجمة)

لرؤيتهما، لكنني تجنبتُ ذلك، وحسناً فعلتُ. لأن في اليوم التالي افتقد القبطان ملعقة فضيّة وبعض الأمور الأخرى التي تم أخذها من قمرته. ولأنه يعلم بأنهما زوج من المومسات، حصل على مذكرة بتفتيش سكنهم، ووجد البضائع المسروقة وعوقب اللصوص. وهكذا، على الرغم من أننا نجونا من صخرة غائرة والتي شققنا طريقنا بصعوبة فوقها في القناة، إلا أنني أعتقد أن هذه النجاة أهم بالنسبة لي. وجدتُ صديقي (كولينز) في (نيويورك) الذي وصل إلى هناك قبلي في يوم غير محدد. كنا قريبين من بعضنا البعض منذ كنا أطفالاً، قرأنا نفس الكتب سويةً لكن هو كان يستفيد من أكبر وقت للقراءة والدراسة، ولديه موهبة مذهلة لتعلم الرياضيات والتي تفوَّق بها عليّ. عندما عشتُ في (بوسطن) كانت أغلب ساعات فراغي أقضيها بالتحدث معه، وبقي ذلك الولد الرصين وكذلك المثابر. كان محترماً جداً من قبل العديد من رجال الدين والعديد من النبلاء بسبب علمه، وبدا واعداً بأن يصبح شخصية مهمة في الحياة. لكن خلال فترة غيابي اكتسب عادة السكر بمشروب (البراندي). واكتشفتُ من خلال قصته الخاصة ومن ما سمعتُهُ من الآخرين بأنه كان يثمل كل يوم منذ وصوله (نيويورك) ويتصرف بشكل غريب جداً. وكان يلعب القمار أيضاً وخسر نقوده بحيث اضطررتُ إلى تسديد نفقات إقامته وتحملتُ نفقاته إلى وفي (فيلادلفيا)، الأمر الذي بدا لي غير مريح بالمرّة.

سمع محافظ (نيويورك) ذلك الوقت (بيرنت) (ابن الأسقف بيرنت) من القبطان بأنه كان لدى أحد الشباب ـ أحد مسافريه ـ أعداد كبيرة من الكتب، رغب بأن يحضرني كي أراه. وعليه، انتظرتُه وكان عليّ أن آخذ (كولينز) معي لكنه لم يكن متزناً. عاملني المحافظ بأدب جمّ. أراني

مكتبته والتي كانت كبيرة وكان يملك قدراً كبيراً من الكلام عن الكتب والمؤلفين. كان هذا ثاني محافظ شرّفني بالاهتمام بي والتي كانت بالنسبة لصبي فقير مثلي أمراً ساراً. وصلنا إلى (فيلادلفيا)، واستلمتُ بطريقي أموال (الفيرنوني) والتي لم نكن لنستطيع أن نكمل رحلتنا بدونها.

رغب (كولينز) بأن يتوظف في مكتب محاسبة، لكن إذا اكتشفوا ثمالته من خلال رائحته أو من خلال سلوكه على الرغم من امتلاكه بعض التوصيات فلن يلاقي نجاح في أي وظيفة. واستمر معي بالسكن وتناول الطعام في نفس المنزل وعلى نفقتي. كان على علم بأني أمتلك أموال (الفيرنوني)، كان يقترض مني باستمرار ولا يزال يعدني بالتسديد حالما يحصل على عمل. في النهاية، حاز على الكثير منها لدرجة أني تكدرت أن أفكر بما عليّ فعله في حالة إذا ما تم الاتصال به لاستردادها. استمر تناوله للشراب والذي كنا نتشاجر بسببه أحياناً لأنه عندما يثمل قليلاً يصبح شكساً جداً. في إحدى المرات ونحن في طريقنا إلى (ديلاوير) بالقارب مع بعض شباب آخرين رفض أن يجذف عندما جاء دوره في التجذيف، فقال: «سأجذف نحو البيت». فقلت: «لن نجذف لأجلك». فقال: «عليك فعل ذلك وإلا سنبقى طول الليل في الماء، كما أنت رجاءً». قال الآخرون: «فلنجذف، ما الفائدة؟». لكن لأن فكري أصبح متوتراً بسبب سلوكه واصلتُ الرفض. لذا أقسمَ على أن يجعلني أقوم بالتجذيف وإلا فسيقوم برميي من على سطح القارب، فقام وخطا ناحية مقعد المجذف باتجاهي، عندما صعد وضربني، وضعتُ يدي تحت عكازه، وأنا أنهض، قذفتُ به على رأسه أولاً نحو الماء. أعلم بأنه سبّاح ماهر لذا لم أقلق عليه كثيراً. لكن قبل أن يتمكن من الطفو كي يتمسك بالقارب جذفنا قليلاً وجذبنا القارب

بعيداً عن متناول يده. وكلما يتقدم تدريجياً بالقرب من القارب نسأله فيما إذا كان سيقوم بالتجذيف، ضاربين عدة تجذيفات كي نبعد القارب عنه. كان مستعداً أن يموت من الغيض ولا أن يعد بالتجذيف بكل عناد. في النهاية رأينا أنه بدأ يتعب، فرفعناه وجلبناه للبيت وهو يقطر بللاً في المساء. بعدئذٍ، كنا بالكاد نتبادل كلمات مهذبة. صادف أن التقى بقبطان من جزر الهند الغربية والذي كان موكلاً بمهمة الحصول على معلم خصوصي لأبناء أحد الرجال النبلاء في جزيرة (باربادوس)، فوافق على أن يحمله إلى هناك. عندها غادرني وهو يعدني بأن يرسل إليّ أول دفعة من النقود يستلمها كي يسدّد الدين. لكن لم أسمع عنه أبداً بعد ذلك. إن التجاوز على ذلك المال العائد ل (الفيرنوني) كان واحداً من أكبر أخطاء حياتي، وأن هذه المسألة أظهرت بأن أبي لم يكن مخطئاً في حكمه عندما اعتبرني صغيراً جداً على إدارة عمل ذي أهمية. لكن السيد (وليام) قال عندما قرأ رسالته ـ بأنه حكيم جداً. كان هناك فرق كبير في الأشخاص، وأن التعقل لا يرافق دائماً عدد سنين العمر ولا الشباب يفتقدها دائماً. قال: «وبما أنه لم يقم بتجهيزك فسأفعل ذلك بنفسي. قم بتزويدي بقائمة جرد للأشياء الضرورية كي أحصل عليها من إنكلترا وسأقوم بالإرسال بطلبها وستقوم برد المال إليّ عندما تكون مستعداً، فقد قررتُ أن أحظى بطابع جيد هنا، وأنا واثق بنجاحك». هذا الكلام قد قيل بمظهر الود بحيث لم يكن لديّ أدنى شك بمعناه لما قاله. احتفظتُ لحد هذه اللحظة بعرض تجهيزي سراً في (فيلادلفيا) ولا زلتُ أحتفظ به. لو عُرِفَ بأنني اعتمدتُ على المحافظ (ربما أحد الأصدقاء الذي يعرفه أفضل) لكان قد نصحني بأن لا أعتمد عليه لأني بعد ذلك سمعتُ بأن سمته المعروفة هو عدم التزامه بوعوده

والتي لم يقصد بأن يفي بها أبداً. مع ذلك، فإن عرضه التطوعي كما كان معي فكيف لي أن أفكر بأن عرضه السخي خدّاع؟. اعتقدتُهُ واحد من أفضل الرجال في العالم. قدّمتُ له قائمة جرد لدار طباعة صغير، تبلغ استناداً إلى حساباتي حوالي مائة باوند إسترليني. استحسنَ الأمر لكنه سألني فيما إذا كان تواجدي في (إنكلترا) سريعاً، كي أقوم باختيار الأحرف الطباعية وأن أرى كل شيء يسير على ما يرام، ذا فائدة، «فهناك سيكون بإمكانك أن تؤسس لمعارف وأن تؤسس لمراسلات في طرق بيع الكتب والقرطاسية» كما قال. فوافقته بأن ذلك سيكون مفيداً، فقال: «إذن، استعد للذهاب بواسطة ـ آنِّسْ ـ » والتي كانت سفينة حولية والوحيدة التي بإمكانها في ذلك الوقت من أن تعبر عادةً بين (لندن) و(فيلادلفيا). لكن ستمر عدة أشهر قبل أن تتمكن (آنِّسْ) من الإبحار لذا واصلتُ العمل مع (كايمر) وقلقاً حيال المال الذي حصل عليه (كولينز) مني، وبالخوف اليومي من أن يتم الإرسال بطلبها من قبل (الفيرنوني) رغم أن ذلك لم يحصل لعدة سنوات أخرى.

أعتقد بأنني نسيت ذكر ذلك في رحلتي الأولى من (بوسطن) عندما توقفتُ عند (بلوك آيسلند) فقد بدأ أناسنا باصطياد سمك القدّ واغتنموا أعداد ضخمة منه. تشبثتُ حتى اليوم على قراري بعدم أكل الغذاء الحيواني وبهذه المناسبة اعتبرتُ (مثل سيدي الترايوني) أن أخذ كل سمكة، نوع من الجريمة التي لا مبرر لها لأنه لم تسبب أية واحدة منها أي أذىً (ولن تتسبب) يبرر المذبحة. كل ذلك يبدو منطقياً لكنني في ما مضى كنتُ محباً كبيراً للسمك، عندما تأتيك حارة من المقلاة ورائحتها شهية بشكل كبير. وازنتُ أحياناً بين المبدأ والميل، إلى أن تذكرتُ حينما تُفتَح السمكة

رأيتُ أسماكاً صغاراً تؤخذ من معداتها، عندها فكرتُ: «إذا كنتِ تأكلين أحدكم الآخر فلا أرى مانعاً من أن نأكلكِ»، لذا تعشيتُ سمك القد بشهية وواصلت الأكل مع الآخرين عائداً من حين إلى آخر إلى الأكل النباتي. إنه لأمر مريح جداً أن تكون مخلوقاً متعقلاً لأن ذلك يمكّن الفرد من أن يجد أو يخلق سبباً لكل شيء يعزم على تنفيذه.

تابعنا أنا و (كايمر) حياتنا بشكل طيب متخطين الرسميات ومتوافقين بشكل جيد لأنه لم يشك بقضية تجهيزي من قبل المحافظ. كان يحتفظ بقدر كبير من حماسته القديمة وأحبَّ الجدال، لذا كانت لدينا العديد من النزاعات. اعتدت أن أفعل ذلك بأسلوبي السقراطي وأن أثقب رأسه دائماً بأسئلة تبدو بعيدة كل البعد عن أي موضوع لدينا. مع هذا تقودنا شيئاً فشيئاً إلى الموضوع وتدخله في صعوبات وتناقضات والتي جعلته في النهاية يصبح حذراً بشكل سخيف جداً وبالكاد يجيبني على سؤال مألوف جداً بدون أن يسأل أولاً ـ ما الذي تستدل عليه من ذلك؟ ـ . رغم ذلك فقد منحه ذلك فكرة حاسمة جداً عن قدراتي بطرق التنفيذ بحيث اقترحَ بجدية أن أكون زميله في مشروعه بتأسيس طائفة جديدة: كان عليه أن يعظ في المذاهب وأنا عليّ أن أفحم كل المعارضين.عندما أتى ليتناقش معي بخصوص المذاهب وجدتُ بعض المشاكل المحيرة التي اعترضتُ عليها ما لم تكن لدي طريقتي لذلك قليلاً، وأقدم بعضاً من مذاهبي.

قام (كايمر) بإطالة لحيته بكاملها لأنه ذُكِرَ في موضعٍ ما من شريعة موسى (لن تشوه زوايا لحيتك). وبالمثل حافظ على اليوم السابع (يوم السبت) وكانت هاتان النقطتان أساسيتين بالنسبة له. لم أحب كلتا الطريقتين لكنني وافقتُ بالاعتراف بهما في حالة تبنيه طريقة عدم تناول

الأغذية الحيوانية. قال: «أشك في ذلك، فإن بنيتي الجسدية لن تحتمل ذلك». فأكدّتُ له بأنه سيحتمل ذلك وإن ذلك سيكون لصالحه. كان دائماً شرهاً على نحو كبير وقد وعدتُ نفسي ببعض التسلية بتجويعه قليلاً. فوافق على أن يجرب التقاليد إذا كنتُ سأستمر بمرافقته. ففعلتُ ذلك واستمرينا على ذلك لثلاثة أشهر. أعددنا مؤننا وتم تزويدنا بها بشكل منتظم من قبل إحدى الجارات التي حصلت مني على قائمة بأربعين طبقاً كي تعدّهم لنا في مختلف الأوقات والتي لا تحوي في معظمها لا السمك ولا اللحم ولا الطيور. ناسبتني هذه النزوة بشكل أفضل في هذا الوقت بالذات بسبب عدم تكلفتها، فهي لا تكلفنا أكثر من ثمانية عشر بنساً إسترلينياً كل أسبوع لكل منا. ومن وقتها واضبتُ على الصوم الكبير لعدة مرات بشكل صارم تاركاً الغذاء العادي لأجل ذلك وكما هو شائع بشكل مفاجئ بدون أدنى راحة. لذلك أعتقد بأن هناك القليل مما قيل بخصوص عمل ذلك بالتدريج السلس. واصلتُ على ذلك بكل سرور لكن (كايمر) المسكين قد عانى بشكل محزن متعباً بسبب الخطة وتاق إلى أوعية (لحم مصر) فطلب لحم الخنزير المشوي ودعاني مع اثنتين من النساء الصديقات كي أتعشى معه، لكن (بسبب وجوده على المائدة بشكل مبكر) لم يقاوم الإغراء، وأكل كل شيء قبل أن نصل.

قمتُ خلال هذه الفترة بمغازلة الآنسة (ريد). لدي احترام كبير وميل تجاهها ولدي سبب كي أعتقد بأنها تبادلني ذلك. لكن بسبب كوني على وشك أن أسافر برحلة طويلة، وكان كلانا يافعين جداً (ما فوق الثامنة عشر بقليل) اعتقدتْ والدتها أنه من الحكمة بأن لا نتمادى بعيداً في ذلك ـ كزواج ـ وإذا كان يجب أن يحدث ذلك فمن الأفضل أن يحدث ذلك بعد

عودتي عندما (على ما اعتقدتُ) أنشئ عملي الخاص. وربما ظنت أيضاً بأن آمالي ليست ذات أساس قوي كما تصورتُ أنا ذلك.

كانت الشخصيات الرئيسية التي كنتُ على معرفة شخصية بها هي (تشارلز أوزبورن، جوزيف واطسون، وجيمس رالف) كان جميعهم من محبي القراءة. كان الأولان كاتبين لكاتب عدل أو محرر وثائق نقل ملكية بارز في المدينة. و(تشارلز بروغدون) الآخر كان كاتباً لتاجر. (واطسون) كان شاباً ورعاً ومتعقلاً وذا نزاهة عالية. كان الآخرون أكثر انحلالاً في مبادئهم الدينية خصوصاً (رالف) الذي كان مثل (كولينز) الذي جعلتُهُ متكدراً، لأن كليهما جعلاني أعاني منهما. كان (أوزبورن) متعقلاً، صريحاً، واضحاً، صادقاً ومحباً لأصدقائه، لكن في الأمور الأدبية كان مولعاً جداً بالانتقاد. كان (رالف) ذكياً، لطيفاً بأسلوبه وفصيح بشكل بالغ. أعتقد بأنني لم أعرف متحدثاً أفضل منه. كان كلاهما معجبين بالشعر وبدأوا بمحاولة لأول مرة في كتابة مقطوعات قليلة. كنا نقوم معاً نحن الأربعة بنزهات عديدة على الأقدام ومريحة في أيام الآحاد في الغابات بالقرب من (سكلكل) حيث يقرأ أحدنا للآخر ونتباحث فيما قرأناه. كان (رالف) ميّالاً للسعي لدراسة الشعر وربما سيصبح (ولستُ أشك في ذلك) بارزاً فيه وأن يجمع ثروة من ورائه، زاعماً أن أفضل الشعراء عندما بدأوا بالكتابة لأول مرة لا بد وأنهم أخطأوا لمرات عديدة كما فعل هو. أثناه (أوزبورن) عن ذلك مؤكداً له بأنه ليس ذكياً في الشعر، ونصحه بأن لا يفكر في شيء غير المهنة التي نشأ عليها، وأنه عن طريق التجارة سيصبح بإمكانه ـ بالاجتهاد والانتظام ورغم افتقاره للمخزون المالي ـ أن ينصح نفسه بالعمل

كوسيط تجاري، وبمرور الوقت سيتمكن بواسطته من العمل بالتجارة لحسابه الخاص. وافقتُ أن يسلي الإنسان نفسه من حين آخر بالشعر إلى أن تتحسن لغة الفرد ليس أكثر من ذلك. على هذا تم اقتراح بأن على كل واحد منا في اجتماعنا المقبل أن يقوم بكتابة قطعة من تأليفنا كي نتحسن، بملاحظاتنا المتبادلة والنقد والتصحيح، لأن اللغة والتعبير هي ما أخذناه بعين الاعتبار. قمنا باستبعاد كل اعتبارات الابتكار، بالموافقة على أنه يجب أن تكون المهمة نص المزمور الثامن عشر الذي يصف نزول الإله.

عندما اقترب انعقاد اجتماعنا، زارني (رالف) أولاً وأعلمني أن قطعته كانت جاهزة.فأخبرتُه بأني مشغول.ولأنه لم تكن لدي الرغبة الكبيرة فلم أعمل شيئاً. ثم أراني قطعته ليسأل عن رأيي فيها، فاستحسنتُها كثيراً لأنها بدت لي تمتلك ميزة كبيرة. فقال: «والآن، لن يسمح أوزبورن أبداً بأقل استحقاق تجاه أي شيء يعود لي بل ألف انتقاد ليس لسبب سوى الحسد. هو لا يغير منك لذا أرغب بأن تأخذ هذه القطعة وأن تقدمها كأنها عائدة لك، وأنا سأتظاهر بأنني لم يكن لدي الوقت الكافي لذا لم أعمل شيئاً وسنرى ماذا سيقول بشأنها. «فتم الاتفاق وقمتُ باستنساخها على الفور كي تبدو بخط يدي».

فاجتمعنا، تم قراءة إنجاز (واطسون): كان هناك بعض الجمال فيها لكن مع العديد من المآخذ. وتم قراءة إنجاز (أوزبورن): كان أفضل بكثير. قدّرها (رالف) ومشيراً إلى بعض الأخطاء لكنه أطرى الجمال فيها. أما بالنسبة له نفسه فلم يكن لديه شيء ليقدمه. كنتُ متردداً، وراغب في أن يعذروني، مثلاً لم يكن لديّ الوقت الكافي للتصحيح، إلخ. لكن لا

يُسمح بأية أعذار، عليّ أن أقدم شيئاً. تمت قراءتها، وإعادة قراءتها. تخلى (واطسون) و(أوزبورن) عن المسابقة وشاركوا بالتصفيق لها. أبدى (رالف) بعض الانتقادات فقط واقترح بعض التعديلات، لكني دافعتُ عن نصّي. كان (أوزبورن) ضد (رالف) وأخبره بأنه لم يكن ناقداً أفضل من شاعر. لذا قام بنبذ الجدال. وحينما ذهب الاثنان للبيت سويةً كان لا يزال (أوزبورن) يعبر عن نفسه بشكل قوي لصالح ما اعتقده أنه من إنتاجي وأنه كما قال قد كبح نفسه أمامه خشية أن أعتقدهُ تملقاً وقال: «من كان ليتخيل أن يكون فرانكلين قادراً على إنجاز كهذا. لوحة كتلك، قوة كتلك، شعلة كتلك!، إنه حتى طوّر من النص الأصلي. يبدو في حديثه العادي أنه لا يختار الكلمات فهو يتردد ويتخبط ومع ذلك، يا إلهي! انظُر كيف يكتب!» عندما اجتمعنا مرة ثانية كشف (رالف) عن الحيلة التي نسجناها حوله، وتم الضحك عليه قليلاً. إن هذا الاتفاق قد ثبّتَ (رالف) على قراره من أن يصبح شاعراً. فعلتُ ما باستطاعتي كي أثنيه عن ذلك، لكنه واصل خربشة الأشعار حتى اعتنى به (بوب) وأصبح رغم ذلك كاتب نثر جيداً جداً، أفضل منه بعد ذلك.

ربما لن تُسنح لي الفرصة كي أذكر الاثنين الآخرين فسأقوم هنا فقط بالإشارة إلى أن (واطسون) مات بين ذراعيّ بعد سنوات قلائل. ندبتُهُ كثيراً كونه أفضل مجموعتنا. ذهب (أوزبورن) إلى ال (ويست إنديز) حيث أصبح محامياً بارزاً وربح المال لكنه مات شاباً. عملنا أنا وهو اتفاقاً جدّياً إذا حدث وأن مات أحدنا قبل الآخر عليه إذا أمكن أن يقوم بزيارة وديّة إلى الآخر وأن يُعَرِّفَهُ كيف وجد الأمور في ذلك العالم المنعزل. لكنه لم يفِ بوعده أبداً.

كان المحافظ (الذي يبدو أنه يحب رفقتي) يدعوني دائماً إلى منزله، وكان يأتي ذكر تجهيزه لي دائماً على أنه أمر مؤكّد. كان عليّ أن آخذ معي رسائل موصى بها إلى عدد من أصدقائه، إضافةً إلى ذلك رسالة توصية بتزويدي بالأموال اللازمة لشراء مكبس الطابعة والأحرف المطبعية والأوراق..إلخ. بالنسبة لتلك الرسائل تم تعييني كي يتم استدعائي في أوقات مختلفة عندما تصبح جاهزة. لكن الوقت المستقبلي كان لا يزال محدداً. وعليه فقد استمر على ذلك إلى أن أصبحت السفينة ـ التي تم تأجيل موعد مغادرتها لأكثر من مرة ـ على وشك الإبحار، من ثم عندما تم استدعائي كي أودعه وأستلم الرسائل، خرج سكرتيره الدكتور (بازْد) وقال إن المحافظ كان مشغولاً للغاية بالكتابة لكنه سينزل إلى (نيوكاسل) قبل السفينة وهناك سوف يتم تسليم الرسائل لي.

قرّر رالف ـ رغم أنه متزوج ولديه طفل واحد ـ أن يرافقني في هذه الرحلة. كان المعتقد أنه كان ينوي إنشاء مراسلات والحصول على بضاعة كي يبيعها مقابل عمولة. لكنني اكتشفتُ بعد ذلك أنه بسبب استيائه من علاقات زوجته تعمّد أن يتركها بين أيديهم وأن لا يعود أبداً. بعد أن قمتُ بتوديع أصدقائي وتبادُل بعض الوعود مع الآنسة (ريد) غادرتُ (فيلادلفيا) بالسفينة والتي رست في (نيوكاسل). كان المحافظ هناك، لكني عندما ذهبتُ إلى مكان إقامته، أتى السكرتير منه إليّ بأرق رسالة في العالم بأنه لم يتمكن عندها من رؤيتي وأنه مرتبط بعمل ذي أهمية قصوى وأنه يجب عليّ إرسال الرسائل له على متن السفينة ومتمنياً لي بإخلاص رحلة طيبة وعودة سعيدة..إلخ. عدتُّ إلى متن السفينة محتاراً قليلاً لكن لا زلتُ غير مرتاب.

كان المحامي (آندرو هاملتون) وهو محام شهير من (فيلادلفيا) ـ قد اتخذ على نفس السفينة رواقاً له ولابنه. وشغل السيد (دنهام) وهو تاجر من طائفة الكويكرز ـ والسادة (أونيون) و(راسل) وهم رؤساء مصنع الحديد في (ماريلاند) ـ الحجرة الكبيرة. لذا اضطررنا أنا و(رالف) أن نتشارك مضجعاً في أرخص مكان على السفينة. ولا أحد على متن السفينة يعرفنا، وتم اعتبارنا كأناس عاديين. لكن السيد (هاملتون) وابنه (اسمه جيمس، كان محافظ فيما مضى) عادا من (نيوكاسل) إلى (فيلادلفيا). كان الأب قد تم استدعاؤه مقابل أجر كبير كي يترافع في المحكمة للدفاع عن سفينة تمت مصادرتها. وقبل أن نبحر مباشرةً وعندما أتى العقيد (فرينش) على متن السفينة وأظهر تجاهي احتراماً كبيراً أصبحنا نلفت الانتباه أكثر. وتمت دعوتنا أنا وصديقي (رالف) من قبل الرجل النبيل الآخر كي ندخل الحجرة. الآن أصبحت لنا غرفة، وعلى هذا الأساس انتقلنا إلى هناك. بعد علمي أن العقيد (فرينش) قد جلب للسفينة رسائل المحافظ، سألتُ القبطان عن تلك الرسائل التي كانت يجب أن تكون بعهدتي، قال كلها قد وُضعت معاً وأنه لا يتمكن في هذه اللحظة من أن يصل إليها قبل أن نرسو على البر في (إنكلترا). وسأجد فرصة كي أخرجها. وبهذا اقتنعتُ في الوقت الحالي وواصلنا رحلتنا. حظينا في الحجرة برفقة مؤنسة وقضينا وقتاً حسناً بشكل رائع إضافة إلى كل مؤن السيد (هاملتون) التي طرحها بشكل وفير. عقد السيد (دنهام) في هذه الرحلة معي صداقة والتي استمرت خلال حياته. من ناحية أخرى كانت الرحلة غير مريحة لأنه واجهْنا قسط وافر من الطقس السيِّئ. عندما دخلنا القنال وفى القبطان بوعده لي ومنحني فرصة لتفحص الحقيبة لأجل

رسائل المحافظ. لم أجد ولا أية واحدة منها مكتوب عليها اسمي وبأنني تحت عهدته. أخرجتُ ستة أو سبعة اعتقدتُ أنها (من خلال خط اليد) ربما ستكون الرسائل التي وعدني بها خصوصاً عندما كانت واحدة منهم موجهة إلى (باسكت) طابعي الملك، ورسالة أخرى الى أحد بائعي القرطاسية.

وصلنا (لندن) في 24 من كانون الأول 1724. انتظرتُ بائع القرطاسية الذي كان أول من حضر في طريقي مسلماً الرسالة كرسالة من المحافظ (كايث). فقال: «لا أعرف شخصاً بهذا الاسم». لكن عندما فتح الرسالة: «أوه! هذه من (ردلسدن). اكتشفتُ مؤخراً بأنه وغد تماماً ولن تكون لي علاقة به ولا أن أستلم أية رسالة منه». وهكذا دار على عاقبيه وهو يضع الرسالة في يدي وتركني لخدمة زبونٍ ما. كنتُ مندهشاً أن أكتشف بأن هذه لم تكن رسائل المحافظ. فبدأتُ بتذكر ومقارنة الأحداث وبدأتُ أرتاب بحسن نيته.

وجدت صديقي (دنهام) وأفضيتُ بالمسألة كلها أمامه، فأطلعني على سر شخصية (كايث) وأخبرني بأنه لم تكن هناك أدنى احتمالية بأنه قد كتب أية رسالة لك لأن لا أحد من الذين عرفه يملك أدنى اعتماد عليه، وضحك على فكرة منْح المحافظ لي لرسالة توصية بعد (كما قال) أن لم تكن هناك وصية تُمنح. ونصحني ـ حول تعبيري عن بعض القلق بخصوص ما عليّ فعله ـ بأن أسعى للحصول على وظيفة بنفس نمط عملي. قال: «ستقوم بتحسين نفسك بين عمّال الطباعة الذين هنا وعندما تعود إلى أميركا ستصبح مهيأً لإنشاء عمل أكبر».

صادف أن علم كلانا ـ كذلك بائع القرطاسية ـ بأن (ريدلسدن)

المحامي كان محتالاً جداً.فقد حطم والد الآنسة (ريد) جزئياً بإقناعه أن يكون ملزماً به قانونياً. ظهر من خلال هذه الرسالة بأن هناك مكيدة سرية في طورالتنفيذ لإلحاق الضرر ب (هاملتون) على اعتبار أنه سيسافر معنا آنذاك، وإن (كايث) كان متورطاً بها مع (ريدلسدن). اعتقدَ (دنهام) الذي كان صديقاً ل (هاملتون) بأنه يجب أن يكون على دراية بالأمر. لذا عندما وصل إلى (إنكلترا) - وذلك بعد فترة وجيزة - انتظرتُهُ ومنحته الرسالة - بسبب استيائي إلى حد ما وسوء نية تجاه المحافظ وتجاه (ريدلسدن)، وإلى حدٍّ ما بسبب نيتي الطيبة تجاه هاملتون - فشكرني بعمق فقد كانت المعلومات ذات أهمية بالنسبة له. ومنذ ذلك الحين أصبح صديقي وذا فائدة لي بعد ذلك في مناسبات عديدة. لكن ماذا سنظن بممارسة المحافظ لألاعيب هزيلة كهذه واستغلال صبي فقير جاهل بشكل فضيع!. كانت عادة قد اكتسبها. فقد كان يتمنى أن يسعد أي شخص. ولأن لديه القليل ليعطيه، كان يمنح آمالاً. لكن من ناحية أخرى كان رجلاً ذكياً ومتعقلاً وكاتباً جيداً جداً ومحافظاً صالحاً بالنسبة للناس. مع ذلك ليس بالنسبة لناخبيه وحكّام المقاطعات الذين كانت توجيهاتهم يتغاضى عنها أحياناً. إنَّ العديد من أفضل قوانيننا كانت من وضْعِهِ هو ونجحت خلال حكمه.

كنا أنا و(رالف) رفيقين متلازمين. وتشاركْنا غرفة مفروشة في (ليتل بريتن) بثلاثة شلنات وستة بنسات للأسبوع وهو ما استطعنا منحه ذلك الوقت. وجد بعض من أقاربه لكنهم كانوا فقراء وغير قادرين على مساعدته. أطلعني الآن على نواياه بالبقاء في (لندن) وأنه لا ينوي العودة إلى (فيلادلفيا). لم يكن قد جلب مالاً معه لأن كل ما تمكن من جمعه قد تم إنفاقه بدفع تكاليف سفره.

كان لديّ خمسة عشر بستولاً[1] استعارها مني من حين لآخر كي يعيش عندما كان يبحث عن عمل. كان يسعى في البداية للدخول للمسرح ظاناً نفسه مؤهلاً لأن يصبح ممثلاً. لكن (ويلكيس) الذي كان يعمل عنده، نصحه بلطف بأن لا يفكر في تلك الوظيفة لأن من المستحيل أن ينجح بها. من ثمّ قدم طلباً إلى (روبرتس) الناشر في (باترنوستر ـ رو) كي يكتب له في صحيفة أسبوعية كصحيفة (السباكتاتور) ـ في أوقات معينة ـ وهي فكرة لم يوافق عليها (روبرت).

ثمّ سعى لأن يحصل على وظيفة كاتب بالأجرة لباعة القرطاسية والمحامين، لكنه لم يجد شاغراً. باشرتُ بالعمل فوراً عند دار طباعة (بالمر) ثم بعدها في دار طباعة شهير في (بارتلوميو كلوز) وهنا استمريتُ ما يقارب السنة. كنتُ مجتهداً جداً لكنني أنفقتُ مع (رالف) قدراً كبيراً من مدخراتي بالذهاب للمسرحيات وأماكن أخرى للتسلية. قمنا سويةً بإنفاق كل بستولاتنا والآن لم يبقَ لدينا سوى ما نسد به رمقنا. ظهر بأنه قد نسي زوجته والطفل تماماً وأنا تدريجياً نسيتُ خطبتي للآنسة (ريد) التي لم أكتب إليها أبداً أكثر من رسالة واحدة وذلك لكي أعلمها بأنني من المحتمل أن لا أعود بسرعة. كان هذا خطأً مطبعياً آخر كبيراً من أخطاء حياتي والذي أرغب أن أقوم بتصحيحه لو كنتُ سأعيش مرة ثانية. في الحقيقة أصبحتُ بسبب نفقاتنا غير قادر بشكل ثابت على دفع نفقات رحلتي.

عملتُ في دار طباعة (بالمر) على تنضيد الطبعة الثانية لكتاب (دين الطبيعة) لـ (وولاستون). تبدو لي بعض حججه بأنها غير راسخة بشكل

---

(1) البستول: هي عملة نقدية كانت متداولة في القرن السادس عشر، وهي تسمية فرنسية للعملة الذهبية الإسبانية. (المترجمة).

جيد فقمتُ بكتابة قطعة ميتافيزيقية حيث قمت بالإشارة لهذه الحجج وتم عنونته (أطروحة عن الحرية والعوز، السعادة والألم) قمتُ بإهدائها إلى صديقي (رالف) وقمتُ بطباعة أعداد قليلة منها. حدث وأنها كانت السبب في أن أصبحتُ محترماً أكثر من قبل السيد (بالمر) كشاب ذي ذكاء على الرغم من أنه قد احتج عليّ على مبادئ منشوري والتي بدت بالنسبة له لعينة. كانت طباعتي لذلك المنشور خطأً آخر.

تعرّفتُ أثناء إقامتي في (ليتل بريتن) على بائع كتب، واحد (ويلكوكسي)[1]، كان متجره بالجوار. كانت لديه مجموعة بارزة من الكتب المستعملة. كانت المكتبات النقالة لم تكن موجودة آنذاك. لكننا اتفقنا تحت شروط معقولة معينة (والتي نسيتُها الآن) على أن آخذ وأقرأ وأعيد أي من هذه الكتب. هذا ما اعتبرتُهُ فائدة كبيرة وقد استفدت منها قدر ما أستطيع. وقع منشوري بطريقةٍ ما بين يديّ واحد (لايوني)[2]، وهو جرّاح ومؤلف كتاب عنوانه (عصمة الرأي البشري) وكان السبب في حدوث التعارف بيننا. وقد لفتُّ انتباهه بشدة، وكان يستدعيني دائماً كي نتحادث بشأن هذه المواضيع. دعاني إلى (هورنز)، وهو نادي للبيرة باهت في (لين)، (جيت سايد) وقدمني إلى د. (ماندفيل) مؤلف (أسطورة النحل) والذي كان يملك نادياً هناك. كان هو الروح المحركة للنادي، فقد كان أكثر الرفقاء طرافة وتسلية. قدمني (اللايوني) أيضاً إلى الدكتور (بامبرتون) في مقهى (باستون) والذي وعد بمنحي فرصة (في وقت معين أو غيره) لرؤية السيد (إسحاق نيوتن)، وكنت متلهفاً لذلك بشدة لكن ذلك لم يحدث أبداً.

---

(1) ويلكوكسي: من أهالي مدينة (ويلكوكس). (المترجمة)

(2) لايوني: من أهالي مدينة (لايون). (المترجمة)

كنتُ قد جلبتُ بعضاً من التحف. كانت التحفة الرئيسية بينها على شكل شنطة يد مصنوعة من مادة الإسبست والتي يتم تنقيتها بالنار. سمع السيد (هانز سلون) بها فأتى ليراني ودعاني إلى بيته في ساحة (بلومزبري)، حيث أراني جميع تحفه وأقنعني بأن أجعله يضيف هذه إلى المجموعة والتي دفع لي مقابلها بسخاء.

سكنتْ في منزلنا هناك امرأة شابة (صانعة قبعات) كانت تملك على ما أعتقد متجراً في (كلواسترز). كانت قد نشأتْ نشأة محترمة، كانت حسّاسة ومرحة وذات حديث سارّ. كان (رالف) يقرأ لها المسرحيات في أوقات المساء. أصبحا مقربين. استأجرتْ مسكناً آخر فقام باتباعها. عاشا سويةً لبعض الوقت. لكن لكونه عاطلاً عن العمل ومدخولها لا يكفي للإنفاق عليهما مع طفلها قرّر ترك (لندن) كي يحاول في مدرسة في الريف والتي ظنّ نفسه أنه مؤهل تماماً لأن يباشر بها لأنه كان يكتب بخط جيد، وكان خبيراً في علم الحساب والمحاسبة. كان قد اعتبر هذا، رغم ذلك، عملاً دون المستوى بالنسبة له وكان واثقاً من حظ أفضل في المستقبل. ولأنه لم يكن راغباً من أن يعرف أحد أنه قد تم توظيفه بشكل دنيء جداً قام بتغيير اسمه وشرّفني بأن يدّعي اسمي لأني بعد مدة وجيزة استلمتُ رسالة منه يُعْلمني فيها بأنه قد استقر في قرية صغيرة (أعتقد أنها كانت بيركشاير حيث قام بتعليم القراءة والكتابة لعشرة أو اثنا عشر صبياً بستة بنسات للأسبوع) وأنه يوصي السيدة ت. لعنايتي ويرغب مني أن أكتب له معنونة إلى السيد (فرانكلين) مدير المدرسة إلى نفس المكان. واصل الكتابة بشكل متكرر مرسلاً إليّ نماذج من شعر ملحمي والذي كان يقوم بتأليفه آنذاك رغبةً منه بملاحظاتي وتنقيحاتي فمنحتُهُ ذلك من حين لآخر وإنما بدلاً من ذلك من

أجل أن أعيق تقدمه. في ذلك الوقت كان قد تم نشر إحدى قصائد الهجاء ل (يونغ)، فقمتُ بنسخها وأرسلتُ له جزء كبير منها والتي سلطتْ إضاءة قوية على حماقة اتّباع الشعراء على أمل التقدم بواسطتهم. لكن كل ذلك كان عبثاً، فأوراق الشعر استمرت بالقدوم في كل بريد.

كانت السيدة ت. في تلك الأثناء التي فقدت بسببه أصدقاءها وعملها ـ في محنة دائماً واعتادت أن ترسل إليّ وتقترض ما تمكنتُ من ادخاره كي أساعدها بالخروج منها. أصبحتُ مولعاً برفقتها وقمتُ (لأني في ذلك الوقت لم أكن تحت ضابط عقائدي ومفترضاً أهميتي بالنسبة إليها) بمحاولات تودد (خطأ آخر) والتي صدّتها باستياء حقيقي وأعلمتْهُ بتصرفي وقد عمل ذلك فجوة بيننا. وعندما عاد ثانيةً إلى (لندن) أعلمني بأنه اعتقدَ بأني ألغيتُ كل الديون التي كان مديناً لي بها. وبهذا وجدت بأنني لن أنتظر بأن يسدد لي ما اقرضتُهُ له أو ما قدمتُه له. رغم ذلك فلم يكن لذلك أية أهمية آنذاك لأنه كان عاجزاً تماماً، وبفقداني لصداقته وجدتُ نفسي قد تحررتُ من عبء. بدأتُ الآن بالتفكير بالحصول على القليل من المال مقدماً. وتطلُّعاً إلى عمل أفضل غادرتُ دار طباعة (بالمر) كي أعمل لدى دار طباعة (واط) بالقرب من (لنكولن إنْ فيلدز) أكبر دار طباعة لحد الآن. استمريتُ هنا طوال فترة إقامتي في (لندن). عند أول التحاق لي بدار الطباعة هذا تم أخذي للعمل على مكبس الطابعة. تخيلت بأني سأشعر بالحاجة إلى التمارين الجسدية التي اعتدت عليها في (أميركا) حيث كان العمل على المكبس مدمج مع التنضيد. شربتُ الماء فقط. كان العمال الآخرون ـ ما يقارب عددهم الخمسين ـ مسرفين في استهلاك البيرة. كنتُ في بعض الأحيان أحمل صعوداً ونزولاً أشكال قوالب كبيرة

من الحروف المطبعية في كل يد، بينما يحمل الآخرون قالباً واحداً فقط بكلتي اليدين. فتعجبوا لرؤيتهم ذلك ـ وحالات أخرى ـ من أن (الأميركي المائي) كما كانوا يطلقون عليّ أقوى منهم أنفسهم الذين كانوا يشربون أقوى أنواع البيرة!. كان لدينا خادم حانة والذي كان دائماً يحضر للدار كي يزود العمال بها. كان شريكي بالمكبس يشرب يومياً باينت[1] قبل الفطور وباينت عند الفطور مع خبزة وجبنة وباينت بين الإفطار والعشاء وباينت عند العشاء وباينت في المساء حوالي الساعة السادسة وآخر عندما ينهي عمل يومه. تصورتُها عادة مقيتة لكنها كانت ضرورية فقد تصوّر أن بشربه لبيرة قوية سيصبح قوياً للعمل. حاولتُ أن أقنعه بأن القوة الجسدية الناتجة من البيرة تتناسب مع حبوب أو طحين الشعير المذاب في الماء الذي تُصنع منه، أي أن هناك طحيناً أكثر في قطعة خبز بقرش وبهذا إذا كان سيأكل ذلك مع باينت من الماء فستمنحه قوة أكثر مما يمنحه كوارت[2] من البيرة. رغم ذلك استمر بالشرب وكان عليه أن يدفع أربعة أو خمسة شلنات من ضمن أجوره كل ليلة سبت لأجل تلك الخمرة التي تسبب التشويش وهي مصاريف كنتُ غير خاضع لها. وبهذه الطريقة يستمر أولئك الفقراء البائسون بأن يُبقوا أنفسهم دائماً لاواعين. بعد عدة أسابيع كان (واط) يرغب بأن يجعلني في غرفة التنضيد. تركتُ عمال مكبس الطابعة. طُلب مني مبلغ جديد من المال للشراب ـ وكان خمسة شلنات ـ من قبل عمال التنضيد. اعتقدتُ بأنه فرض لأني قد دفعتُ أقل من ذلك. اعتقدَ المدير ذلك أيضاً ونهى عن دفعي ذلك. صمدتُ أسبوعين أو ثلاثة،

---

(1) الباينت: ما يعادل نصف لتر. (المترجمة)

(2) الكوارت: ربع غالون. وحدة قياس حجم السوائل وتعادل 2 باينت. (المترجمة)

وتم اعتباري بسبب ذلك كالمحروم كنسياً ومورس بحقي الكثير من أنواع الأذى الشخصي التافه، بخلط أحرفي الطباعية وتغيير مواضع الصفحات الخاصة بي وتحطيم النص المطبوع الخاص بي إلخ إلخ إذا ما خرجتُ قليلاً من الغرفة. وكلهم عزوا ذلك إلى شبح الكنيسة الذي يسكن أولئك الذين لا يعترفون بشكل منتظم. وبهذا، وعلى الرغم من حماية المدير، وجدتُ نفسي مجبراً على الامتثال وأن أدفع المال مقتنعاً بحماقة أن أكون رهين شروط سقيمة مع هؤلاء الذين سأبقى معهم بشكل مستمر. أصبحتُ على التّو على قدم المساواة معهم وسرعان ما نلتُ نفوذاً كبيراً. اقترحتُ بعض التغييرات المقبولة على قوانين كنيستهم الصغيرة وقمتُ بقيادتهم رغم كل المعارضة، على سبيل المثال ترك عدد كبير منهم فطورهم المسبب للتشويش من البيرة والخبز والجبن مكتشفين أن بإمكانهم أن يتزودوا معي من المنزل المجاور بصحن كبير من العصيدة المتبلة بالفلفل والمغطاة بفتات الخبز والقليل من الزبدة في مقابل سعر باينت واحد من البيرة، بمعنى، ثلاثة أنصاف البنس. كان ذلك مريحاً أكثر إضافة إلى أنه أرخص إفطار وحافظ على صفاء فكرهم.أما أولئك الذين أدمنوا البيرة طوال اليوم كانوا دائماً ـ بسبب عدم التسديد ـ مدينين للحانة واعتادوا على أن يدفعوا لي بالربا كي يحصلوا على البيرة، فعلى حد تعبيرهم فإن نورهم بدأ يخبو. قمتُ بمراقبة جدول الأجور ليلة السبت وقمتُ بجمع ما عهدتُ بدفعه لهم مضطراً في بعض الأحيان على دفع ما يقارب الثلاثين شلناً في الأسبوع على حسابهم. إنّ هذا، إضافة إلى كوني هاجياً محترماً جداً، أي أديب متهكم لفظياً وفكاهياً، قد عزّز مكانتي في المجموعة.

إنّ حضوري المنتظم (لم أتغيب قط أيام الاثنين) قد شفع لي عند

المدير، وسرعتي الغير عادية في التنضيد أدّت إلى أن يُلقى على عاتقي كل الأعمال التي تتطلب السرعة والتي كانت عموماً ذات دخل أفضل. وهكذا استمريتُ الآن بشكل مريح جداً.. كان سكني في (ليتل بريتن) بعيداً جداً، ووجدتُ واحداً آخر في (شارع الدوق) مقابل الكنيسة الرومانية في الطابق الثالث عند مستودع إيطالي. كانت تملك المنزل أرملة لديها ابنة، وخادمة وعامل يعتنون بالمستودع لكنهم يسكنون خارجاً. وبعد أن أرسلتْ لتستفسر عن طباعي لدى آخر نُزُل سكنتُ فيه وافقتْ على أن تستقبلني بنفس السعر، ثلاثة شلنات، ستة باوندات للأسبوع. أرخص ـ كما قالت ـ من الحماية التي تنتظرها من إيوائها لرجل في المنزل.

كانت أرملة، امرأة كبيرة في السن، نشأت على البروتستانتية وابنة لرجل دين، لكنها تحولت إلى المعتقد الكاثوليكي من قبل زوجها الذي تبجلُ ذكراه. عاشت كثيراً بين أناس ذوي وجاهة وعرفتْ ألف حكاية عنهم إلى حد عهد (تشارلز) الثاني.كانت ضعيفة الركبتين بسبب النقرس لذا نادراً ما كانت تتحرك خارج غرفتها لذا احتاجت أحياناً إلى رفقة وكانت رفقتها مسلية أكثر بالنسبة لي بحيث كنتُ أقضي أمسية معها متى ما رغبتْ بذلك. كان عشاؤنا فقط نصف أنشوجة من السمك لكل واحد منا على شريحة رقيقة جداً من الخبز والزبدة ونصف باينت من الخمر بيننا. لكن المتعة كان في حديثها. إنّ قضائي الدائم لساعات ممتعة وعدم تسببي بالمشاكل للعائلة جعلها غير راغبة بأن تنفصل عني بحيث عندما تحدثتُ عن مسكن سمعتُ به أقرب إلى عملي مقابل شلنين في الأسبوع وأنني أنوي في الوقت الحاضر أن أدخر بعض المال كي أعمل فرقاً كبيراً ـ لم تجعلني أفكر في الموضوع لأنها كانت ستخفض القيمة إلى شلنين في الأسبوع

في المستقبل. وهكذا بقيتُ معها مقابل شلن واحد وستة بنسات طول فترة إقامتي في (لندن).

عاشت ـ في عليّة منزلها هناك سيدة عانس في السبعين من العمر ـ على التقاعد والتي أعطتني سيدتي صاحبة المنزل بشأنها هذه القصة: إنها كانت كاثوليكية رومانية، تم إرسالها خارج البلاد عندما كانت شابة وسكنت في أخوية نسائية بنيّة أن تصبح راهبة. لكن الريف لم يناسبها فعادت إلى (إنكلترا) حيث لم تكن هناك أخويات نسائية. كانت قد عهدت على أن تعيش حياة راهبة كأقرب ما يكون في تلك الظروف. وعلى ذلك قامت بمنح كل أملاكها للأعمال الخيرية محتفظةً فقط باثني عشر باونداً في السنة كي تعيش بها وما عدا هذا المبلغ من المال لا زالت تمنح قدر كبير للأعمال الخيرية، تغذّي نفسها العصيدة فقط ولا تستخدم النار، فقط لكي تغليها. عاشت سنوات عديدة في تلك العليّة. سُمِحَ لها بالبقاء هناك مجاناً من قبل المستأجرين الكاثوليك الجدد للمنزل أدناه لأنهم اعتبروها بركة بتواجدها هناك. كان هناك قس يأتي إليها ليعترف لها كل يوم. قالت سيدتي ربة المنزل: «سألتُها يوماً كيف أمكنها طول حياتها أن تجد العمل الكثير لمعترف؟» قالت: «أوه، من المستحيل أن نتفادى الأفكار العابثة». كان قد تم السماح لي في إحدى المرات بزيارتها، كانت مبتهجة ولطيفة وتتحدث بشكل ممتع. كانت الغرفة نظيفة وليس بها أثاث سوى فراش وطاولة مع صليب وكتاب وكرسي أعطتني إياه كي أجلس عليه، وصورة على المدخنة للقديسة (فيرونيكا) توضّح منديلها مع الشكل المعجز لوجه المسيح الدامي عليه والذي فسّرتْهُ لي بجدية كبيرة. بدت شاحبة لكن لم تكن تمرض

أبداً وحكمتُ على ذلك كحالة أخرى عن كيف يمكن للمدخول القليل والحياة والصحة أن يتآزروا.

عقدت في دار طباعة (واط) تعارفاً مع شاب ذكي، واحد (وايغاتي)[1] الذي يملك أقارب موسرين. كان متعلماً أفضل من معظم الطابعيين وكان عالماً لا بأس به في اللاتينية ويتكلم الفرنسية وكان يحب القراءة. قمتُ بتعليمه هو وأحد أصدقائه السباحة بالذهاب للنهر مرتين، وأصبحوا بسرعة سبّاحين ماهرين. قام بتقديمي إلى بعض الرجال المحترمين من الريف كانوا قد ذهبوا إلى (تشيلسي) عبر الماء كي يروا الكلية وتحف (دون سالتيرو). لدى عودتنا، وبطلب من المجموعة التي أثار فضولها (الوايغاتي)، تجردت من ملابسي ووثبتُ في النهر وقمتُ بالسباحة من قرب (تشيلسي) إلى (بلاك فراير) مؤدياً بطريقي العديد من النشاطات البطولية على وتحت الماء والتي أذهلت وأسعدت أولئك الذين كانوا مستجدين في السباحة.

كنتُ وأنا طفل دائماً ما أبتهج بهذه الممارسة، تعلمتُها وتمرنتُ على كل الحركات والأوضاع مضيفاً بعضاً مني هادفاً إلى الرشاقة والمرح وكذلك الفائدة. كل ذلك عرضتُهُ ـ مستغلاً هذه المناسبة ـ للمجموعة وتم إطرائي بإعجابهم، وعلى هذا الاعتبار أصبح (الوايغاتي) الذي كان راغباً في أن يضبح مدرساً متعلقاً بي أكثر وأكثر إضافةً إلى تشابه تطلعاتنا. في نهاية المطاف اقترح عليّ الترحال على طول أوروبا معاً مساندين أنفسنا في كل مكان بالعمل على مشروعنا. كنتُ ذات مرة ميالاً إلى ذلك لكن بذكري

---

(1)وايغاتي: من أهالي مدينة (وايغايت). (المترجمة)

ذلك لصديقي الوفي السيد (دنهام) والذي دائماً ما كنتُ أقضي معه ساعة عند وقت الفراغ ـ أثناني عن فعل ذلك ناصحاً إيّاي بأن أفكر فقط بالعودة إلى (بنسلفانيا) وهو ما كان على وشك أن يفعله. عليّ أن أدوّن واحدة من خصال شخصية هذا الرجل الصالح.

كان في السابق يملك عملاً في (بريستول) لكنه فشل في تسديد الدين لعدد من الناس فقام بتسوية وذهب إلى (أميركا). هناك وبانكبابه النادر على العمل كتاجر، كسب ثروة كبيرة في بضع سنوات. عاد إلى (إنكلترا) في السفينة معي. ودعا مدينيه السابقين إلى حفلة والتي قام فيها بشكرهم للتسوية الهينة التي تفضلوا بها عليه، وعندما لم يتوقعوا شيئاً سوى الترفيه، وجد كل رجل ـ عند رفع الأطباق ـ تحت طبقه أمراً إلى صاحب بنك بمبلغ كامل لكل مبلغ لم يتم تسديده مع الفائدة. الآن أخبرني بأنه على وشك العودة إلى (فيلادلفيا) وعليه أن يحمل كمية كبيرة من البضائع كي يقوم بافتتاح متجر هناك. واقترح أن يأخذني معه ككاتبه الخاص كي أحفظ دفاتره التجارية والتي كان سيعلمني عليها وأقوم بنسخ خطاباته وأن أعتني بالمتجر. وأضاف بأنه حالما أتعرف على العمل التجاري فأنه سيقوم بمعاضدتي بإرسالي مع حمولة من الدقيق والخبز، إلخ إلى ال (ويست أنديز) ويستحصل لي عمولات من الآخرين وهذا سيكون مدراً للربح، وإذا تدبرتُ الأمر جيداً فسأرسخ نفسي بشكل رائع. كان الأمر قد أسعدني لأني تعبت من (لندن)، تذكرت بسرور الأشهر السعيدة التي قضيتها في (بنسلفانيا) وودتُ لو أراها ثانيةً. لذلك وافقتُ في الحال بشرط خمسين باونداً في السنة. إن نقود (بنسلفانيا) في الحقيقة أقل ما أستحصله في الوقت الحالي كعامل تنضيد لكنه يمنح آفاقاً أفضل.

غادرتُ الآن دار الطباعة ـ للأبد كما اعتقدتُ ـ وتوظفتُ في عملي الجديد يومياً أتردد مع السيد (دنهام) بين التجار لشراء مواد مختلفة وأراها تُرزَم، أقوم ببعض المأموريات، أنادي على العمال كي يسرعوا، إلخ. وعندما كان الكل على متن السفينة كان لديّ بضعة أيام راحة تم استدعائي في أحدها لدهشتي من قبل رجل عظيم أعرفه فقط بالاسم، السيد (وليام ويندام) وانتظرتُهُ. كان قد سمع بطريقة أو بأخرى بسباحتي من (تشيلسي) إلى (بلاك فراير) وبقيامي تعليم السباحة للوايغاتي ولشاب آخر في بضع ساعات. كان لديه ابنان على وشك أن ينطلقا برحلتهما ووَدّ من أن أقوم بتعليمهما أولاً السباحة، وعرض علي أن يكافئني بسخاء إذا كنتُ سأعلمهما. لم يكونا قد وصلا المدينة بعد وإقامتي كانت غير مؤكدة لذا لم أقبل العرض، لكن من خلال هذه الحادثة فكرتُ أنه من الممكن إذا بقيتُ في (إنكلترا) وقمت بفتح مدرسة لتعليم السباحة فربما سأحقق مبلغاً كبيراً من المال وصدمني بقوة بأن العرض قد كشف فوراً عدم رغبتي بالعودة السريعة إلى (أميركا). بعد عدة سنوات لدينا أنا وأنت أمر مهم بخصوص أحد أولئك الأبناء للسيد (وليام ويندام)، أصبح إيرل (أغريمونت) والذي سأذكره في الوقت المناسب.

وهكذا قضيتُ حوالي ثمانية عشر شهراً في (لندن)، عملتُ أغلب الوقت بجد في مهنتي وقضيتُ القليل من الوقت فقط لنفسي ما عدا متابعة المسرحيات وقراءة الكتب. جعلني صديقي (رالف) فقيراً، فقد كان مديناً لي بسبعة وعشرين باونداً والتي من المحتمل بأنني لن أستلمها أبداً، مبلغ كبير من المال من خلال أرباحي الصغيرة!. أحببته بالرغم من ذلك لأن لديه العديد من الخصال اللطيفة. رغم ذلك فقد عززتُ ثروتي لكنني

تعرفتُ على بعض الصحبة الذكية التي كان الحديث معها ذا فائدة كبيرة بالنسبة لي وقد أشرتُ إلى ذلك كثيراً.

أبحرنا من (غريف سيند) في الثالث والعشرين من تموز 1726. بسبب حوادث الرحلة سوف أحيلك إلى صحيفتي حيث ستجدها كلها مذكورة بالتفصيل. الجزء الأكثر أهمية ربما من هذه الصحيفة هو الخطة الموجودة فيها والتي كونتها وأنا في البحر لتنظيم تصرفاتي المستقبلية في الحياة. إنه الشيء الأكثر استثنائية لأنها تأسست عندما كنتُ شاباً جداً، ولحد الآن ملتزماً بها بكل أمانة إلى أن بلغتُ كبر السن.

رسونا في (فيلادلفيا) في الحادي عشر من تشرين الأول حيث وجدتُّ اختلافات كثيرة. ف (كايث) لم يعد محافظاً وحل محله الرائد (غوردون). صادفتُهُ يجتاز الشوارع كمواطن عادي. بدا خجلاً قليلاً عند رؤيته لي لكنه مرَّ بدون أن يقول أي شيء. عليّ أن أكون خجلاً بنفس القدر عند رؤية الآنسة (ريد). فبعد أن يئستْ من عودتي بعد استلامها رسالتي أقنعتْها صديقاتها بأن تتزوج من رجل آخر، واحد من مدينة (روجرز) يعمل صانع فخار، وحدث ذلك أثناء غيابي. رغم ذلك لم تكن سعيدة معه أبداً وسرعان ما انفصلتْ عنه رافضةً التعايش معه أو حمل اسمه. وقيل بأن لديه زوجة أخرى الآن. كان شخصاً تافهاً على الرغم من كونه عاملاً ماهراً والذي كان إغراءً لصديقاتها. تورّط في ديْن وهرب عام 1727 أو 1728 وذهب إلى (ويست أنديز) ومات هناك. أما بالنسبة ل (كايمر) فقد حصل على بيت أفضل ومتجر مزود جيداً بالقرطاسية والكثير من الحروف الطباعية وعدد من العمال الذين على الرغم من عدم مهارتهم إلا أنه يبدو بأنه قد حظي بالكثير من العمل.

اتخذ السيد (دنهام) متجراً في (شارع الماء) حيث قمنا بإطلاق بضائعنا. التحقتُ بالعمل بجدية وراجعتُ الحسابات وأصبحتُ في وقت قصير خبيراً في البيع. كنا نسكن ونتناول الطعام سويةً. كان يستشيرني كأب ولديه اهتمام صادق تجاهي. احترمتُهُ وأحببتُهُ وكان من الممكن أن نستمر معاً سعيدين جداً لكن في بداية شهر شباط 1726 أو 1727 عندما تجاوزتُ للتو عامي الواحد والعشرين مرضنا سويةً، كان مرضي (ذات الجنب) والذي كاد أن يقتلني تقريباً. عانيتُ كثيراً، تخليتُ عن الممتلكات برغبتي وقد خاب أملي في الواقع عندما وجدت نفسي أتعافى من المرض ونادماً إلى حدٍ ما لأن عليّ الآن أن أعمل كل هذا العمل الكريه ثانيةً من حين لآخر. نسيتُ ماذا كان مرضه فقد لازمه لمدة طويلة وفي نهاية المطاف قتله. ترك لي إرثاً صغيراً بوصية شفوية كتذكار لعطفه عليّ وتركني ثانيةً إلى العالم الواسع. بالنسبة للمتجر فقد وُضع تحت وصاية منفذي وصيته، ووظيفتي تحته قد انتهت. كان صهري (هولمز) الآن في (فيلادلفيا) ونصحني بالعودة إلى عملي، وحاول (كايمر) أن يعيدني بعرضه أجراً سنوياً كبيراً لأتولى إدارة دار الطباعة الخاصة به كي يتمكن من الاهتمام بمتجر القرطاسية الخاص به بشكل أفضل. كنتُ قد سمعتُ من زوجته وصديقاتها في (لندن) عن رداءة أسلوبه، ولم أكن مولعاً بأن يكون لي أية علاقة به مرة أخرى. حاولتُ مع وظيفة أخرى ككاتب لأحد التجار، لكن لم أجد أياً منها بسهولة. انتهيتُ ثانيةً عند (كايمر). وجدت في دار الطباعة خاصته هؤلاء العمال:

- (هاغ ميريديث): بنسلفاني، ويلزي، عمره ثلاثون عاماً. نشأ على العمل الريفي. صادق، راشد، لديه قدر كبير من الملاحظات الرصينة. كان شيئاً من قارئ، لكن ميّال للشرب.

ـ (ستيفن بوتس): شاب ريفي، في السن القانونية. نشأ على نفس الشيء، ذو مواهب طبيعية غير مألوفة وخفة دم وظرافة لكن كسول قليلاً. هؤلاء كان (كايمر) قد اتفق معهم بأدنى حد للأجور أسبوعياً وتزداد شلناً واحداً كل ثلاثة أشهر حسب ما سيستحقون بالتقدم في عملهم. وإن انتظار هذه الأجور العالية ـ كي تأتي بعد ذلك ـ هو ما أغراهم به. كان على (ميريديث) أن يعمل على مكبس الطابعة و (بوتس) على تغليف الكتب، وكان على (كايمر) أن يقوم بتعليمهما (بالإتفاق) على الرغم من أنه لا يعرف لا هذه ولا تلك.

ـ (جون): إيرلندي همجي، لم ينشأ على عمل والذي كانت خدمته منذ أربع سنوات قد اشتراها (كايمر) من قبطان سفينة. هو أيضاً جُعِلَ عامل مطبعة.

ـ (جورج ويب): طالب في (أوكسفورد) والذي تم شراء وقته منذ أربع سنوات بطريقة مماثلة. ألحقه كي يصبح منضّداً منذ وقت قريب.

ـ (ديفيد هاري): صبي ريفي والذي تم أخذه كمبتدئ.

أدركتُ فوراً بأن نيّة ربطي بأجور أعلى بكثير مما اعتاد على أن يمنحه هي تنظيم أولئك العمال الخام الرخيصي الأجور من خلالي. وحالما قمتُ بتعليمهم أصبح جميعهم بعد ذلك مستحقي الأجور الأعلى كما جاء في الاتفاق. كان عليه أن يكون قادراً على أن يتدبر أموره بدوني. رغم ذلك واصلتُ بشكل مرح جداً تنظيم دار الطباعة الخاص به والذي كان في حالة فوضى كبيرة. وراقبتُ عمّاله تدريجياً كي يصبح عملهم أفضل. كان من الغريب أن تجد طالب جامعة (أوكسفورد) بوضعية خادم تم شراؤه. لم

يكن يزيد عن الثامنة عشرة من العمر، وحكى لي هذه القصة عن نفسه: أنه ولد في (غلوسستر) وتلقى تعليمه في مدرسة النحو هناك. تميّز من بين الطلبة لتفوقه الواضح بأداء دوره عندما كانوا يعرضون المسرحيات. قام بالانتماء إلى نادي (ويتي) هناك وقام بكتابة بعض المقاطع في النثر والشعر والتي تم طباعتها في صحيفة (غلوسستر). من ثم تم إرساله إلى (أوكسفورد) حيث استمرَّ حوالي سنة لكنه لم يكن راضياً تماماً. من الأمور التي يتمناها هي رؤية (لندن) وأن يصبح ممثلاً. في النهاية استلم مخصصاته الفصلية والبالغة خمسة عشر جنيهاً وبدلاً من أن يسدد بها ديونه خرج من المدينة وأخفى ثوبه في شجيرة (قندول) ومشى سيراً نحو (لندن) حيث لا أصدقاء ينصحونه. صادف مجموعة سيئة وسرعان ما أنفق جنيهاته ولم يجد الموارد المالية التي ستمهد له السبيل بين الممثلين فأصبح معوزاً. قام برهن ملابسه واحتاج إلى الخبز. وبينما كان يمشي في الشارع جائعاً جداً ولا يدري ما هو فاعل بنفسه، وقع بين يديه ملصق مجعد يعرض حفلة فورية وتشجيع لأولئك الذين يتعهدون بالخدمة في أميركا. فذهب مباشرةً ووقع العقود وتم وضعه في السفينة وأتى إلى هنا. لم يكتب سطراً كي يُعْلِمَ أصدقاءه بما حصل له. كان مرحاً فكاهياً سهل المراس ورفيقاً مريحاً لكن كسول وعديم التفكير وغير حكيم إلى أبعد درجة.

سرعان ما هرب (جون) الإيرلندي. بدأتُ بالعيش مع البقية بشكل مريح جداً لأن جميعهم يحترمونني أكثر لأنهم وجدوا (كايمر) عاجزاً عن تقديم النصح لهم، ويتعلموا مني شيئاً يومياً. لم نعمل أبداً أيام السبت كونه يوم سبت (كايمر)، لذا أصبح لديّ يومان للقراءة. ازداد عدد معارفي من الناس الأذكياء في المدينة، و(كايمر) نفسه عاملني بتهذيب كبير واحترام

واضح، ولا يوجد الآن شيء يجعلني قلقاً عدا دَيْني إلى (الفيرنوني) والذي كنتُ لا أزال غير قادر على تسديده كوني حتى هذه اللحظة سوى عالم اقتصاد فقير. رغم ذلك لم يطالب بها.

كان دار الطباعة الخاص بنا دائماً ما تنقصه أحرف الطباعة ولم تكن هناك سبيكة حروف في أميركا. كنتُ قد رأيتُ أحرفاً طباعية تُسبك في قالب لدى دار طباعة (جيمس) في (لندن) لكن من دون اهتمام كبير بالنسق. رغم ذلك فقد قمتُ الآن باختراع قالب مستفيداً من الحروف التي لدينا كدعامة تضرب القوالب الرصاصية وبهذا نسدّ وبطريقة مقبولة كل العيوب وقمتُ أيضاً بنحت عدة أشياء في بعض الأحيان. وقمتُ بصناعة الحبر وكنتُ أمين مستودع وكل شيء. باختصار سبع صنائع. لكن برغم ذلك، مهما كنتُ مفيداً اكتشفتُ بأن خدماتي تصبح كل يوم أقل أهمية كلما يتحسن حال العمال في عملهم. وعندما دفع كايمر أجوري الربع سنوية الثانية أطلعني بأنه يشعر أنهم ثقلاء جداً ويعتقد بأنه يجب عليّ أن أعمل تخفيض. أصبح بالتدريج أقل تهذيباً وتظاهر أكثر بدور المدير. دائماً يجد الأخطاء، وكان صعب إرضاؤه وبدا مستعداً للانفجار. رغم ذلك واصلتُ مع قدر كبير من الصبر معتقداً بأن ظروفه المثقلة كانت السبب إلى حدٍّ ما.

في النهاية قطع حادث تافه علاقتنا: إذ حدثت ضجة كبيرة قرب الفناء، فأخرجتُ رأسي من النافذة كي أرى ما الأمر. كان (كايمر) في الشارع ناظراً للأعلى ورآني وناداني بأعلى صوته وبنبرة غاضبة كي أنتبه على عملي مضيفاً بعض الكلمات التأنيبية التي أغضبتني أكثر لعلانيتها. كان جميع من كان بالجوار الذين كانوا ينظرون خارجاً على نفس الحدث، شاهدين على الكيفية التي يتم التعامل بها معي. فصعد فوراً إلى دار الطباعة وأكمل

الشجار وتم تقاذف الكلمات الحادة من كِلا الطرفين، أنذرني بخصوص المبلغ الربع سنوي الذي تعاقدنا عليه مبدياً رغبة بأنه غير مضطر من أن يُنذر طويلاً. فأخبرتُهُ أن رغبته غير ضرورية لأني سأتركه في هذه اللحظة. وهكذا أخذتُ قبعتي وخرجتُ من الباب طالباً من (ميريديث) الذي رأيتُهُ في الأسفل بأن يعتني ببعض الأشياء التي تركتُها وأن يجلبها لي إلى سكني. قَدِمَ (ميريديث) وفقاً لذلك في المساء عندما بحثنا قضيتي. عبّر عن احترام كبير تجاهي وكان غير راغب بأن أغادر الدار بينما بقي هو فيه. أثناني عن عزمي بالعودة إلى بلدي الأم ـ والذي كنتُ قد بدأتُ أفكر فيه ـ قام بتذكيري بأن (كايمر) كان مديناً بكل ما يملك لأن دائنيه بدأوا يتضايقون وأنه احتفظ بمتجره على نحو بائس ويبيع بدون نقد فوري غالباً. وغالباً يمنح ديناً بدون تسجيل لذا لا بد له من أن يفشل وهذا سيولد فراغاً ربما بإمكاني الاستفادة منه. تحججتُ بحاجتي للمال. أطلعني بعد ذلك على أن والده له رأي رائع بخصوصي وأنه من خلال بعض المحادثات التي حدثت بينهما كان متأكداً بأنه سيمنح المال كي يجهزنا إذا دخلتُ بشراكة معه، قال: «إن مدة عملي عند كايمر ستنتهي في الربيع وقبل ذلك الوقت بإمكاننا أن نحظى بمطبعتنا وحروفنا من لندن. أنا أدرك بأنني لستُ بارعاً. إذا أعجبك الأمر ستكون مهارتك في العمل مقابل المال الذي أزوده وسنتشارك الأرباح مناصفةً». كان العرض مقبولاً وأنا وافقتُ. كان والده في المدينة واستحسن الأمر. كان يرى أنه كلما كان تأثيري على ابنه كبيراً كلما انتصرتُ عليه كي يترك شرب الخمر إلى الأبد. وكان يأمل بأن أجعله ينقطع عن هذه العادة السيئة تماماً عندما نصبح متواصلين معاً وبشكل قريب جداً.

منحتُ الوالد قائمة جرد والتي دفع بها لأحد التجار. تم إرسال طلب

بهذه الأشياء، كان هذا يجب أن يبقى سراً لحين وصولها وفي تلك الأثناء كان عليّ أن أحصل على عمل إذا تمكنتُ من ذلك عند دار طباعة آخر. لكني لم أجد شاغراً هناك. لذا بقيتُ عاطلاً عن العمل لعدة أيام عندما قام (كايمر) [على أمل أن يتم منحه عمل لطباعة بعض النقود الورقية في (نيوجرسي) والتي تتطلب تفاصيل وحروف مختلفة والتي بإمكاني أنا فقط أن أعملها ومتخوفاً من أن يتشارك (برادفورد) معي ويحصل هو على العمل منه] بإرسال رسالة مهذبة جداً لي بأن الأصدقاء القدامى لا يجب أن يفترقوا لمجرد بضع كلمات (تأثير العاطفة الفجائية) ويود أن أعود. أقنعني (ميريديث) بأن أستجيب لأن ذلك سيمنح فرصة أكبر لتحسنه تحت نصائحي اليومية. لذا فقد عدت وأصبحنا لطفاء أكثر من ذي قبل. تم الحصول على مهمة (نيوجرسي)، فقمتُ باختراع مكبس طابعة من صفائح النحاس لأجل ذلك، الأولى من نوعها في البلاد. قمتُ بقطع عدة زخارف وبطاقات من أجل الفواتير.

ذهبنا معاً إلى (بيرلنغتون) حيث نفذتُ كل شيء لسداد الدين واستلم هو مجموعة كبيرة من المال لأجل العمل كي يكون بإمكانه بهذه الطريقة أن يبقى بعيداً عن المشاكل. تعرفتُ في (بيرلنغتون) إلى العديد من الأناس المهمين في المقاطعة. العديد منهم قد تم تعيينهم من قبل مجلس النواب، لجنة تحضر إلى المطبعة كي تحرص على عدم طبع المزيد من الفواتير أكثر مما يسمح به القانون. لذلك كانوا بالتناوب معنا بشكل مستمر، وعموماً، هو من حضر وجلب معه صديقاً أو اثنين من أجل الصحبة. كان فكري قد تحسّن بشكل كبير بالقراءة أكثر من فكر (كايمر). أعتقد بأنه لهذا السبب بدا لحديثي قيمة أكبر. كان أنا الذي أدخلوني إلى مطابعهم وقاموا

بتقديمي إلى أصدقائهم وأظهروا تجاهي الكثير من التهذيب بينما هو ـ على الرغم من كونه المدير ـ إلا أنه قد تم إهماله قليلاً. في الحقيقة كان كالسمكة الغريبة، جاهلاً بالحياة العامة، مولعاً بالاعتقادات المسلَّم بها والمتعارضة بجهالة، قذر الملابس إلى أقصى درجات القذارة، متحمس لبعض جوانب الدين وإضافةً إلى ذلك غير صادق. بقينا هناك ما يقارب الثلاثة أشهر، وخلال ذلك الوقت تمكنتُ من الاعتماد على أصدقائي الذين اكتسبتُهم: القاضي (آلان)، (صاموئيل بستل)، سكرتير المقاطعة، (إسحق بيرسون)، (جوزيف كوبر) والعديد من الذين اسمهم (سمث)، أعضاء مجلس النواب، و(إسحق ديكو) مسّاح الأراضي العام. الأخير كان رجل عجوز فطن ذكي أخبرني بأنه بدأ بالاعتماد على نفسه عندما كان شاباً بتدوير عجلة الصلصال لصانعي الطابوق. تعلم الكتابة بعد أن كبر في السن، حمل السلسلة للمسّاحين الذين علموه مسح الأراضي وهو الآن أحرز ناحية مادية جيدة بمثابرته وقال: «أتوقع بأنك ستجعل هذا الرجل قريباً ناجحاً في عمله وستعمل ثروة من وراء ذلك في فيلادلفيا». لم يكن لديه عندئذٍ أدنى علم عن عزمي على الإقامة هناك أو في أي مكان. كان هؤلاء الأصدقاء ذوي فائدة عظيمة لي بعدئذٍ لأنني كنتُ مفيداً أحياناً لبعض منهم. استمر جميعهم على احترامهم لي طوال حياتهم. قبل أن أدخل على خشبة المسرح في مجال العمل سيكون من الأفضل أن أجعلك تدرك طبيعة تفكيري في ذلك الوقت، مع الإشارة إلى مبادئي وأخلاقياتي التي كما ترى كيف أثّرت على الأحداث المستقبلية لحياتي إلى حد بعيد. كان والداي قد منحاني بشكل مبكر انطباعات عقائدية، وقاموا بتربيتي خلال طفولتي بشكل ورع بطريقة مخالفة. لكن ما كدت أصبح في سن الخامسة

عشرة عندما (بعد شكّي بعدة نقاط متنازع عليها في الكتب المختلفة التي قرأتُها) بدأتُ أشك بالوحي نفسه. وقعتْ بعض الكتب التي كانت ضد الربوبية بين يدي، قيل إنها كانت عبارة عن خلاصة المواعظ التي تم إلقاؤها في محاضرات (بويل). ما حدث أنها أثّرت بي بطريقة معاكسة تماماً لما كان القصد منها لأن حجج الربوبيين - والتي تم الاستشهاد بها لدَحضها - بدت لي أقوى بكثير من التفنيدات. باختصار سرعان ما أصبحتُ ربوبي ضليع. أضلّتْ حججي بعض الآخرين خصوصاً (كولينز) و(رالف) لكن بعد ذلك سلب كل واحد منهم أموالي بشكل كبير بدون أدنى ندم. وبإعادة تذكري لسلوك (كايث) تجاهي - الذي كان هو الآخر صاحب فكر حر - وسلوكي تجاه (الفيرنوني) والآنسة (ريد) الذي سبب لي أحياناً متاعب كبيرة بدأتُ بالشك بأن هذا المذهب على الرغم من كونه صائباً إلا أنه لم يكن مفيداً. إنَّ منشوري الذي أصدرتُه في (لندن) اتخذ هذه الأبيات ل (درايدن) كشعار له: [أيًّا يكن الشيء فهو صحيح. فعلى الرغم من أن الإنسان الأعمى لا يرى سوى جزء من السلسلة إلى حد ما (الحلقة الأقرب) فعيناه لا تنقل شعاع الضوء بشكل متساوي بحيث توازن كل ما سبق].

من صفات الله وحكمته اللامتناهية ومن كرمه وقوته استنتجتُ أن لا شيء في الحياة يكون خاطئاً وأن الرذيلة والفضيلة هي ألقاب فارغة فلا توجد أمور كهذه، كما اتضح الآن بأنه ليس إنجازاً بارعاً كما اعتقدتُ ذلك ذات مرة. وشككتُ فيما إذا لم تكن بعض الأخطاء قد تسللتْ بشكل لا أدركه إلى نقاشاتي كانت قد أثرت على كل من اتبعها كما هو شائع في البراهين الميتافيزيقية. ازددتُ اقتناعاً بأن الحق والصدق والنزاهة في

التعامل بين إنسان وإنسان هي ذات أهمية قصوى لتحقيق حياة سعيدة وقمتُ بتأليف حلول ـ والتي لا زالت في دفتر اليوميات الخاص بي ـ كي نضعها موضع التطبيق العملي دائماً طالما عشت. إنَّ الوحي في الحقيقة ليس له أهمية لديّ في حد ذاته لكنني استمتعتُ برأي مفاده: قد لا تكون سلوكيات معينة سيئة لأنها محرّمة، أو جيدة لأنه قد أُمِرَ بها، فقد تكون هذه السلوكيات محرّمة لأنها سيئة لنا، أو أُمِرَ بها لأنها نافعة لنا، بطبيعتها. فكل الظروف تؤخذ بعين الاعتبار. إنَّ هذا الرأي مع اليد الكريمة للعناية الإلهية أو للملاك حارس أو للظروف والمواقف العَرَضية الملائمة أو لجميعها معاً، قد حفظتني ـ خلال هذا الوقت الخطر من عمر الشباب والمواقف الخطيرة التي أجد نفسي أحياناً بها بين الغرباء بعيداً عن مراقبة ونصيحة أبي ـ من دون أي انحراف أخلاقي جسيم ومقصود أو أذًى والذي قد يُتَوَقَّع صدوره مني بسبب نقصي في الدين. أقول مقصود، لأن الظروف التي ذكرتُها لها شيء من الضرورة فيها، من فترة شبابي وعدم خبرتي واحتيال البعض. لهذا امتلكتُ شخصية مقبولة كي أنطلق للعالم بها. فقيّمتُها بشكل صائب وعزمتُ على الاحتفاظ بها.

لم يمضِ على عودتنا إلى (فيلادلفيا) وقت طويل قبل وصول الحروف المطبعية الجديدة من (لندن). قمنا بتسوية الأمر مع (كايمر) وتركناه بموافقته قبل أن يسمع بالأمر. وجدنا منزلاً للإيجار قرب السوق وأخذناه. ولغرض تقليل الإيجار ـ والذي كان في ذلك الوقت أربعة وعشرين باونداً فقط في السنة، ورغم معرفتي بأنه يؤجر مقابل سبعين ـ ضممنا إلينا (توماس غودفري) وهو صانع زجاج ـ وعائلته والذي كان عليه أن يدفع لنا جزءاً كبيراً منه وعلينا نحن أن نسكن عندهم. ما إن قمنا بفتح حروفنا

الطباعية وقمنا بتوضيب مكبس طابعتنا، قام (جورج هاوس) أحد معارفي بجلب واحد من أبناء البلد إلينا كان قد قابله في الشارع وهو يسأل عن عامل مطبعة. كانت كل أموالنا قد أُنفقت الآن في مختلف التفاصيل التي كنا ملزمين بجلبها. وكانت خمسة شلنات هذا المواطن التي كانت أول ثمارنا التي أتت في وقتها المناسب قد منحتني سعادة أكبر من أي كراون[1] كنتُ قد حصلتُ عليه منذ ذلك الحين. وإن شعور الامتنان الذي شعرتُ به تجاه (هاوس) جعلني دائماً مستعداً أكثر من قبل كي أساعد المبتدئين الشباب.

في كل بلدة هناك متذمرون، دائماً ما ينذرون بخرابها. شخص كهذا عاش في ذلك الوقت في (فيلادلفيا)، شخص ذو حكمة، رجل كبير في السن، ذو هيئة حكيمة وذو أسلوب رزين في الكلام اسمه كان (صامويل مايكل). وقف هذا الرجل المحترم في أحد الأيام ـ وكنتُ لا أعرفه ـ عند بابي وسألني فيما إذا كنتُ الشاب الذي قام مؤخراً بفتح دار طباعة جديد، وعندما أجيب بنعم قال بأنه متأسف حيالي لأنه كان مشروعاً مكلفاً وأن النفقات سوف تضيع لأن (فيلادلفيا) مكان آيل للانهيار فالناس شبه مفلسين مسبقاً أو على وشك، وأن كل المظاهر التي تشير إلى عكس ذلك كالبنايات الجديدة وارتفاع الإيجارات كانت ـ استناداً إلى معلوماته المؤكدة ـ خادعة لأنها في الحقيقة كانت من بين الأمور التي سوف تتسبب عما قريب بإفلاسنا. ومنحني تفاصيل كتلك عن المصائب الموجودة حالياً أو تلك التي ستحدث قريباً وتركني شبه مغتم. لو كنتُ أعرفه من قبل أن

---

(1) الكراون: عملة كانت تستعمل ولا تزال في بعض الدول الأوروبية، يطلق عليها باللاتينية (كورونا)، ولها تسميات أخرى حسب الدول.

أشترك في هذا العمل لما كنتُ قد اشتركتُ به. استمر هذا الرجل بالعيش في هذا المكان الفاسد واستمر يخطب بنفس الطريقة رافضاً ولسنين عديدة أن يشتري بيتاً هناك لأن كلها آيلة للهلاك. وفي النهاية سعدتُ لرؤيته يدفع خمس مرات أكثر مقابل بيت وكأنما اشتراه عندما بدأ تذمره لأول مرة.

كان عليّ أن أذكر قبلاً، أن في خريف السنة الماضية جمعتُ أغلب معارفي الأذكياء في نادي للنماء المتبادل والذي أطلقنا عليه اسم (الزمرة). كنا نجتمع في أمسيات الجمعة.تقضي القواعد التي رسمتُها بأن على كل عضو ـ كلٌّ حسب دوره ـ أن يقدم سؤالاً أو عدة أسئلة في أي موضوع عن الأخلاق، السياسة، الفلسفة الطبيعية، كي يتم مناقشتها من قبل المجموعة، ونقدم مرة كل ثلاثة أشهر ونقرأ تقريراً من كتابته بخصوص أي موضوع يسرّه. كانت نقاشاتنا يجب أن تكون تحت توجيه رئيس ويجب أن تُقاد بالروح الصادقة للبحث عن الحقيقة بدون الولع بالخصام أو الرغبة بالنصر. ولتفادي العنف، كانت كل تعابير التأكيد أثناء قول الآراء أو الاعتراضات المباشرة يتم حظرها تحت عقوبات مالية صغيرة. أول الأعضاء كان:

ـ (يوسف برينتنال): ناسخ وثائق لدى كاتب العدل، رجل متوسط العمر، كريم ودود، محب عظيم للشعر، يقرأ كل ما باستطاعته إيجاده ويكتب بعض ما هو مقبول. ذكي جداً وذو حديث متزن.

ـ (توماس غودفري): علّم نفسه الرياضيات بنفسه، عظيم في منهجه، ومن ثم مخترع ما يسمى ربعية (هادلي)[1] لكنه يعلم القليل في ما يخص

(1)ربعية هاردلي: أداة يدوية تستخدم بشكل رئيسي في البحر لقياس ارتفاع الشمس أو أي جسم سماوي آخر للتأكد من موضع السفينة. (المترجمة)

خارج مجاله، ولم يكن رفيقاً ظريفاً لأنه كمعظم الرياضيين العظماء الذين التقيتهم كان يتوقع دقة تامة في كل شيء يقال أو يرفض دائماً أو يميز بين التفاهات إلى حد الإزعاج طوال المحادثة وسرعان ما يغادرنا.

ـ (نيكولاس سْكَلْ): مسّاح أراضي ثم بعد ذلك مسّاح عام، أحبَّ الكتب وأحياناً يقوم بنظم القليل من الأبيات. (وليام بارسونز): نشأ على صناعة الأحذية، لكنه كان يحب القراءة، حظي بمعرفة كبيرة من الرياضيات والتي درسها لأول مرة بغية علم التنجيم والذي بعد ذلك سخر منه. كذلك أصبح مسّاح عام.

ـ (وليام ماغرج): نجار وميكانيكي بارع إلى حد بعيد ورجل رصين وعاقل.

ـ (هيو ميريديث)، و(ستيفن بوتس) و(جورج ويب) الذين وصفتهم من قبل.

ـ (روبرت غريس): رجل محترم ذو بعض الثراء، كريم، نشيط، وفكاهي، محب للتورية ولأصدقائه.

ـ (وليام كولمان): كاتب لأحد التجار في ذلك الوقت، بعمري تقريباً، يمتلك فكر الأكثر هدوءاً ووضوحاً، وأفضل قلب وأخلاق، أكثر انضباطاً من أي رجل قابلته يوماً تقريباً. أصبح بعدئذٍ تاجراً ذا شهرة واسعة وواحداً من قضاتنا الإقليميين. استمرت صداقتنا بدون انقطاع لحين وفاته ما يزيد على الأربعين عاماً، واستمر النادي تقريباً بنفس المدة. وكان أفضل مدرسة للفلسفة والأخلاق والسياسة وُجدت في ذلك الوقت في المقاطعة، لأن تساؤلاتنا ـ والتي كان يُقرأ عنها قبل أسبوع من مناقشتنا ـ أجبرتنا على

القراءة باهتمام عن أكثر المواضيع المختلفة والتي قد نقوم بمناقشتها حسب الغرض. وهنا أيضاً نكتسب أفضل عادات المحادثة. كل شيء يتم تدارسه وفقاً لقوانيننا والتي تمنع ازدراء أحدنا للآخر. من هنا كانت ديمومة النادي والذي سأجد مناسبة أخرى كي أتحدث عنه أكثر في المستقبل. لكن بمنحي هذه القصة عنه هنا هو لكي أوضح شيئاً مثير للاهتمام لديّ، فكل واحد من هؤلاء يعملون على توكيل عمل لنا. ف (برينتنال) بالخصوص جلب لنا من الكويكرز الصفائح الطباعية الأربعون لتأريخهم أما الباقي فكان يجب أن يتم من قبل (كايمر). على هذا الأساس عملنا بجد جداً لأن السعر كان منخفضاً إذ كان حجم الكتاب من نوع (فوليو)[1] بحجم ورقة من نوع (بروباتريا)[2] وحروف من نوع (بيكا)[3] مع حواشي من نوع (لونغ برايمر)[4]. أنا أقوم بتنضيد صفحة منها في اليوم وكان (ميريديث) يستعملها كقالب عند الطبع. كانت الساعة غالباً ما تصل الحادية عشرة ليلاً وأحياناً أكثر من ذلك قبل أن أنتهي من توزيع الأحرف الطباعية لعمل اليوم التالي لأن الأعمال الصغيرة التي تُرسل من قبل أصدقائنا الآخرين تقوم من الآن فصاعداً بعرقلتنا. وبما أني صممتُ على ذلك كان عليّ أن أستمر بإنهاء صفحة يومياً من حجم فوليو. حدث في إحدى الليالي عندما قمت بترتيب صفحات النماذج واعتقدتُ بأن عملي اليومي قد

(1)فوليو: مصطلح يستعمل لوصف حجم كتاب طوله 15 ان (38 سم) تقريباً. (المترجمة)
(2)بروباتريا: مصطلح لوصف قياس ورقة أبعادها (5,34 ×43) سم في فرنسا و (34 ×43) سم في ألمانيا. (المترجمة)
(3)بيكا: هي وحدة حجم الحروف المطبعية وطول خط يساوي 12 نقطة (حوالي سدس انج أو 4.2 ملم). (المترجمة)
(4)لونغ برايمر: هو حجم قديم من الحروف المطبعية (حوالي 10 نقاط). (المترجمة)

انتهى، انكسر واحد منهم بالصدفة وتبعثرت صفحتان، فقمت فوراً بتوزيع الأحرف الطباعية وقمت بتنضيدها للمرة الثانية قبل أن أخلد للفراش. إن هذه المثابرة بالعمل والتي أدركها من بالجوار قد بدأت تمنحنا طابعاً مميزاً وصيتاً، خصوصاً أنه قيل لي بأنه يأتي في نادي (إيفري نايت) للتجار على ذكر دار الطباعة الجديد وكان الرأي السائد فيه بأنه لا بد وأنه سيفشل لأنه يوجد مسبقاً عمال طباعة في المكان: (كايمر) و (برادفورد)، لكن الدكتور (بيرد) (الذي رأيناه أنا وأنت بعد ذلك بعدة سنوات في بلده الأم سانت آندروز في اسكتلندا) قد أعطى رأياً مغايراً (عن مثابرة هذا الفرانكلين) قال: «كان أكثر إنسان مميز رأيته يوماً، كنتُ أراه لا يزال في العمل عندما أذهب للبيت من النادي، وأراه في العمل ثانيةً قبل أن يصحو جيرانه من النوم». إن ذلك قد صدم البقية وسرعان ما تلقينا بعد ذلك عروضاً من أحدهم كي يزودنا بالقرطاسية. لكن حتى تلك اللحظة لم نختر أن ندخل مجال عمل المتاجر أقوم بذكر هذه المثابرة بشكل مفصل وبدون تقييد على الرغم من أنها ذُكرتْ لمدحي، كي تعرف أجيالي القادمة الذين سيقرأونها فائدة هذه الفضيلة عندما يرون أن تأثيراتها كانت في صالحي. أتى لنا الآن (جورج ويب) الذي كان قد وجد صديقة استمالته كي يعمل لدى (كايمر)، أتى كي يعمل لدينا باليومية. لم نستطع وقتها أن نوظفه لكنني بكل حماقة أعلمته سراً وهو أنني أنوي حالياً بالبدء بإصدار صحيفة، وعندها قد أجد له عملاً فيها وأن آمالي بالنجاح (كما قلت له) معلقة على أن الصحيفة الوحيدة آنذاك التي تُطبع من قبل (برادفورد) كانت شيئاً تافهاً وتُدار بشكل سيّئ ولا يوجد بها ما يدعو للتسلية لكن مع ذلك كانت مربحة له لذا فكرتُ بأن صحيفة جيدة ذات إعداد جيد نادراً ما ستفشل. طلبتُ من (ويب) أن

لا يذكر الموضوع لكنه ذكره لـ (كايمر) الذي سرعان ما (كي يسبقني) قام بنشر مقترحات بطبع واحدة بنفسه والتي كان على (ويب) أن يتوظف فيها.

استأتُ لهذا. ولكي أحبطهما (ولأنني لم أتمكن من أن أبدأ صحيفتنا بعد) قمتُ بكتابة عدة مواضيع مسلية لصحيفة (برادفورد) تحت عنوان (المتطفل) والتي استأنفها (بريتنال) لبضعة أشهر. خلال تلك الأثناء كان انتباه العامة قد تركز على تلك الصحيفة. أما مقترحات (كايمر) ـ التي سخرنا منها وتهكمنا عليه ـ قد تم تجاهلها. رغم ذلك فقد بدأ بإصدار صحيفته. وبعد أن استمرت ثلاثة أرباع السنة بعدد مشتركين أقصاه تسعين مشتركاً فقط عرضها عليّ للبيع مقابل سعر تافه. فتوليتُ أمرها مباشرةً بعد أن كنت على استعداد في وقت ما كي أستمر بها. وثبت بأنها كانت مربحة للغاية لي في سنوات قلائل.

أعتقد بأنه حريّ بي أن أتكلم بصيغة المفرد، فعلى الرغم من أن شراكتنا لا زالت مستمرة والسبب في الحقيقة هو أن أغلب إدارة العمل وقعت على عاتقي. ف (ميريديث) لم يكن منضّداً، وكان عامل مكبس طابعة رديئاً، ونادراً ما يكون في وعيه. رثى أصدقائي صلتي به، لكن كان عليّ أن أستفيد استفادة قصوى من ذلك. كانت أولى صحفنا قد عملت ظهور مختلف تماماً عن أية صحيفة ظهرت مسبقاً في المقاطعة، أفضل حروف طباعية وأفضل طباعة. لكن بعد الإشارات الشجاعة لكتابتي بخصوص الجدال الدائر آنذاك بين المحافظ (بيرنيت) ومجلس نواب (ماساتشوسست) صعقت المسؤولين وجعلت الصحيفة ومسؤولها عرضة للكلام الكثير. وفي غضون أسابيع قليلة حملت جميعهم على أن يكونوا من مشتركينا. تتابع العديد من أمثالهم واستمر رقمنا بالتصاعد بشكل مستمر. كان هذا

أحد أول التأثيرات الجيدة لتعلمي القليل من الخربشات. التأثير الآخر هو أن القادة وهم يرون الآن صحيفة تحت سيطرة شخص بإمكانه أيضاً أن يحمل قلماً، فكّروا أنه من المناسب أن يتنازلوا ويقوموا بتشجيعي.

استمر (برادفورد) بطباعة بطاقات الانتخابات والقوانين وأمور الشأن العام الأخرى. قام بطباعة خطبة من خطب المجلس النيابي إلى المحافظ بشكل كبير وخاطئ، بينما نحن قمنا بإعادة طباعتها بشكل أنيق وصحيح وقمنا بإرسال واحدة إلى كل عضو. كانوا مدركين للفرق، وقد قوّى ذلك دور أصدقائنا في المجلس النيابي وصوتوا لنا كطابعيهم للسنة التالية. من بين أصدقائي في المجلس النيابي الذي لا يجب أن أنساه السيد (هاملتون) السابق ذكره والذي كان وقتها عائداً من (إنكلترا) والذي له مقعد فيه. حمّس نفسه تجاهي بشدة في هذه القضية كما فعل في قضايا أخرى بعدئذٍ مستمراً بحمايته لي حتى وفاته[1].

في ذلك الوقت ذكّرني (الفيرنوني) بالدين الذي أدين له به لكنه لم يلح عليّ، فكتبتُ له رسالة صريحة بالاعتراف ملتمساً صبره لمدة أطول قليلاً، وهو ما سمح لي به. وحالما تمكنتُ، قمت بدفع أصل الدين مع الفوائد مع الشكر الجزيل. وبهذا، كان ذلك أول خطأ مطبعي قد تم تصحيحه بدرجةٍ ما. لكن واجهتني صعوبة أخرى الآن والتي لم يكن لديّ أدنى سبب كي أتوقعها. كان والد (ميريديث) الذي كان عليه أن يدفع من أجل دار الطباعة خاصتنا وفقاً للتقديرات التي منحت لي ـ قادراً على دفع مائة باوند فقط نقداً والتي تم دفعها، ومائة أخرى كان مديناً بها للتجار الذين أصبحوا

(1) جعلتُ ابنه في إحدى المرات يحصل على خمسمائة جنيه إسترليني. [ملاحظة هامشية]

غير صبورين وقاموا بمقاضاتنا جميعاً. قمنا بتقديم كفالة، لكننا رأينا أنه إذا لم يتم دفعها في الوقت المناسب فلا بد أن الدعوى ستصل فوراً إلى المحكمة وتنفيذ الأمر وستتحطم آمالنا المستقبلية لأن المطبعة والحروف الطباعية يجب أن تباع من أجل التسديد إلى نصف السعر. في هذه المحنة حضر إليّ صديقان حقيقيان اللذان لم أنسَ ولن أنسى عطفهما أبداً طالما أستطيع تذكر أي شيء ـ أتيا إليّ كلٌّ على حدة بدون علم أحدهما للآخر وبدون أي طلب مني، يعرض كل منهما عليّ أن يدفعوا لي كل الأموال اللازمة كي أتمكن من تولّي جميع العمل بنفسي إذا كان ذلك ممكن من الناحية العملية، لكنهما لم يحبّا استمراري بالشراكة مع (ميريديث) الذي ـ كما ذكرا ـ دائماً ما يُرى مخموراً في الشوارع ومنهمكاً بالألعاب المبتذلة في الحانات، مما سبّب خزيناً.

هؤلاء الصديقان هما (وليام كولمان) و(روبرت غريس). أخبرتُهم بأني لا أستطيع اقتراح الانفصال إذا بقيت أية احتمالية لإيفاء آل (ميريديث) بجزئهم الخاص بهم في اتفاقيتنا لأنني كنتُ أعتقد بأنني تحت التزام أخلاقي كبير تجاههما لما فعلاه وكانا سيفعلان ذلك لو استطاعوا، لكن إذا فشلا في النهاية بإيفائهما، وأن على شراكتنا أن تنتهي، سأكون عندها حراً بأن أقبل مساعدة أصدقائي. وعليه فقد هدأ الأمر لبعض الوقت عندما قلتُ لشريكي: «قد يكون والدك غير راضي على المشاركة التي أخذتَها على عاتقك في هذه القضية الخاصة بنا وغير راغب بأن يدفع لك ولي ما كان سيدفعه لك وحدك. فإذا كان الأمر كذلك أخبِرني وسأترك الأمر لك كله وأذهبُ إلى شأني». فقال: «لا، فقد خاب أمل والدي حقاً وعاجز فعلاً وأنا غير راغب بأن أزعجه أكثر، فأنا أرى إن هذا عملاً لستُ مناسباً له. فقد

نشأتُ كفلاح ومن الحماقة من جانبي أن آتي للمدينة وأن أضع نفسي (في الثلاثين من العمر) كمتدرب كي أتعلم تجارة جديدة. فالعديد من أناسنا الويلزيين سيستقرون في (كارولينا الشمالية) حيث الأرض رخيصة الثمن. فأنا أنوي الذهاب معهم وأن أتابع مهنتي القديمة، ربما ستجد أصدقاء كي يقوموا بمساعدتك، فإذا كنتَ ستتحمل دين الشركة على عاتقك فأعد لوالدي المائة باوند التي دفعها، وقم بدفع ديوني الصغيرة الخاصة، وأعطني ثلاثين باونداً وسرجاً جديداً وسأتخلى عن الشراكة وأترك كل شيء لك». وافقتُ على هذا المقترح وتم توثيق ذلك كتابةً ووُقِّعَ وخُتِمَ على الفور. منحتُهُ ما طلب وذهب فوراً بعد ذلك إلى (كارولينا). أرسل لي من هناك في السنة التالية رسالتين طويلتين تتضمنان أفضل قصة منحها عن تلك البلاد، المناخ، التربة، الزراعة، إلخ. لأن في تلك الأمور كان حصيفاً جداً. فقمتُ بطباعتها في الصحف وقد منحتْ ارتياحاً كبيراً للعامة. حالما رحل، عدت ثانيةً إلى صديقي. ولأني ما كنتُ لأمنح أفضلية فظّة لأحدهما على الآخر أخذت نصف ما عرض عليّ أحدهما ونصف ما عرضه عليّ الآخر وقمتُ بتسديد ديون الشركة وواصلتُ العمل باسمي الخاص معلناً أن الشراكة قد حُلَّتْ. أعتقد أن ذلك كان حوالي سنة 1729.

في حوالي ذلك الوقت كان هناك هتاف بين الناس للمزيد من النقود الورقية. إذ يوجد فقط خمسة عشر ألف باوند موجودة في المقاطعة، وتلك سرعان ما تختفي. عارض السكّان الأثرياء أيّة إضافة كونهم ضد كل النقود الورقية مخافة أن تنخفض قيمتها كما حصل في (نيوإنغلاند) مما سبّب حنق كل الدائنين. ناقشنا هذه النقطة في (زمرتنا) حيث كنتُ أنا إلى جانب الإضافة لأنني مقتنع بأن النقود الصغيرة الأولى التي تم سكّها في عام 1723

قد أدّتْ إلى خير كثير بازدياد التجارة والوظائف وعدد السكان في المقاطعة لأني أرى الآن جميع البيوت القديمة مسكونة وأخرى عديدة يتم بنائها. في حين تذكّرتٌ جيداً عندما مشيت لأول مرة في شوارع (فيلادلفيا) وأنا آكل قرص الخبز خاصتي رأيتُ معظم المنازل في (شارع الجوز) بين (الشارع الثاني) و(الشارع الرابع) معلق عليها ملصقات على أبوابها «للإيجار»، والعديد كذلك في (شارع الكستناء) والشوارع الأخرى، والذي جعلني أفكر عندها بأن سكّان المدينة يتناقصون الواحد تلو الآخر.

استولت عليّ بشكل كامل مناقشاتنا للموضوع بحيث قمتُ بكتابة وطباعة منشور مجهول بشأنه عنونتُهُ «جوهر وضرورة النقود الورقية» وقد تم الترحيب به كثيراً من قبل عامة الناس عموماً، لكن كَرِهَهُ الناس الأغنياء لأنه زاد من، وقوّى، الضجّة للمزيد من النقود. وحدث أنه لم يكن من بينهم من يستطيع الكتابة كي يتمكنوا من الرد عليه، فضعُفت معارضتهم ونُقلت القضية من قبل الأغلبية إلى المجلس النيابي. اعتقد أصدقائي هناك بأنه من المناسب مكافأتي بتوظيفي لطبع النقود. عمل مربح جداً وقد ساعدني كثيراً. كانت هذه فائدة أخرى حصلتُ عليها بكوني قادراً على الكتابة.

أصبحت فائدة هذه النقود واضحة جداً بمرور الوقت لأن بعدها لم نتناقش أبداً. لذا نمَتْ بسرعة إلى خمسة وخمسين ألف باوند. وفي عام 1739 إلى ثمانين ألف باوند. ومنذ ذلك الوقت ارتفعت خلال الحرب إلى ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين باونداً. وكانت التجارة والبناء والسكّان يزدادون خلال تلك الفترة كلها، لذا أعتقد الآن بأن هناك حدوداً إذا تجاوزناها ستصبح الكمية مضرّة.

بعد ذلك مباشرةً، حصلتُ من خلال صديقي (هاملتون) على حق

طباعة النقود الورقية ل (نيوكاسل). مشروع مربح آخر كما اعتقدتُهُ في ذلك الحين. فالأمور الصغيرة تبدو كبيرة لأولئك الذين في ظروف متواضعة. وهذه بالنسبة لي كانت بالفعل فائدة كبيرة كما كانت تشجيع كبير. واستحصلَ لي أيضاً على حق طباعة قوانين وبطاقات اقتراع تلك الحكومة والتي استمرت تحت يدي طوال فترة التحاقي بعملي.

الآن قمتُ بافتتاح متجر صغير للقرطاسية، لدي فيه أوراق اليانصيب من كل الأنواع والأكثر صحة من أية أوراق أخرى ظهرت بيننا يوماً، تمت مساعدتي في ذلك من قبل صديقي (برينتنال). لديّ أيضاً ورق نفيس وكتب (جابمان) إلخ. أتى إليّ واحد من بلدة (وايتماش)، منضّد عرفته في (لندن)، عامل ممتاز، وعمل معي بشكل مستمر وبجد. اتخذتُ ابن (أكويلا روز) لديّ متدرباً. بدأتُ الآن بتسديد الدين الذي كنتُ مديناً به من أجل دار الطباعة، بالتدريج. حرصتُ من أجل أن أحافظ على سمعتي وشخصيتي كصاحب متجر أن لا تكون في الواقع لامعة واقتصادية فقط بل لكي أتفادى كل مظاهر البذخ. فارتديتُ ملابس عادية. ولم يرني أحد في الأماكن العاطلة. لم أذهب يوماً للصيد أو للرماية. فالكتاب في الحقيقة أحياناً يغريني عن عملي. ولكي أبين بأني لا أتعالى على عملي أقوم أحياناً بجلب الورق الذي اشتريتُه من المخازن خلال الشوارع على عربة يدوية إلى المنزل. وهكذا، لأنني شاب مثابر وناجح وأدفع كما ينبغي لما أشتريه، جذبتُ عاداتي التجار الذين يستوردون القرطاسية، عرض عليّ آخرون تزويدي بالكتب واستمريتُ بنجاح. في تلك الأثناء كانت سمعة (كايمر) وعمله ينحدران يومياً. في النهاية اضطر لأن يبيع دار الطباعة الخاصة به كي يرضي دائنيه. ذهب إلى (باربادوس) وعاش هناك بضع سنوات في

ظروف فقيرة جداً. بدأ (ديفيد هاري) ـ عامله الذي كنتُ أعلمهُ عندما كنتُ أعمل معه ـ عمل مكانه في (فيلادلفيا) لأنه اشترى لوازمه. في البدء كنتُ متخوفاً من القوة المنافسة لدى (هاري) لأن أصدقائه كانوا متمكنين جداً ولديهم مقدار كبير من الاهتمام. لذا قمتُ باقتراح شركة معه والتي (لحسن حظي) رفضها بازدراء. كان مختالاً جداً، يرتدي كالرجل النبيل. عاش حياة مكلفة وانغمس باللهو والمتعة بشكل واسع. انحدر في الديون وأهمل عمله وبناءً على ذلك ترك عمله. ولأنه لم يجد شيئاً يعمله تبع (كايمر) إلى (باربادوس) آخذاً دار الطباعة معه. وهناك وظّف المتدرب سيده القديم كأجير باليومية. كانا دائماً ما يتشاجران. استمر هاري بالتراجع، وفي النهاية اضطرّ لأن يبيع حروفه المطبعية وأن يعود إلى عمله في الريف في (بنسلفانيا). كان الشخص الذي اشتراهم قد وظّف (كايمر) كي يستعملهم لكنه مات خلال سنوات قليلة.

وهنا، لم يبقَ أي منافس لي في (فيلادلفيا) سوى العجوز (برادفورد) الذي كان غنيّاً ومتأنياً. صنع مطبوعات قليلة من حين إلى آخر بواسطة الأيادي العاملة المتفرقة لكنه لم يكن حريصاً بشأن العمل. على أية حال فقد كان يعتقد بأن فرص حصوله على الأخبار كانت أفضل لأنه كان يدير دائرة البريد. وكان يعتقد أن صحيفته كانت أفضل موزع للإعلانات من صحيفتي ولذلك كانت لديه إعلانات أكثر والذي كان أمراً مربحاً له، وأمراً ضارّاً لي، لأنه: رغم أنني فعلاً أقوم باستلام وإرسال الصحف بواسطة البريد إلا أنه مع ذلك كان الرأي العام مخالفاً، وهو أن ما أقوم بإرساله كان يتم برشوة راكبي الدراجات الذين يأخذونها سرّاً، و (برادفورد) الذي لم يكن كريماً بما يكفي كي ينكر الأمر، قد سبب بعض الاستياء من جانبي

واعتبرتُهُ حقيراً جداً بسبب ذلك. وعندما ورثتُ منصبه بعد ذلك حرصتُ على أن لا أقلده أبداً.

حتى الآن واصلتُ السكن مع (غودفري) الذي عاش في جزء من منزلي مع زوجته وأطفاله ويملك جانب واحد من المتجر لأعماله الزجاجية. على الرغم من عمله القليل إلا أنه كان دائماً مستغرقاً في علم الرياضيات. كانت السيدة (جودفري) تخطط لخطبة لي مع ابنة إحدى قريباتها. كانت تستغل الفرص كي تجمعنا معاً إلى أن تبعه تودد حقيقي من جانبي. كانت الفتاة نفسها مؤهلة جداً. شجعني قريباها العجوزان بالدعوات المستمرة للعشاء وبتركنا معاً إلى أن حان وقت العرض في النهاية. تولّت السيدة (غودفري) أمر إدارة اتفاقيتنا الصغيرة. أطلعتُها بأنني أتوقع مالاً كثيراً إذا قامت ابنتهم بتسديد ديني المتبقي لدار الطباعة والذي لم يكن وقتها على ما أعتقد يزيد عن المائة باوند. فجاءتني بنبأ أنهم لا يدخرون هذا القدر من المال. فقلتُ أن بإمكانهم رهن منزلهم لدى مكتب القروض. كان الجواب لذلك بعد بضعة أيام بأنهم لا يوافقون على الخطبة لأن لدى سؤال (برادفورد) تم إخبارهم بأن العمل بالطباعة لم يكن عملاً مربحاً، فالأحرف المطبعية كانت ستبلى قريباً وسنحتاج المزيد بحيث إن (س. كايمر) و (د. هاري) فشل الواحد تلو الآخر، وأنه على الأرجح سيلحق بهم قريباً. ولهذا السبب تم حرماني من المنزل وتم إسكات الابنة. سواءً أكان ذلك تغييراً حقيقياً في الرأي أم مجرد خدعة على اعتبار بأننا كنا متقاربين ولمدة طويلة فسأتأثر بالرفض وسنقوم لهذا السبب بالزواج في السر والذي سيترك لهم الحرية بمنح واسترداد ما يعجبهم. لا أعلم، ولكني أفترض الرأي الأخير، فاستأتُ من الأمر ولم أستمر به. بعد ذلك جاءت إليّ السيدة (غودفري)

ببعض القصص المبشرة بموافقتهم وكانت ستجرني مرة ثانية لكني أعلنتُ وبشكل نهائي عن قراري بأن لا علاقة لي بتلك العائلة. تم الاستياء من ذلك من قبل آل (غودفري)، فاختلفنا ورحلوا تاركين لي المنزل بأكمله، وقررتُ بأنه لن أتخذ نزلاء بعد اليوم.

لكن هذه المسألة قد وجّهت تفكيري نحو الزواج. فنظرتُ حولي وقمتُ بمفاتحة المعارف في مكانات أخرى لكني سرعان ما اكتشفتُ بأن عمل الطابعي يُعتقد بشكل عام أنه مجدب، وأنه لم يكن عليّ أن أنتظر مال مع زوجة سوى مع واحدة خاصة، وهو أمر لا أعتبره مقبولاً. في تلك الأثناء أسرع بي شغف الشباب الذي يصعب التحكم به ـ بشكل متكرر بالتوجه نحو النساء الوضيعات اللواتي يقعن في طريقي واللواتي يتم استصحابهن مقابل بعض النقود ومتاعب كبيرة، إضافة إلى المخاطرة بصحتي بمرض السل الذي أزدريه من بين كل الأمور والذي رغم ذلك فررتُ منه بحظ كبير.

استمر الانسجام الودّي كجيران وكمعارف قدماء بيني وبين عائلة السيد (ريد) الذين يكنّون لي جميعهم الاحترام منذ سكني معهم لأول مرة في منزلهم. كان دائماً ما يتم دعوتي هناك ويتم أخذ مشورتي في شؤونهم حيث أكون أحياناً بالخدمة. رثيتُ وضع الآنسة (ريد) المسكينة الذي يؤسف له والتي كانت حزينة غالباً، نادراً ما تبتهج وتتفادى الرفقة. اعتبرتُ أن طيشي وتهوري عندما كنتُ في (لندن) هو السبب بدرجة كبيرة في عدم سعادتها على الرغم من أن الأم لديها ما يكفي كي تعتقد أن الخطأ خطؤها هي أكثر مما هو خطإي أنا لأنها قامت بمنع زواجنا قبل أن أذهب إلى هناك واقتنعت بالخطبة الأخرى بغيابي. تأجّجت عواطفنا المتبادلة، لكن الآن كان هناك

موانع كبيرة لارتباطنا. فالخطبة كانت في الواقع قد تم اعتبارها خطبة باطلة فقد قيل بأن الزوجة السابقة كانت تعيش في (إنكلترا)، لكن هذا لم يتم إثباته بسهولة بسبب بعد المسافة. وعلى الرغم من وجود محضر عن موته إلا أنه لم يكن مؤكّداً. ومن ثمّ فلنفرض أن ذلك صحيحاً، فهو قد ترك العديد من الديون التي تستدعي خليفته أن يقوم بتسديدها.رغم ذلك فقد جازفنا بكل هذه الصعوبات واتخذتُها زوجة في الأول من شهر أيلول من عام 1730. لم تحدث أي من المتاعب التي كنا نخشاها. وأثبتت أنها رفيقة صالحة ومخلصة وقد ساعدتني كثيراً باعتنائها بالمتجر. نجحنا سويةً وسعينا دائماً وبشكل متبادل كي يجعل كل واحد منا الآخر سعيداً.وبهذا صحّحتُ هذا الخطأ الكبير قد ما استطعت.

خلال تلك الفترة كان اجتماع النادي لم يكن في حانة وإنما في غرفة صغيرة للسيد (غريس) تم تخصيصها لهذا الغرض. تم عرض اقتراح من قبلي وهو أنه طالما يتم الإشارة إلى كتبنا دائماً في خطاباتنا بخصوص الاستفسارات، سيكون من المريح لنا أن نجمعها معاً حيث نجتمع كي يتم الرجوع إليها عند الحاجة وبهذه الطريقة ستتحول مجموعة كتبنا إلى مكتبة عامة فيها يكون (في حالة إن أحببنا أن نجمعها معاً) لكل واحد منا الحق باستخدام كتب جميع الأعضاء الآخرين. والذي سيكون تقريباً مفيداً كما لو أن كل واحد منا قد امتلكها كلها. لقد تم استحسان الفكرة والموافقة عليها، وقمنا بشغل إحدى نهايات الغرفة بهذه الكتب قدر استطاعتنا. لم يكن العدد هائلاً كما توقعنا، وعلى الرغم من أنها كانت ذات فائدة عظيمة، إلّا أن بعض المتاعب تحدث بسبب الحاجة للعناية المناسبة لها. كانت المجموعة قد تفرّقت بعد سنة وأخذ كل واحد منهم كتبه للبيت ثانيةً.

والآن قمتُ بوضع قدم الأساس لأول مشروع لي ذي طابع شعبي وهو مكتبة مستقلة[1]. قمتُ بصياغة الاقتراحات وتم وضعها في استمارة من قبل كاتبنا العظيم (بروكدين)، وبمساعدة أحد أصدقائي في الزمرة جلبنا خمسين مشتركاً بأربعين شلناً لكل منهم كي نستهل بها، وعشرة شلنات سنوياً لخمسين عاماً. وكان الشرط بأن على شركتنا أن تستمر. حصلنا بعد ذلك على امتياز، فالشركة كانت قد كبرت إلى مائة وكانت هذه أم كل المكتبات المستقلة في (أميركا الشمالية). فقد أصبح أمراً عظيماً بحد ذاته ويتزايد باستمرار. قامت هذه المكتبات بتحسين المحادثات العامة للأميركيين وجعلت التجار والمزارعين العاديين أذكياء كغالبية السادة المحترمين من البلدان الأخرى وقد ساهمت بدرجةٍ ما في الموقف الذي اتخذته المقاطعات بشكل عام بالدفاع عن امتيازاتهم.

للتذكير: إلى هنا قد تم كتابته بقصد أفصحتُ عنه منذ البداية، ولهذا تضمن القليل عن حكايات العائلة التي لا أهمية لها للآخرين. وما سَيَلي قد تمت كتابته بعد عدة سنوات التزاما بالنصيحة التي تضمنتها هذه الرسائل، ووفقاً لذلك تم كتابتها بقصد أن يعرفها العامة. أمور الثورة سببت الانقطاع.

(1) المكتبة المستقلة: تسمى أيضاً مكتبة العضوية، وهي مكتبة يتم تمويلها من قبل تبرعات شخصية إما من أجور العضوية أو من الأوقاف. وهي لا تشبه المكتبة العامة فدخولها مقتصر على الأعضاء فقط. (المترجمة)

## رسالة من السيد (أيبل جيمس) مع ملاحظات عن حياتي

(استلمتُها في باريس)

«صديقي العزيز والمبجل»

كثيراً ما كنتُ راغباً بالكتابة إليك، لكني لم أستطع تقبل فكرة أن الرسالة ربما ستقع بيد البريطانيين خشية أن يقوم أحد الطابعين أو المتطفلين بنشر جزء من مضامينها ويسبب لصديقنا الألم النفسي واللوم.

«أحياناً ولسعادتي الكبيرة منذ أن وقعتْ بين يدي هناك حوالي ثلاث وعشرين ورقة بخط يدك تحوي قصة نسبك وحياتك موجهة لابنك منتهية عند السنة 1730 والتي تضمنت ملاحظات، تماماً كما في كتاباتك، قمتُ بإرفاق نسخة منها على أمل أن تكون واسطة، إذا أكملتَها لغاية فترة متأخرة كي نقوم بجمع الجزء الأول والأخير. وإذا لم يكتمل بعد آمل أن لا تقوم بتأجيله فالحياة غير جديرة بالثقة كما يقول لنا الواعظ. وماذا سيقول العالم إذا غادر (بن فرانكلين) العطوف الإنساني الكريم أصدقاءه والعالم محرومين من عمل سار جداً ومربح، عمل سيكون مفيداً وباعث للمتعة ليس فقط للقلة بل للملايين؟. إن التأثير الذي تمتلكه الكتابات ـ التي تندرج ضمن هذا الصنف ـ على تفكير الشباب عظيم جداً، وبدا لي

صريحاً جداً كما في مجلات صديقنا الشعبية، فهي ستقود الشباب بشكل لا واعي تقريباً إلى اتخاذ القرار بالسعي لأن يصبح جيداً وبارزاً كالصحفي. في حالة مذكراتك على سبيل المثال عندما يتم نشرها (وأعتقد أنها لن تفشل في ذلك) ستقود الشباب لبلوغ مثابرة وقناعة شبابك المبكر. أية بركة لهذا الصنف سيصبح عملاً كهذا!. فكما أعلم، لا توجد شخصية حيّة (ولا العديد منهم مجتمعين) من لديه النفوذ كما لديك كي يقوم بتعزيز روح المثابرة والاهتمام المبكر بالعمل والاقتصاد وضبط النفس لدى الشباب الأميركي. لا يعني ذلك بأنني أعتقد بأن العمل لن يكون له ميّزة أخرى وفائدة في الحياة غير ذلك وإنما لأهميته الكبيرة لا أعلم ما يعادله من أهمية».

إنّ الرسالة السابقة والتقرير الذي يرافقها تم إطلاعها على صديق استلمتُ منه الآتي:

رسالة من بنيامين فون

باريس، 31 / كانون الثاني/ 1783

«سيدي المفدّى»:

عندما قمتُ بقراءة أوراق مسودة الأحداث الأساسية لحياتك (تم إعادتها لك بواسطة أحد معارفك من طائفة الكويكرز) ذكرتُ لك بأنني سأرسل رسالة توضّح أسبابي لماذا اعتقدتُ أنه من الضروري أن تقوم بإكمالها وتقوم بنشرها كما رغب هو. منعتْ العديدُ من الأمور لوقت مضى هذه الرسالة من أن تُكتَب، ولا أعلم فيما إذا كانت تستحق أي انتظار أو ترقب. رغم ذلك أنا في الوقت الحاضر في فترة استراحة

وسأقوم ـ على الأقل عن طريق الكتابة ـ بأدنى اهتمام وآمر نفسي. لكن طالما ستميل المصطلحات التي سأنزع إلى استخدامها إلى أن تزعج شخصاً بأخلاقك، سأخبرك فقط كيف لي أن أخاطب أي شخص آخر صالحاً وعظيماً كشخصك لكن خجلان قليلاً. كنتُ سأقول له، سيدي، ألتمس منك تاريخ حياتك للأسباب التالية: فتاريخ حضرتكم ملفت للنظر جداً بحيث إذا لم تقم بالكشف عنه سيقوم شخص آخر بذلك بالتأكيد وربما بطريقة تبعث على الإساءة، في حين ستكون طريقة معالجتك للأمر جيدة. علاوة على ذلك ستمثل لائحة للظروف الداخلية لبلدك والتي ستدعو إليها المستوطنين ذوي العقول الفاضلة والرجولية. ومع الأخذ بعين الاعتبار اللهفة التي سيتم بها طلب أنباء كهذه من قبلهم وامتداد سمعتك، لا أعلم أن هناك إعلاناً أكثر تأثيراً من سيرتك الذاتية. إن كل ما حصل لك، له علاقة أيضاً بتفاصيل السلوك والموقف من رفع الروح المعنوية للناس وبهذا الصدد لا أعتقد أن كتابات القيصر و (تاسيتس)[1] ستكون مثيرة للاهتمام أكثر بالنسبة لخبير حقيقي بالطبيعة البشرية والمجتمع. لكن هذه، يا سيدي، هي برأيي أسباب ضئيلة مقارنةً بالفرصة التي ستمنحها قصة حياتك لتشكيل رجال المستقبل العظماء، وبالتزامن مع طريقتك الخاصة بالفضيلة والتي تخطط لأن تقوم بنشرها لتحسين ملامح الميزات الشخصية وبالنتيجة لتحقيق السعادة التامة على مستوى شعب وعلى مستوى أفراد. إن المؤلِّفين اللذين أشير إليهما، يا سيدي، سيمنح بالخصوص عادة نبيلة ومثال عن تعليم الإنسان نفسه بنفسه. فالمدرسة وأنواع التعليم الأخرى تمضي بشكل مستمر وفقاً

(1) تاسيتس: مؤرخ روماني بابليوس تاسيتس. (المترجمة)

لمبادئ خاطئة وتُظهر نظام أخرق يركز على هدف خاطئ، أما نظامك فبسيط والهدف هدف حقيقي. وبينما يُترك الوالدين والشباب مفتقرين إلى الوسائل الصائبة الأخرى للتقويم التي تجعلهم يصبحوا مهيئين لسلك طريق واقعي في الحياة، إلا أن اكتشافك أن المسألة عند السواد الأعظم من الناس هي القوة الشخصية للإنسان سيصبح له تأثير لا يقدر بثمن! على الميزة الشخصية في عمر متأخر من الحياة ليس فقط تأثير في عمر متأخر وإنما تأثير ضعيف. ففي عمر الشباب نقوم بغرس العادات الأساسية والآراء المسبقة، أنه في عمر الشباب نكتسب طائفتنا كالمهنة والصنعة والزواج. لذلك في عمر الشباب يتم تحديد الاتجاه. في عمر الشباب يتم تحديد التعليم حتى تعليم الجيل القادم. في عمر الشباب تُحدد الشخصية الخاصة والعامة، ومصطلح الحياة الذي يمتد فقط من عمر الشباب إلى عمر الشيخوخة يجب أن تبدأ الحياة بشكل جيد منذ فترة الشباب وخصوصاً أكثر قبل أن نتخذ طائفتنا كذلك أهدافنا الخاصة. لكن سيرتك الذاتية لن تعلم فقط أن يعلم الإنسان نفسه بنفسه وإنما تعليم إنسان حكيم، وأن الانسان الأكثر حكمة سيتلقى الأضواء ويعزز تقدمه بفهم دقيق لسلوك إنسان حكيم آخر. ولماذا على الناس الضعفاء أن يكونوا محرومين من مساعدات كهذه، عندما نرى ذريتنا تتخبط في الظلام بدون مرشد تقريباً في ما يخص هذا الأمر، منذ أبعد أثر من الزمن. إذن اعرضْ، يا سيدي، إلى كل من الأبناء والآباء ما يجب فعله وشجع كل الحكماء كي يكونوا مثلك، والناس الآخرين كي يصبحوا حكماء. عندما نرى كيف لرجل دولة ولمحاربين أن يكونوا قساة تجاه الجنس البشري، وكيف لأناس متميزين أن يكونوا غرباء تجاه معارفهم، سيكون

من المفيد أن نقوم بملاحظة حالات تزايد حالات السلوك السلمي المذعن ولكي نكتشف كم هو ملائم أن يكون عظيماً ووطنياً ومرغوباً فيه ومع ذلك لطيفاً.

«إن الأحداث الصغيرة الخاصة والتي عليك أن ترويها أيضاً سيكون لها فائدة كبيرة لأننا نرغب فوق كل شيء بمبادئ للحكمة في القضايا العادية وسيكون باعثاً للفضول أن نرى كيف تصرفتَ فيها. سيكون نوعاً من مفاتيح الحياة إلى أبعد حد ويفسر العديد من الأمور التي كان يجب أن يتم تفسيرها يوماً للناس كيف تمنحهم فرصة أن يصبحوا حكماء بالفطنة. إن أقرب طريقة كي يحصل بها الفرد على تجربته الخاصة هي أن يأتي أمامنا بقضايا أناس آخرين بطريقة تثير الاهتمام، وهذا ما يجب أن يحصل بقلمك بالتأكيد. إن قضايانا ومعالجتها ستحظى بجو من البساطة أو الأهمية بحيث لن تعجز عن إدراكها، وأنا مقتنع بأنك قمت بإدارتها بإبداع كبير وكأنك تدير نقاشاً في السياسة أو الفلسفة. إذ ما هو الشيء من التجارب والأنظمة الأكثر أهمية من حياة الإنسان؟ (أهميتها وأخطاؤها أخذت بعين الاعتبار).

«يكون بعض الناس فاضلين على نحو أعمى، وآخرين مفكرين بشكل خيالي، ويكون آخرون دهاة لأغراض دنيئة، لكن أنت، سيدي، وهو ما أنا متأكد منه، لن يخرج من تحت يدك سوى ما هو حكيم وعملي وصالح في نفس الوقت. إن قصتك عن نفسك (سأستمر باستعمال اللقب الموازي، د. فرانكلين، ليس عندما أتحدث عن شخصك بل أيضاً عندما أتحدث عن تاريخك الشخصي) ستُظهر بأنك لا تخجل من أصولك وهو أمر أكثر أهمية لأنك تثبت كم يكون الأصل قليل الأهمية بالنسبة للسعادة والفضيلة أو العظمة. ولأنه لا تحدث غاية بطريقة مماثلة بدون وسيلة، لذا

سنكتشف، سيدي، أنه حتى أنت نفسك قد قمت بصياغة خطة أصبحتَ بواسطتها شخصاً مهماً، لكن في نفس الوقت سنرى أنه على الرغم من أن النتيجة تدعو للإطراء فإن وسائل بسيطة كالحكمة ممكن أن تحققها. أي بالاعتماد على الطبع والفضيلة والتفكير والعادة. الشيء الآخر الذي سيظهر بوضوح سيكون استقامة كل شخص وهو ينتظر دوره للظهور على مسرح الحياة.

إن أحاسيسنا تتركز كثيراً على اللحظة، فنحن عرضة لنسيان أن أكثر اللحظات تعقب الأولى وبالنتيجة على الإنسان أن يعدل سلوكه كي يلائم الحياة بأكملها. يبدو أن صفاتك قد طُبقت في حياتك وإن لحظاتها العابرة قد عيشت برغبة واستمتاع بدلاً من أن تكون قد عيشت بعذاب بسبب نفاد الصبر الأحمق أو الندم. إن سلوكاً كهذا يكون سهلاً بالنسبة لأولئك الذين يعملون الفضيلة وهم أنفسهم يتم تأييدهم من قبل نظرائهم من الناس الآخرين العظماء بحق. الذين يكون الصبر ميزتهم الأساسية في كثير من الأحيان.

إن مراسلك من طائفة الكويكرز، يا سيدي، (لأني هنا أيضاً سأفترض أن موضوع رسالتي مماثل للدكتور فرانكلين) قد أطرى اقتصادك واجتهادك وزهدك والتي اعتبرَها هو نموذج لجميع الشباب. لكن من الغريب أنه لا بد قد نسي تواضعك ونزاهتك التي بدونها لما تمكنتَ أبداً من انتظار ازدهارك أو وجد منصبك في تلك الأثناء مريحاً، وهو درس محكم يظهر ندرة الكبرياء وأهمية تنظيم تفكيرنا. لو كان هذا المراسل قد عرف جوهر مكانتك المرموقة كما أعرفها أنا لقال بأن الكتابات السابقة لحضرتك وأبعادها ستلفت الانتباه إلى سيرتك الذاتية وفن الفضيلة. وبالمقابل

ستلفت سيرتك الذاتية وفن الفضيلة الانتباه إليهم. إن هذه ميّزة ملازمة لشخصية مختلفة والتي تجلب كل ماهو يتعلق بها إلى مسرحية أكبر وهو الأكثر فائدة لأن أكثر الأشخاص متحير بشأن وسائل تعزيز فكرهم وشخصياتهم أكثر مما هم في الوقت الحالي أو الميل لفعله. لكن هناك فكرة ختامية واحدة، يا سيدي، ستعرض فائدة حياتك كنموذج فقط من سيرة ذاتية. إن هذا النمط من الكتابة يظهر خارج عن الموضة ومع ذلك فإنه نمط مفيد جداً وأن نموذجك لعله نافعاً بشكل خاص لأنه سيصبح موضوع مقارنة مع حياة مختلف السفاحين الشعبيين والمتآمرين ومع الرهبان الغريبين الذين يعذبون أنفسهم، أو الأدباء التافهين العابثين. إذا كانت تشجع على كتابات أكثر من نفس النوع كنوع كتاباتك وتحفز أناس أكثر كي تقضي حياة تستحق أن تُدَوَّن فستستحق أن توضع جنباً إلى جنب مع (حياة بلوتارك). لكن كوني تعبتُ من أن أرسم لنفسي شخصية، كل خاصية فيها تلائم فقط رجلاً واحداً في العالم بدون أن أمدحه فسأنهي رسالتي عزيزي (د.فرانكلين) بالتماس شخصي إلى ذاتك الشريفة. أنا متلهف بجد أيضاً، يا سيدي العزيز، بأنه يجب أن تطلع العالم على سمات شخصيتك الأصيلة لأن النزاعات المحلية من ناحية أخرى قد تقوم بإخفائها أو انتهاكها.

فيما يخص عمرك الكبير، تحفظ شخصيتك ونمطك الفريد في التفكير، ليس من المحتمل أن يستطيع أي شخص باستثنائك أن يكون خبيراً بشكل كاف بأحداث حياتك أو مقاصد تفكيرك. إلى جانب ذلك ستحول بشكل ضروري الثورة الهائلة للعصر الحالي انتباهنا باتجاه صانعها، وعندما زُيّفتْ فيها مبادئ فاضلة سيصبح من المهم جداً أن نوضح أن ذلك قد

أثّر حقاً، ولأن شخصيتك ستكون الشخصية الأساسية التي تتلقى الفحص الدقيق لذا من المناسب (حتى لتأثيراتها على بلدك النامي الواسع، كذلك على إنكلترا وأوروبا) أن تبقى محترمة وخالدة.

من أجل تعزيز سعادة الإنسان كنتُ أرى دائماً أنه من الضروري أن نبرهن أن الإنسان ليس ـ حتى في الوقت الحاضر ـ حيواناً شريراً وكريهاً، ولا يزال أمامنا الكثير كي نبرهن بأن المعاملة الجيدة قد تصلحه كثيراً، ولأنه لنفس السبب كثيراً إنني متلهف كي أرى هذا الرأي يتحقق وهو أنه لا يزال هناك شخصيات عادلة موجودة بين أفراد الجنس البشري في الوقت الحالي. إذا تم تخيُّل الجنس البشري (بدون استثناء) بأنه منبوذ فسيكف الناس الصالحون عن بذل جهود تبدو لا فائدة منها أو قد يكفوا عن أخذ دورهم في زخم الحياة أو على الأقل جعلها مريحة بشكل أساسي بالنسبة لأنفسهم. إذن يا سيدي العزيز تولَّ هذا الأمر بشكل أسرع أكثر. أظهر نفسك صالحاً كما أنت صالح، زاهداً كما أنت زاهد، وفوق كل شيء أثبت نفسك كواحد أحبَّ العدالة والحرية والسلام منذ طفولته بطريقة كأنها عادتك الطبيعية والمستمرة أن تتصرف كذلك كما تتصرف في السبع عشرة سنة الأخيرة من حياتك. اجعل الإنكليز مجبرين ليس على احترامك فحسب بل حتى على حبك. عندما يعتقدون خيراً عن الأفراد في بلدك الأصلي فسيكونون أقرب للاعتقاد بالخير عن بلدك. وعندما يرى مواطنوك أنفسهم بأنه يُعتَقَد بهم خيراً من قبل الإنكليز فسيكونون أقرب للاعتقاد بالخير تجاه (إنكلترا). وسِّعْ آرائك إلى مستوى أبعد، لا تقتصر على أولئك الذين يتحدثون اللغة الإنكليزية دائماً وإنما ـ بعد أن تكون قد حسمتَ مواضيع عديدة جداً في الطبيعة والسياسة ـ فكّرْ في تحسين

جميع الجنس البشري. ولأنني لم أقرأ أي جزء من الحياة موضع التساؤل ـ لكن أعلم فقط الشخصية التي عاشتها ـ فإنني أكتب بشكل مجازفة نوعاً ما. رغم ذلك فأنا متأكد من أن الحياة والمقالة التي أشير إليها (عن فن الفضيلة) ستحقق بالضرورة أكبر توقعاتي ولا أزال كذلك إذا قمتَ بتبني مقياس ملائمة هذه الإنجازات بوجهات النظر العديدة المذكورة أعلاه. في حالة حتى إن لم يثبت نجاحها بالمجمل كما يأمل منها المعجب بتفاؤلك ستكون على الأقل قد وضعتَ نماذج كي تثير اهتمام الفكر البشري. وأياً كان من سيسعد بسعادة صالحة لإنسان تكون قد أضفتَ الكثير جداً إلى الجانب الجميل للحياة بدلاً من أن تصبح مظلمة جداً بالقلق، ومؤذية جداً بسبب الألم. لذا على أمل أن تصغي إلى تضرعي لك في هذه الرسالة أتوسل أن أعهد نفسي، سيدي المفدى، إلخ، إلخ.

«موقعة

بنيامين فون»

## متابعة قصة حياتي، بدأت في (باسي)، بالقرب من (باريس)، 1784

كان في يوم غير محدد عندما استلمتُ الرسائل أعلاه لكنني كنتُ مشغولاً جداً لحد الآن كي أفكر بالاستجابة للطلب الذي تضمنتْه. قد يكون من الأفضل أيضاً لو كنت في الوطن بين أوراقي والتي كانت ستعين ذاكرتي وتساعد على توكيد التواريخ، لكن عودتي كانت غير أكيدة وأملك الآن فقط القليل من وقت الفراغ. سأسعى إلى تذكر وكتابة ما أستطيعه إذا عشت كي أصل للوطن قد تُصحَّح هناك وتُحسَّن. لا أملك أية نسخة هنا لما كتبتُ مسبقاً، لا أعلم فيما إذا كانت قصة الوسائل التي استخدمتُها كي أؤسس مكتبة (فيلادلفيا) العامة قد سُردتْ والتي أصبحت الآن كبيرة جداً (من بداية متواضعة). رغم ذلك أذكر كان سنة 1730. لذا سوف أبدأ هنا بقصة عنه والتي قد تُشطَب إذا وجد بأنها سُرِدَت مسبقاً. في الوقت الذي ثبتُّ فيه نفسي في (بنسلفانيا) لم يكن هناك متجر جيد لبيع الكتب في أية مستعمرة جنوب (بوسطن). كان الطابعيون في (نيويورك) و (فيلادلفيا) في الحقيقة بائعي قرطاسية، كانوا يبيعون فقط الورق، إلخ.، التقاويم، القصص والقليل من الكتب المدرسية الشائعة. كان أولئك الذين يحبون القراءة مجبرين على أن يرسلوا في طلب كتبهم من (إنكلترا). كان يملك كل فرد من أعضاء (الزمرة) القليل. غادرنا الحانة حيث التقينا لأول مرة

وقمنا باستئجار غرفة كي نعقد نادينا فيه. اقترحتُ بأنه يجب على جميعنا أن نجلب كتبنا إلى تلك الغرفة حيث لم يكونوا فقط مستعدين كي يتبادلوا الرأي في اجتماعاتنا بل كي نكون ذوي فائدة مشتركة، يكون كل واحد منا حراً في أن يستعير مثلاً عندما يرغب أن يقرأ في البيت. وانتبهنا وفقاً لذلك وأن ذلك قد أقنعنا لبعض الوقت.

اقترحتُ لغرض تحقيق الفائدة من هذه المجموعة على جعل الفائدة من الكتب شاملة أكثر بالبدء باستحداث مكتبة مستقلة. رسمتُ مخطط للمشروع وللقواعد التي ستكون ضرورية وحصلتُ على محرر وثائق ماهر، السيد (تشارلز بروكدين) كي نضع كل شيء على شكل فقرات معاهدة كي يتم الاشتراك والتي بموجبها يلتزم كل مشترك بدفع جزئي لمبلغ معين من المال مقابل أول عملية شراء للكتب، واشتراك سنوي مقابل زيادتها. كان القراء قليلين جداً في ذلك الوقت في (فيلادلفيا). وغالبيتنا فقراء جداً لدرجة أنني لم أكن قادراً (بجهد كبير) على أن أجد أكثر من خمسين شخصاً ـ غالبيتهم من شباب التجار ـ راغبين بدفع جزئي لعملية الشراء هذه مقداره أربعون شلناً لكل واحد منهم، وعشرة شلنات سنوياً. برأس المال القليل هذا كنا قد بدأنا. تم استيراد الكتب، كانت المكتبة تُفتَح يوم واحد في الأسبوع لغرض الإعارة إلى المشتركين وفقاً لسنداتهم الإذنية كي يقوموا بدفع ضعف القيمة إذا تم إعادتها ليس كما ينبغي.

حالما ظهرت فائدة المؤسسة تم تقليدها من قبل مدن أخرى وفي مقاطعات أخرى. تم تعزيز المكتبات بواسطة التبرعات. أصبحت القراءة من الموضة الحديثة وأصبح شعبنا (الذي يفتقر لوسائل التسلية العامة التي

تحول اهتمامه عن القراءة) أكثر معرفة بالكتب، وخلال سنوات قلائل تم احترامهم من قبل الغرباء كونهم أكثر ثقافة وأكثر ذكاءً من الناس من نفس الطبقة الاجتماعية عموماً في بلدان أخرى. عندما كنا على وشك توقيع الفقرات المذكورة أعلاه والتي اتفقنا عليها قانونياً، وارثونا، إلخ، لمدة خمسين عاماً، قال السيد (بروكدين) كاتب العدل لنا: «أنتم شباب، لكن من النادر أن يُحتمل أن يعيش أي واحد منكم كي يرى انتهاء صلاحية الشرط المثبت في العقد». رغم ذلك، ما زال عددٌ منا أحياء. لكن العقد اعتبر بعد سنوات قلائل لاغٍ من قبل قانون تم إدراجه ومنح الأبدية للشركاء.

إن المعارضات والنفور الذي واجهتُهُ عند التماس رسوم الاشتراك سرعان ما جعلني أشعر بخطأ تقديم الواحد لنفسه على أنه راعٍ مقترح لأي مشروع مفيد من المفترض أن يرفع من سمعة الشخص بأقل الدرجات على سمعة جيرانه عندما يكون الواحد بحاجة لمساعدتهم كي ينجز ذلك المشروع. لذلك حاولتُ أن أكون بعيداً قدر ما أستطيع عن أن أكون في الواجهة وأن أعرض المشروع كبرنامج لعدد من الأصدقاء الذين طلبوا مني أن أسعى وأعرضه على (ما اعتقدوا) محبي القراءة. بهذه الطريقة استمر مشروعي بشكل سلس أكثر وقد طبقتُه عملياً منذ ذلك الحين في مواقف كهذه. وبسبب نجاحي المتكرر استطعتُ أن أوصي به بإخلاص. إن التضحية الصغيرة الحالية بغرورك ستعود عليك بعد ذلك بوفرة. فإذا بقي غير معروف صاحب الفضل فسيتشجع أحدٌ ما أكثر غروراً منك كي يدّعيه لنفسه وعند ذلك حتى الحسد ستتخلص منه بعملك الصح بنتف تلك الريشات المتصنعة وأعادتها إلى صاحبها الأصلي.

منحتني المكتبة وسائل التقدم بالدراسة المستمرة والتي خصصتُ لها

ساعة أو اثنتين كل يوم. وبهذا أصلحتُ بدرجةٍ ما خسارة التعليم المدروس الذي كان يعتزمه لي والدي يوماً ما. كانت القراءة هي التسلية الوحيدة التي سمحتُ لنفسي بها. لم أقضِ وقتاً في الحانات والألعاب أو حفلات السمر من أية نوع. وإن مثابرتي في عملي استمرت بشكل لا يعرف الكلل طالما كان ضرورياً. ثقلتُ بالديون بسبب دار الطباعة خاصتي. كان لدي عائلة شابة يتقدموا كي يصبحوا متعلمين وكان عليّ من أجل العمل أن أتعامل مع اثنين من الطابعيين الذين تواجدوا في المكان قبلي. أصبحت ظروفي بمرور الأيام أكثر سهولة. استمريتُ على عاداتي الأصلية بالاقتصاد وكان والدي يعيد عليّ من بين نصائحه لي عندما كنتُ صبياً حكمة سليمان بشكل متكرر: «ترى إنساناً مجتهداً في عمله سيمثُل بين يدي الملوك، لن يمثل بين يدي الناس الوضيعين» ولهذا السبب اعتبرتُ المثابرة وسيلة للحصول على الثروة والتفوق والتي شجعتني على الرغم من أنني لم أكن أفكر حرفياً أبداً بأن أمثُل بين يدي الملوك والذي كان قد حصل في الماضي، لأنني مثُلتُ بين يدي خمسة، وحتى تشرفتُ بالجلوس مع أحدهم على العشاء (ملك الدنمارك).

لدينا حكمة إنكليزية تقول: (من يرغب بالنجاح عليه أن يسأل زوجته). فقد كنتُ محظوظاً بأنني حظيتُ بواحدة ميّالة كثيراً للمثابرة والاقتصاد كزوجتي. فقد قامت بإعانتي ببهجة في عملي. تقوم بطيّ وخياطة الكراسات وتعتني بالمتجر وتشتري الجرائد ذات الورق الكتاني القديمة للوراقين، إلخ، إلخ. لم يكن لدينا خادمون كسالى. كانت مائدتنا عادية وبسيطة وأثاثنا من أرخص الأنواع. على سبيل المثال كان إفطاري ولمدة طويلة من الخبز والحليب (بدون شاي) وكنتُ آكله بصحن خزفي زهيد

الثمن بملعقة من البيوتر[1]. لكن لاحِظْ كيف سيَدخل الترف إلى العائلات ويزداد بالرغم من المبدأ. دُعيتُ في أحد الأيام إلى الإفطار فوجدتُهُ في طبق صيني مع ملعقة من الفضة! قد تم شراؤهم لي من قبل زوجتي بدون علمي وقد كلفها المبلغ الهائل ثلاثة وعشرين شلناً. لم يكن لديها أي عذر أو دفاع تقوله سوى أنها فكرتْ بأن زوجها يستحق ملعقة فضيّة وصحن صيني كأي واحد من جيرانه. كان هذا أول ظهور للصحن والصين في بيتنا والذي وعلى مدار سنوات ازداد بالتدريج إلى ما قيمته بضعة مئات من الباوندات كلما تزايدت ثروتنا.

لقد تم تربيتي دينيّاً كمشيخي[2]، وعلى الرغم من أن بعض المبادئ لهذا الدين ـ كالأوامر الأبدية للإله والاصطفاء والنقمة، إلخ، بدت لي مبهمة وأخرى مشكوك فيها، غيّبتُ نفسي بشكل مبكر عن الاجتماعات العامة للطائفة، وأصبح يوم الأحد دراستي، إلا أنه لم أكن يوماً بدون بعض المبادئ العقائدية: فعلى سبيل المثال لم أشك يوماً بوجود الإله الذي خلق العالم وحكمه بواسطة حسن تدبيره، وأن الخدمة الأكثر قبولاً للإله هي أن تعامل الناس جيداً وأن أرواحنا أبدية وأن كل ذنب سيتم العقاب عليه، والفضيلة سيُثاب عليها سواءً هنا أو في الآخرة. تلك هي ما أعتقده أساسيات كل معتقد، ولأني نشأتُ ضمن كل المعتقدات التي لدينا في بلادنا فقد احترمتُها جميعاً مع ذلك بدرجات مختلفة من الاحترام لأني

(1) البيوتر: سبيكة معدنية رمادية اللون تتألف من النحاس والقصدير والأنتيمون (سابقاً كانت تتألف من الرصاص والقصدير). (المترجمة)

(2) المشيخية: طائفة من الطوائف المسيحية تعود أصولها إلى بريطانيا وبالتحديد اسكتلندا. (المترجمة)

وجدتُها أكثر أو أقل قد خُلِطَتْ مع بنود أخرى والتي - بدون أية نزعة لألهام أو تطوير أو تعزيز الأخلاق - قامت أساساً بتقسيمنا وجعلتنا غير ودودين تجاه أحدنا الآخر. إن احترامي لها جميعاً - مع الاعتقاد بأن الأسوأ له بعض التأثير الجيد - قد شجعني على أن أتفادى جميع الحوارات التي قد تقلل من شأن الرأي الجيد الذي قد يكون من ضمن معتقد شخص آخر. ولأن مقاطعتنا ازدادت بالناس وتم طلب أماكن جديدة للعبادة بشكل مستمر وتم تشييدها عموماً بالتبرع الاختياري، فإن مبلغي الضئيل من المال لهكذا غرض - أياً كانت الطائفة لم يُرفَض أبداً.

على الرغم من أنني كنتُ نادراً ما أحضر أي دار عبادة عام، إلا أنه لا يزال لدي وجهة نظر عن صلاحها وعن فائدتها عندما تُدار بشكل جيد، وكنتُ أدفع بشكل منتظم اشتراكي السنوي لدعم الكاهن المشيخي الوحيد أو الاجتماع الذي لدينا في (فيلادلفيا). اعتاد أن يزورني أحياناً كصديق وشجعني كي ألتحق بإدارته، وكان من حين لآخر يتم إقناعي بعمل ذلك مرة كل خمسة آحادات بشكل متتالي. كان برأيي واعظ جيد، ربما أكون قد استمريتُ على الرغم من الفرصة التي لدي في وقت فراغ يوم الأحد لمساري الدراسي، لكن محاوراته كانت بشكل رئيس إما جدالات عنيفة أو تفسير للمذاهب الغريبة لطائفتنا، وكانت بالنسبة لي كلها جامدة جداً وغير مثيرة للاهتمام وغير مهذبة لأنه لم يراعِ فيها أو ينفذ ولا مبدأ أخلاقي واحد ويبدو أن هدفهم هو جعْلنا مشيخية بدلاً من مواطنين صالحين.

في النهاية، اختار لموضوعه تلك الآية من الفصل الرابع الفيليبي[1]:

---

(1) النص الفيليبي: كتاب العهد الجديد، رسالة بولس الرسول إلى الكنيسة في فيليبي في مقدونيا. (المترجمة)

«في النهاية أيها الأخوة في الدين، مهما كانت الأشياء حقيقية، صادقة، عادلة، نقية، محبة أو ذات شهرة حسنة، إذا كانت هناك أية فضيلة أو أي مدح، تأمّلْ في هذه الأمور». وتخيّلتُ خطبة عن ذلك النص بأنه لن نفشل بامتلاك بعض الأخلاق. لكنه حدّد نفسه بخمس نقاط فقط كما تم فهمها من قبل الرسول، بمعنى:

1 ـ الحفاظ على قدسية يوم السبت.

2 ـ أن تكون مواظباً على قراءة الكتب المقدسة.

3 ـ حضور العبادة العامة كما ينبغي.

4ـ مشاركة السر المقدس.

5 ـ إبداء الاحترام الملائم لوكلاء الله. قد تكون هذه كلها أمور جيدة، لكنها لم تكن من نوعية الأمور الصالحة التي انتظرتُها من النص. يئستُ من مواجهته، أثار اشمئزازي ولم أحضر مواعظه أبداً.

قمتُ قبل عدة سنوات بكتابة قدّاس صغير أو شكل من أشكال الصلاة، لاستعمالي الخاص (أي في 1728) عنوانه (أركان الإيمان وأعمال العقيدة). واصلتُ استعمال هذا ولم أذهب بعد ذلك إلى المجالس العامة. ربما يستحق تصرفي اللوم لكني هجرته بدون أي محاولة أخرى للتبرير. إن هدفي الحالي هو إيجاد العلاقة بين الأحداث لا أن أدافع عنها. قمتُ في ذلك الوقت بتحديد المشروع الجريء والشاق بالوصول إلى الكمال الأخلاقي، فقد رغبتُ بالعيش بدون اقتراف أي خطيئة في أي وقت. وددتُ أن أقهر كل ذلك سواء الاستعداد الطبيعي، العادة، أو الطائفة، التي تقودني إلى ذلك. فطالما علمتُ أو ما اعتقدتُ بأنني علمت ـ ما هو صحيح وما

هو خاطئ لم أكن أفهم لماذا لستُ دائماً أعمل واحداً وأتفادى الآخر. لكني سرعان ما اكتشفتُ بأنني أخذتُ على عاتقي مهمة أكثر صعوبة مما تخيلتُ. فبينما كان اهتمامي منصباً حول الوقاية من خطيئة، كنتُ أتفاجأ دائماً بأخرى. فالعادة تستغل الغفلة. والاستعداد الطبيعي أحياناً يكون قوياً جداً لسبب ما. في النهاية استنتجتُ بأن مجرد الإيمان الفكري كي نصبح فاضلين تماماً لم يكن كافياً لمنعنا من الخطأ، وأن العادات المخالفة يجب أن تهدَم، وأن العادات الجيدة يتم اكتسابها أو إرساؤها قبل أن يكون لدينا أي اعتماد على السلوك الرصين، المنتظم السديد. لهذا السبب اخترعتُ الطريقة التالية: اكتشفتُ ضمن الإحصائيات العديدة للفضائل الأخلاقية التي صادفتُها في قراءتي بأن القائمة متعددة كثيراً أو قليلاً لأن كتّاباً مختلفين أدرجوا مفاهيم تحت نفس التسمية. فعلى سبيل المثال: كان (الزهد) بالنسبة للبعض محدد بالأكل والشرب بينما بالنسبة للآخرين توسع ليشمل الاعتدال بأية متعة، شهوة، استعداد، أو شغف جسدياً أو روحياً، حتى بالنسبة لجشعنا أو طموحنا. للتوضيح اقترحتُ لنفسي بدلاً من ذلك استعمال أسماء أكثر بمفاهيم أقل أضيفت إلى كل واحدة منها مما أسماء أقل بمفاهيم أكثر. وقمت بإدراج كل ما حدث لي في ذلك الوقت تحت ثلاثة عشر اسماً للفضيلة. كشيء ضروري أو مرغوب فيه. وأضفتُ إلى كل واحدة منها إرشاد قصير عبّر بشكل كامل عن المدى الذي أعطيتُهُ لمعانيها.

أسماء الفضائل هذه مع إرشاداتها كانت:

1 ـ الزهد: لا تأكل حتى البلادة ولا تشرب حتى الامتلاء.

2 ـ الصمت: لا تتحدث إلا بما يفيد الآخرين أو نفسك. تجنب المحادثات التافهة.

3ـ النظام: ضع أشيائك في أماكنها المخصصة. خصّصْ وقتاً لكل جزء من عملك.

4ـ التصميم: اعتزم على إنجاز ما عليك. أنجزْ بلا تقصير ما تعتزم عليه.

5ـ التدبير: لا تسرف إلا فيما فيه نفع للآخرين أو لنفسك. أي لا تبددْ شيئاً.

6ـ المثابرة: لا تضيع الوقت. اشغل نفسك دائماً بأمور مفيدة. توقف عن أداء كل الأعمال الغير ضرورية.

7ـ الصدق: لا تلجأ إلى الخداع المؤذي. قم بالتفكير بشكل بريء وعادل. وإذا تكلمتَ تكلم على أساس ذلك.

8ـ العدل: لا تظلم أحداً بأن تؤذي أحداً أو تهمل المساعدة التي هي من واجبك.

9ـ الاعتدال: تفادَ التطرف. كفّ عن الأذى المقيت جداً كلما تعتقد بأن الأمر يستحق ذلك.

10ـ النظافة: لا تحتمل قذارة الجسد والثياب والسكن.

11ـ الطمأنينة: لا تضطربْ للتوافه أو للأحداث الشائعة أو المحتومة.

12ـ العفة: لا تمارس الجماع إلا نادراً، للصحة أو لإنجاب الذرية. ولا تمارسه لحد البلادة أو الضعف أو إيذاء نفسك أو سلام أو سمعة الآخرين.

13ـ التواضع: قم بتقليد عيسى وسقراط.

كانت نيتي هي اكتساب عادة كل هذه الفضائل. فرأيت أنه سيكون من المناسب أن لا أسرف انتباهي بتجربة الكل مرة واحدة وإنما أقوم بترسيخ

واحدة منها كل مرة، وعندما أبرع بها أنتقل بعدها للأخرى وهكذا إلى أن أتم الثلاث عشرة فضيلة. ولأن الاكتساب المسبق لبعض العادات قد يسهل اكتساب عادة أخرى معينة، قمتُ بترتيبها على هذا الأساس كما هي مرتبة أعلاه.

فالزهد أولاً لأنه يجلب رباطة الجأش وصفاء الفكر، وهو ضروري جداً حيث يجب الحفاظ على اليقظة المستمرة، والرقابة المتواصلة بمواجهة العادات القديمة وقوة الإغراءات الدائمة. حينما يتم اكتساب الزهد ويرسخ، سيصبح الصمت أكثر سهولة. وكانت رغبتي هي أن أحصل على المعرفة في نفس الوقت الذي تحسنتْ فيه الفضيلة. ومع أخذي لذلك بعين الاعتبار أثناء المحادثات فتم بالأحرى اكتسابه باستعمال الأذنين بدلاً من اللسان. لهذا السبب تمنيتُ أن أكسر عادة كنتُ واقعاً فيها من الهذار والتورية اللفظية والمزاح والتي جعلتني مقبولاً فقط عند رفاق تافهين. منحتُ الصمت المقام الثاني. إن هذه العادة والعادة التالية (النظام) توقعتُ بأنها ستمنحني وقتاً أكثر للوصول إلى هدفي ودراساتي. أما بالنسبة للتصميم، فحالما يصبح عادة فسيبقيني ثابتاً في مساعيّ كي أتمكن من الحصول على كل الفضائل اللاحقة. أما التدبير والمثابرة فيحرراني مما تبقى عليّ من ديون ويولدان الثراء والاستقلالية ويسهلان تطبيق الصدق والعدل، إلخ. إلخ. فاهماً وقتها وبشكل جيد نصيحة (فيثاغورس) في أشعاره الذهبية من أن التدقيق اليومي سيكون ضرورياً، لذا قمت باختراع الطريقة التالية للقيام بهذا التدقيق. قمتُ بعمل كتيب خصصتُ فيه صفحة لكل فضيلة. قمتُ بتخطيط كل صفحة بحبر أحمر بحيث تحوي على سبعة أعمدة. لكل يوم من الأسبوع عمود واضعاً علامة على كل عمود بحرف،

علامة على اليوم.قمت بتقطيع هذه الأعمدة بثلاثة عشر خطاً أحمر واضعاً علامة على البداية لكل سطر بالحرف الأول لواحدة من الفضائل. أقوم بوضع علامة على السطر الذي في عموده المناسب كنقطة سوداء صغيرة على كل خطأ اكتشفُ أثناء التدقيق أنني أقترفُه بخصوص تلك الفضيلة فيما يخص ذلك اليوم.

**شكل الصفحات**

**الزهد**

**لا تأكل حتى البلادة ولا تشرب حتى الامتلاء**

| | السبت | الأحد | الاثنين | الثلاثاء | الأربعاء | الخميس | الجمعة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الزهد | | | | | | | |
| الصمت | | * | * | | * | | * |
| النظام | * | * | * | | | * | * |
| التصميم | | | * | | | | * |
| التدبير | | | * | | | | * |
| المثابرة | | | | | | | |
| الصدق | | | | | | | |
| العدل | | | | | | | |
| الاعتدال | | | | | | | |
| النظافة | | | | | | | |
| الطمأنينة | | | | | | | |
| العفة | | | | | | | |
| التواضع | | | | | | | |

اعتزمتُ على أن أولي الاهتمام الصارم أسبوعياً لكل واحدة من الفضائل بالتعاقب. بناءً على ذلك، في الأسبوع الأول كانت رقابتي الكبيرة في أن أتفادى أدنى اختراق ضد (الزهد) تاركاً الفضائل الأخرى لوقتها المعتاد، وأقوم (كل مساء فقط) بتقويم اختراقات اليوم. وعليه إذا تمكنتُ

في الأسبوع الأول من الاحتفاظ بسطري الأول والمعنون (بالزهد) خالياً من النقاط فسأعتبر بأن عادة هذه الفضيلة قد أصبحت قوية كثيراً، (وعكسها يعني أنها ضعيفة)، وسأكون متمكناً بتمديد اهتمامي كي يشمل الفضيلة التالية، وفي الأسبوع القادم نحتفظ بكلا السطرين خاليين من النقاط.

إن الاستمرار بهذه الطريقة حتى النهاية سيمكّنني من اجتياز دورة تنتهي بثلاثة عشر أسبوعاً، وأربع دورات في سنة. ومثله كمثل من لديه حديقة تحتاج إلى إزالة الأعشاب الضارّة، فلا يحاول اقتلاع جميع الأعشاب الضارّة في الحال والتي ستفوق استطاعته وقوته. وإنما يعمل على واحدة من أجزاء الحقل في كل مرة، وعندما ينتهي من الأول يتقدم نحو الثاني. لذا آمل بأن تكون لديّ السعادة المؤيدة كي أرى على صفحاتي التقدم الذي حققته في مجال الفضيلة بتصفية سطوري بشكل متعاقب من نقاطها حتى أصبح في النهاية ـ بعدد الدورات ـ سعيداً بالنظر إلى كتيب نظيف، بعد ثلاثة عشر أسبوعاً من التدقيق اليومي.

إن كتيبي هذا عليه شعار، هذه الأسطر من مسرحية (كاتو) ل (أديسون): «هنا سأصمد. إذا كانت هناك قوة أسمى منا (وأنه هناك، تصرخ كل الطبيعة عالياً من خلال كل أعمالها)، عليه أن يُسعَد بالفضيلة، وذلك الذي يسره لا بد أن يكون سعيداً».

وآخر ل (شيشرون): (أيتها الفلسفة! يا دليل الحياة! أيها الباحث عن الفضيلة ونابذ الرذائل، يوم واحد فقط تحياه بالفضيلة ووفقاً لعبرك يكون أفضل من خطايا مستمرة).

وآخر من أمثال (سليمان) وهو يتحدث عن الحكمة أو الفضيلة: (إن

امتداد الأيام في يدها اليمنى، وفي يدها اليسرى الثروة والشرف. سبلها هي سبل السعادة، وكل نهجها السلام) 17، 16 iii

وبإدراكي أن الإله منبع الحكمة فكرتُ أنه من الصائب والضروري أن نلتمس مساعدته للحصول عليها، لهذه الغاية وضعتُ كنموذج الدعاء البسيط الآتي والذي قمت بتثبيته مسبقاً على جداول التدقيق الخاصة بي للاستعمال اليومي:

(أيها الإله الكريم! ذو الطيبة العظيمة! المرشد الرحيم، زدني من تلك الحكمة التي تستجلي أصدق رغباتي. امنحِ القوة لقراراتي لإتمام ما تمليه عليّ الحكمة. تقبل خدماتي الرؤوفة لأبنائك الآخرين كمقابل وحيد لإمكانيتي، لفضلك الدائم عليّ).

استعملتُ أيضاً في بعض الأحيان دعاء بسيط والذي أخذته من قصائد تومسون، بمعنى: (إله النور والحياة، أنت الكريم الأعلى! علِّمني ما هو صالح: علِّمني بنفسك! نجِّني من غيّي، وتكبري ودناءتي، من كل مطلب وضيع: واملأ روحي بالمعرفة، السلام الواعي، ونقاء الفضيلة: وبركة مقدسة، حقيقية، لا تخبو أبداً!). إن مبدأ (النظام) يتطلب بأن يحظى كل جزء من عملي بوقته المخصص له. تضمنت صفحة واحدة في كتيبي المخطط الآتي عن العمل لأربع وعشرين ساعة من يوم عادي:

**وقت الصباح**: سؤال: ما العمل الذي سأقوم بتأديته في هذا اليوم؟ من الساعة الخامسة وحتى السابعة أقوم بالآتي: أنهض، أغتسل وأخاطب ذو الطيبة العظيمة!، أتدبر عمل اليوم، وأتخذ قرار اليوم وأتابع الدراسة الحالية، والإفطار.

**وقت الظهيرة**: من الساعة الثامنة وحتى الحادية عشرة:أعمل. ومن الساعة الثانية عشرة وحتى الساعة الواحدة: أقرأ أو ألقي نظرة على حساباتي، وأتغدى. ومن الساعة الثانية وحتى الساعة الخامسة: أعمل.

**وقت المغرب**: من الساعة السادسة وحتى الساعة التاسعة: أضع الأشياء في أماكنها المخصصة لها، أتناول العشاء، موسيقى أو تسلية، أو محادثة، تفحص اليوم.

**وقت الليل**: من الساعة العاشرة وحتى الرابعة: آوي للنوم.

بدأتُ بتنفيذ هذا المشروع للتدقيق الذاتي اليومي وأكملتُه مع انقطاعات عارضة في بعض الأحيان. كنتُ مندهشاً لأن أجد نفسي مليئاً بالأخطاء أكثر مما قد تخيلت. لكن كان لدي اقتناع بأن أراها تقل. لكي أتفادى مشكلة إعادة تجديد كتيبي من حين لآخر والذي أصبح مليئاً بالثقوب بسبب قشط علامات الأخطاء القديمة على الورقة كي أفسح مجالاً لعلامات جديدة في الدورة الجديدة، قمتُ بنقل جداولي وتعاليمي إلى الأوراق العاجية لكتاب مذكرات والذي تُرسم عليه الأسطر بالحبر الأحمر والتي تجعل الصبغة دائمة. وقمتُ على هذه الأسطر بوضع علامة على أخطائي بقلم من الرصاص الأسود والذي يمكّنُني من مسح العلامات التي كُتبت بكل سهولة بإسفنجة رطبة. استمريتُ بعد فترة خلال دورة واحدة فقط في سنة واحدة. وبعد ذلك دورة واحدة في عدة سنوات حتى قمت في النهاية بمحوها بشكل كلي، لأني تم توظيفي برحلات وعمل خارج البلاد مع تعدد القضايا التي تعارضت. لكنني حملتُ دوماً كتيبي معي.

إن مخططي الخاص بالنظام سبّب لي أكبر المتاعب واكتشفتُ أنه (مع

أنه قد يكون عملياً أن يترك العمل صاحبه يرتب وقته كعامل طباعة بارع على سبيل المثال) إلا أنه من المستحيل أن تتم مراقبتك من قبل سيد العمل الذي عليه أن يختلط مع العالم ويستقبل أناس غالباً من رجال الأعمال في وقتهم المخصص. إن النظام أيضاً من ناحية أماكن الأشياء والأوراق، إلخ، قد وجدتُ أنه من الصعب للغاية أن أكتسبه إذ لم أكن قد اعتدتُ عليه بشكل مبكر و ـ لأنه لدي ذاكرة جيدة جداً ـ لم أكن حساساً جداً تجاه العقبات المصاحبة للحاجة للمنهج. إن هذه الفقرة ـ لهذا السبب ـ قد كلفتني اهتماماً أليماً جداً وإن أخطائي فيها قد أغاضتني كثيراً، وقد حققتُ فيها تقدماً قليلاً جداً في إصلاحها، وكان لديّ انتكاسات متكررة فيها بحيث كنت مستعداً لأن أستسلم من المحاولة وأن أقنع نفسي بشخصية خاطئة من هذه الناحية، كالإنسان (جاري) الذي اشترى فأساً من حدّاد ورغب بأن يكون كل سطحه لامعاً كحافته. وافق الحدّاد على شحذه له كي يصبح لامعاً إذا قام بتدوير العجلة. فقام بتدوير العجلة بينما قام الحداد بضغط الوجه العريض للفأس بمشقة وبقوة على الحجر والذي جعل من تدويره أمراً متعباً جداً. كان الرجل يبرز من حين إلى آخر من العجلة كي يرى كيف سار العمل. وفي النهاية أخذ فأسه كما هو بدون أي شحذ. قال الحداد: «كلا. استمر بتدويره، استمر فسيصبح لامعاً قريباً لأنه نحن الآن لا يزال مبقعاً». فقال الرجل: «نعم. لكنني أعتقد بأنني أفضّل الفأس المبقع أكثر». وأعتقد أن هذا هو حال الكثيرين الذين (بسبب افتقارهم لبعض هذه الوسائل كما فعلت أنا) وجدوا صعوبة بالحصول على عادات جيدة وكسر العادات السيئة في نواحي أخرى من الرذيلة والفضيلة فامتنعوا عن المقاومة واكتشفوا أن (الفأس المبقعة كانت الأفضل).

في بعض الأحيان والتي بدت بأنها منطقية كان يلوح لي بأن دقة بالغة كتلك التي أجبرتُ نفسي عليها قد تكون نوعاً من إسراف في الأخلاقيات والتي ـ فيما إذا عُرِفَت ـ ستجعلني أبدو سخيفاً لأن الشخصية المثالية ربما يصحبها إزعاج كونك ستصبح محط حسد وكراهية وأن الإنسان الخيّر يسمح لنفسه ببعض الأخطاء كي يحمل أصدقائه على أن يحذوا حذوه. في الحقيقة وجدتُ نفسي من ناحية النظام لا يمكن تقويمي. والآن وقد كبرتُ في السن وذاكرتي سيئة أشعر بالحاجة إليها بشكل معقول. لكن عموماً على الرغم من أنني لم أصل أبداً للكمال الذي كنتُ طامحاً أن أحصل عليه وإنّما قصّرتُ كثيراً فيه. إلا أنني كنتُ (بالمحاولة) أفضل وأسعد أنسان مما كنتُ سأكونه لو لم أكن قد حاولتُ في ذلك، كهؤلاء الذين يهدفون إلى الكتابة المثالية بتقليد النسخ المنقوشة، إذ على الرغم من أنهم لن يصلوا إلى التميّز الذي يرغبونه من هذه النسخ، إلا أن أياديهم قد تحسنت بالمحاولة ويصبح مقبولاً بينما يستمر جميلاً ومقروءاً.

قد يكون من الخيّر أنْ تقوم بتبليغ أجيالي القادمة بذلك، إلى هذه الوسيلة الصغيرة، بأن ببركة الله امتلك جدهم السعادة الدائمة لحياته حتى السنة التاسعة والسبعين والتي فيها قد كتب ذلك. وأية هزائم تلحق بالبقية ففي يد العناية الألهية، لكن إذا نجحوا فيجب أن يساعد التفكير بالسعادة السابقة التي تم التمتع بها يجب أن تساعده على منحها بكثير من التسليم. وإلى الزهد يعزو عافيته التي استمرت طويلاً وما تبقى له من قوة البنية. وإلى المثابرة والتدبير يعزو سهولة ظروفه المبكرة واكتسابه ثروته، مع كل تلك المعرفة التي مكنته من أن يكون مواطناً مفيداً وجلبتْ له بعض القدر من الشهرة بين المتعلمين. وإلى الصدق والعدل يعزو ثقة بلده والمناصب

المشرفة التي منحها له، وإلى التأثير المشترك للقدر الكبير من الفضائل حتى في الحالة المضطربة كان قادراً على أن يكتسبها. كل ذلك التوازن في الطباع وذلك الابتهاج بالمحادثة والتي جعلت صحبته مبتغاة وجميلة حتى لمعارفه الشباب. لذلك آمل أن يتبع بعض من ذريتي الأسوة وينال الفائدة. وسيلاحَظ أنه على الرغم من أن مخططي لم يكن تماماً بلا عقيدة لم يكن فيه هناك أية إشارة إلى أية عقيدة محددة لأية طائفة معينة، فقد تفاديتُها عن قصد لأني مقتنع تماماً من فائدة وتميُّز طريقتي وأنها قد تكون نافعة للناس من كل الطوائف، وأنوي في وقت أو آخر أن أقوم بنشرها. لم أكن أود أن تتضمن شيئاً يثير تعصب أي أحد من أية طائفة ضدّها. تعمدتُ كتابة تعليق صغير على كل فضيلة فيها وضحتُ فوائد تحقيقها، والأذى المصاحب للرذيلة التي تقابلها، وكان عليّ أن أسمّي كتابي فن الفضيلة[1] لأنه كان قد وضّح وسائل وأسلوب الحصول على الفضيلة والتي قمتُ بتمييزها عن مجرد الوعظ كي تصبح صالحاً، فذلك لا يعطي أوامر ولا يشير إلى الوسائل بل إنها كالصدقة اللفظية للحواري الذي لا يُري العاري والجائع كيف أو من أين قد يحصل على الملابس أو الزاد بل فقط ينصحهم أن يكونوا مُطْعَمين ومُكْتَسين ـ جيمس 16، ii 15 لكن حدث كثيراً أن لم يتحقق كثيراً عزمي على كتابة ونشر هذه الملاحظة أبداً. قمتُ بالفعل من حين إلى آخر بتدوين إشارات قصيرة عن وجهات النظر، استنتاجات، إلخ، كي تتم الإفادة منها، بعضها قد قمعتُها بنفسي، لكن الاهتمام الأساسي الضروري بالعمل الخاص في الجزء المبكر من حياتي والعمل العام منذ ذلك الوقت قد سبّب تأجيلي لذلك لأنه قد ارتبط بفكري بمشروع كبير وشامل والذي

(1) لا يوجد شيء يبني ثروة الإنسان كالفضيلة.

يتطلب من كل الناس أن ينجزوه والذي منع التوالي المتعاقب الغير متوقع للمناصب من اهتمامي بها، وبقيتْ حتى اليوم غير مكتملة. كان هدفي في هذا المقطع هو شرح وتطبيق هذا المذهب:وهو أن الأفعال الشريرة ليست مؤذية لأنها محرّمة وإنما محرمة لأنها مؤذية، وأن حالة الإنسان وحده هي ما تم أخذها بعين الاعتبار لذلك يجب أن تكون رغبة كل إنسان فاضلة من أراد أن يكون سعيداً حتى في هذه الحياة. وعليّ (من خلال هذه الظروف ولأنه دائماً هناك العديد من التجار الأغنياء والنبلاء ورجال الدولة والأمراء في الحياة من هم بحاجة إلى رسائل صادقة لإدارة شؤون حياتهم وهؤلاء نادرون جداً) أن أسعى لأقنع الشباب بأنه لا توجد فضائل تحدد مصير الإنسان حقاً كالنزاهة والأمانة. في البداية، تضمنت قائمتي الخاصة بالفضائل اثنتي عشرة فقط. لكن أخبرني أحد أصدقائي من طائفة الكويكرز بلطف بأنه يعتقد على وجه العموم بأني متكبر وأن تكبري ظهر من خلال الحوار بشكل متكرر وأنه أنني أصبح غير راضياً (عندما أكون على صواب) عندما يتم مناقشة أية نقطة بل أكون متعجرفاً ووقحاً نوعاً ما. وأقنعني عن طريق ذلك بذكر حالات عدة. فقررتُ أن أحاول معالجة نفسي ـ إذا استطعت ـ من هذه النقيصة أو الحماقة بين البقية فقمتُ بإضافة (التواضع) إلى قائمتي مانحاً معاني واسعة للكلمة.

لا أستطيع أن أتباهى بالنجاح الكبير باكتساب هذه الفضيلة حقيقةً وإنما أتباهى بقدر كبير من ناحية التظاهر بها. فقد جعلتُها قاعدة أن أمتنع عن جميع التكذيب المباشر لآراء الآخرين وكل التوكيدات القاطعة لآرائي حتى حرّمتُ على نفسي (تناغماً مع القوانين القديمة) لزمرتنا استعمال أية كلمة أو تعبير في اللغة والذي يعني رأياً ثابتاً مثل: بالتأكيد، بدون شك،

إلخ وقمتُ بتبني بدلاً منها: أنا مقتنع، أخشى أو أتخيل الأمر كذا وكذا، أو يبدو لي في الوقت الحالي. عندما يقوم شخص بتأكيد شيء ما والذي أعتقدهُ خاطئاً أمنع نفسي من متعة تكذيبه بشكل مفاجئ وأقوم فوراً بإظهار بعض اللامعقولية تجاه اقتراحه. وعند الإجابة بدأتُ بملاحظة أن رأيه في بعض حالات أو ظروف معينة يكون صحيحاً، لكن في الحالة الحاضرة ظهر أو بدا لي مختلفاً نوعاً ما إلخ. سرعان ما اكتشفتُ فائدة هذا التغير في سلوكي. فالمحادثات التي اشتركتُ فيها استمرت بشكل سلس. إن الطريقة المتواضعة التي أقترحُ بها آرائي أحرزت تقبلاً جاهزاً وأقل اعتراضاً، وأحظى بإهانة أقل عندما أجد نفسي على خطأ وأقنع الآخرين بسهولة أكثر كي يتخلوا عن أخطائهم وأن ينظمّوا إليّ عندما يصادف أن أكون على صواب. وإن هذا الأسلوب الذي تظاهرتُ به في البداية مع بعض الضغط على الميل الطبيعي أصبح في النهاية سهلاً جداً وعادياً جداً بالنسبة لي. وأنه ربما لم يسمع أحد أبداً ولمدة خمسين عاماً مضت تعبيراً عقائدياً يصدر مني. وأعتقد بأني مدين بشكل رئيسي إلى هذه العادة (بعد صفة استقامتي) لأني حضيتُ بشكل مبكر وكبير بأهمية من قبل مواطنيّ عندما اقترحتُ مؤسسات جديدة أو تغييرات في المؤسسات القديمة، وتأثير كبير جداً في المجالس العمومية عندما أصبحتُ عضواً فيها، لأني كنت مجرد متحدث سيّئ وغير فصيح أبداً وعرضة للكثير من التردد في خياراتي للكلمات، بالكاد مضبوط في اللغة ومع ذلك فقد انتزعتُ آراء الآخرين على وجهات نظري عموماً.

في الحقيقة لا توجد ربما واحدة من أحاسيسنا الطبيعية العصيبة على الإخضاع كالغرور، تخفيها، تتصارع معها، تذللها، تسكتها، تميتها بقدر

ما يُرضى الفرد إلا أنها تبقى حيّة وستبزغ من حين إلى آخر وتقوم بإظهار نفسها. ستراها، ربما غالباً، في هذا التاريخ. لأجل ذلك، حتى وإن تكمنت من إقناع نفسي بأني تغلبت عليها بشكل كامل، فعليّ في الغالب أن أكون فخوراً بتواضعي.

[ إلى هذا الحد كُتبَ في باسي، 1784].

[ أنا الآن على وشك الكتابة من البيت، آب، 1788، لكن لا أستطيع أن أحظى بالمساعدة المنتظرة من أوراقي، فالعديد منها قد فُقِدَت في الحرب، رغم ذلك وجدتُ الآتي] :

كنتُ قد ذكرتُ مشروع عظيم وواسع كنتُ قد تخيلتُهُ. يبدو من المناسب أن يتم سرد قصة هذا المشروع والغاية منه. بدأتْ نشأته الأولى في فكري تظهر على الورقة الصغيرة التالية، تم الحفاظ عليها من غير قصد. أي (ملاحظات عن تاريخي في القراءة في المكتبة، التاسع عشر من أيّار عام 1731).

«إن قضايا العالم العظيمة والحروب والثورات، إلخ، تستمر وتتأثر بالأحزاب».

«إن وجهة نظر هذه الأحزاب هي مصلحتهم الحالية العامة أو ما يوافقون عليه كي يكون كذلك».

«إن وجهات النظر المختلفة لهذه الأحزاب المختلفة هي سبب كل الاضطراب».

«بينما يستمر الحزب على خطة عامة، يضع كل إنسان نصب عينيه مصلحته الشخصية بصفة خاصة».

«حالما يحقق الحزب قضيته العامة يصبح كل عضو منكباً على مصلحته بصفة خاصة والتي تفسد الآخرين وتقسم الحزب إلى أقسام وتسبب اضطراب أكثر».

«إن القليل فيما يخص قضايا الشأن العام من يعمل من منطلق خالص لصالح بلدهم مهما تظاهروا، وعلى الرغم من أن عملهم يجلب خير حقيقي لبلدهم، إلا أن الناس تعتبر بشكل أساسي أن مصالحها ومصالح بلدها قد توحدت ولم يتصرفوا على أساس مبدأ النزعة إلى الخير».

«إن القلة القليلة لا تزال فيما يخص قضايا الشأن العام تتصرف من منطلق صالح البشرية».

«يتراءى لي في الوقت الحالي بأن هناك فرصة كبيرة لإنشاء حزب موحد للفضيلة بتشكيل الناس الصالحين والفاضلين من كل الأمم لمجلس نظامي محكوم من قبل المصلحة المناسبة وقواعد حكيمة، والتي من خلالها يتفق الناس الصالحون والحكماء بامتثالهم لها، أكثر من امتثال الناس العاديين للقوانين العامة».

«أنا أعتقد في الوقت الحاضر، أن أياً كان من يحاول ذلك بشكل قويم ويكون مؤهل بشكل جيد لن يفشل في إرضاء الله ومن تحقيق النجاح».

ب. ف

بتدوير هذه الخطة في فكري كما يجب، كي تتم المباشرة بها فيما بعد في حالة إذا سنحت لي ظروفي بالوقت اللازم، قمتُ بتدوين أفكار كهذه من وقت لآخر على قصاصات من الورق كما خطرتْ في بالي. معظمها كان قد ضاع لكنني أجد بأنها خلاصة العقيدة المطلوبة والتي تتضمن ـ كما

اعتقدتُ ـ أساسيات كل عقيدة معروفة وأنها خالية من أي شيء قد ينفِّر عالم كل عقيدة. وقد تحدد بهذه الكلمات:

«أن هناك إلهاً واحداً والذي خلق كل الأشياء»

«وأنه يحكم العالم بعنايته الإلهية»

«أنه يجب أن تتم عبادته بالهيام والصلاة والشكر»

«إن الطقس الديني الأكثر قبولاً من قبل الله هو العمل الصالح للإنسان»

«إن الروح خالدة»

«وإن الله بالتأكيد سيكافئ الفضيلة ويعاقب الرذيلة إما هنا أو في الحياة الآخرة».

كانت فكرتي في ذلك الوقت بأن الفرقة يجب أن تبدأ وتنتشر في البداية بين الشباب والعزّاب فقط بحيث يجب على كل شخص كي يبدأ ليس عليه فقط أن يعلن موافقته على هكذا عقيدة وإنما عليه أن يمرّن نفسه بتدقيق الثلاثة عشر أسبوعاً ويطبق عملياً الفضائل كالمثال المذكور سابقاً. إن وجود فرقة كهذه يجب أن يبقى سراً إلى أن تصبح كبيرة كي تمنع استجداء دخول الأشخاص الغير مناسبين، وإنما على كل عضو من الأعضاء أن يبحث من بين معارفه عن الشباب الأذكياء المنظمين الذين يجب أن يتم نقل المشروع إليهم بحذر حكيم تدريجياً. إن على الأعضاء أن يتشاركوا كي يمنحوا نصائحهم ومساعدتهم لبعضهم البعض لتعزيز اهتمامات وعمل وتقدم بعضهم البعض في الحياة. وللتمييز يجب أن يُطلق علينا جماعة الأحرار والمطمئنين: فأحرار لكوننا بالتطبيق العملي

العام وعادة الفضائل أحراراً من سطوة الرذيلة، وبشكل خاص بالتطبيق العملي للمثابرة والتدبير أحرار من الديون والتي تُعرّض الإنسان للحبس وأنواع من العبودية لدائنيه.

هذا أكثر ما أستطيع تذكره الآن عن الخطة فيما عدا أنني قمتُ بتوصيلها جزئياً إلى اثنين من الشباب اللذين تبنياه مع بعض الحماس. لكن ظروفي الحرجة في ذلك الوقت والضرورة التي ألزمتني بأن أبقى لصيقاً بعملي سببت تأجيلي لمتابعته أيضاً في ذلك الوقت، وأغرتني أعمالي المتنوعة ـ العامة والخاصة ـ عن متابعته وعلى تأجيله لذا تم إهماله إلى أن لم يتبقَّ لدي قوة أو نشاط كافيتين لهكذا مشروع. مع أنني لا أزال على رأي أنه كان تطبيقاً عملياً وقد يكون مفيداً جداً بتشكيل عدد كبير من المواطنين الصالحين. ولم تثبط عزيمتي بسبب العظمة الظاهرة لتوليه لأنني دائماً ما أعتقد بأن بإمكان إنسان واحد ذي إمكانيات مقبولة من عمل تغييرات كبيرة وينجز قضايا عظيمة بين البشر إذا قام أولاً بإعداد خطة جيدة وبالانقطاع عن جميع الإلهاءات أو الأعمال الأخرى التي تشتت انتباهه، تجعل تنفيذ هذه الخطة بحثه وشاغله الوحيد.

في 1732 قمت لأول مرة بنشر صحيفتي (الألماناك)[1] تحت اسم (ريتشارد سوندرز) وكانت قد استمرت بالصدور من قبلي حوالي خمسة وعشرين عاماً وتم تسميتها بشكل دارج (الماناك ريتشارد المسكين). سعيتُ لأن أجعلها ترفيهية ومفيدة على حد سواء وعلى ذلك ازداد الطلب عليها لدرجة أنني حصدتُ ربحاً كبيراً منها. بيع سنوياً ما يقارب العشرة

(1) تعني كلمة الالماناك (التقويم) لأنه كان من ضمن محتوياتها تقويم سنوي ومواضيع تختص بالتنبوات الجوية. (المترجمة)

آلاف نسخة. ولأنني لاحظتُ بأنها تُقرأ بشكل عام وأنه نادراً ما يبقى أي حي في المقاطعة بدونها. فقد اعتبرتُها وسيلة ملائمة لنقل الوصايا بين الناس العاديين الذين نادراً ما يشترون كتباً أخرى ولذلك قمت بملء جميع المساحات الصغيرة التي توسطت الأيام الهامة في التقويم بجمل من الأمثال بشكل أساسي والتي تغرس في الذهن المثابرة والتدبير كوسائل لجلب الثروة وبذلك نعزز الفضيلة. وكمثال:

من الصعب على الإنسان المحتاج أن يتصرف بشكل صادق، وباستعمالي هنا لواحد من تلك الأمثال نقول: (من الصعب على الكيس الفارغ أن يقف منصباً.).

إن هذه الأمثال التي تضمنت حكمة العديد من العصور والأمم جمعتُها وجعلتُها على شكل حديث متواصل يتصدّر صحيفة (الألماناك) لعام 1757 كخطبة رجل عجوز حكيم إلى الناس الذين يحضرون مزاداً علنياً. إن تسليط الضوء على كل هذه الإرشادات بهذه الطريقة مكنتها من أن تترك انطباعاً كبيراً. ولأن النموذج تم استحسانه عالمياً تم نسخه في جميع صحف القارة وأعيدت طباعته في بريطانيا على جانب واحد من الورقة كي يتم تعليقها في البيوت. وتم عمل ترجمتين له في فرنسا وتم شراء العديد منه من قبل رجال الكنيسة وأفراد الطبقة العليا كي يوزعوها مجاناً بين أبناء الأبرشية الفقراء خاصتهم والمستأجرين.

في (بنسلفانيا)، لأنهم لم يشجعوا النفقات التي لا فائدة منها في الفائض الأجنبي ـ اعتقدَ البعض بأنه كان لها دورها في التأثير على إنتاج ذلك القدر الكبير المتنامي من الأموال والذي تم رصده ولعدة سنوات بعد نشرها. اعتبرتُ أيضاً صحيفتي كوسيلة أخرى لإيصال الإرشادات،

ومن وجهة النظر هذه قمت بشكل متكرر بإعادة طباعة مقتطفات من مجلة (السباكتاتور) فيها، ومن كُتّاب أخلاقيين آخرين. وقمت أحياناً بنشر مقطوعات صغيرة من تأليفي وذلك كي يقرأها أعضاء زمرتنا أولاً. منها محاورة سقراط والتي كانت تميل لأن تبرهن أنه مهما كانت مواهب الإنسان وقدراته فليس من المناسب أن يُدعى الإنسان الشرير إنساناً ذا بصيرة. ومحاورة عن نكران الذات تُظهِر بأن الفضيلة لا تتحقق حتى يصبح تطبيقها عادة وخالية من معارضة الميول المضادة. إن هذه قد تجدها في صحف حوالي بداية سنة 1735.

من ناحية إدارتي لصحيفتي حرّمتُ بحرص كل التشهير والابتزاز الشخصي والذي أصبح في السنوات الأخيرة معيباً جداً لبلدنا. عندما يتم التوسل لي لكي أدرج أي شيء من هذا النوع، ويتوسل الكُتّاب كما يفعلون عموماً، ستصبح حرية الطباعة وكذلك الصحيفة كمقعد المسرح والذي يمنح الحق لأن يجلس عليه من سيدفع. تكون إجابتي لهؤلاء بأنني كنتُ سأقوم بطباعة المقطع بشكل منفصل إذا رغب بذلك، وأن الكاتب قد يحظى بالعديد من النسخ بقدر ما يرضيه كي يوزعها بنفسه لكنني ما كنتُ لأن أتولى بنفسي نشر تشهيره، وأنه تعهدت مع مشتركيّي أن أزودهم بما هو إما مفيد أو مسلٍّ وما كنت لأملأ صحفهم بمهاترات شخصية والتي لا همّ لها سوى جعلهم يُظهِرون التحيّز.

لا يتورع في الوقت الحاضر العديد من طابعينا عن إرضاء الأفراد الأشرار بالاتهامات الكاذبة تجاه أنزه الشخصيات بيننا مسببين زيادة العداء لدرجة التسبب بمبارزات. وهم علاوة على ذلك طائشون بالمرّة بطباعتهم صورة بذيئة عن حكومات الأقاليم المجاورة وعن سِيَر أفضل حلفائنا

الدوليين والذي قد يكون مصحوباً بنتائج وخيمة. أنا أذكر هذه الأمور كتحذير للطابعيين الشباب ولكي يتشجعوا أن لا يقوموا بتلويث مطابعهم ويجلبوا الخزي لِمهنتهم بممارسات شائنة كتلك بل يرفضون وبشكل مستمر كما يرونني كمَثَل لهم، وأن طريقاً لسلوك كهذا سوف لن يكون ـ على العموم ـ مضرّاً لمصالحهم.

في عام 1733 أرسلتُ واحداً من عمالنا البارعين إلى (شارلستون)، (كارولينا الجنوبية) حيث كان مطلوب عامل طباعة، وزودتهُ بمكبس طابعة وحروف طباعية على أساس الاتفاق على تأسيس شراكة بموجبها يكون عليّ أن أستلم ثلث أرباح العمل دافعاً ثلث الأتعاب. كان رجلاً متعلماً وصادقاً لكن جاهل بأمور الحسابات. وعلى الرغم من أنه كان أحياناً يقوم بتحويل نقود إليّ، إلا أنني لم أتمكن من الحصول على تقرير بالحساب منه ولا على أي تقرير شاف عن شراكتنا طوال حياته. عند وفاته استمر العمل من قبل أرملته التي وُلدت ونشأت في (هولندا) حيث ـ كما بلغني ـ إن علم الحسابات يشكل جزءاً من تعليم الفتيات. فهي لم ترسل لي فقط تقريراً واضحاً بما وجَدَتهُ من المعاملات السابقة وإنما بعد ذلك واصلت المحاسبة بأعظم قدر من الانتظام والدقة على كل فلس وقامت بإدارة العمل بنجاح لدرجة أنها لم تقم فقط بتربية عائلة طيبة السمعة من الأطفال بل عند انتهاء المدة المحددة كانت قادرة على شراء دار الطباعة مني وأن تقوم بتوظيف ابنها فيها. أقوم بذكر هذه القضية بشكل رئيسي من أجل حث فتياتنا الشابات على هذا الفرع من التعليم لأنه قد يكون أكثر فائدة لهنّ ولأطفالهن ـ في حالة الترمل ـ من الموسيقى أو الرقص للحفاظ عليهم من الضياع بفرض أنفسهنّ على

الرجال المحتالين، ولتمكينهن من الحفاظ على بيت تجاري بانسجام راسخ حتى يصبح الابن قادراً على أخذ الأمر على عاتقه ويستمر به للفائدة الدائمة وإغناء العائلة.

حوالي سنة 1734 وصل هناك إلينا من (إيرلندا) واعظ شاب مشيخي يُدعى (هامفيل) الذي ألقى بصوت جيد وارتجال واضح أكثر المحاضرات امتيازاً والتي جذبتْ عدد هائل من مختلف الطوائف الذين اشتركوا في الإعجاب بها. أصبحتُ من بين البقية من مستمعيه الدائمين، فقد سرّتني خطبه. فبينما تمتلك القليل من الحزم إلا أنها غرست بقوة ممارسة الفضيلة أو ما يُطلق عليها بالأسلوب الديني (العمل الصالح). لكن أولئك الذين من طائفتنا الذين اعتبروا أنفسهم من الطائفة المشيخية القويمة لم يستحسنوا مذهبه وكان الأغلبية منهم يتبع رجال الإكليروس القديم الذين، فأحضروه أمام المجمع الكنسي بتهمة الهرطقة لإسكاته. أصبحتُ مؤيده المتحمس وتبرعتُ بما أستطيع كي أقوم بتشكيل جماعة في صالحه، وقاتلنا لأجله فترة مع بعض الأمل بالفوز. كانت هناك بعض الكتابات المتعجلة ضد الحادثة واكتشافي أنه على الرغم من أنه واعظاً رائعاً إلا أنه لم يكن سوى كاتب فقير. أعرتُهُ قلمي وكتب لنفسه اثنين أو ثلاثة منشورات وقطعة أدبية في صحيفة (الجازيته) لشهر نيسان 1735. إن تلك المنشورات عموماً كما هي الحال مع الكتابات المثيرة للجدل على الرغم من أنها تقرأ بلهفة في وقتها إلا أنها سرعان ما تصبح خارج الموضة. وأتساءل فيما إذا كانت هناك نسخة واحدة منها موجودة الآن.

أثناء الصراع، أساء حدث مشؤوم لقضيته بإفراط. اعتقدَ أحد خصومنا ـ الذي كان يستمع له وهو يخطب موعظة كان هذا الخصم

معجباً بها ـ إنه قد قرأ الموعظة في مكان ما من قبل أو على الأقل جزءاً منها. وبالبحث وجد في النهاية ذلك الجزء المقتبس في واحدة من أعداد مجلة (التحقيقات البريطانية) من حديث للدكتور (فورستر). إن هذا الاكتشاف سبّب اشمئزاز العديد من رفاقنا الذين إثر ذلك هجروا قضيته وسبّب هزيمتنا العاجلة في المجمع الكنسي. مع ذلك تعلقتُ به لأني بدلا من ذلك استحسنتُ منحه لنا مواعظ صالحة تم تأليفها من قبل آخرين، أفضل من أن يقوم بمنحنا مواعظ سيئة من صنعه هو، مع أن هذه الأخيرة هي عادة معلمينا المعروفين. بعد ذلك اعترف لي بأنه ولا أية واحدة من تلك التي وعظ بها كانت من صنعه، مضيفاً أن ذاكرته مثلاً قد مكنته من أن يحفظ ويكرر أية موعظة بعد قراءة واحدة فقط. عند هزيمتنا قام بمغادرتنا إلى مكان آخر بحثاً عن حظ أفضل، وتركتُ المحفل ولم أنظمّ إليه أبداً بعد ذلك على الرغم من أنني استمريتُ عدة سنوات باشتراكي في مساندة نوابه.

بدأتُ سنة 1733 بدراسة اللغات وسرعان ما عملتُ من نفسي خبيراً باللغة الفرنسية كما كنت قادراً على قراءة الكتب بسهولة، ثم بعد ذلك بدأتُ بالإيطالية. اعتاد أحد معارفي الذي كان يتعلمها أيضاً أن يغريني بأن ألعب معه الشطرنج. وباكتشافي أن ذلك قد استغرق مني وقتاً كثيراً جداً كان عليّ أن أقضيه في الدراسة، رفضتُ في نهاية المطاف أن ألعب أكثر إلا في هذه الحالة يجب أن يكون للغالب في كل لعبة الحق في أن ينجز مهمة ـ إما في مجال القواعد كي يتم حفظها عن ظهر قلب أو في الترجمات، إلخ. كان على المهزوم أن ينجزها بشرف قبل مواجهتنا التالية. في حالة إذا لعبنا بالتساوي نقوم في هذه الحالة بأن يغلب أحدنا الآخر في تلك اللغة.

بعد ذلك اكتسبتُ بقليل من المثابرة قدراً من الإسبانية بقدر ما أستطيع قراءة كتبها أيضاً.

ذكرتُ مسبقاً بأنني حظيتُ بسنة تعليم واحدة في المدرسة اللاتينية وذلك عندما كنتُ صغيراً جداً، وبعدها أهملت تلك اللغة بشكل كامل. لكنني عندما أحرزتُ معرفة بالفرنسية والإيطالية والإسبانية كنتُ متفاجئاً لأن أجد ـ عند إلقاء نظرة على العهد اللاتيني[1] بأنني فهمتُ أكثر بكثير عن هذه اللغة مما تخيلت والذي شجعني لأن أنصرف ثانيةً إلى دراستها. وقد حظيتُ بنجاح أكبر لأن هذه اللغات السابقة قد مهّدتْ طريقي بشكل كبير. من هذه المواقف فكّرتُ بأن هناك بعضاً من التناقض في طريقتنا الشائعة بتعليم اللغات. فقد قيل لنا أنه من المناسب أن نبدأ أولاً باللاتينية وباكتسابنا تلك سيكون من السهل جداً إحراز هذه اللغات الحديثة والمشتقة منها، ومع ذلك نحن لا نبدأ بالإغريقية ليكون سهلاً أكثر اكتساب اللاتينية.

من الصائب أنه إذا كان بإمكانك أن تتسلق وتصل إلى قمة الدرج بدون أن تستعمل السلالم سيكون من السهل أكثر أن تلاقيها أثناء النزول. لكن بكل تأكيد إذا بدأتُ بالأوطأ فستصعد بسهولة أكثر إلى القمة. ولذلك كنت سأدلي به في عهدة أولئك الذين يراقبون تعليم شبابنا، لأن العديد من أولئك الذين بدأوا بتعليم اللاتينية هجروها بعد قضاء بضع سنوات بدون اكتساب أي مهارة كبيرة فيها وما تعلموه أصبح بلا فائدة تقريباً لذا فقد ضاع وقتهم، لن يكون من الأفضل أن يبدأوا بالفرنسية متجهين نحو

---

(1) الكتاب المقدس باللغة اللاتينية. (المترجمة)

الإيطالية، إلخ. لأنه على الرغم من قضائهم نفس المدة في دراستها إلا أنه سيكون عليهم أن يهجروا دراسة اللغات ولا يتطرقوا أبداً إلى اللاتينية لأنهم كانوا سيكتسبون لغة أخرى أو اثنتين تكون متداولة الاستعمال حديثاً قد تكون نافعة لهم في الحياة العامة.

بعد غياب عشر سنوات عن (بوسطن) وبعد تحسن ظروفي قمتُ برحلة إلى هناك لزيارة أقاربي، ما كنتُ لأتحملها جيداً بشكل مبكر أكثر. عند العودة تمت دعوتي إلى (نيوبورت) لأرى أخي، كان قد استقرّ هناك آنذاك مع دار الطباعة خاصته. كانت خلافاتنا قد نُسيتْ وكان لقاؤنا ودياً جداً وحنوناً. كانت صحته تنحدر سريعاً وطلب مني في حال وفاته والذي يخشى بأنها ليست بعيدة، بأن آخذ ابنه للبيت معي ـ لم يكن وقتها عشر سنوات من العمر ـ وأن أقوم بتنشئته على عمل الطباعة. هذا ما التزمتُ به وفقاً لذلك. أرسلتُه إلى المدرسة لبضع سنوات قبل أن آخذه معي إلى العمل. تولتْ والدتُه العمل إلى أن كبر عندما ساعدتُه بتنظيم حروف مطبعية جديدة لأن تلك التي كانت تعود لأبيه قد بليتْ. وهكذا، بهذه الطريقة قد قمتُ بتعويض أخي كثيراً مقابل الخدمة التي حرمتُهُ منها بتركي له بشكل مبكر جداً.

في عام 1736 فقدتُ أحد أبنائي، صبياً جميلاً ذا أربعة أعوام، بالجدري. اكتسبه بالطرق المألوفة. تأسفتُ عليه لمدة طويلة بمرارة ولا أزال نادماً بأنني لم أقم بتلقيحه. أنا أذكر ذلك من أجل الوالدين اللذين يقومان بنسيان هذه العملية، على اعتبار أنه لا يجب أن يسامحا نفسيهما إذا مات الطفل بمقتضاه. إن مثالي هذا يُظهِر بأن الندم قد يكون نفسه في كلتا الحالتين، ولذلك يجب اختيار ما هو أكثر أمناً.

وُجد أن نادينا (الزمرة) مفيد جداً ومنح مثلُه رضا للأعضاء لدرجة أن العديدين كانوا راغبين بإدخال أصدقائهم والذي لم يتم بشكل جيد بدون أن يتجاوزوا ما كنا قد قررنا بأنه عدد مناسب، أي اثنا عشر. جعلناها من البداية قاعدة أن نقوم بإبقاء مؤسستنا سراً والتي كانت مراقبة بشكل جيد جداً. كانت النية تفادي تقديم طلبات السماح بالدخول من قبل أشخاص غير مناسبين نجد من الصعوبة رفض بعضهم. أنا كنتُ واحداً من أولئك الذين كانوا ضد أية إضافة إلى عددنا، لكن بدلاً من ذلك قمت بكتابة مقترح بأن على كل عضو أن يسعى وبشكل منفصل لأن يشكل نادياً ثانويّاً بنفس القواعد بشأن الاستعلام عن الشخص، إلخ. وبدون إخبارهم عن ارتباطهم بالزمرة. كانت الفوائد المفترضة هي:

- دعم العديد من المواطنين الشباب بالاستعانة بمؤسساتنا.
- معرفتنا بوجهات النظر العامة للسكان في أية مناسبة لأن عضو الزمرة سيقدم أية تساؤلات نرغب بها، وعليه أن يبلغ الزمرة بما مر به في ناديه المنفصل.
- الارتقاء بمصالحنا الخاصة في العمل بالتوصيات الشاملة وزيادة تأثيرنا في قضايا الشأن العام وقوتنا لفعل الخير بنشر وجهات نظر الزمرة من خلال النوادي المتعددة.

تمت الموافقة على المشروع وأخذ كل عضو على عاتقه إنشاء ناديه لكن لم ينجح جميعهم. أنجزتُ فقط خمسة أو ستة والتي سميت بتسميات مختلفة كالكرمة، الاتحاد، الرابطة، إلخ. كانت بحد ذاتها ناجحة ومنحتنا قدر كبير من التسلية والمعلومات والتعليمات إضافة إلى تحقيق وجهات نظرنا إلى درجة كبيرة بالتأثير على الرأي العام في

مناسبات معينة والتي منها سأعطي بعض الأمثلة كما حدثت في الوقت المحدد. كانت أول ترقية لي، اختياري في عام 1736 (كاتب الجمعية العامة). تم إجراء الانتخابات ذلك العام بدون معارضة. لكن في السنة التي تلتها عندما تم ترشيحي للمرة الثانية (كان الانتخاب كانتخاب الأعضاء يكون بشكل سنوي) قام أحد الأعضاء الجدد بإلقاء خطاب طويل ضدّي لصالح مرشحين آخرين. ومع ذلك تم اختياري والذي كان شيئاً مريحاً بالنسبة لي لأن إضافة إلى راتب الوظيفة الحالية ككاتب كانت الوظيفة قد منحتني فرصة أفضل للحفاظ على مصلحةٍ ما بين الأعضاء والتي أمّنَتْ لي عمل طباعة أوراق الاقتراع والقوانين والنقود الورقية وأعمال متفرقة أخرى للعامة والتي كانت مربحة جداً بشكل عام. وكان لهذا السبب لم أكن أحب معارضة هذا العضو الجديد والذي كان رجلاً نبيلاً وغنياً ومتعلماً ذا مواهب كانت على الأرجح ستمنحه في وقتها تأثيراً كبيراً داخل المجلس النيابي وهو ما حصل فعلاً بعد ذلك. رغم ذلك لم أهدف بأن أحصل على دعمه بإعطائه أي احترام ذليل. لكن بعد فترة اتخذت هذه الطريقة الأخرى لأني سمعت بأنه يملك في مكتبته كتاباً معيناً نادراً جداً مثير للاهتمام فقد كتبتُ ملاحظة له تعبر عن مدى رغبتي بالاطلاع على ذلك الكتاب. وناشدته بأنه سيعمل معروفاً لي بإعارته الكتاب لي لعدة أيام. فأرسله على الفور وقمتُ بإعادته في غضون أسبوع مع ملاحظة أخرى تعبر بقوة عن احساسي بالفضل. في المرة التالية عندما تقابلنا في المجلس النيابي تحدّث إليّ (وهو أمر لم يفعله من قبل) وبتهذيب كبير، وبعدها ظلّ يُظهِر استعداداً كي يخدمني في كل المناسبات لذا فقد أصبحنا صديقين عظيمين واستمرت صداقتنا

حتى وفاته. هذه حالة أخرى عن حقيقة حكمة قديمة كنتُ قد تعلمتُها والتي تقول « (ذاك الذي أسدى لك مرة فضلاً سيكون مستعداً أكثر كي يؤدي لك آخر، مما لو أنت نفسك الذي طلبتَ منه ذلك.) ويُظهِر ذلك كم هو مفيد أكثر أن تزيل بحكمةٍ التصرفات العدائية من أن تستاء منها أو تجلبها أو تبقى عليها.

في عام 1737 لم يكن العقيد (سبوتسوود)، الحاكم الحالي لفرجينيا ومدير مكتب البريد العام، راضياً عن سلوك نائبه في (فيلادلفيا) فيما يخص بعض الإهمال في المناقصة وعدم الدقة في حساباته. فانتُزِعَت منه اللجنة وتم تقديمها لي، فقبلتُها بسرعة واكتشفتُ أنها ذات فائدة عظيمة لأنه على الرغم من أن الراتب كان ضئيلاً إلا أنها سهَّلَتِ المراسلة التي دعمتْ صحيفتي، وزاد العدد المطلوب، إضافة إلى الإعلانات التي يجب أن تُدرِج. لهذا فقد أتت لتمنحني ربحاً كبيراً. انحدرتْ صحيفة المنافس القديمة بشكل نسبي، وكنتُ راضياً ـ بدون أن أثير رفضه عندما كان مدير البريد ـ بأن يتم حمل صحفي من قبل راكبي الدراجات. وعليه فقد عانى كثيراً من اهماله فيما يخص المحاسبة. وأنا أذكرها كدرس إلى أولئك الشباب الذين يتوظفون بإدارة شؤون الآخرين بأنه يجب عليهم دائماً تقديم الحساب وعمل حوالات بوضوح كبير ودقة. إن أثر تَتَبُّع تدبير كهذا هو الأقوى إطلاقاً من كل التوصيات لأي وظائف جديدة وتزايد العمل.

بدأتُ الآن أحوّل تفكيري قليلاً لقضايا الشأن العام بادئاً رغم ذلك بالشؤون الصغيرة. كانت حراسة المدينة واحدة من أوّل الأمور التي رأيتُ بأنها تحتاج للتنظيم. كانت تُدار من قبل شرطة من الحرس

الخاص بالمقابل. كان الشرطي يقوم بتحذير عدداً من ربّات المنزل بأن يقمن على خدمته في الليل. واللواتي يخترن أن لا يقمن على خدمته عليهن أن يدفعن له ستة شلنات في السنة كي يتغاضى عنهن، والتي كانت من المفترض أن تكون بدل تأجير لكنها كانت في الحقيقة أكثر بكثير من اللازم لهذا الغرض وجعَل عمل الشرطي مكاناً للكسب. وغالباً ما يأتي الشرطي ـ من أجل القليل من الشراب ـ بمجموعة من الصعاليك حوله كحرّاس، لا ترغب ربّات البيوت المحترمات بأن تخالطهم. كان التجوال في الأنحاء أيضاً مهمل غالباً. وكانت تُقضى معظم الليالي في ارتشاف الخمر. على ذلك قمتُ بكتابة تقرير كي تتم قراءته في الزمرة ـ يشرح هذه المخالفات، لكن مصرّاً بشكل خاص أكثر على ظلم هذه الضريبة ذات الستة شلنات للشرطة مقدّراً ظروف اللواتي يدفعنها لأن ربة منزل أرملة فقيرة لا يزيد قيمة كل ما تملك ـ والتي يجب حراستها من قبل الحارس ـ عن خمسين باونداً، وتدفع بقدر تاجر ميسور الحال الذي يمتلك ما قيمته آلاف الباوندات من البضائع في مخازنه. على العموم فقد اقترحتُ من أجل حراسة فعلية: استئجار رجال مناسبين كي يقدموا خدمة بشكل مستمر في هذا العمل، وبطريقة منصفة أكثر لدعم المسؤولية: فرْض ضريبة تتناسب مع الممتلكات. إن هذه الفكرة التي تم استحسانها من قبل الزمرة وصلت إلى النوادي الأخرى، لكن كفكرة ناشئة في كل منها، وعلى الرغم من أن الخطة لم توضع موضع التنفيذ على الفور إلا أن تهيئة عقل الناس للتغيير قد عبّد الطريق نحو القانون الصادر بعد سنوات قلائل عندما أصبح أعضاء نادينا ذوي سلطة أكبر.

في ذلك الوقت تقريباً قمتُ بكتابة تقرير (كي تتم قراءته أولاً في الزمرة لكن قد تم نشره بعد ذلك) عن الحوادث المختلفة والإهمالات من قبل تلك البيوت التي توقد النار مع محاذير ضدّها والوسائل المقترحة لتفاديها. كان هذا قد تم التكلم كثيراً بشأنه كنموذج مفيد وأرسى لمشروع والذي أعقبه فوراً بتكوين فرقة متأهبة لإطفاء الحرائق، والمساعدة المتبادلة بإزالة وتأمين البضائع عندما تصبح في خطر. تم إيجاد المرتبطين بهذا المشروع على الفور بلغوا ثلاثين. إنّ فقرات اتفاقيتنا ألزمت كل عضو بأن يوفر دائماً عدداً معيناً من الجرادل الجلدية (بحالة جيدة ومناسبة للاستعمال) مع حقائب قوية وسلال (لحزم ونقل البضائع) والتي يجب أن يتم جلبها عند كل حريق. واتفقنا على أن نجتمع مرة كل شهر ونقضي مساءً اجتماعياً معاً في مناقشة وتوصيل أفكار كهذه كما حصلتْ لنا فيما يخص موضوع الحريق لأنه قد يكون مفيداً في تصرفنا تجاه حوادث كتلك. سرعان ما ظهرت فائدة هذه المؤسسة ورغب العديد كي يتم قبولهم أكثر مما اعتقدنا بأنه كافياً لفرقة واحدة، فأُشير عليهم بإنشاء فرقة أخرى والذي تم بناءً على ذلك. واستمر ذلك، فرقة تتكون بعد أخرى حتى أصبحت هائلة جداً كأنما قد شممت أغلب المستوطنين الذين كانوا أصحاب ملكية. والآن ـ وفي أثناء كتابتي ذلك ـ على الرغم ما يزيد على خمسين عاماً على إنشائها ـ والتي أنا أول من أسسها ـ تسمى (فرقة الحريق المتحدة) لا تزال باقية ومزدهرة على الرغم من أن الأعضاء الأوائل قد توفى جميعهم فيما عداي وآخر والذي يكبرني سناً بعام. إن الغرامات الصغيرة التي تم دفعها من قبل أعضاء لغيابهم عن الاجتماعات الشهرية تم استعمالها لشراء سيارات إطفاء

وسلالم وكلاليب الحريق وأدوات مفيدة أخرى لكل فرقة بحيث أتساءل فيما إذا كانت هناك مدينة في العالم مجهزة أفضل بوسائل توقف بداية الحرائق. وفي الحقيقة، منذ إنشاء هذه المؤسسات، لم تفقد المدينة بسبب الحريق أكثر من منزل أو اثنين في وقتها، وغالباً ما تُطفأ النيران قبل أن تلتهم نصف البيت الذي بدأتْ فيه.

في عام 1739 وصل بيننا من (إيرلندا) الموقر السيد (وايتفيلد) الذي اشتهر هناك كواعظ متجول. في البداية، تم السماح له بأن يعظ في بعض كنائسنا، لكن رجال الدين كرهوه فحرموه منابرهم، فكان ملزماً أن يعظ في الحقول. إن حشد كل الطوائف والمِلل التي حضرت خطبه كانت هائلة، وكانت مسألة تخمين بالنسبة لي ـ الذي كان واحداً من الأعداد، أن ألاحظ التأثير الغير عادي لخطبه على سامعيه، وكم أُعجبوا به واحترموه على الرغم من إساءته العامة لهم، بتأكيده لهم بأنهم كانوا أنصاف وحوش وأنصاف شياطين بشكل طبيعي. كان من الرائع أن نرى التغيير الفوري الذي أحدثه في طباع مستوطنينا. فمن أناس بلا تفكير أو لا يطيقون الدين، قد بدا وكأنَّ كل العالم يصبح متديناً بحيث لا يتمكن الشخص من المشي خلال المدينة في إحدى الأمسيات بدون أن يسمع المزامير وهي تُنشَد في عوائل مختلفة لكل شارع. وقد وجد أنه من غير المريح أن يتجمعوا في الهواء الطلق، متعرضين إلى عواصفه. وإن بناء دار كي يجتمعوا فيه لم يتم اقتراحه بشكل فوري، وتم تحديد أشخاص لاستلام تبرعات. بل تم تجميع مبلغ كاف من المال لتدبر الأرض وتنصيب البناية والتي كانت مائة قدم طولاً وسبعين عرضاً، وبحجم قاعة (ويستمنستر) تقريباً، وتم استئناف العمل بروح كي يتم بأقصر

وقت مما هو متوقع. أنيط كل من الدار والأرض إلى حراس، بصراحة للاستخدام من قبل أي واعظ لأي معتقد ديني قد يرغب أن يقول شيئاً لأهالي (فيلادلفيا). لم يكن تصميم البناية يوافق طائفة معينة بذاتها وإنما المستوطنين عموماً، بحيث إنه حتى لمفتي القسطنطينية، سيجد منبراً تحت خدمته حين يرسل بعثة كي يعظنا بالديانة المحمدية.

ذهب السيد (وايتفيلد) عند مغادرته لنا يعظ على طول الطريق خلال المقاطعات إلى (جيورجيا). كان استقرار هذه المقاطعة قد بدأ حديثاً، لكن بدلاً من أن يتم تأسيسها بالفلاحين الأقوياء المثابرين المعتادين على العمل الشاق، الأناس الوحيدين المناسبين لهكذا مشروع كان عوائل الحانوتيين المفلسين والمدينين المفلسين. إن العديد من ذوي الطباع العاطلة والفارغة قد أُخرِجوا من السجون والذين استقروا في الغابات غير مؤهلين لإصلاح الأرض وغير قادرين على تحمل بلاء مستوطنة جديدة، فماتوا بالأعداد تاركين العديد من الأطفال بلا مساعدة وبدون معيل. كان مشهد وضعهم البائس ألهم القلب الخيّر للسيد (وايتفيلد) بفكرة بناء ميتم هناك، حيث بالإمكان مساعدتهم وتعليمهم. فوعظ ـ وهو عائد شمالاً ـ بهذا العمل الخيّر وحصل على مبالغ كبيرة لعمل الخير. كان لبلاغته ـ لديه قوة مذهلة على قلوب ومحفظات سامعيه الذي كنت أنا نفسي مثالاً. أنا لم أستهجن الخطة لكن لأن (جيورجيا) كانت في ذلك الوقت معدومة المواد والعمال وكان من المفترض أن نرسل لهم ذلك من (فيلادلفيا) بتكلفة كبيرة، اعتقدتُ بأنه سيكون من الأفضل أن نبني الميتم هنا وأن نجلب الأطفال له. هذا ما نصحتُ به لكنه كان مصرّاً على مشروعه ورفض مشورتي، وأنا لذلك رفضتُ أن أقوم

بالتبرع. بعد ذلك مباشرةً حدث وأن حضرتُ واحدة من خطبه، فهمتُ أثناء الخطبة بأنه ينوي الانتهاء من جمع الاموال، وأنا اعتزمتُ بصمتٍ بأنه لا يجب أن يحصل على شيء مني. كان لديّ في جيبي حفنة من نقود نحاسية، ثلاثة أو أربعة دولارات فضية، وخمسة بستولات ذهبية. عندما بدأ، بدأتُ أضعف، فقررتُ على أن أمنحه النقود النحاسية. شوط آخر من خطبته جعلني أخجل من ذلك، وجعلني أصمم على أن أعطي النقود الفضية. فانتهى بشكل مثير للإعجاب لدرجة أنني أفرغتُ جيبي كله في صحن جامع المال، القطع الذهبية وكل شيء. كان هناك أيضاً في هذه الخطبة واحد من نادينا الذي كان مع رأيي فيما يخص البناء في جيورجيا ويشك بنية جمع المال ـ وكان للاحتراز قد أفرغ جيوبه قبل أن يأتي من البيت. وإزاء نهاية الكلام، رغم ذلك، شعر برغبة قوية كي يعطي المال. توجه إلى من بجواره ـ والذي كان واقفاً بالقرب منه ـ كي يستعير بعض المال من أجل هذا الهدف. كان الطلب ـ لسوء الحظ ـ قد حصل للرجل الوحيد في الجمع الذي كان يملك الحزم على أن لا يتأثر بالواعظ. كانت إجابته هي: «كنت سأعيرك المبلغ بدون حساب في أي وقت آخر يا صديقي (هوبكنسون) لكن ليس الآن لأنك تبدو غير صادق في مشاعرك».

ينزع بعض أعداء السيد (وايتفيلد) إلى أن يزعموا بأنه كان سيستخدم هذه الأموال لأغراضه الخاصة. لكن أنا الذي كان على معرفة وثيقة به ـ كوني عملتُ على طباعة خطبه وكراساته، إلخ) لم يكن لديّ أدنى شك بنزاهته وإنما أنا لحد هذا اليوم بلا ريب على رأي بأنه كان في كل تصرفاته رجلاً صادقاً تماماً ويبدو لي أن شهادتي لصالحه يجب أن

تحظى بثقل أكبر لعدم امتلاكنا رابطاً عقائدياً. اعتاد في بعض الأحيان بأن يدعو لهدايتي، لكن لم يمتلك أبداً القناعة بأن يصدق بأن دعواته كانت تُسمَع. كانت علاقتنا مجرد صداقة لطيفة صادقة من الطرفين واستمرت لحين وفاته.

ستوضح الحادثة التالية شيئاً من المصطلحات التي وقفنا عندها: عند مجيئه إحدى المرات من (إنكلترا) إلى (بوسطن)، كتب إليّ بأنه يجب عليه أن يأتي حالاً الى (فيلادلفيا) لكنه لا يعرف أين يمكن أن ينزل لأنه فهم بأن صديقه القديم ومضيفه السيد (بينيتيست) قد انتقل إلى (جيرمان تاون)، كانت إجابتي: «أنت تعلم أين يقع منزلي، إذا كان بإمكانك أن تستخدمه كبديل مؤقت بتجهيزه الزهيد سيكون مُرَحَّباً بك بمودة». فأجاب بأنه إذا قبلتُ هذا العرض الكريم من أجل يسوع المسيح فلن أفوِّت هذا الأجر. فأجبتُ: «لا تجعلني واهماً، إنه ليس من أجل المسيح، وإنما لأجلك». علّق أحد معارفنا السوقيين بتفكه بأنه من المعروف أنها من عادات القديسين عندما يتلقون أي إحسان، كي يحولوا عبء التكليف من على أكتافهم ويضعوه في السماء، أنا وجدتُ وسيلة لكي أقوم بتثبيته في الأرض.

كانت آخر مرة أرى فيها السيد (وايتفيلد)، كانت في (لندن) عندما استشارني بخصوص مسألة ميتمه وعن رغبته بتحويله إلى كلية. كان لديه صوت جهوري وواضح ويتلفظ كلماته وجمله بشكل مثالي جداً بحيث يمكن سماعه وفهمه لمسافة بعيدة خصوصاً، كما لاحظ مستمعوه - مهما كانوا كثيرين - الصمت التام. خطب في إحدى الأمسيات من على قمة مدرجات دار العدل والذي يقع وسط (شارع السوق) وعلى

الجانب الغربي من (الشارع الثاني) الذي يقاطعه بزاوية مستقيمة. امتلا
كلا شارعيه بمستمعيه إلى مسافة كبيرة. كنتُ بين الناس في أقصى
مسافة في الخلف في (شارع السوق). انتابني الفضول أن أعلم إلى أي
مدى يمكن سماعه. بتراجعي باتجاه الخلف أدنى الشارع باتجاه النهر
وجدتُ صوته واضحاً، حتى وصلتُ قرب (شارع الواجهة)، عندما
شوشت عليه بعض الضوضاء التي كانت في ذلك الشارع. تخيّلتُ عندها
شبه دائرة حيث بُعدي هو نصف القطر وأنها مليئة بالمستمعين والذين
أعطيتُ لكل واحد منهم قدمين مربعة، فقمتُ بحساب أنه يمكن سماعه
جيداً بأكثر من ثلاثين ألفاً. أعادني هذا إلى تقارير الصحف عن أنه قد
بوعظ خمسة وعشرين ألفاً من الناس في الحقول، وإلى التاريخ القديم
عن قادة يخطبون بجيش بكامله والذي شككتُ به في بعض الأحيان.
وبسماعه دائماً، أصبحتُ أميّز بسهولة بين الخطب المؤلفة حديثاً وتلك
التي كان يعظ بها دائماً في طريق رحلاته. إن إلقاءه للأخيرة كان قد
تحسّن كثيراً بالتكرارات المستمرة بحيث كانت تتغير جيداً وبشكل
مثالي تماماً وفي مكانها كل نبرة وكل تشديد وكل تغيير بالصوت بحيث
(باستثناء كونك مهتماً بالموضوع أم لا) لا يتمالك الفرد من أن يكون
مسروراً بالمحادثة سروراً يشابه كثيراً السرور المستمد من مقطوعة
ممتازة من الموسيقى. إن هذه ميّزة امتلكها الواعظون المتجولون
مقارنة مع الثابتين لأن الأخيرين لا يستطيعون تحسين إلقائهم للخطب
بالبروفات العديدة جداً. إن كتاباته وطباعتها من وقت لآخر منحت
خصومه غنيمة كبيرة. فالتعابير الغير حذرة وحتى الآراء الخاطئة الملقاة
في العظة قد يتم تفسيرها بعد ذلك أو يتم تحريفها بغير ما كان مقصوداً

منها أو قد يتم استنكارها. لكن النصوص المكتوبة تبقى. هاجم النقّاد كتاباته بعنف ومن أجل سبب واضح جداً، كي يقللوا من عدد معجبيه ويمنعوا تزايدهم. لذا من رأيي لو لم يكن قد كتب أي شيء لكان قد ترك وراءه جمعاً متزايداً كثيراً جداً وجليلاً، ولكانت مكانته المرموقة في هذه الحالة لا تزال في التزايد. حتى بعد وفاته لأنه لن يوجد هناك شيء من كتابته ما يوجِد عليها رقابة تمنحه صورة شخصية منحطة، ولكان مناصروه أحراراً بأن يختلقوا بحقه تنوع عظيم من الفضائل التي يتمنى إجلالهم الحماسي من أن يمتلكها.

كان عملي الآن يتزايد باستمرار، وأصبحت ظروفي تزداد يسراً يومياً. أصبحتْ صحيفتي مربحة جداً، كما كانت لفترةٍ الصحيفة الوحيدة تقريباً في هذه المقاطعة والمقاطعات المجاورة. وجربتُ أيضاً حقيقة صحة الملاحظة التي تقول: بعد الحصول على أول مائة باوند سيكون أكثر سهولة الحصول على الثاني. فالمال نفسه ذو طبيعة متزايدة. بعد أن نجحتْ الشراكة في ولاية (كارولينا) تم تشجيعي كي أقوم بشراكة في ولاية أخرى وأشجع عدداً من عمالي (الذين يحسنون التصرف) بتثبيتهم في دور الطباعة في المستعمرات المختلفة بنفس شروط ولاية (كارولينا). أبلى معظمهم بلاءً حسناً لأنهم تمكنوا عند نهاية المدة (ست سنوات) من شراء الأحرف المطبعية العائدة لي واستمروا بالعمل لأنفسهم. وبهذه الطريقة نشأتْ عدة عائلات.

تنتهي الشراكات عادةً بمشاجرات. لكنني كنت سعيداً من أن شراكاتي كانت كلها تستمر وتنتهي وديّاً، أعزو ذلك على ما أعتقد بدرجة كبيرة إلى الاحتياطات التي يتم الاتفاق عليها في فقراتنا بشكل صريح جداً في أي

شيء يتم إنجازه ـ من قبَل أو يتم التوقع من ـ كل شريك للذلك لم يكن هناك أي نزاعات، وهو احتياط أودّ للذلك أن أنصح به إلى كل من يدخل في شراكات أن مهما كان التقدير الذي يكنّه الشركاء والثقة لبعضهم البعض في وقت التعاقد قد تنشأ بعض الأحقاد والكراهيات فيما يخص شؤون عدم التساوي بالاهتمام وثقل العمل، إلخ. والتي تكون مصحوبة عادةً بصدع الصداقة وربما الدخول في قضايا قانونية وتبعات أخرى غير مقبولة.

عموماً لديّ الكثير من الأسباب كي أرضى باستقراري في (بنسلفانيا). مع ذلك كان هناك أمران أسفتُ لهما، لم يكن هناك توفر للحماية ولا لتعليم مثالي للشباب ولا ميليشيا ولا أي كلية. لذلك قمتُ بصياغة مقترح في 1743 لإنشاء أكاديمية. وفي ذلك الوقت كنتُ أعتقد أن الشخص المناسب للإشراف على هكذا مؤسسة هو الموقر السيد (بيترز) الذي لم يكن موظفاً آنذاك. أبلغتُهُ بالمشروع لكنه (بعد أن كان يمتلك آراء مربحة أكثر في خدمة حكّام المقاطعات، والتي نجحت) رفض تولي الأمر. ولعدم معرفتي في ذلك الوقت بشخص آخر مناسب لهكذا أمانة، جعلتُ المشروع معلقاً لفترة. نجحتُ بشكل أفضل في السنة التالية (1744) باقتراح وتأسيس مجمع فلسفي. التقرير الذي قمتُ بكتابته لهذا الغرض سيتم إيجاده بين كتاباتي عندما يتم جمعها.

فيما يخص مجال الدفاع، كانت (إسبانيا) في حرب ضد (بريطانيا) العظمى لعدة سنوات. ولكونها انضمّتْ في النهاية إلى (فرنسا)، والذي أدخلنا في خطر عظيم، ولكون المسعى البطولي الذي استمر طويلاً لمحافظنا (توماس) لإقناع مجلس طائفة الكويكرز لإقرار قانون

الميليشيات ولاتخاذ احتياطات أخرى من أجل أمن المقاطعة ـ قد أثبت فشله، قررتُ ما يجب فعله بانضمام طوعي للشعب. ولكي أروّج لذلك قمتُ أولاً بكتابة ونشر منشور معنون (الحقيقة الخالصة) أعلنتُ فيه عن موقفنا العاجز بوضوح كبير مع ضرورة الالتحام والانضباط من أجل حمايتنا، ووعدت بطرح ذلك الاقتراح في اجتماع كي يتم التوقيع عليه بشكل عام من أجل هذا الغرض. كان للمنشور تأثير مدهش وغير متوقع. تم استدعائي لعقد الاجتماع، وأسستُ مسودته مع أصدقاء قلائل. قمتُ بتحديد موعداً للاجتماع بالمواطنين في المبنى المذكور سابقاً. كان المبنى مليئاً تماماً. كنت قد قمتُ بتهيئة عدد من النسخ المطبوعة، ووفرتُ أقلاماً وحبراً وقمتُ بتوزيعها في كل الغرفة. خطبتُ فيهم قليلاً بخصوص الموضوع، قرأتُ التقرير وشرحتُهُ ومن ثم قمتُ بتوزيع النسخ والتي تم توقيعها بلهفة ولم يحصل أدنى اعتراض. عندما تفرّق الجمع وجُمعت التقارير وجدنا ما يزيد عن ألف ومئتي توقيعاً. وتم توزيع نسخ أخرى في البلاد. كان الموقعون قد بلغوا في النهاية ما يزيد عن عشرة آلاف. قام كل هؤلاء بتجهيز أنفسهم حالما استطاعوا، بأسلحة. وشكّلوا أنفسهم في مجموعات وحشود وقاموا باختيار مسؤولهم واجتمعوا كل أسبوع كي يتم تدريبهم على التمارين اليدوية وأقسام أخرى من التدريب العسكري.

قامت النساء ـ بالاشتراك فيما بينهن ـ بتوفير الأصباغ الحريرية والتي تم تقديمها للجمع، وقاموا بواسطتها بصبغ الأدوات المختلفة والشعارات التي قمتُ بتزويدهم بها. اجتمع ضباط الفرق الذين يؤلفون فوج (فيلادلفيا) واختاروني العقيد المسؤول عنهم. لكن لكوني

أعتقد بأنني غير مناسب، قمتُ برفض ذلك المركز ونصحتُ بالسيد (لورانس)، شخص دقيق ورجل ذو تأثير والذي تم تعيينه على أساس ذلك. اقترحتُ بعد ذلك، اليانصيب، لتسديد تكاليف تأسيس فرقة المدفعية أدنى المدينة وتزويدها بمدفع. فتم تنفيذ ذلك بشكل عاجل. وكانت المدفعية قد تم تنصيبها على الفور. تم إحاطة مفارز الدفاع بجذوع الأخشاب وتم ملؤها بالتراب. اشترينا مدافع قديمة نوعاً ما من (بوسطن)، لكن هذه لم تكن كافية. فكتبنا إلى (إنكلترا) من أجل المزيد، طلبنا في نفس الوقت من أصحاب الأملاك بعض المساعدة على الرغم من عدم توقعنا كثيراً بالحصول عليها. في تلك الأثناء تم إرسال العقيد (لورانس)، (وليام آلان)، (أبرام تايلور)، الموقر، وأنا نفسي إلى (نيويورك) من قبل المرابطين كي نتفاوض على استعارة بعض المدافع من المحافظ (كلينتون). رفض في البداية بشكل قاطع لكن عند العشاء مع مستشاريه حيث كان هناك الكثير من شرب خمر (الماديرا) ـ كما كانت عادة ذلك المكان وقتها ـ فأصبح ليّناً بالتدريج وقال بأنه سيعيرنا ستة. بعد عدة كؤوس مترعة رفعها إلى عشرة، وفي النهاية منحَنا بشكل كريم جداً ثمانية عشر. كانت مدافع دقيقة، ثمانية عشر مدقّاً بعرباتها والتي قمنا بنقلها على وجه السرعة وقمنا بتركيبها على مدفعيتنا حيث وضع المرابطون عليها حراسة ليلية عند استمرار الحرب، ومن بين الباقين أخذتُ دوري في الواجب هناك كجندي عام.

إن نشاطي في هذه العمليات كان مقبولاً للمحافظ وللمجلس النيابي، فوثقوا بي وكان يتم استشارتي من قبلهم في أي تدبير حيث إن اتفاقهم كان يُعتبر مفيداً للرابطة. اقترحتُ عليهم، استجلاباً لمساعدة العقيدة،

إعلان الصيام لتعزيز الإصلاح ومناشدة بركات السماء لمسعانا. تبنوا الاقتراح، لكن لكونه أول صيام في المقاطعة فكّر أحدٌ به يوماً لم يكن لدى الكاتب سابقة يخط منها الإعلان. كان لتعليمي في (نيوإنغلاند) ـ حيث يُعلن الصيام كل سنة ـ كان له هنا بعض الفائدة. فقمتُ بتخطيطه على قائم خشبي عام وتمت ترجمته إلى الألمانية وتم طبعه بكلتا اللغتين وأعلن عنه في المقاطعة. منح هذا رجال الكنيسة من مختلف الطوائف فرصة للتأثير باتباعهم كي ينضمّوا للرابطة. وكان سيكون عاماً على الأرجح بين الكل عدا طائفة الكويكرز ما لم يحل السلام بسرعة. كان يُعتقد من قبل بعض من أصدقائي بأن بنشاطي في تلك الشؤون لا بد وأنني قد أسأتُ لتلك الطائفة وبذلك سأفقد أهميتي في مجلس المقاطعة حيث هم يشكلون الأغلبية العظمى. أعلمني رجل شاب مهذّب والذي لديه أيضاً بعض الأصدقاء في المجلس والذي رغب أن يعقبني كي يصبح كاتب له، بأنه تم الإقرار بإزاحتي في الانتخابات القادمة وأنه لذلك بنيّة حسنة نصحني بالاستقالة تناسباً أكثر مع كرامتي بدلاً من أن يتم الانقلاب عليّ. كانت إجابتي له هي بأني كنتُ قد قرأتُ أو سمعتُ عن رجل من الناس العاديين الذين جعلوها قاعدة بأن لا يسأل مطلقاً عن منصب ولا أن يرفض منصب مطلقاً عندما يُعرَض عليه وقلت: «بأنني أستحسن قاعدته وسأقوم بتطبيقها عملياً مع إضافة صغيرة: لن أسأل مطلقاً ولن أرفض مطلقاً ولا حتى أن أستقيل مطلقاً، من منصب. فإذا كانوا سيحولون منصبي ككاتب لشخص آخر فسيأخذونه مني. وبعزلي عنه لن أفقد حقي بالانتقام من خصومي من حين لآخر». رغم ذلك لم أسمع من هذا الكلام بعد ذلك وتم انتخابي ثانيةً بالإجماع كالعادة في

الانتخابات القادمة. من المحتمل، لكونهم كرهوا علاقتي الوثيقة في الفترة الأخيرة بأعضاء المجلس النيابي الذين انضموا إلى المحافظين في كل النزاعات بخصوص الاستعدادات العسكرية والتي بسببها تم إرهاق المجلس، كانوا سيسرّون إذا ما كنتُ قد تركتُهم بشكل اختياري لكنهم لم يكترثوا بإزاحتي لمجرد تحمسي للرابطة، ولم يكن بإمكانهم أن يمنحوا سبباً آخر تماماً.

في الحقيقة لديّ بعض الأسباب تجعلني أعتقد بأن الدفاع عن المقاطعة لم يكن مقبولاً لأي واحد منهم شريطة أن لا يُطلَب منهم أن يساعدوا فيه. وقد اكتشفتُ أن عدداً كبيراً منهم أكثر مما تخيلت يوماً على الرغم من أنهم كانوا ضد حرب هجومية، كانوا بشكل واضح مع الوضع الدفاعي. قمتُ بنشر العديد من المنشورات عن الموضوع المؤيدة والمعارضة، وأقنع بعض من أبناء طائفة الكويكرز الصالحين معظم شبابهم من أجل الدفاع على ما أعتقد. حدث اتفاقٌ ما في فرقة الحرائق الخاصة بنا، منحني بعض التبصر فيما يخص وجهات نظرهم السائدة. فقد تم الاقتراح بأنه يجب علينا تشجيع خطة إنشاء مدفعية بإنفاق المال المتوفر (وكان وقتها ستين باونداً) في بطاقات اليانصيب. وفقاً لقوانيننا لا يمكن صرف أية أموال حتى الاجتماع القادم بعد عرض الاقتراح. تكونت الفرقة من ثلاثين عضواً، منهم اثنان وعشرون من طائفة الكويكرز، وثمانية فقط من معتقدات أخرى. نحن الثمانية حضرنا الاجتماع بشكل منضبط لكن على الرغم من أننا اعتقدنا بأن بعض من الكويكرز كانوا سينضمون إلينا، إلا أننا كنا متأكدين من أننا سنشكل الأغلبية على الإطلاق. فقط واحد من الكويكرز، السيد (جيمس موريس)، بدا بأنه يعارض الإجراء وقد

أبدى حزناً كثيراً بأنه قد تم طرح الاقتراح لأنه قال بأن الأصدقاء كان جميعهم ضده وكان سيولد انشقاقاً قد يقسم الجمع. فأخبرناه بأننا لم نرَ سبباً لذلك، فقد كنا أقليّة، وإذا كان الأصدقاء ضد الإجراء وصوّتوا ضدّنا فيجب علينا ولزاماً وتماشياً مع أعراف كل المجتمعات أن نخضع. وعندما حانت ساعة العمل وتم الإقناع للاقتراح بالتصويت سمح وقتها بأنه بإمكاننا فعل ذلك وفقاً للقواعد، طالما استطعنا التأكد بأن عدداً من الأعضاء قصدوا الحضور من أجل معارضتها، لن يبقى سوى أن يعلن منح بعض الوقت لوصولهم. بينما كنا نتنازع في ذلك، أتى إليّ نادل كي يخبرني بأن هناك سيدين في الأسفل يرغبان بالتحدث إلي. فنزلت ووجدت بأنهما كانا اثنين من أعضائنا الكويكرز، أخبراني بأنه كان هناك ثمانية منهم مجتمعين في حانة بالجوار وأنهم قرروا أن يأتوا وأن يصوّتوا معنا إذا كانت هناك فرصة (والذين أملوا بأن لا تكون الحال كذلك)، ورغبوا بأن لا نرسل بطلبهم للمساعدة إذا تمكنا أن نمضي بدونها، لأن تصويتهم لإجراء كهذا قد يفسد علاقتهم بزعيمهم وأصدقائهم. بهذا، وثقتُ من الغالبية. فصعدت، وبعد قليل من التردد الواضح وافقتُ على التمهل ساعة أخرى. سمح السيد (موريس) بأن تكون عادلة للغاية. لم يظهر ولا واحد من أصدقائه المعارضين وعندها عبّر عن دهشة كبيرة وبعد انتهاء الساعة وافقنا على الاقتراح ثمانية إلى واحد، ولأن من اثنين وعشرين من الكويكرز كان ثمانية مستعدين ليصوتوا معنا وأظهر ثلاثة عشر ـ بغيابهم ـ بأنهم غير راغبين لمعارضة الإجراء. قمت بعد ذلك بأمانة بحساب نسبة الكويكرز المعارضين للدفاع وكانت من واحد مقابل واحد وعشرين فقط. لأن أولئك كلهم كانوا أعضاء دائمين لذلك

النادي وذوي سمعة حسنة بينهم وامتلكوا انتباهاً كافياً بما هو مفترض في ذلك الاجتماع.

كان السيد المحترم والمتعلم السيد (لوغان) الذي كان دائماً بجانب هذه الطائفة واحداً من الذين كتبوا خطاباً لهم يعلن عن استحسانه للحرب الدفاعية ويسند رأيه بالعديد من الحجج القوية. وضع بين يدي ستين باونداً كي يتم إنفاقها في بطاقات اليانصيب من أجل إنشاء المدفعية مع توجيهات باستخدام الجوائز التي قد تجذب العموم لهذه الخدمة. كان قد أخبرني الحكاية التالية عن سيده (وليام بين) فيما يخص الدفاع. كان قد أتى من (إنكلترا) عندما كان شاباً مع حاكم المقاطعة هذا، كسكرتيره الخاص. كان ذلك وقت الحرب وكانت سفينتهم ملاحَقة من قبل سفينة مسلحة من المفترض أنها سفينة العدو. كان قبطانها متأهباً للدفاع، لكنه أخبر (وليام بين) ورفاقه من الكويكرز بأنه لا ينتظر مساعدتهم، وبإمكانهم التراجع إلى الكابينة وهو ما فعلوه، ما عدا (جيمس لوغان) الذي اختار بأن يبقى على سطح السفينة وكان قد لجأ إلى سلاح. ظهر أن المفترض أنه عدو، كان صديقاً، لذا لم يكن هناك أي قتال، لكن عندما نزل السكرتير ليوصل الأخبار، أنّبه (وليام بين) بشدة لبقائه على سطح السفينة وأخْذِهِ على عاتقه المساعدة بالدفاع عن السفينة تناقضاً مع مبادئ الأصدقاء، خصوصاً أنها لم تُطلَب من القبطان. كان هذا التأنيب قد حدث أمام جميع الرفاق، انزعج السكرتير الذي أجاب: «لكوني خادمك لماذا لم تأمرني بالنزول؟ لكنك كنتَ راغباً كفاية بأنه يجب عليّ البقاء وأساعد بمحاربة السفينة عندما ظنَنْتَ أنه كان هناك خطر». إن كوني في الجمعية لعدة سنوات والتي غالبيتها من الكويكرز بشكل دائم، منحني فرصاً متكررة برؤية الإحراج الذي يصيبهم

بمبدأهم المناهض للحرب متى ما كان الطلب الذي يُقَدَّم لهم لأغراض عسكرية، ابتداءً من الأوامر الملكية إلى المساعدات الممنوحة. لم يكونوا يرغبوا بإهانة حكومة بالرفض المباشر من جهة، ولا زملائهم وهيئة الكويكرز من جهة أخرى بالامتثال تناقضاً مع مبادئهم. من هنا أنواع التهرّب العديدة لتفادي الامتثال، وأساليب إخفاء الامتثال عندما يصبح حتمياً. في النهاية كان الأسلوب الشائع منح المال تحت عبارة (لاستخدام الملك) وأن لا نتساءل أبداً عن فيمَ سيتم استخدامها. لكن إذا لم يكن المطلب من السلطة الملكية مباشرةً لن تكون هذه العبارة ملائمة تماماً وسيتم اختراع بعض العبارات الأخرى. مثلاً عندما تم الاحتياج إلى البارود (اعتقد كان ذلك للجنود المرابطين في لويس بيرغ)، وكانت حكومة (نيوإنغلاند) قد التمست مساعدة البعض من (بنسلفانيا) والتي تم حثّها للتوجه للمجلس من قبل المحافظ (توماس)، لم يتمكنوا من منح المال لشراء البارود لأن ذلك كان من مكونات الحرب، لكنهم اقترحوا مساعدة ل (نيوإنغلاند) بثلاثة آلاف باوند كي توضع بين يدي المحافظ وخصّصوها لشراء الخبز والدقيق أو حبوب أخرى. أشار بعض المستشارين الراغبين بالتسبب للمجلس ثانيةً بإحراج إضافي، على المحافظ أن لا يقبل الإعانة لانها لم تكن الشيء الذي طلبه لكنه أجاب: (سوف آخذ المال، لأنني أفهم جيداً جداً معناه، فالحبوب الأخرى هي البارود). وعلى ذلك قام بشرائه ولم يعترضوا على ذلك أبداً.[1]

كان تلميحاً لحقيقة أنه عندما نخاف في فرقة الحرائق خاصتنا من نجاح مقترحنا فيما يخص اليانصيب، وكنت قد قلت لصديقي السيد (سانغ)

---

(1) انظر التصويتات. [ملاحظة هامشية]

أحد أعضائنا: «إذا فشلنا فلنقدم اقتراحاً بشراء مطفأة حريق بالأموال، فالكويكرز لا يمكنهم الاعتراض على ذلك وبعدها إذا رشحتني وأنا أرشحك كلجنة لهذا الغرض فسنقوم بشراء سلاح كبير والذي سيكون بالتأكيد مطفأة حريق». فقال: «أفهم ذلك لقد تحسّنتَ بكونك كنت في المجلس لمدة طويلة فمشروعك المبهم سيكون مشابهاً لقمحهم أو الحبوب الأخرى».

إن هذه الإحراجات [التي عانى منها الكويكرز من تأسيسها ونشرها كواحدة من مبادئهم وهي، أن أي نوع من الحرب هو غير شرعي، والذي حالما نُشر لم يتمكنوا بعدها مهما حاولوا من أن يغيروا من تفكيرهم من التخلص منها بسهولة] تذكرني بما أعتقده سلوكاً أكثر حكمة لطائفة أخرى بيننا وهي طائفة (الدانكرز)[1] وقد تعرفتُ بأحد مؤسسيها (ميشيل ويلفير)، بعدما ظهرتْ مباشرةً. فقد اشتكى لي بأنهم عانوا بشكل مؤلم من قبل متعصبي الطوائف الأخرى وتم اتهامهم بمبادئ وممارسات فظّة والتي بسببها يتم إطلاق تسمية (الغرباء) عليهم. فقلتُ له بأن هذا دائماً حال الطوائف الجديدة. وبوضع حد لهكذا إساءة تخيّلتُ أنه من الصائب نشر فقرات عن معتقدهم وأحكام ديانتهم. فقال بأنه قد اقترح ذلك بينهم لكنهم لم يوافقوا عليه للسبب الآتي، قال: «في البداية عندما اجتمعنا سوية كجماعة، شاء الله بأن ينير بصيرتنا إلى حد أن نرى ـ بأن بعض المذاهب التي اعتبرناها ذات مرة حقائق ـ بأنها خاطئة. وأخرى اعتبرناها خاطئة ـ تبين أنها حقائق صادقة. شاء الله بأن يمنحنا من وقت

(1) الدانكرز: جماعة الأخوان المعمدان الألمان، وهي طائفة من المسيحيين المعمدانيين تأسست سنة 1708. (المترجمة).

لآخر أقصى! استنارة، فكانت مبادئنا تتحسن وخطايانا تتناقص. نحن الآن غير متيقنين بأننا وصلنا إلى نهاية هذا الارتقاء وإلى كمال المعرفة الروحية أو الإلهية ونخشى فيما إذا سيكون علينا في يوم ما بأن نطبع اعترافنا بالإيمان فسنشعر بأنفسنا وكأنها مقيّدة ومحددة بها وربما سنكون غير راغبين بأن نتلقى تحسناً إضافياً، ولا يزال أخلافنا كذلك بفهمهم بما فعلنا نحن زعماؤهم ومؤسسوهم كي يكون شيئاً مقدساً ولا يتركونه أبداً».

إن هذا التواضع في طائفة هو ربما حالة فريدة في تاريخ البشرية، فكل طائفة أخرى تعتبر نفسها تمتلك كل الحقيقة وأن تلك التي تختلف عنها هي في أقصى درجات الضلال، كالإنسان الذي يسير في جو ضبابي يرى الناس الذين يبعدون مسافة أمامه على الطريق مغلفين بالضباب وكذلك الذين وراءه وكذلك الأناس الذين على نطاق جانبيه. لكن القريبين منه يراهم بوضوح على الرغم من أنه في الحقيقة في الضباب، كأي واحد منهم. أصبح الكويكرز تدريجياً في السنوات الأخيرة ـ تفادياً لهذا النوع من الإحراجات ـ يرفضون الخدمة العامة في المجلس النيابي وفي القضاء، مختارين بأن يتخلوا عن سلطتهم بدلاً من مبادئهم.

بالترتيب الزمني، لا بد أنني ذكرتُ مسبقاً بأنه في سنة 1742 اخترعتُ الموقد المفتوح من أجل تدفئة أفضل للغرف، وفي نفس الوقت توفيراً للوقود لأن الهواء الجديد الذي نسمح له بالدخول سيصبح دافئاً أثناء الدخول. صنعتُ هدية بالتصميم للسيد (روبرت غريس)، أحد أصدقائي في الفترات المبكرة والذي يملك فرناً حديدياً. وقد وجد بأن صب الألواح لهذه المواقد شيء مربح لأن الطلب يتزايد عليها. ولإدامة هذا الطلب قمتُ

بكتابة ونشر منشور عنوانه (قصة المواقد البنسلفانية المخترعة حديثاً)، حيث تم شرح وبالتفصيل تنصيبها وطريقة عملها وأوضحتُ فوائدها التي تتفوق على أية طريقة أخرى من طرق تدفئة الغرف. وتمت الإجابة على وتفادي كل الموانع التي تنشأ ضد استعمالها.. إلخ. كان لهذا المنشور تأثير جيد. فالمحافظ (توماس) كان مسروراً جداً بإنشاء هذا الموقد بحيث عرض عليّ أن يمنحني براءة اختراع كبائع وحيد لها ولسنوات، لكنني رفضتُها من مبدأ والذي دائماً كان له أهميّة بالنسبة لي في مناسبات كهذه. بمعنى، كما نستمتع بالفوائد الكبيرة لاختراعات الآخرين يجب أن نكون سعداء بفرصة أن نخدم الآخرين بأي اختراع من اختراعاتنا، وهذا يجب أن نفعله مجاناً وبشكل سخي. مع ذلك، حصل أحد تجار الحديد والخردوات في (لندن) ـ بادعاء جزء كبير من منشوري لنفسه بوقاحة وعمل بعض التغييرات الصغيرة في الآلة والتي في الواقع أساءت لعملية تشغيلها ـ على براءة اختراع لأجلها هناك، وقد صنع ـ كما قيل لي ـ ثروة صغيرة منها. وليست هذه الحالة الوحيدة من براءات الاختراع التي تم أخذها من قبل آخرين من اختراعاتي، ولو أنها ليست بنفس القدر من النجاح والذي لم أتكسّب منه أبداً لأني لا أرغب بالتربح من قبل اختراعاتي بنفسي وأكره النزاعات. إن استعمال هذه المواقد جداً في العديد من المنازل في كل من هذه المقاطعة والمقاطعات المجاورة كان ادخاراً كبيراً للخشب بالنسبة للمستوطنين.

تم إقرار السلام وبالتالي أعمال الجمعية في النهاية. حوّلتُ تفكيري ثانيةً نحو مسالة تأسيس أكاديمية. كانت أول خطوة اتخذتُها هي أن أساعد في تعيين عدد من الأصدقاء النشيطين الذين زوّدتني

الزمرة بقسم كبير منهم. الخطوة التالية هي أن أقوم بكتابة ونشر منشور بعنوان (مقترحات بشأن تعليم الشباب في بنسلفانيا). قمتُ بتوزيع هذا بين السكّان الرئيسيين مجاناً، وحالما تراءى لي بأن عقولهم مهيئة قليلاً لدراسته بدأتُ بأخذ التواقيع لافتتاح ودعم أكاديمية، وكان يجب أن يتم الدفع على نظام الحصص سنوياً ولمدة خمس سنوات. رأيتُ أنَّ (بتقسيمها بهذا الشكل) سيكون الاشتراك أكبر، وأعتقد بأنه لم يكن (إذا كنت أذكر بشكل صحيح) أقل من خمسة آلاف باوند. بتقديمي لهذه المقترحات صرّحتُ بتعميمها، ليس على أساس أنها فكرتي، بل فكرة السادة الشديدي الحب للعمل متفادياً قدر إمكاني ـ وفقاً لمبدئي المعتاد ـ تقديم نفسي للعامة كصاحب أي مشروع يفيدهم. اختار المشتركون لحمل المشروع على التنفيذ الفوري من بينهم أربعة وعشرين وصيّاً، وقاموا بتعيين السيد (فرانسيس) ـ محامياً عاماً في وقتها ـ وأنا نفسي لكتابة دساتير لإدارة الأكاديمية. تم إنجاز ذلك وتم توقيعه وتم تأجير المقرّ وتم تعيين المدراء وتم افتتاح المدارس، أعتقد، في نفس السنة (1749). كان الطلبة يزدادون بسرعة، ووُجد أن المقر صغير جداً، وكنا نبحث عن قطعة أرض ذات مكان مناسب بهدف بنائها عندما أرسلتِ العناية الإلهية في طريقنا منزلاً كبيراً تم بناؤه حديثاً والذي ـ مع بعض التعديلات ـ قد يخدم غرضنا جيداً. كان هذا هو المبنى الذي سبق ذكره والذي تم تشييده من قبل مستمعي السيد (وايتفيلد) وقد حصلنا عليه بالطريقة الآتية: تجدر الإشارة إلى أن التبرعات لأجل المبنى قد تمت من قبل أناس من طوائف مختلفة وتم الاهتمام بتسمية الأوصياء الذين عُهِدَ إليهم المبنى والأرض، وأن السيادة لا يجب أن تُمنح لأية طائفة

خشية من أن تصبح تلك السيادة مع الوقت وسيلة للاستيلاء على المبنى بأكمله لصالح تلك الطائفة ـ وهو أمر مخالف للمقصد الأصلي. لذلك تم تعيين واحد من كل طائفة، أي، واحد من كنيسة (إنسان إنكلترا)، وواحد (مشيخي)، وواحد (معمداني)، وواحد (مورافي)، إلخ. ويشغل هؤلاء مكانهم بالانتخاب من بين المتبرعين في حالة أصبح شاغراً بموت صاحبه. صادف وأن (المورافي) لم يسعد زملاءه، وقرروا بموته بأن لن يتخذوا واحداً من هذه الطائفة. كانت الصعوبة في ذلك الوقت هي كيف تتفادى وجود اثنين من بعض الطوائف الأخرى بواسطة الانتخاب الجديد. تمت الإشارة إلى عدة أسماء ولهذا السبب لم يتم الموافقة عليها. في النهاية، ذكرني أحدهم مع ملاحظة بأنني كنتُ رجلاً صادقاً فحسب وبلا أية طائفة على الإطلاق والذي أقنعهم كي يقوموا بانتخابي. إن الحماس الذي كان موجوداً عند بناء المبنى قد خفَّ منذ وقت طويل ولم يملك أوصياؤه القدرة لاستجلاب تبرعات جديدة لدفع إيجار الأرض ودفع نفقات بعض الديون الأخرى التي أحدثها المبنى والتي أحرجَتْهُم بشكل كبير. وبكوني الآن عضواً لكلتا المجموعتين من الأوصياء (الأوصياء على المبنى، والأوصياء على الأكاديمية) أصبح لديّ فرصة جيدة للتفاوض مع كليهما وأنْ أقوم بإجبارهما في النهاية على اتفاقية يكون بموجبها: على الأوصياء على المبنى أن يتخلوا عنها للأوصياء على الأكاديمية، وعلى الأخير الأخذ على عاتقه تسديد الديون. وأن نُبقي إلى الأبد قاعة كبيرة مفتوحة لواعظين عَرَضيين ـ وفقاً للمقصد الأصلي ـ والإنفاق على مدرسة مجانية لتعليم الأطفال الفقراء. عُقدت المكاتبات على هذا الأساس، وعند دفع الديون تم تمليك الأوصياء

على الأكاديمية المبنى والأراضي التابعة له. وبتقسيم القاعة العظيمة والفخمة إلى طوابق وغرف مختلفة في الأعلى وفي الأسفل للمدارس المتعددة وشراء أرض إضافية معينة، سرعان ما أصبح المبنى كله مناسباً لغرضنا وتم نقل الطلبة إلى البناية. إن العناية ومشاكل الاتفاق مع العمال وشراء المواد والإشراف على العمل قد وقع على عاتقي، وقد توليتُهُ بسرور لأنه لم يكن آنذاك يتعارض مع عملي الخاص بعد أن اتخذتُ في السنة التي قبلها شريكاً بارعاً جداً، مثابراً وصادقاً، السيد (ديفيد هول) الذي كنتُ على معرفة بشخصيته جيداً لأنه قد عمل معي أربع سنوات، فقد حمل عني عبء العناية بدار الطباعة، ويدفع لي حصتي من الأرباح بشكل دقيق. استمرت الشراكة ثمانية عشر عاماً بنجاح لكلينا.

بعد فترة تم دمج أملاك الأكاديمية بعقد من المحافظ وازدادت عائداتها بالتبرعات في (بريطانيا) ومِنَحْ الأراضي من حكّام المقاطعات والتي أضاف إليها المجلس النيابي منذ ذلك الوقت ملحق كبير وبهذا تأسست جامعة (فيلادلفيا) الحالية. استمريتُ كواحد من أوصيائها منذ البداية. والآن، وبعد ما يقارب الأربعين عاماً سعدتُ كثيراً جداً برؤية أعداد الشباب الذين تلقوا تعليمهم فيها (المتميزين بقابلياتهم المتطورة) وهم يخدمون في المؤسسات العامة وزينةً لبلادهم.

عندما حرّرتُ نفسي من العمل الشخصي ـ كما ذكرتُ أعلاه ـ أغريتُ نفسي أنه بالثروة الكافية ـ رغم أنها متوسطة ـ التي اكتسبتُها فقد تدبرتُ وقت الفراغ لبقية حياتي لأجل الدراسات الفلسفية والاستجمام. فقمتُ بشراء جميع معدات الدكتور (سبنس) الذي أتى من (إنكلترا) كي يحاضر هنا، وتقدمتُ في تجاربي في مجال الكهرباء

بلهفة، لكن العامة (الذين يعتبرونني الآن رجل الرفاهية) قد استحوذوا عليّ لأجل تحقيق مصالحهم. فكل قسم من حكومتنا المتمدنة (وفي نفس الوقت تقريباً) يفرضون بعضاً من الأعمال عليّ. فالمحافظ كلّفني بلجنة السلام، وانتخبتني هيئة المدينة المستشار العام، وبعدها مباشرةً عضو مجلس بلدي، وانتخبني المواطنون ككل المواطن الذي يمثلهم في المجلس النيابي. إن هذا المنصب الأخير كان الأكثر ملاءمة بالنسبة لي لأنني في النهاية كنتُ متعباً من الجلوس هناك كي أستمع للنقاشات والتي ـ فيها ككاتب ـ لا أتمكن من الاشتراك فيها وكنتُ فيها دائماً ضجراً بحيث أسلّي نفسي بعمل مربعات سحرية أو دوائر أو أي شيء لتفادي الملل. وفكرتُ أنه كوني أصبحتُ عضواً فذلك سيزيد من سلطتي لفعل الخير. رغم ذلك لم أكن لأشير بأن طموحي لم يصبه الغرور بكل هذه الترقيات بل بالتأكيد قد أصابه الغرور لأن بالأخذ بعين الاعتبار بدايتي المتواضعة ـ كانت هذه أموراً عظيمة بالنسبة لي ولا تزال مفرحة أكثر كونها شهادات عفوية عديدة جداً بحسن ظن العامة بي والتي من جانبي لم أطلبها بالمرة.

إن منصب قاضي الصلح قد جرّبتُهُ قليلاً بحضور عدة محاكم والجلوس على مقعد القاضي لسماع الدعاوى القضائية، لكن اكتشافي أن معرفة أكثر بالقانون العام ـ أكثر مما أمتلكه ـ كان ضرورياً كي أتصرف في موقف الإدانة ذلك. فانسحبتُ تدريجياً منه مبرراً لنفسي بأنني ملزم بمراقبة الوظائف العليا للمشروع في المجلس. إن انتخابي لهذه الأمانة قد تكرّر كل عام ولمدة عشرة أعوام بدون أن أطلب أبداً من أي منتخِب صوته أو أشير إلى (سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة) أي

رغبة بالترشيح. باتخاذي لمقعدي في المجلس تم تعيين ابني ككاتب المجلس.

في السنة التالية، تم عقد معاهدة مع الهنود في (كارلايل)[1]. أرسل المحافظ رسالة إلى المجلس النيابي يقترح فيها ترشيح بعض أعضائه كي ينضموا إلى بعض أعضاء المجلس المحلي كمبعوثين لهذا الغرض[2]. حدد المجلس النيابي المتحدث السيد (نوريس) وأنا، ولأننا فوجئنا، ذهبنا إلى (كارلايل) واجتمعنا بالهنود وفقاً لذلك. لأن هؤلاء الناس ميّالون للسُّكْر فهم عدوانيون جداً وغير منظمين. فمنعنا عنهم بإصرار بيع أي شراب مسكر لهم. وعندما اشتكوا من هذا الحصار أخبرناهم إذا كانوا سيستمرون بالبقاء هادئين أثناء المعاهدة فسنمنحهم الكثير من الرم[3] عندما ينتهي العمل. فوعدوا بذلك. ووفوا بوعدهم لأنهم لم يتمكنوا من الحصول على الشراب المسكر وتم الانقياد إلى المعاهدة بشكل منظم جداً، وتوصلنا إلى الرضا المتبادل. بعد ذلك طالبوا وتلقوا الرم. كان ذلك بعد الظهر. كانوا ما يقارب المائة رجل ونساء وأطفال. وكانوا يسكنون في أكواخ مؤقتة بُنيتْ على شكل مربع، فقط من دون القصبة.

عند الغروب، بسماعنا ضجّة كبيرة بينهم، خرج المبعوثون كي يروا ما الأمر. اكتشفنا بأنهم قد صنعوا محرقة عظيمة في وسط المربع. كان جميعهم ثملين، رجالاً ونساءً، يتشاجرون ويتقاتلون. كانت أجسادهم الداكنة اللون والنصف عارية تُرى فقط من خلال الضوء الكئيب للمحرقة

---

(1) كارلايل: منطقة تاريخية جنوب بنسلفانيا. (المترجمة)
(2) انظر الأصوات كي تحظى بذلك بشكل صحيح أكثر [ملاحظة هامشية]
(3) شراب مسكر. (المترجمة)

يركضون الواحد وراء الآخر ويضرب أحدهم الآخر بالجمرات مصحوبة بصراخهم المرعب، مكوّنين مشهداً يشبه فكرتنا عن الجحيم أفضل مما تخيلناه. لم يكن هناك ما يهدئ الضجة، فعدنا إلى سكننا. عند منتصف الليل أتى عدد منهم مرعدين عند بابنا يطلبون المزيد من الرم، الأمر الذي لم نُلقِ له بالاً. في اليوم التالي، (مدركين بأنهم أساؤوا التصرف بالتسبب لنا بذلك الإزعاج) أرسلوا لنا ثلاثة من مستشاريهم الكبار السن كي يبدوا اعتذارهم. اعترف المدّعي بالخطأ لكنه ألقاه على عاتق الرم، ثم حاول أن يعتذر من الرم بقوله: «الروح العظيمة التي خلقتْ كل شيء، خلقت كل شيء لنستعمله. ومهما كانت الفائدة التي خُلِقَ من أجلها فيجب أن توضع تلك الفائدة موضع الاستعمال. والآن عندما خَلقتْ الرم قالت: فليكن هذا للهنود كي يسكروا به. ويجب أن يكون كذلك». في الحقيقة، إذا كان قصد العناية الإلهية إبادة هؤلاء الهنود الهمج كي يفسح مجالاً لمزارعي الأرض، لن يبدو من غير الملائم بأن يكون الرم الوسيلة المقصودة. فقد أبادت مسبقاً جميع القبائل التي سكنتْ قبلاً ساحل البحر.

في عام 1751، تخيّل الدكتور (توماس بوند) ـ صديق خاص لي ـ فكرة إنشاء مستشفى في (فيلادلفيا)، [مشروع رحيم نُسِبَ إليّ لكن في الأصل كان له]، لاستقبال وعلاج المرضى الفقراء سواءً كانوا من سكان المقاطعة أو غرباء. كان متحمساً ونشطاً في محاولة الاستحصال على التواقيع لأجله. لكن لكون المقترح كان حديثاً في أميركا ولم يتم فهمه جيداً في البداية فلم يلاقِ سوى النجاح الضئيل. في النهاية أتى إليّ بإطراء وهو أنه لا يوجد مشروع يحمل روح الحماسة للعمل العام بدون أن أكون معنياً بشأنه، قال: «لأنني دائماً ما يتم سؤالي من قبل أولئك الذين اقترح

إمضاءاتهم: هل استشرتَ فرانكلين بشأن هذا العمل؟ وماذا يظن بشأنه؟ وعندما أقول لهم بأنني لم أفعل ـ اعتقاداً بأنه خارج اختصاصك ـ لا يقومون بالإمضاء وإنما يقولون أنهم سيفكرون بشأنه». عندما استفسرتُ عن طبيعة، والفوائد المحتملة من هذا المشروع، وتلقيتُ منه شرحاً مقنعاً جداً لم أقم فقط بالتوقيع لأجله بنفسي وإنما اشتركتُ بإخلاص بطريقة استحصال التواقيع من الآخرين. مع ذلك، حاولتُ قبل الالتماس أن أقوم بتهيئة عقول الناس بالكتابة عن الموضوع في الصحف والتي كانت طريقتي المعتادة في حالات كهذه، لكنه عارضها. كانت الإمضاءات بعد ذلك حرة أكثر ووفيرة. لكن لأننا بدأنا نفتر رأيتُ بأنها ليست كافية بدون بعض المساعدة من المجلس، ولذلك التزمنا التوسل لأجل ذلك، وهو ما حصل. في البداية، لم يستسغْ أعضاء البلد المشروع واعترضوا لأنه سيكون نافعاً فقط لمدينة، ولذا على المواطنين وحدهم من عليهم دفع تكاليفه وارتابوا فيما إذا كان المواطنون أنفسهم موافقين عليه. إن ادّعائي كان على العكس فقد لاقى استحساناً بحيث لم يُبْقِ شكّاً بقدرتنا على جمع تبرعات ألفي باونداً بالهبات الطوعية. وقد تم اعتباره الادعاء الأكثر بذخاً والمستحيل تماماً. على هذا قمتُ بوضع خطتي مطالباً إجازة لجلب مذكرة لدمج المتبرعين وفقاً للطلب الوارد في عريضتهم ومنحهم مبلغ من المال بدون ضمان. تلك الإجازة قد تم الحصول عليها بشكل رئيسي على اعتبار أن المجلس النيابي يمكنه رمي المذكرة إذا لم تعجبهم. فقمتُ بصياغتها بحيث أجعل البند المهم بنداً مشروطاً، أي، [ يُسمَح به من قبل السلطات المذكورة أعلاه عندما يجتمع المتبرعون المذكورون ويقومون باختيار مشرفيهم وأمين صندوقهم وسيكون عليهم جمع أسهم رأس المال البالغ

قيمتها ـــــــ من تبرعاتهم. (إن الفائدة السنوية لذلك يجب أن تُخَصَّص لتجهيز المرضى الفقراء في المستشفى المذكور بالمجان ـ الغذاء والعناية والاستشارة والأدوية ـ وسنجعل الآنف ذكره يروق لخطيب المجلس بحيث سيكون عندها قانونياً بالنسبة للخطيب الآنف الذكر، وهو بموجب هذا القانون سيكون عليه توقيع أمر لأمين صندوق المقاطعة لدفع ألفي باوند على دفعتين سنوياً إلى أمين صندوق المستشفى المذكور آنفاً كي يتم تخصيصها للتأسيس وبناء وإنهاء المذكور آنفاً]. إن هذا الشرط قد حمل المذكرة على التنفيذ، بالنسبة للأعضاء الذين عارضوا المنحة واقتنعوا الآن بأنه قد يكون بإمكانهم الحصول على الدين الذي تصدّقوا به بدون المصروفات، قد وافقوا على إقراره. وبعد ذلك، بالتماسنا التواقيع بين الناس عجّلْنا التعهد الشرطي للقانون كحافز إضافي للتبرع لأن تبرُّع كل إنسان سيكون مضاعفاً وبهذا سيعمل البند من كلا الاتجاهين. وفقاً لذلك سرعان ما فاقت التواقيع المبلغ الضروري، وطالبنا واستلمنا المنحة العامة التي مكّنتْنا من النهوض بالمشروع نحو التنفيذ.

سرعان ما انتصب مبنى ملائم وضخم. وُجِدَ أن المشروع مفيد بالاختبار المستمر ونجح حتى يومنا هذا. وأنا لا أذكر أيّاً من مناوراتي السياسية والتي منحني نجاحها في وقتها سروراً أكثر أو من خلالها ـ بعد التفكير في الأمر ـ برّرتُ لنفسي باللجوء إلى الاحتيال. كان في تلك الأثناء تقريباً عندما لجأ إليّ الموقر (جيلبرت تينينت) مع طلب مشروع آخر أساعده فيه باستحصالي تواقيع لنصب مقر جديد للاجتماعات. كان ذلك من أجل استعمال الجماعة الذين حشّدهم من طائفة المشيخية الذين كانوا في الأصل من أتباع السيد (وايتفيلد). لأنني لم أكن راغباً أن أجعل نفسي

مكروهاً بالنسبة لمواطنيّي بالطلب المستمر لتبرعاتهم، فرفضتُ بصورة قاطعة. ثم رغب بعد ذلك بأن أزوده بقائمة من أسماء الأشخاص الذين أعرفهم من خلال خبرتي بأنهم كرماء ومتحمسون للعمل للصالح العام. فكّرتُ بأن هذا سيكون غير لائق بي ـ بعد إذعانهم الرحيم لتوسلاتي ـ أن أشير لهم كي يقلقوا بشأن شحاذين آخرين، ولذلك رفضتُ أيضاً أن أمنح قائمة كهذه. ثم رغب بأن أمنحه نصيحتي على الأقل، فقلت: «سأفعل بكل سرور، في المقام الأول أنصحك بأن تقدم طلباً إلى كل أولئك الذين تعرف بأنهم سيمنحون شيئاً، ثم إلى أولئك الذين أنت غير متيقن فيما إذا كانوا سيمنحون شيئاً أم لا وتُريهم قائمة اولئك الذين منحوا، وفي النهاية لا تتجاهل أولئك الذين أنت متأكد من أنهم لن يمنحوا شيئاً لأنه قد يكون من بينهم من أنت مخطئ بشأنه». فضحك وشكرني وقال بأنه سيأخذ بنصيحتي. ففعل ذلك لأنه قام وطلب من أي شخص وحصل على أموال أكثر بكثير مما توقع والتي نصب بواسطتها دار الاجتماعات الواسع والأنيق جداً القائم في (شارع القنطرة).

إن مدينتنا، على الرغم من أنها منسقة بانتظام جميل، إلا أن الشوارع الكبيرة الضيّقة والتي تتقاطع في زوايا قائمة، لديها عيب وهو معاناة تلك الشوارع من عدم التعبيد لمدة طويلة. وتقوم عجلات العربات الثقيلة بحفرها في الجو الممطر وتحيلها إلى مستنقع لذا يصبح من الصعوبة عبورها. ويكون الغبار في الطقس الجاف مزعجاً. كنتُ أقطن بجوار ما يسمى (سوق جيرسي) وشاهدتُ بألم المستوطنين وهم يخوضون في الوحل يشترون مؤنهم. في النهاية تم رصف نطاق من الأرض أدنى وسط السوق بالطابوق بحيث ـ كنتُ مرة موجوداً في السوق ـ كان لديهم موطئ

قدم متين لكنهم غالباً ما كانوا يرتدون أحذية إضافية على أحذيتهم في الوحل كي يصلوا إلى هناك. بالتحدث والكتابة عن الموضوع كنتُ في النهاية مفيداً بجعل الطرق تتعبد بالحجارة بين السوق والممشى المرصوف بالطابوق الذي كان على جانب بالقرب من البيوت. إن هذا قد منح مدخلاً مريحاً إلى السوق وجافاً، لكن باقي الشارع لم يكن معبّداً وأية عربة تخرج من الوحل نحو الطريق المعبد تهتز وتترك وحلها عليه وسرعان ما يتغطى بالمستنقع والذي لن تتم إزالته لأن المدينة لحد الآن لا تملك كناسين. بعد القليل من البحث وجدتُ رجل فقير مواظب والذي كان راغباً بأن يأخذ على عاتقه الحفاظ على الطريق المعبد نظيفاً بكنسه مرتين في الأسبوع مزيلاً الوحل من أمام جميع أبواب الجيران مقابل مبلغ من المال كل شهر يتم دفعها من قبل كل منزل. قمتُ بعد ذلك بكتابة وطباعة تقرير يوضح الفوائد التي قد تجنيها الأحياء بهذه النفقة الصغيرة، السهولة الأكبر بالحفاظ على منازلنا نظيفة: لن يُجلب للداخل الكثير من الوحل من قبل أقدام الناس، الفوائد للمتاجر:زيادة الزبائن، إلخ، إلخ... لأن المشترين سيتمكنون بسهولة من الوصول إليهم ولن يهبّ ـ في الطقس العاصف ـ الغبار على بضائعهم، إلخ، إلخ.....

أرسلتُ واحدة من هذه التقارير إلى كل منزل وفي غضون يوم أو اثنين تجوّلتُ لأرى من سيقوم بتوقيع اتفاق بدفع هذه النفقات، كان قد تم توقيعه بالإجماع وقد تم تنفيذه جيداً لبعض الوقت. كان كل سكان المدينة مبتهجين بنظافة الرصيف المحيط بالسوق. كان مريحاً للكل وهذا ولّد رغبة عامة كي تتعبد جميع الشوارع وجعلتُ الناس راغبين أكثر بأن يخضعوا لضريبة لهذا الغرض. بعد فترة وضعتُ صيغة مذكرة لتعبيد المدينة وجلبتُها إلى

المجلس. كان ذلك قبل أن أذهب مباشرةً إلى (إنكلترا) في 1757 ولم يتم توقيعها حتى رحلتُ. ومن ثم بتعديل على أسلوب التقييم والذي لم أعتقده نحو الأفضل وإنما ببند إضافي لإضاءة ـ إضافة إلى تعبيد ـ الشوارع والذي كان تحسناً كبيراً. كان ذلك من قبل شخص عادي، المرحوم السيد (جون كليفتون)، منح نموذجاً بفائدة المصابيح بوضع مصباح عند بابه، وبهذا كانت بداية تأثر الناس بفكرة إضاءة كل المدينة. إن شرف هذه المصلحة العامة قد نُسِبَتْ أيضاً إليّ في حين أنها تعود حقاً إلى هذا السيد المحترم. لم يسعني إلا أن أحذو حذوه، وأن يكون لي بعض الفضل فقط بأن أطالب فيما يخص شكل مصابيحنا بأن تختلف عن المصابيح الكروية التي تم تجهيزنا بها في البداية من (لندن). وجدنا أن هذه غير ملائمة من هذه النواحي: لا تسمح للهواء بالدخول من تحتها، والدخان لذلك لا يخرج بسرعة من الأعلى وإنما يدور داخل الكرة باقياً في داخلها وسرعان ما سيحجب النور الذي من المفترض أن تمنحه. التسبب ـ إضافةً إلى ذلك ـ بالإزعاج اليومي بمسحها لتنظيفها، وأية ضربة عَرَضية على أحدها كان سيحطمها ويجعلها غير صالحة للاستعمال تماماً. لذلك اقترحتُ بتركيبها من أربعة ألواح زجاجية منبسطة مع قمع طويل في أعلاها كي تسحب الدخان، وشقوق في أسفلها تسمح للهواء بالدخول لتسهل صعود الدخان، بهذه الطريقة تبقى نظيفة ولا تصبح داكنة في بضع ساعات كما يحصل في مصابيح (لندن) وإنما تستمر صافية حتى الصباح وأي ضربة عرضية لن تكسر سوى لوح واحد والذي يمكن إصلاحه بسهولة. أتعجّب في بعض الأحيان من أن اللندنيين لم يتعلموا ـ من الثقوب الموجودة في قاع المصابيح الكروية المستعملة في مدينة (فوكسهول) والتي تبقيها نظيفة ـ

من أن يعملوا ثقوباً كهذه في مصابيح شوارعهم. لكن هذه الثقوب قد تم عملها لغرض آخر، أي إيصال اللهب إلى الفتيلة الكتانية المعلقة خلالها بشكل سريع أكثر. الفائدة الأخرى ـ بالسماح للهواء بالدخول ـ يبدو أنه لم يفكر أحد بها، ولذلك، بعد أن تضاء المصابيح ببضع ساعات تكون شوارع (لندن) مضاءة بشكل ضئيل جداً. إن الإشارة إلى هذه التحسينات قد ذكّرني بتحسين كنت قد اقترحتُه عندما كنت في (لندن) ـ على الدكتور (فوذرغل) ـ والذي كان من بين أفضل الرجال الذين عرفتهم ومروِّجاً عظيماً للأشياء المفيدة. فقد لاحظتُ بأن الشوارع عندما تكون جافة لا تُكنَس أبداً، والغبار الخفيف يُكنَس، لكن كان يسبب المعاناة كونه يتجمع حتى يحيله الطقس الممطر إلى وحل، وبعد ذلك، بعد استقراره لبضعة أيام عميقاً جداً على الرصيف حيث لم يكن هناك معبر سوى في الطرق التي يتم الحفاظ عليها نظيفة من قبل الناس الفقراء بالمكانس، فقد كان يتم جرفها بجهد كبير في نفس الوقت ويتم إلقاؤها في عربات مفتوحة من الأعلى والتي احتملت جوانبها بعض الوحل عند كل ارتجاج على الرصيف كي يهتز ويتساقط لدرجة إزعاج المشاة أحياناً. إن السبب المعروف لعدم كنس الشوارع المغبرة كان: هو أن الغبار سيتطاير نحو نوافذ المحلات والبيوت.

أوعز لي حادث عرضي بمقدار الكنس المنجز في وقت قليل. فقد وجدتُ عند بابي في (شارع كريفن) في أحد الأيام امرأة فقيرة تقوم بكنس رصيفي بمكنسة من خشب البتولا، بدت شاحبة جداً وواهنة وكأنما قد خرجتْ للتو من نوبة مرض. فسألتُ عمّن قام بتوظيفها كي تكنس هناك، فقالت «لا أحد، لكنني فقيرة جداً وفي حالة ضنك وأقوم بالكنس أمام أبواب النبلاء وآمل أن يمنحوني شيئاً ما». فعرضتُ عليها أن تكنس كل

الشارع وسأقوم بمنحها شلناً. كان ذلك في الساعة التاسعة. وفي الثانية عشرة أتت من أجل الشلن. بالكاد تمكنتُ من التصديق من أن العمل قد تم بهذه السرعة بسبب البطء الذي رأيتُه في البداية في عملها. فأرسلتُ خادمي ليتفحص الأمر، الذي أبلغ بأن كل الشارع قد تم كنسه بشكل تام وتم وضع كل الغبار في القناة التي كانت في الوسط كي يجرفها بعيداً المطر المقبل كي يظل الرصيف وحتى القناة نظيفة تماماً. عندها افترضتُ بأنه إذا كان بمقدور هذه المرأة الواهنة أن تكنس شارعاً كهذا في ثلاث ساعات فسيكون بإمكان رجل قوي ونشط أن ينجز ذلك بنصف الوقت. وهنا دعني أشير إلى ملاءمة امتلاك قناة واحدة فقط في شارع ضيق كهذا يسير بمحاذاة وسطه بدلاً من قناتين، واحدة على كل جانب، بالقرب من الرصيف لأن كل المطر الذي يتساقط على الشارع يجري من الجوانب ويتجمع في الوسط ويكوّن هناك تياراً قوياً كافياً كي يقوم بإزالة كل الوحل الذي تجمع بداخلها، بينما عندما يتم تقسيمها الى قناتين سيكون غالباً ضعيفاً جداً على تنظيف كليهما وسيجعل فقط الوحل الذي يجده سائلاً أكثر بحيث تقوم عجلات العربات وأقدام الخيول بالقائه ودفعه على الممشى والذي سيبقى بهذه الطريقة فاسداً وزلقاً، وأحياناً ترشه على المارة. كان اقتراحي الذي أوصلتُهُ للدكتور الطيب هو الآتي:

- «لأجل تنظيف أكثر فعالية والحفاظ على شوارع لندن وويستمنستر نظيفة تم اقتراح أن يقوم العديد من الحراس الذين تم التعاقد معهم، على كنس الغبار ـ في الفصول الجافة وجرف الوحل في أوقات أخرى ـ كل واحد في الشوارع العديدة والممرات لجولته، وأن يتم تزويدهم بمكانس وآلات مناسبة أخرى لهذه الأغراض يحتفظون بها

في وقفاتهم المتتابعة كي يكونوا جاهزين بتزويد الناس الفقراء الذين قد يوظفونهم في هذه الخدمة.

- «يتم كنس كل الغبار في أشهر الصيف الجافة في أكوام نحو مكانات خاصة قبل أن تُفتَح المتاجر وشبابيك المنازل عادةً، عندما سيحمله أيضاً بعيداً الزبالون بعربات ذات غطاء وثيق».
- «يجب أن لا يُترك الوحل بأكوام عندما يتم جرفه لينتشر في كل الاتجاهات بعجلات العربات ووطئات الخيول، بل يتم تزويد الزبالين بمجموعة من العربات لا ترتفع كثيراً عن العجلات، بل واطئة، على المزلقات مع قعر مخرم يُغطى بالقش لتحتفظ بالوحل المرمي فيها وتسمح للماء بالتسرب منها وستصبح وفقاً لذلك أخف بكثير، فالماء يشكل معظم وزنه. ويجب أن توضع هذه المجموعة من العربات في أماكن ملائمة ويتم جلب الوحل لها بعربات يدوية، تبقى هذه العربات في مكانها حتى يجف الوحل، ثم يتم جلب الخيول لجرها بعيداً».

تملّكتني شكوك بخصوص مدى عملية الجزء الأخير من هذا المقترح بسبب ضيق بعض الشوارع وصعوبة وضع مزالق التصريف بحيث يعيق المرور كثيراً جداً. لكنني لا زلتُ أرتئي بأن الرأي الأول الذي يستلزم وجوب أن يتم كنس الغبار وحمله بعيداً قبل أن تُفتَح المتاجر عملي جداً في الصيف عندما يكون النهار طويلاً لأن عند السير في (شارع ستراند) و(شارع فليت) في أحد الأيام في الساعة السابعة لاحظتُ بأنه لم يكن هناك متجر واحد مفتوح على الرغم من أن الوقت كان وضح النهار وكانت الشمس عالية لثلاث ساعات. كان سكان (لندن) يختارون وبشكل طوعي بأن يكسبوا رزقهم أكثر على ضوء الشمعة وينامون على نور الشمس. ومع

ذلك دائماً ما يتذمرون على نحو سخيف قليلاً من العمل على ضوء الشموع والسعر المرتفع للشحم الحيواني. يعتقد البعض بأن هذه الأمور التافهة لا تستحق التفكير أو التحدث عنها. لكن عندما يعتبرون الغبار العاصف بعيون إنسانٍ ما أو متجرٍ ما ذي أهمية قليلة على الرغم من العدد الكبير للحالات في مدينة مكتظة وتكرارها المستمر يمنحها أهمية وعواقب، فلعلهم لن يستهجنوا بشدة أولئك الذين يولون بعض الاهتمام لقضايا ذات طبيعة قليلة الأهمية ظاهرياً.

إن سعادة الإنسان لا تتحقق كثيراً بالثروة الكبيرة القيّمة التي نادراً ما يتم استحصالها كما تتحقق بالمنافع القليلة التي تقدّمها كل يوم. وعليه، إذا قمتَ بتعليم شاب فقير أن يحلق لنفسه وأن يحافظ على موسيه صالحاً للاستعمال، تكون قد ساهمتَ بسعادة حياته أكثر مما لو أعطيتَه ألف جنيه. فالأموال قد تُسرَف بسهولة، والندم هو فقط ما سيتبقى من إنفاقه بحماقة بينما في الحالة الأخرى فإنه سيتجنب الاستياء المستمر من انتظار الحلاقين ومن أصابعهم القذرة أحياناً وروائحتهم الكريهة وموسيّهم الغير حاد. وسيحلق بالوقت الملائم له وسيستمتع يومياً بكونه سيؤديه بآلة جيدة.

بوجهات النظر هذه خاطرتُ بالصفحات القليلة السابقة على أمل أن أقدم ملاحظات والتي قد تكون مفيدة لمدينة أحبُّها وعشتُ عدة سنوات فيها بسعادة كبيرة، ولبعض مدننا في أميركا.

بعد أن توظفتُ لمدة معينة من قبل مدير البريد العام لأمريكا كمفتش حسابات تابع له لتنظيم عدة مكاتب وأقوم بمحاسبة الموظفين، تم تعييني ـ بعد وفاته عام 1753 سويةً مع السيد (وليام هنتر) ـ كي أخلفه من قبل لجنة من مدير البريد العام في (إنكلترا). كان المكتب الأمريكي لم

يدفع أبداً لحد الآن أي شيء لمكتب (بريطانيا). إذ كان يجب علينا أن نقتني ستمائة باوند سنوياً بيننا إذا تمكنا من جعل هذه الكمية من المال من ضمن أرباح المكتب. ولتحقيق ذلك كانت هناك العديد من التحسينات الضرورية، بعضها كانت مكلفة في البداية بشكل حتمي بحيث أصبح المكتب في الأربع سنين الأولى مديناً لنا بما يزيد عن التسعمائة باوند. لكن سرعان ما بدأ بعد ذلك بالتسديد لنا، وقبل أن يتم فصلي بسبب نزوة المدراء ـ والتي سأتحدث عنها بعد ذلك ـ جعلناه يدرّ إيراداً صافياً ثلاث مرات أكثر للحكومة الملكية، كدائرة بريد (إيرلندا). ومنذ تلك المعاملة الغير حكيمة لم يستلموا منهم (فارذينغ)[1] واحداً!. إن عمل دائرة البريد استدعى بأن أرحل هذه السنة إلى (نيوإنغلاند)، حيث بناءً على ترشيحهم ـ منحوني درجة الماجستير في الفنون. كانت كلية (ييل) في (كونيكتكت) قد منحتني من قبل إطراءً مماثلاً. وعليه أتيتُ كي أتشارك بمرتبة الشرف خاصتهم بدون أن أدرس في أية كلية. كانت قد تم منحها لي لقاء إصلاحاتي واكتشافاتي في فرع الكهرباء للفلسفة الطبيعية.

في سنة 1754 كان يُخشى من الحرب مع فرنسا ثانيةً، وكان يجب أن ينعقد مؤتمر المفوضين من مستعمرات مختلفة في (ألباني) بأمر مجلس التجارة للتشاور مع زعماء الدول الست[2] فيما يخص وسائل الدفاع عن كل من بلادهم وبلادنا. بعد أن تسلّم المحافظ (هاملتون) هذا الامر أعلم المجلس النيابي به داعياً بتجهيز هدايا مناسبة للهنود

(1) الفارذينغ: وحدة نقدية سابقة وعملة المملكة المتحدة، تم سحبها عام 1961 وتعادل ربع قرش قديم، ويقصد الكاتب هنا كما نقول باللغة الدارجة (فلساً واحداً). (المترجمة)

(2) الدول الست: هي الدول الخمس للاتحاد الكونفدرالي الأصلي بعد انضمامهم إلى توسكورا عام 1722. (المترجمة)

كي يتم منحها بهذه المناسبة مشيراً إلى المتحدث السيد (نوريس) وأنا، كي نَنْضمّ إلى السيد (توماس بين) والسيد (سيكرتري بيترز) كمبعوثين عن (بنسلفانيا). استحسن المجلس الترشيح وزوّد البضائع كهدية على الرغم من أنهم لم يحبذوا كثيراً التفاوض خارج المقاطعات. والتقينا المبعوثين الآخرين في (ألباني) في منتصف حزيران تقريباً. في طريقنا إلى هناك، قمتُ بوضع وصياغة خطة لتوحيد جميع المستعمرات تحت حكومة واحدة بقدر ما يكون ضرورياً لغرض الدفاع ولأهداف عامة مهمة أخرى. بعد أن اجتزنا (نيويورك) عرضتُ هناك مشروعي على السيد (جيمس الكسندر) والسيد (كينيدي)، وهما سيدان ذوا معرفة عظيمة بقضايا الشأن العام. ولأنهما شجعاها باستحسانهم، غامرتُ برفعها الى مجلس الشيوخ. عندها ظهر بأن عدة مبعوثين قد أعدّوا خططاً مشابهة. تم تناول السؤال السابق فيما إذا كان يجب أن يتم الاتحاد، والذي تم إقراره إيجاباً بالاجماع. تم بعد ذلك تعيين لجنة، عضو واحد من كل مستعمرة، للنظر في الخطط العديدة وإعداد تقرير. صادف أن تم تفضيل خطتي. ووفقاً لذلك تم الإعلان عنها مع بعض التعديلات. يجب على الحكومة العامة بموجب هذه الخطة أن يتم توليها لقائد عام منصّب ومدعوم من قبل السلطة الملكية، ويجب اختيار هيئة استشارية موقرة من قبل ممثلي شعوب المستعمرات المتعددة، يجتمعون في مجالسهم الخاصة. كان الجدل حوله في المجلس النيابي قد استمر وبشكل يومي، جنباً إلى جنب مع مسألة الهنود. بدأتْ عدة اعتراضات وصعوبات. لكن في النهاية تم التغلب عليها كلها وتمت الموافقة على الخطة بالإجماع وتم إصدار أمر بإرسال نسخ معدّلة إلى مجلس التجارة وإلى مجالس

المقاطعات المتعددة. إن مصيرها كان استثنائياً: إذ لم تتبناه المجالس لأن جميعهم ظنوا بأن هناك الكثير من حق الامتياز فيه، بينما في (إنكلترا) قد حُكِمَ عليه بأنه ديموقراطي جداً. لذلك لم يوافق عليه مجلس التجارة ولم ينصح بالتصديق عليه منْ قبل جلالته. لكن خطة أخرى قد تم تشكيلها كان من المفترض أن تفي أفضل بنفس الهدف والتي بموجبها تفرض على محافظي المقاطعات مع بعض الأعضاء من مستشاريهم الخاصين) أن يجتمعوا ويصدروا أمراً بإنشاء قوات وبناء حصون، إلخ.. وأن يعتمدوا على خزينة (بريطانيا) العظمى من أجل التكاليف والتي كان يجب أن يتم تسديدها بعد ذلك بتشريع من البرلمان بفرض ضريبة على (أميركا). [إن خطتي مع أسبابي التي حملتني على تأييدها ستجدها بين أوراقي السياسية التي قمتُ بطباعتها]. بتواجدي في (بوسطن) الشتاء التالي كان لي حديث كثير مع المحافظ (شيرلي) بخصوص كلتي الخطتين. [يمكنك أيضاً رؤية جزء مما دار بيننا بخصوص الموضوع بين تلك الأوراق].

إن الأسباب المختلفة والمتضاربة للنفور من خطتي يجعلني أشك فيما إذا كانت هذه فعلاً الذرائع الحقيقية. ولا زلتُ على رأيي من أنه إذا تبنوها فستكون مصدر سعادة لكلا الطرفين. إن المستعمرات المتحدة بهذه الطريقة ستصبح قوية بشكل يكفي لكي تدافع عن نفسها ولن تكون عندها بحاجة لقوات من (إنكلترا). سيتم بالطبع تفادي الذريعة اللاحقة بفرض الضرائب على (أميركا) والصراع الدموي الذي سبَّبَتْهُ. لكن أخطاء كهذه ليست بالجديدة، فالتاريخ مليء بأخطاء الدول والأمراء.

«راقب الأرض الصالحة للسكن كم هي محدودة اعرِفْ منافعها كن خبيراً بها اسْعَ لذلك!»

إن أولئك الذين يمارسون السلطة، بعد أن يكون لديهم الكثير من العمل بين أيديهم، فهم لا يزعجون أنفسهم كثيراً بالتفكير بتنفيذ مشاريع جديدة بشكل عام، لذلك نادراً ما يتم تبني أفضل مشاريع الصالح العام طواعيةً بل يُجبَرون على إنجازها عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وهو ما ورد في الحكمة السابقة.

عبّر محافظ (بنسلفانيا) عن استحسانه للخطة بإرسالها للجمعية «لأنها تبدو له قد صيغت بوضوح كبير وقوة الرأي، لذلك نصح بها لأنها تستحق تماماً اهتمامهم الأساسي والجاد». لكن المجلس النيابي صادرها ـ بتدبير من عضو معين ـ عندما صادف أنني كنت غائباً، وهو ما أظنه ليس عدلاً بالمرة، ونبَذَها بدون إبداء أي اهتمام بها إطلاقاً مما سبّب إهانتي بشكل كبير.

التقيتُ في (نيويورك) أثناء رحلتي إلى (بوسطن) هذا العام بمحافظنا الجديد السيد (موريس) الذي كان قد وصل تواً من (إنكلترا) والذي كانت معرفتي به وطيدة قبل ذلك، وكان قد جلب تفويضاً كي يحل محل السيد (هاملتون) الذي استقال لأنه تعب من النزاعات التي سببتْها له تعليماته الخاصة بحكّام المقاطعات. سألني السيد (موريس) فيما إذا كنت أعتقد بأن عليه أن يتوقع حكماً مزعجاً، فقلت: «لا على العكس بل قد تحظى بحكم مريح إذا فقط حرصتَ بأن لا تتدخل في أي نزاع مع الجمعية». فقال بسرور: «يا صديقي العزيز كيف يمكنك أن تنصحني بأن أتفادى النزاعات؟ فأنت تعلم بأني أحب النزاع، فهو واحد من أعظم مسراتي. لكن

رغم ذلك، لكي أُظهِر احتراماً لمشورتك أعدك بأنني سوف ـ ما أمكنني ـ أن أتفاداهم». لديه سبب ما كي يحب النزاع. فلأنه فصيحاً وسفسطائي صارم، ولذلك ناجح عموماً في المحادثات الجدلية. كان قد نشأ عليها منذ كان صبياً. فوالده، كما سمعتُ، كان يعوِّد أبناءه كي يتجادلوا مع بعضهم البعض لتسليته بينما يجلس على المائدة بعد العشاء. لكنني أظن أن هذه الممارسة لم تكن حكيمة لأن ـ من خلال ملاحظاتي ـ مجادلة ومعارضة وتفنيد الناس عموماً أمر غير مناسب في قضاياهم. فهم يحظون الانتصار حيناً لكنهم لا يحظون أبداً بالنية الحسنة والتي ستكون أكثر فائدة لهم. فافترقنا. هو ذهب إلى (فيلادلفيا) وأنا إلى (بوسطن). صادفتُ عند العودة في (نيويورك) قرار تصويت الجمعية والذي أظهر أنه على الرغم من وعده لي كان هو والجمعية في حالة نزاع حاد مسبقاً وكان في معركة مستمرة بينهم طوال بقائه في الحكومة. وكان لي نصيب فيه لأنني حالما عدتُ لمقعدي في الجمعية تم تكليفي بكل لجنة للرد على خطاباته وبياناته واللجان التي طلبتْ دائماً عمل المسودات. كانت ردودنا، كذلك رسائله، لاذعة غالباً ومؤذية بشكل غير لائق، وحالما علم بأنني كتبتُ للجمعية ـ قد يتخيل المرء ذلك ـ بالكاد تفادينا قتل أحدنا للآخر عندما اجتمعنا. لكنه كان رجلاً لا يحمل ضغينة، وأنه لم يحدث خلاف شخصي بينه وبيني بسبب المنافسة، وغالباً ما تعشينا سويةً.

في إحدى الأمسيات وفي قمة نزاعه العلني التقينا في الشارع. قال: «يا فرانكلين، يجب أن تذهب معي للبيت وتقضي المساء فلديّ بعض الرفقة التي ستعجبك». وقادني نحو منزله جاذباً إيّاي من ذراعي. أخبرنا مازحاً في حديث مرح خلال شربنا للخمر بعد العشاء بأنه أعجب كثيراً بفكرة

(سانكوبانزا) الذي ـ عندما تم اقتراح منحه سلطة ـ طلب بأن تكون سلطة على السود لأنه عندها إذا لم يتفق مع شعبه سيكون بأمكانه بيعهم. قال أحد أصدقائه الذي كان جالساً بجواري: «يا فرانكلين، لماذا تستمر بالانحياز إلى هؤلاء الكويكرز اللعينين؟ أليس من الأفضل أن تبيعهم؟ فالمالك سيمنحك سعراً جيداً». فقلت: «إن المحافظ لم يقاطعهم بعد بشكل كاف».

في الحقيقة، عمل جاهداً كي يشوه سمعة الجمعية في كل بياناته لكنهم يمحون كل تشويهاته بنفس السرعة التي نشرها ويردونها بالمقابل مضاعفة عليه. لذا بعد أن وجد بأنه قد أحرج نفسه أصبح متعباً ـ كالسيد هاملتون ـ من النزاع، واستقال من الحكومة.

إن هذه النزاعات العلنية كلها[1]، تُعزى في الأساس إلى حكّام المقاطعات. إذ يأمر محافظونا المتوارثون نوابهم ـ بدناءة لا تصدق ـ بتجاوز أي مرسوم يفرض الضرائب الضرورية ما لم يتم استثناء أملاكهم الخاصة بوضوح في نفس المرسوم (في الوقت الذي يجب فيه تحمُّل أية تكاليف من أجل الدفاع عن مقاطعاتهم). حتى إنهم أخذوا مواثيق من هؤلاء النواب بمراقبة أية توصيات كهذه. قاومت الجمعيات ولمدة ثلاث سنوات ضد هذا الظلم على الرغم من انحنائها مرغمة في النهاية. في نهاية المطاف غامر النقيب (ديني) ـ خليفة المحافظ (موريس) ـ بأن يخالف هذه الأوامر. سأقوم في النهاية بتوضيح ما أسفر عن ذلك. لكني سأتقدم سريعاً بقصتي. لا تزال هناك بعض الاتفاقيات التي يجب ذكرها والتي حدثت خلال فترة حكم المحافظ (موريس). كانت الحرب مع

(1) أعمالي في عهد (موريس)، عسكرية، إلخ ـ [ملاحظة هامشية]

(فرنسا) قد بدأت، وتوقعت حكومة (ماساتشوسست) أية هجمة على (كراون بوينت)، وأرسلت السيد (كوينسي) إلى (بنسلفانيا)، والسيد (بونول) - الذي أصبح بعد ذلك المحافظ (بونول) - إلى (نيويورك) لطلب المساعدة. لأنني كنتُ في الجمعية وأعرف توجهاتها وكنت مواطن السيد (كوينسي) فقد لجأ إليّ لنفوذي ولطلب المساعدة فأمليتُ خطابه عليهم والذي تم قبوله باستحسان. صوّتوا بالمساعدة بعشرة آلاف باوند كي يتم إنفاقها على الذخيرة. لكن المحافظ رفض تأييده للصك (والذي تضمن ذلك مع مبالغ أخرى ممنوحة لصالح السلطة الملكية) ما لم يتم إدراج بند يعفي ممتلكات حكّام المقاطعات من تحمّل أي جزء من الضريبة التي ستكون مفروضة. كانت الجمعية على الرغم من رغبتها الشديدة بجعل منحتها إلى (نيوإنغلاند) فعلية. إلا أنها كانت في حيرة من كيفية تنفيذ ذلك. عمل السيد (كوينسي) جاهداً لدى المحافظ كي يحصل على موافقته لكنه كان عنيداً. اقترحتُ بعد ذلك طريقة لإتمام المهمة بدون المحافظ، بواسطة أوامر لمدراء دائرة القروض والتي تملك الجمعية (بالقانون) الحق بصياغتها. كان هناك في الحقيقة القليل من المال أو يقرب من العدم في ذلك الوقت في الدائرة، ولذلك اقترحتُ بأن الأوامر تقتضي بأن يتم التسديد خلال سنة مع تحمل فوائد 5 %. افترضتُ بأن بتلك الأوامر يمكن شراء الذخيرة بسهولة. تبنت الجمعية - بتردد قليل جداً - المقترح. كانت الأوامر قد تم طبعها في الحال وكنتُ واحداً من اللجنة التي وجّهتْ بتوقيعها وحسمها. كانت الموارد المالية المهيأة للدفع لهم هي من مبالغ الفائدة على جميع العملات الورقية الموجودة آنذاك في المقاطعة على القروض. ومع

الإيراد العام من المكوس والمعروف بأنه كان أكثر من كافياً، حصلوا على قرض فوري، ولم يتقاضوا فقط مبلغ للذخيرة وإنما استثمر العديد من الناس الأثرياء الذين يملكون نقوداً يرقدون عليها هذه الأوامر والتي وجدوها مفيدة لأنهم حمّلوها فائدة بينما لو كانت تحت يدهم قد يستعملونها على شكل مال في أية مناسبة. لذا كان جميعهم تواقين لشراء أكبر قدر منها، وخلال أسابيع قليلة لم يُرَ أحدٌ منهم. وهكذا، تمت هذه القضية المهمة بأساليبي. رد السيد (كوينسي) التشكرات للجمعية بمذكرة جميلة، وعاد للوطن مسروراً جداً بنجاح مهمته كسفير وحمل بعد ذلك تجاهي ألفة الأكثر حرارة وصدقاً على الإطلاق. لم تسمح الحكومة البريطانية باتحاد المستعمرات كما تم اقتراحه في (الباني) ولا أن تثق في هذا الاتحاد في دفاعاتها لئلا يصبحوا بهذه الطريقة عسكريين ويشعرون بقوتهم الخاصة، أوجست الشكوك والغيرة في ذلك الوقت منهم. فقامت بإرسال القائد (برادوك)، مع حشدين من القوات الإنكليزية المنظمة، لهذا الغرض. فحطَّ في (الإسكندرية) في (فيرجينيا)، ومن هناك سار إلى (فريدريك تاون) في (ماريلاند) حيث توقف طلباً للعربات. رغبتْ جمعيتنا مني ـ خشيةً من بعض الأخبار من أنه قد امتلكَ آراءاً مسبقة قاسية تجاههم كونهم كارهين للخدمة ـ بأن أنتظره، ليس كممثل عنهم وإنما كمدير البريد العام تحت ذريعة طرح اقتراح بالتفاهم معه على طريقة توصيل الإرساليات بأقصى سرعة وثقة بينه وبين محافظي المقاطعات العديدة الذين عليه أن يحظى بمراسلات مستمرة معهم بشكل ضروري والتي اقترحوا أن يقوموا بدفع تكاليفها. رافقني ابني في هذه الرحلة.

وجدنا القائد في (فريريك تاون) وهو ينتظر بنفاد صبر عودة أولئك الذين أرسلهم خلال الأجزاء الخلفية ل (ماريلاند) و (فرجينيا) كي يقوموا بجمع العربات. بقيتُ معه عدة أيام، تعشّيتُ معه يومياً وحظيتُ بفرصة تامة لإزالة كل آرائه المسبقة بإخباره عما فعلَتْهُ الجمعية حقيقةً قبل وصوله، وماذا يرغب أن يفعل لتسهيل عملياته. عندما كنتُ على وشك المغادرة كانت عائدات العربات التي يجب الحصول عليها قد تم إدخالها وظهر بذلك أنها بلغت فقط خمس وعشرين، ولم تكن جميعها صالحة للعمل. كان القائد وكل الضبّاط متفاجئين وأعلنوا بأن البعثة كانت آنذاك في النهاية ستكون مستحيلة، وصرخ بوجه الوزراء بسبب إرسائهم لها بشكل جاهل في بلد يفتقر إلى مقومات نقل مؤنهم وأمتعتهم، إلخ... والذي سيكون من الضروري فيه ما لا يقل عن مائة وخمسين عربة. حدث وأن ذكرتُ أعتقد بأنه من المؤسف بأنهم لم يرسوا بدلاً من ذلك في (بنسلفانيا) لأن في تلك البلد يمتلك كل مزارع تقريباً عربته. فتوقف القائد عند كلماتي بلهفة وقال «إذن أنت، يا سيد، من الأشخاص الذين لهم شأن هناك والذي بإمكانه أن يجلبهم لنا، وأتوسل إليك بأن تتولى الموضوع». فسألتُ ما الشروط التي يجب تقديمها لمالكي العربات، وكنتُ راغباً بأن أقوم بتدوين الشروط التي بدت لي ضرورية، على الورق. وهذا ما فعلتُ. وقد وافقوا عليه وتم على أساسه إعداد تفويض وأوامر على الفور.

ماذا كانت هذه الشروط، سوف تظهر في الإعلان الذي قمتُ بنشره حالما وصلتُ الى (لانكستر) والذي أصبح ـ بسبب التأثير العظيم والمفاجئ الذي أحدثه ـ نموذجاً من تحفةٍ ما. سأدرجُها في النهاية كما يلي:

## إعلان

### لانكستر، 26 / نيسان/ 1755

بما أنه مطلوب مائة وخمسين عربة، مع أربعة أحصنة لكل عربة، وألف وخمسمائة سرج أو حيوان مخصص للأحمال الثقيلة لخدمة قوات جلالته التي على وشك أن تتجمع الآن في (ويلزكريك)، وكان سعادة القائد (برادوك) راضياً بتفويضي كي أتعاقد لتأجير ما هو مذكور آنفاً، أعلن بموجب هذا بأنني سوف أحضُر لهذا الغرض إلى (لانكستر) ابتداءً من هذا اليوم وحتى مساء الأربعاء القادم، وفي (يورك) من صباح يوم الخميس القادم وحتى مساء يوم الجمعة، حيث سأكون مستعداً كي أتعاقد على العربات والمجاميع[1]، أو الخيول المنفردة، وفقاً للشروط التالية:

1ـ سيتم دفع مقابل كل عربة بأربعة أحصنة جيدة وسائق، خمسة عشر شلناً يومياً. ومقابل كل حصان قوي مع سرج للحمل، أو سرج آخر وتجهيزات، شلنان يومياً. ومقابل كل حصان قوي بدون سرج ثمانية عشر بنساً يومياً.

2ـ إن الدفع سيبدأ من وقت التحاقهم بالقوات عند (ويلزكريك) والذي يجب أن يكون عند أو قبل العشرين من أيار المقبل. وسيتم دفع بدل معقول إضافة إلى ذلك مقابل الوقت اللازم لسفرهم إلى (ويلزكريك) وعودتهم بعد صرفهم.

3ـ يجب أن يتم تقييم كل عربة ومجموعة وكل سرج أو حيوان للأحمال

---

(1) المجاميع: تعني اثنين أو أكثر من الأحصنة أو حيوانات أخرى تعمل معاً لسحب حمل ثقيل. (المترجمة)

الثقيلة من قبل أشخاص غير منحازين يتم اختيارهم بيني وبين المالك. وفي حالة فقدان أي عربة أو مجموعة أو حصان آخر أثناء الخدمة، سيتم دفع بدل وفقاً لهذا التقييم.

4 ـ سيتم دفع أجرة سبعة أيام من قبلي باليد إلى مالك العربة ومجموعة أو حصان أثناء وقت التعاقد، إذا لزم الأمر، ويتم دفع الباقي من قبل القائد (برادوك)، أو من قبل أمين صندوق الجيش، عند انصرافهم أو من وقت لآخر حسب الطلب.

5 ـ يجب أن لا يتم استدعاء أي من سائقي العربات أو الأشخاص الذين يعتنون بالخيول المؤجَّرة تحت أي ظرف ليؤدوا مهام الجنود أو يتم تشغيلهم بغير توصيل أو العناية بعرباتهم أو خيولهم.

6 ـ يجب أن يؤخذ ـ كل الشوفان والذرة الهندية أو أي علف آخر تجلبه العربات أو الخيول إلى المعسكر والزائد عن الحاجة الضرورية للخيول ـ لاستعمال الجيش، وسيتم دفع سعر معقول مقابل ما مذكور آنفاً.

«ملاحطة: تم تفويض ابني (وليام فرانكلين) لإبرام صفقات مع أي شخص في مقاطعة (كمبرلاند)»

ب. فرانكلين»

لانكستر، يورك وكمبرلاند

أصدقائي ومواطنيّ،

بعد أن كنتُ متواجداً في المعسكر من حين إلى آخر في (فريدريك تاون) منذ أيام قلائل، وجدت القائد والضبّاط غاضبين جداً لأنه لم يتم

تجهيزهم بالخيول والعربات والتي كانت منتظرة من هذه المقاطعة على الرغم من أن معظمهم كانوا قادرين على تجهيزهم. لكن من خلال الخلافات بين محافظنا والجمعية لم يتم تزويد المال ولم يتم أخذ أي خطوة لأجل هذا الغرض.

«تم اقتراح إرسال قوة مسلحة في الحال الى هذه المقاطعات للاستيلاء على أفضل العربات والخيول بعدد ما هو مطلوب، وإجبار العدد اللازم من الأشخاص على هذه الخدمة للقيادة والاعتناء بها».

أخشى من أن يكون تقدُّم الجنود البريطانيين خلال هذه المقاطعات في حالة كهذه ـ خاصة فيما يتعلق بالمزاج الذي هم فيه واستيائهم ضدنا ـ من أن يكون مصحوباً بالعديد والكثير من الإزعاجات للسكان وبالتالي سيتجشم وبشكل طوعي أكثر، عناء ما يمكن القيام به بالوسائل القانونية والعادلة. إن أناس هذه المقاطعات الخلفية قد اشتكوا مؤخراً للجمعية بأنه تعوزهم العملة الكافية. لديكم فرصة تسلُّم وتقسيم مبلغ كبير جداً من المال بينكم، لأنه، إذا استمرت خدمة هذه البعثة أكثر من المحتمل ـ لمدة مائة وعشرين يوماً ـ فسيبلغ إيجار هذه العربات والخيول إلى ما يزيد عن ثلاثين ألف باوند والتي سيتم دفعها بالعملات الفضية والذهبية من أموال الملك. إن الخدمة ستكون خفيفة وسهلة لأن الجيش نادراً ما سيسير ما يزيد عن اثني عشر ميلاً يومياً، وعلى العربات وخيول الأمتعة أن تسير مع الجيش لا أكثر ـ لأنها تحمل هذه الأشياء الضرورية بشكل مطلق من أجل راحة الجيش، ودائماً ما توضع حيث أكثر أماناً من أجل مصلحة الجيش سواءً أثناء المسير أو في المعسكر.

«إذا كنتم حقاً أشخاصاً صالحين ومخلصين لجلالته ـ وهو ما أعتقده

كذلك ـ فستؤدون الآن الخدمة الأكثر وجاهة وستقومون بتسهيلها على أنفسكم. فبالنسبة لثلاثة أو أربعة من الذين لا يتمكنون على حدة من توفير عربة وأربعة خيول وسائق من عمال مزارعهم، بإمكانهم أن يؤدوه معاً: واحد يقوم بتجهيز العربة، وآخر يجهز حصاناً أو اثنين، والآخر السائق، ويتم تقسيم المبلغ بشكل مناسب بينكم. لكن إذا لم تؤدوا هذه الخدمة لملككم ولبلدكم بشكل طوعي ـ عندما يتم تقديم سعر جيد لكم وشروط معقولة ـ فسيتم التشكيك بقوة بإخلاصكم. إن مهمة الملك يجب أن يتم تأديتها، فلا يجب أن تقف القوات القوية والعديدة جداً ـ التي أتت من مسافة بعيدة من أجل الدفاع عنكم ـ عاجزة بسبب تأخركم عن فعل ما هو متوقع منكم بشكل معقول. يجب امتلاك العربات والخيول، سيتم اتخاذ إجراءات صارمة، وقد تُترَكون تبحثون عن تعويض حيث بإمكانكم أن تجدوه، وربما لن تحصل قضيتكم على العطف الكبير أو أن تؤخذ بعين الاعتبار».

«ليس لدي اهتمام خاص بهذه القضية، لأن ـ عدا الرضا بمحاولة فعل الخير ـ فسأحصل فقط على التعب بالمقابل. إذا لم تنجح هذه الطريقة (الحصول على العربات والخيول) فسأكون ملزماً بإرسال تعهد للقائد خلال أربعة عشر يوماً، وأعتقد بأن الخيّال السيد (جون سانت كلير) مع مجموعة من الجنود سيدخلون فوراً المقاطعة لأجل هذا الغرض والذي سأكون متأسفاً إذا سمعتُ به لأنني صديقكم الذي يتمنى لكم الخير بشكل مخلص وصادق جداً».

«ب. فرانكلين»

استلمتُ من القائد ثمانمائة باوند تقريباً كي يتم صرفها كعربون إلى

مالكي العربات، إلخ... لكن لأن ذلك المبلغ غير كافي، دفعتُ سلفاً أكثر من مائتي باوند. وخلال أسبوعين كانت المائة وخمسين عربة مع المائتين والتسعة وخمسين خيول الحمل في طريقها الى المعسكر. كان الإعلان قد وعد بالدفع استناداً إلى التقييم في حالة فقدان أية عربة أو حصان. لكن المالكين أصرّوا على علاقتي بالإيفاء بذلك زاعمين بأنهم لم يعرفوا القائد (برادوك) أو أي اعتماد على وعده، وهو ما قمتُ بمنحه لهم وفقاً لذلك. عندما كنتُ في المعسكر، أتعشى في إحدى الأمسيات مع ضبّاط كتيبة العقيد (دنبار)، شرح لي قلقه على المرؤوسين الذين ـ كما قال ـ لم يكونوا في حالة غنًى عموماً ولا يمكنه في هذا البلد الغالي تحمُّل ادخار المؤن التي قد تكون ضرورية في سير طويل كهذا خلال البرية حيث لا شيء يوجد لشرائه. فرثيتُ لحالهم وقررتُ أن أحاول أن أجلب لهم بعض المساعدة. لكن لم أقل شيئاً له عن نيتي وإنما كتبتُ في الصباح التالي إلى لجنة الجمعية التي تملك إدارة بعض المال العام، عاهداً بحرارة حالة هؤلاء الضباط إلى رعايتهم مقترحاً وجوب إرسال هدية لهم بالضروريات ووجبات الطعام الخفيفة. صاغ ابني ـ الذي يمتلك بعض الخبرة عن حياة المعسكر وباحتياجاته ـ قائمة لي والتي أرفقتُها برسالتي.وافقت اللجنة ووصلت المؤن للمعسكر والعربات بنفس السرعة. اشتملت على عشرين رزمة، كل منها يحتوي على:

- 6 أرطال من قوالب السكر.
- 6 أرطال من الموسكوفادو.[1]

(1)الموسكوفادو: سكر غير مكرر مصنوع من عصير قصب السكر عن طريق تبخيره وتجفيف دبس السكر. (المترجمة)

- 1 رطل من الشاي الأخضر الجيد.
- 1 رطل من البوهيّا.[1]
- 6 أرطال من البن المطحون الجيد.
- 6 أرطال من الشوكولاتة.
- 1 ـ 2 قنطار من أفضل أنواع البسكويت.
- 1 ـ 2 قنطار من الفلفل.
- 1 كوارت من أفضل أنواع خل النبيذ الأبيض.
- 1 جبن غلوسستر.
- 1 برميل صغير يحتوي على عشرين رطلاً من الزبدة الجيدة.
- 2 دزينة من خمر المادايرا المعتقة.
- 2 غالون من كحول جامايكا.
- 1 قنينة من مسحوق الخردل.
- 2 لحم الخنزير المدخّن جيداً.
- 1 ـ 2 دزينة من الفاصوليا اليابسة.
- 6 أرطال من الرز.
- 6 أرطال من الزبيب.

إن العشرين رزمة هذه، (المرزومة بشكل جيد والموضوعة على العديد من الأحصنة، كل رزمة مع الحصان تم إعدادها كهدية لضابط واحد) تم

---

(1) البوهيّا: شاي صيني أسود يأتي من آخر محصول من الموسم، ويعتبر عادةً ذا جودة منخفضة. (المترجمة)

تقبّلها بشكل سعيد جداً وتم الاعتراف بالفضل لي من قبل الرسائل من عقداء الكتيبتين بأقصى تعابير الامتنان. كان القائد أيضاً راضياً بشدة عن تصرفي بجلبي له العربات، إلخ... ودفع لي بشكل فوري قيمة نفقاتي وهو شاكر لي مراراً وتكراراً وطالباً مني مساعدتي الإضافية بإرسال مؤن وراءه، فتوليتُ أمر ذلك أيضاً، وكنا مشغولين بهمة في ذلك حتى سمعنا بهزيمته، مقرضاً مالاً من أجل خدمته العسكرية ألف باوند إسترليني تقريباً، والتي أرسلتُ تقريراً بها. لحسن الحظ من جانبي وصلتْ إليه قبل أيام قلائل من الحرب وأرجع لي فوراً أمراً لأمين صندوق الجيش ببدل إجمالي بألف باوند تاركاً الباقي للحساب القادم. أنا أعتبر هذه الدفعة حظاً جيداً لأنني لم أتمكن أبداً من الحصول على ذلك الباقي بعد ذلك. كان هذا القائد ـ أعتقد ـ رجلاً شجاعاً، وعلى الأرجح قد برز كضابط جدير في بعض الحروب الأوروبية. لكنه يملك ثقة مفرطة بالنفس ورأياً مغالياً بخصوص شرعية القوات النظامية، وواحد أناني جداً من بين كل من الأميركيين والهنود. انضمّ له (جورج كروغهان) ـ مترجمنا الهندي ـ لمسيرته بمائة من هؤلاء الناس والذين كانوا من الممكن أن يكونوا ذوي فائدة كبيرة لجيشه كأدلّاء، مستطلعين، إلخ.. لو كان قد عاملهم بلطف. لكنه ازدراهم وأهملهم، وتركوه تدريجياً في محادثة معه في أحد الأيام كان يسرد عليّ بعض الحكايات عن مسيرته التي ينوي عليها. قال: «بعد أن أقوم بالاستيلاء على (فورت دو كويسن)، عليّ أن أتقدم نحو (نياغارا). وبعد أن أحتلّ تلك، أتوجه إلى (فرونتينانس) إذا منحنا الموسم الوقت، وأعتقد بأنه سيسمح لأن (دو كويسن) بالكاد تتمكن من تأخيري أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، ومن ثمّ لا أرى شيئاً بإمكانه أن يعيق مسيرتي نحو (نياغارا)». بعد أن قلّبتُ

في فكري الدرب الطويل الذي على جيشه أن يتخذه في مسيرته عبر طريق ضيّق جداً كي يُشَق لهم خلال الغابات والشجيرات وكذلك عما قرأتُ عن هزيمة سابقة ل ألف وخمسمائة فرنسي الذين اجتاحوا مقاطعة (الإيراكوا) تصورتُ بعض الظنون وبعض المخاوف عن مجريات الحملة. لكني تجرّأتُ لأقول فقط: «لكي تكون متأكداً، سيدي، إذا وصلتَ سالماً قبل (دوكويسن) بهذه القوات الصغيرة، بأن تتجهز جيداً جداً بالمدفعية، فذلك المكان غير محصن تماماً بعد، وكما نسمع، بدون جند حماة أقوياء جداً. فلن تواجه على الأرجح سوى مقاومة ضئيلة. إن الخطر الوحيد الذي أخشى من أن يعيق مسيرتك هو كمائن الهنود البارعين ـ بالممارسة المستمرة ـ بزرعها وتنفيذها، والدرب الضيّق الذي يقرب طوله الأربعة أميال الذي على جيشك أن يقطعه، قد يعرضه للهجوم المباغت على جوانبه وقد يُقطَع كالخيط إلى عدة قطع والذين لن يتمكنوا من الوصول في الوقت المناسب بسبب البعد كي يساند أحدهم الآخر». فابتسم لجهلي وأجاب: «قد يشكل هؤلاء المتوحشون فعلاً عدواً صعباً بالنسبة لمليشياتك الأمريكية القليلة الخبرة، لكن بالنسبة لقوات الملك المنظّمة والمدرّبة، يا سيدي، فمن المستحيل أن يكون لها أي أثر». انا أدرك خطأ نقاشي مع رجل عسكري في شؤون من اختصاصه. فلم أقل شيئاً أكثر. لكن العدو لم يستغل ما خشيتُهُ على جيشه من الطريق الطويل للمسير المكشوف لهم بل جعلهم يتقدمون بدون مقاطعة حتى وصلوا على بعد تسعة أميال من المكان، وبعدها عندما وصل كلهم معاً (لأنهم كانوا قد اجتازوا نهراً للتو حيث كانت الطليعة قد توقفت حتى يصل الجميع)، وفي الجزء الأكثر انكشافاً من الغابات من أي جزء قد مروا به، هاجموا مقدمة الجيش بالنيران الثقيلة من وراء الأشجار

والشجيرات والتي كانت أول إشارة تلقاها القائد عن وجود العدو بالقرب منه. ولأن مقدمة الجيش قد اختلّتْ، أسرع القائد نحو القوات لمساعدتهم والتي تمت بإرباك كبير عبر العربات والأمتعة والمواشي. وفي الحال أتت النيران على جوانبهم. وكان الضباط الذين على ظهور الخيل والذين تم اكتشافهم بسهولة أكثر وتم اختيارهم كأهداف، سقطوا سريعاً جداً. وتجمع الجنود معاً في حشود لا يسمعون أوامر وواقفين كي يتم رميهم حتى تم قتل ثلثيهم. وبعدها، لأن الرعب قد سيطر عليهم، هرب الكل بسرعة. أخذ أصحاب العربات كل منهم حصاناً من مجموعته وهرب. وتم حذو حذوه من قبل الآخرين على الفور بحيث تم ترك العربات والمؤن والمدفعية والذخيرة للعدو. كان القائد الذي جُرِحَ قد تم إنقاذه بصعوبة، وقُتِل سكرتيره السيد (شيرلي) بجانبه، ومن بين الستة وثمانين ضابطاً، قُتِلَ ثلاثة وستون منهم أو جُرِح. وقُتِلَ سبعمائة وأربعة عشر رجلاً من بين ألف ومائة. هؤلاء الألف ومائة كانوا من صفوة الرجال من كل الجيش، أما البقية فقد تُركوا مع العقيد (دنبار) الذي كان عليه أن يعقبهم مع الجزء الأثقل من الذخيرة والمؤن والأمتعة. وصل البعض (الذين لم يكونوا مطاردين) إلى معسكر (دنبار) والارتياع الذي أتوا به معهم استولى فوراً عليه وعلى من معه. وعلى الرغم من أنه كان لديه الآن ما يزيد عن ألف رجل، ولم يزد الأعداء الذين ضربوا (برادوك) عن أربعمائة هندي وفرنسي مجتمعين على أكثر تقدير، بدلاً من التقدم ومحاولة استعادة بعض الشرف المسلوب أمر: بتدمير كل المؤن والذخيرة، إلخ... وأن: يحصل على خيول أكثر لتساعد هروبه باتجاه المستوطنة، وأن:يتم إزالة خشب أقل. هناك، تلقى طلبات من محافظي (فيرجينيا) و (ماريلاند) و (بنسلفانيا)، بأنه يجب عليه

أن يُعلِمَ قواته على الحدود كي تقدم بعض الحماية للسكان. لكنه استمر في مسيرته العاجلة على طول البلاد، ولم يظن نفسه آمناً حتى وصل إلى (فيلادلفيا) حيث بإمكان السكان أن يقوموا بحمايته. إن هذه الحركة قد منحتنا نحن الأميركان أول الشكوك حول فكرتنا المفخمة عن شجاعة الجنود النظامية البريطانية بأنها غير موجودة أبداً. خلال مسيرتهم الأولى أيضاً، منذ هبوطهم حتى وصلوا قريباً من المستوطنات، قاموا بنهب وتجريد المستوطنين، وتخريب كامل لبعض العائلات الفقيرة، إضافةً إلى إهانة واضطهاد وحبس الناس إذا قاموا بالاعتراض. كان هذا كافياً كي يوضّح لنا فكرة عن مدافعين كهؤلاء، هذا إذا كنا بحاجة فعلاً إلى أي منهم. كم كان مختلفاً سلوك أصدقائنا الفرنسيين في 1781، الذين ـ أثناء مسيرة خلال أقصى جزء مسكون من بلادنا من (رود آيسلند) إلى (فيرجينيا)، ما يقرب من سبعمائة ميل، لم يسببوا أدنى شكوى من فقدان خنزير أو دجاجة أو حتى تفاحة.

كان النقيب (أورم) الذي كان أحد مرافقي القائد والذي قد جُرِحَ بشكل بالغ، قد تم إنقاذه معه واستمر معه حتى وفاته، وحدث في أيام قلائل أن أخبرني ما حدث، بأنه كان صامتاً تماماً طوال اليوم الأول، وخلال الليل فقط قال: «من كان يفكر في ذلك؟». وأصبح صامتاً ثانيةً في اليوم التالي. قال فقط أخيراً: «من الأفضل أن نعلم كيف نتعامل معهم في وقت آخر» ومات بعدها خلال دقائق قليلة. كانت وثائق السكرتير، مع كل أوامر القائد وتعليماته ومراسلاته، قد وقعت بين يدي العدو. فاختاروا وترجموا إلى الفرنسية عدداً من البنود والتي طبعوها كي يثبتوا النوايا العدائية للبلاط البريطاني قبل إعلان الحرب. رأيتُ من بينها بعض رسائل القائد إلى

الحكومة وهو يتحدث بشكل مبالغ فيه عن الخدمة العظيمة التي قمتُ بتقديمها للجيش ويوكلني إلى عنايتهم. أخبرني (ديفيد هيوم) الذي أصبح بعد عدة سنوات سكرتيراً للورد (هيرتفورد) عندما كان وزيراً في (فرنسا) وبعد ذلك للقائد (كونوي) عندما كان سكرتيراً للحكومة، بأنه قد شاهد من بين الوثائق في ذلك المكتب، رسائل من (برادوك) وهو يوصي بي بشكل مبالغ فيه. لكن البعثة كانت غير موفقة. فبدت خدماتي لا قيمة لها لأن هذه التوصيات لم تكن ذات فائدة لي أبداً. بالنسبة للمكافأة منه هو نفسه، طلبتُ طلباً واحداً والذي كان بأن يتم منح أوامر لضباطه بأن لا يقوموا بتجنيد المزيد من الخدم الذين قمنا بشرائهم، وأن يقوم بإطلاق سراح الذي تم تجنيده مسبقاً. استجاب لهذا على الفور، وبناءً على ذلك عاد العديد إلى أسيادهم بناءً على طلبي. عندما انتقلت القيادة إلى (دنبار)، لم يكن كريماً جداً، إذ كان موجوداً في (فيلادلفيا) عند انسحابه ـ أو بالأحرى هروبه ـ عندما التمستُ منه إطلاق سراح خدم لثلاثة فلاحين فقراء من مقاطعة (لانكستر) كان قد قام بتجنيدهم، مذكّراً إيّاه بأوامر القائد السابق بهذا الموضوع. فوعدني بأنه إذا كان الأسياد سيأتون إليه إلى (ترينيتون) حيث يجب أن يكون خلال بضعة أيام في مسيرته إلى (نيويورك)، فإنه سيحرر لهم خدمهم هناك. وعلى هذا الأساس تحملوا نفقات ومخاطر الذهاب إلى (ترينيتون). وهناك رفض أن يفي بوعده رغم خسارتهم وخيبة أملهم.

حالما أصبح فقدان العربات والخيول معروفاً بشكل عام، أتى جميع الملّاك إليّ من أجل التقييم والذي ألزمتُ نفسي بدفعه. سببتْ مطالبهم لي قدراً كبيراً من المتاعب. فعلى الرغم من أعلامي لهم بأن النقود متوفرة بين يديْ أمين الصندوق، لكن الأوامر بالدفع يجب الحصول عليها أولاً

من القائد (شيرلي)، وتأكيدي لهم بأنني خاطبتُ ذلك القائد برسالة لكنه كان بعيداً وأن الإجابة لا يمكن أن تصل بسرعة وأن عليهم أن يصبروا، إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً كي يقنعهم. وبدأ البعض بمقاضاتي. في النهاية أراحني القائد (شيرلي) من هذا الموقف الصعب بتعيين مفوضين كي ينظروا في المطالبات ويأمر بالدفع. لقد وصلت الى ما يقارب العشرين ألف باوند والتي دفعُها كان سيدمرني.

قبل أن تصلنا أخبار هذه الهزيمة، أتى إليّ الطبيبان (بوند) بورقة اشتراك جمع نقود لتحمل تكاليف الألعاب النارية الكبيرة والمزمع تقديمها للاحتفال بوصول أخبار احتلالنا ل (فورت دو كويسن). فبدوتُ متجهماً وقلتُ، أعتقد بأنه سيكون هناك وقت كافٍ للإعداد للاحتفال عندما نعلم بأن لدينا مناسبة للاحتفال. فبدوا متفاجئين لأنني لم أمتثل فوراً لمقترحهما. فقال أحدهما: «ولماذا بحق الشيطان لا تعتقد بشكل مؤكد بأن ـ فورت ـ لن يتم احتلالها؟». فقلت: «أنا لا أعلم بأنه سيتم احتلالها لكنني أعلم بأن أحداث الحرب عرضة للشك الكبير»، وأعطيتهما أسباب شكّي. فتم إسقاط الاشتراك. وبهذه الطريقة تفادى العارضون الإهانة التي كانوا سيتعرّضون لها إذا تم الإعداد للألعاب النارية. قال (د. بوند) بعد ذلك في مناسبة أخرى بأنه لم يحب هواجس فرانكلين.

كان المحافظ (موريس) قد أزعج الجمعية بشكل مستمر برسالة بعد أخرى قبل هزيمة (برادوك)، كي يخضعهم باستحداث قوانين لجمع الأموال من أجل الدفاع عن المقاطعة، بدون فرض ضرائب، من بينها ممتلكات حكّام المقاطعات، وقد رفض كل قوانينهم لعدم تناولها لبند إعفاء كهذا، والآن ضاعف ضرباته بأمل كبير بالنجاح، فالخطر

والضرورة كانا أكبر. رغم ذلك فقد ظلت الجمعية صامدة، معتقدةً بأن الحق إلى جانبها، وأن ذلك سيُعتبَر تخلي عن حق أساسي إذا سمحوا للمحافظ بأن يقوم بتعديل قوانين أموالهم. في الحقيقة، في أحد قراراته النهائية والتي تخص منح خمسين ألف باوند، كان تعديله المفترض فقط من كلمة واحدة. فقد أوضح القانون (بأن كل الممتلكات، العينية والغير العينية، وجب شمولها بالضريبة، وتلك التابعة لحكّام المقاطعات غير مستثناة). كان تعديله «ليس للاطلاع فقط» صغيراً لكنه تعديل أساسي جداً. رغم ذلك، عندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى (إنكلترا)، أثار أصدقاؤنا هناك ـ الذين حرصنا على اطلاعهم بكل إجابات الجمعية على رسائل المحافظ ـ صخباً ضد حكّام المقاطعات لأنانيتهم وعدم إنصافهم بسبب منح محافظهم تعليمات كهذه، وذهب البعض بعيداً بقوله بأن بإعاقة الدفاع عن مقاطعتهم قد أضاعوا حقهم فيها. فارتعبوا لذلك وأرسلوا أوامر إلى أمين الصندوق الخاص بهم كي يقوم بإضافة خمسة آلاف باوند من أموالهم إلى أي مبلغ من المال قد يتم منحه من قبل الجمعية لهذا الغرض. تم إبلاغ المجلس النيابي بذلك وقد تم قبوله عوضاً عن حصتهم في الضريبة العامة. وتم تشكيل قانون جديد ببند إعفاء والذي صدر وفقاً لذلك. وفقاً لهذا القانون تم تعييني أحد المفوضين للتصرف بالأموال، ستين ألف باوند.

لقد كنتُ فاعلاً في صياغة القانون واستصدار الإقرار به، وقد قمتُ في نفس الوقت بصياغة قانون لتأسيس وتنظيم ميليشيا حرة والذي قمتُ بإيصاله إلى المجلس النيابي بدون صعوبة كبيرة لأن فيه تم مراعاة الكويكرز

لأن يُترَكوا على حريتهم. قمتُ بكتابة محادثة[1]، لتعزيز الالتحاق اللازم لتكوين ميليشيا، أصرّح وأجيب فيها على كل الاعتراضات التي تمكنتُ من تخيّلها بخصوص ميليشيا كهذه والتي تم طبعها وكان لها ـ كما ظننتُ ـ تأثيراً كبيراً.

بينما كانت الفرق العديدة في المدينة والريف تتشكل، وتتلقى تدريباتها، أقنعني المحافظ بأن أتولى مسؤولية حدودنا الشمالية الغربية والتي تم اجتياحها من قبل العدو وأن أتكفل بالدفاع عن المستوطنين بإنشاء قوات وبناء خط من الحصون. أخذتُ على عاتقي هذا العمل العسكري على الرغم من أنني لم أتصور نفسي بأنني مؤهل له. فمنحني تفويضاً بصلاحيات كاملة وحزمة من المأموريات الواضحة للضباط كي يتم منحها لمن أراه مناسباً. كان لديّ صعوبة قليلة فقط بتحشيد الرجال. أمتلكُ حالياً خمسمائة وستون تحت إمرتي. كان ابني ـ الذي كان في الحرب السابقة ضابطاً في الجيش الذي تم حشده ضد (كندا) ـ عوناً لي وكان ذا فائدة عظيمة لي.

كان الهنود قد أحرقوا (غنادين هت)، وهي قرية تم استيطانها من قبل (المورافيين)، وذبحوا السكان. لكن المكان اعتُقِدَ بأنه موقع جيد لأحد الحصون. لغرض السير إلى هناك، جمعتُ الفرق عند (بيتلهام)، المؤسسة الرئيسية لهؤلاء الناس. لقد تفاجأتُ بأن أجدها قد اتخذتْ حالة دفاع جيدة. فتدمير (غنادين هت) جعلهم يخشون الخطر. تم حماية البنايات الأساسية بحاجز شائك. وقد قاموا بشراء كمية من الأسلحة والذخيرة

(1) هذه المحادثة وقانون الميليشيات موجودة في مجلة (الجنتلمان)، عدد شباط وآذار، 1756 [ملاحظة هامشية]

من (نيويورك) حتى أنهم قد وضعوا كميات من أحجار التبليط بين نوافذ بيوتهم الحجرية العالية ليقوم نساؤهم بإلقائها على رأس أي هندي يحاول أن يقتحمهم. واستمر الأخوة المسلحون أيضاً بالمراقبة ويستريحون بشكل نظامي كما في أي موقع عسكري. في حديثي مع الأسقف (شبانغنبيرغ) ذكرتُ ذلك لدهشتي لمعرفتي بأنهم استصدروا قانون من البرلمان يعفيهم من الواجبات العسكرية في المستعمرات وافترضتُ بأنهم موسوسون بشكل عاطفي بحمل الأسلحة. فأجابني بأنها ليست واحدة من مبادئهم الدائمة، لكن في وقت استصدار هذا القانون لهم، تم الاعتقاد بأنه أساسي من قبل العديد من أناسها. لكن في هذه الحالة وجدوها ـ لدهشتهم ـ متبناة لكن من قبل القلة. فهي تُظهِر إما أنهم خُدعوا أو خَدَعوا البرلمان. لكن الإحساس العام ـ الذي يدعمه في ذلك الخطر الحالي ـ سوف يكون قوياً جداً لاتخاذ آراء غريبة.

كان الوقت بداية كانون الثاني عندما شرعنا بهذا العمل وهو بناء حصون. أرسلتُ كتيبة واحدة باتجاه (مينيسينك) مع تعليمات بتشييد واحداً لتأمين ذلك الجزء العلوي للمنطقة، وآخر للجزء الأسفل بنفس التعليمات، وقررتُ في النهاية أن أذهب بنفسي ببقية المفرزة التابعة لي إلى (غنادين هت) حيث يُعتقد بأن إنشاء حصن هناك أمر ضروري وعاجل جداً. وفّر (المورافيون) لي خمس عربات لمعداتنا ومؤننا وأمتعتنا، إلخ. قبل أن نغادر (بيتلهام) مباشرةً أتى إليّ أحد عشر مزارعاً (الذين تم إبعادهم عن مزارعهم من قبل الهنود) يطلبون إمدادات من الأسلحة النارية لأنهم قد يعودون ويجلبوا مواشيهم. فأعطيتُ كل واحد منهم بندقية مع ذخيرة مناسبة. لم نقم بالسير عدة أميال حتى بدأت تمطر،

واستمرت تمطر طوال اليوم. لم تكن هناك مساكن على الطريق تأوينا. حتى وصلنا قرب الليل إلى بيت أحد الألمان حيث جثمنا معاً في اسطبله مبللين. من الجيد أنه لم يتم مهاجمتنا في مسيرتنا لأن أسلحتنا كانت من النوع العادي ولم يتمكن رجالنا من الحفاظ على زناد بنادقهم جافة. كان الهنود حاذقين بشأن اختراعات لهذا الاستعمال وهو ما لم نكن كذلك. فقد واجهوا ذلك اليوم الأحد عشر مزارعاً المساكين المذكورين أعلاه وقتلوا عشرة منهم. وأخبرنا الواحد الذي فرّ منهم بأن بندقيته وبنادق رفاقه لم تنفجر، فقد كانت الفتيلة مبللة بسبب المطر. كان اليوم التالي صافياً، فواصلنا سيرنا، ووصلنا عند (غنادين هت) المهجورة. كان هناك ورشة للأخشاب قريبة تُركت حولها عدة أكوام من الألواح. فسكنّا بها حالاً، وهي العملية الأكثر ضرورة في هذا الموسم العاصف لأنه لم يكن لدينا خيام. كان أول عمل لنا هو دفن الأموات الذين وجدناهم هناك بشكل أكثر فعالية والذين كانوا مدفونين جزئياً من قبل سكان البلدة. في الصباح التالي تم تخطيط وتعيين حصننا. يبلغ المحيط أربعمائة وخمس وخمسين قدم، الذي يتطلب العديد من الحواجز التي يجب صنعها من الأشجار الواحدة بجانب الأخرى، بنصف قطر قدم لكل واحدة. بدأتْ فؤوسنا فوراً ـ التي نمتلك منها سبعين ـ بالشروع بالعمل وقطع الأشجار. وكان رجالنا حاذقين باستعمالها. تم عمل إنجاز كبير. تملّكني الفضول ـ وأنا أنظر إلى الأشجار وهي تسقط بسرعة جداً ـ لأن أنظر الى ساعتي عندما بدأ رجلان بقطع شجرة صنوبر. ففي ست دقائق أسقطوها على الأرض. ووجدت أن نصف قطرها أربعة عشر إنجاً. كوّنتْ كل شجرة صنوبر ثلاثة حواجز بطول ثماني عشرة قدم مستدقة من اتجاه

واحد. بينما يتم إعداد هذه، قام رجالنا بحفر خندق شامل بعمق ثلاث أقدام حيث سيتم غرس الحواجز فيه. بدأتْ تُسحب العربات والجذوع، وتفرقت العجلات الأمامية والخلفية بإخراج شجرة الصنوبر التي ربطت جزئي العمود. كان لدينا عشر مركبات مع حصانين لكل مركبة لجلب الحواجز من الغابات إلى الموقع. عندما تم تنصيبها، بنى نجارونا منصّة من الألواح حولها من الداخل بارتفاع ست أقدام تقريباً للرجال كي يقفوا عليها عندما يطلقون النار من خلال الثغرات. كان لدينا مدفع دوّار والذي قمنا بتثبيته على إحدى الزوايا وأطلقنا منه النار حالما قمنا بتثبيته كي نُعْلِمَ الهنود ـ إذا سمعه أحد منهم ـ بأن لدينا سلاحاً نارياً كهذا. وبهذا اكتمل حصننا (إذا صحّ أن نمنح لحضيرة بائسة جداً اسماً مهيباً كهذا) في غضون أسبوع على الرغم من أنها قد أمطرت بشدة بحيث لم يتمكن الرجال من العمل. إن هذا منحني فرصة كي ألاحظ بأنه عندما ينشغل الرجال يكونون راضين أكثر لأن في الأيام التي يعملون بها يكونون لطفاء ومبتهجين وأن بشعورهم بأنهم أتموا في ذلك اليوم عملاً جيداً يقضون المساء مرحين، لكن في الأيام التي يكونون فيها عاطلين عن العمل يصبحون متمردين وعدوانيين وينتقدون لحم الخنزير والخبز الخاص بهم، إلخ... وبمزاج عكر والذي يذكّرني بقبطان البحر الذي تقضي قواعده بأن يجعل رجاله مشغولين بالعمل بشكل مستمر، وعندما يخبره أحد زملائه مرة بأنهم أتموا كل شيء ولم يبقَ شيء آخر نشغلهم به يقول «أوه، اجعلهم يلمعون المرساة».

إن هذا النوع من الحصون على الرغم من وضاعته إلا أنه حماية كافية ضد الهنود الذين لا يملكون مدفع. عندما وجدنا أنفسنا الآن

نقوم بإرسال البريد بشكل آمن وأنه لدينا مكاناً نتقهقر إليه عند الحاجة، تجاسرنا على الخروج على شكل مجاميع كي نقوم بتمشيط البلدة المجاورة. لم نلتقِ بالهنود لكننا وجدنا الأمكنة على التلال المجاورة حيث كمنوا لمراقبة تقدمنا. كان هناك براعة بتدبيرهم لتلك الأمكنة والتي تبدو أنها تستحق الذكر. كان الوقت شتاءً والنار كانت ضرورية لهم، لكن ناراً عامة على سطح الأرض ستقوم بالكشف عن موقعهم من على مسافة بعيدة بسبب نورها. لذا قاموا بحفر فجوات في الأرض بنصف قطر ثلاث أقدام وأعمق بعض الشيء، رأينا حيث كانوا يقطعون الفحم ـ بفؤوسهم الصغيرة ـ من جوانب الجذوع المحترقة الملقاة في الغابات. أشعلوا بهذا الفحم نيراناً صغيرة في قاع الفجوات، ولاحظنا بين الأدغال والأعشاب آثار أجسادهم التي نشأتْ باستلقائهم في كل مكان وأرجلهم متدلية في الفجوات كي يقوموا بإبقاء أقدامهم دافئة والتي كانت بالنسبة لهم مسألة أساسية. إن هذا النوع من النيران والمدبر بهذه الطريقة لا يمكن أن تكشفهم، لا بنورها ولا بلهيبها ولا بشرارتها أو حتى دخانها. وظهر بأن عددهم لم يكن كبيراً ويبدو أنهم قد رأوا بأننا كثيرون جداً كي تتم مهاجمتنا من قبلهم من منظور الغنيمة. كان لدينا قس عسكري، قس مشيخي متعصب، السيد (بيتي) الذي اشتكى لي بأن الرجال لم يحضروا بالإجمال صلواته ومواعظه. عندما تم تجنيدهم تم وعدهم، إضافةً إلى الأجرة والمؤن ـ بمقدار جيل[1] من الرم يومياً والذي كان يتم إرساله لهم بالضبط نصف في الصباح والنصف الآخر في المساء،

---

(1) الجيل: يعادل 1/ 8 لتر. (المترجمة)

وقد لاحظتُ بأنهم كانوا منضبطين بالحضور واستلامه. فقلت للسيد (بيتي) بخصوص ذلك: «ربما لا يليق بمهابة مهنتك بأن تتصرف كمضيف للرم، لكن إذا قمتَ بتوزيعه بعد الصلاة مباشرة فقط فستحظى بهم كلهم حولك». فأحبَّ الفكرة وتعهد بالمهمة، وبمساعدة قليل من العمال ليزن الشراب الكحولي، قام بتنفيذها إلى حد الرضا. ولم يحظر المصلون إجمالاً وبشكل منضبط أبداً، لذا أعتقدُ بأن هذه الطريقة مفضّلة للعقوبة المفروضة من قبل بعض القوانين العسكرية تجاه عدم الحضور للقدّاس الألهي.

بالكاد انتهيتُ من هذا الأمر، وأصبح حصني مليئاً بالذخيرة بشكل جيد عندما استلمتُ رسالة من المحافظ يُعْلمُني فيها بأنه قد عرج على الجمعية ورغب بحضوري إلى هناك إذا كانت الحالة عند الحدود لا تستلزم بقائي هناك لمدة أطول. كان أصدقائي أيضاً في الجمعية يضغطون عليّ برسائلهم كي أكون ـ إذا كان ممكناً ـ في الاجتماع، وحصوني الثلاثة العتيدة أصبحت الآن كاملة، ورضي السكان بأن يبقوا في مزارعهم تحت هذه الحماية فقررتُ أن أرجع. ولأن ضابط (نيوإنغلاند) العقيد (كلافام) الخبير في الحرب الهندية ـ كان في زيارة لمنشآتنا وافقتُ على قبول الأمر عن طيب خاطر أكثر. فمنحتُهُ تفويضاً وقرأتُهُ أمامهم وأنا متفاخر بالحامية، وقمتُ بتقديمه لهم على أنه الضابط المناسب أكثر مني بأن يشرف عليهم بسبب مهارته في الشؤون العسكرية، وبمنحي لهم بعض النصائح، غادرتُ.

تمت حراستي إلى أن وصلتُ إلى (بيتلهام) حيث استرحتُ بضعة أيام كي أتعافى من الإعياء الذي أصابني. بالكاد استطعتُ أن أنام في

الليلة الأولى لأني على سرير جيد، فقد كان مختلفاً عن مبيتي القاسي على أرض كوخنا في (غنادين هت) حيث تغطّيتُ بملاءة أو اثنتين فقط. بينما أنا في (بيتلهام) بحثتُ قليلاً حول سلوك (المورافيين)، بعضهم قد رافقني، وجميعهم كانوا لطفاء معي. فاكتشفتُ أنهم يعملون على أسهم عادية ويأكلون على موائد مشتركة وينامون في مهاجع عامة بأعداد كبيرة معاً. لاحظتُ في المهاجع وجود ثغرات بأبعاد معينة، كلها تحت السقف مباشرةً والتي اعتقدتُ بأنها قد وُضِعَتْ بشكل حكيم للتهوية. كنتُ في كنيستهم عندما استمتعتُ بموسيقى عذبة، فقد كان الأرغن مصحوباً بآلات الكمان والمزامير والفلوت والكلارينت، إلخ...فهمتُ بأن خطبهم لا تُلقى إلى حشد مختلط من الرجال والنساء والأطفال كما هي عادتنا المألوفة، وإنما يجمعون أحياناً الرجال المتزوجين، وفي أوقات أخرى زوجاتهم، ثم الشباب، والشابات، والأطفال الصغار، كل قسم على حدة. كانت الخطبة التي سمعتُها للمجموعة الأخيرة التي أُدخِلَت وأُجلسوا في صفوف على مقاعد، الصبيان تحت قيادة شاب، معلمهم الخاص. والفتيات تحت قيادة شابة. بدت المحادثة متناسبة لاستيعابهم وتم إلقاؤها بأسلوب مألوف يبعث على السرور، تداهنهم - إذا جاز التعبير - كي يكونوا صالحين. لقد تصرّفوا بشكل منظم جداً، لكنهم بدوا شاحبين وغير أصحاء وهو ما جعلني أشك بأنه يتم إبقاؤهم داخل البيوت لوقت طويل جداً أو لا يُسمَح لهم برياضة كافية. فاستقصيتُ عن زواج (المورافيين) فيما إذا كان التقرير صحيحاً بأنها تتم بالقرعة. فقيل لي بأن القرعة تُستخدم فقط في حالات معينة وإنه عموماً عندما يجد الشاب نفسه مهيأً للزواج

يقوم بإخبار شيوخ طائفته الذين يستشيرون السيدات المسنّات اللواتي يقمن برعاية الشابات.

ولأن هؤلاء الكبار في السن للجنسين المختلفين على معرفة بمزاج وميول مريديهم المعنيين، يكون بإمكانهم الحكم بشكل أفضل أي الزيجات ستكون مناسبة، ويتم الإذعان لأحكامهم عموماً. لكن إذا صادف على سبيل المثال أن يوجد اثنتان أو ثلاث نساء ملائمات بشكل متساوٍ للشاب، عندها يتم اللجوء إلى القرعة. فاعترضتُ، إذا لم تكن الزيجات تتم عن طريق الاختيار المتبادل للشريكين فسيخاطر بعضهم بأن يصبح تعيساً جداً. فأجاب مخبري: «وأنهم سيكونون كذلك إذا جعلتَ الشريكين يختارون بأنفسهم» وهو في الحقيقة ما لم أستطع إنكاره.

عند عودتي إلى (فيلادلفيا) وجدتُ الالتحاق مستمراً بنجاح. وبعد أن أصبح للسكان ـ الذين ليسوا من الكويكرز ـ دور عام جداً فيها قاموا بتشكيل أنفسهم إلى فرق وقاموا باختيار زعمائهم وملازميهم وشعاراتهم وفقاً للقانون الجديد. زارني الدكتور (ب.) وحكى لي الآلام التي عانى منها كي يقوم بالترويج للاستحسان العام للقانون، وعزا الكثير إلى هذه المساعي. أنا أملك الغرور لأعزو كل ذلك إلى (محاوراتي) رغم أنه لا يعلم لكنه قد يكون على جانب الصواب، فجعلته يفرح برأيه وهو ما تعودتُ بأن يكون عموماً أفضل طريقة في حالات كهذه.

اجتمع الضباط وانتخبوني كعقيد الفوج والذي قبلتُ به هذه المرة. نسيتُ عدد الفرق التي لدينا، لكننا قمنا باستعراض حوالي ألف ومئتي

رجل حسني المظهر، مع فرقة للمدفعية والتي تم تجهيزها بستة مدافع ميدانية من معدن البراص[1] والذين أصبحوا خبراء جداً باستعماله، مثلًا إطلاق النار اثنتي عشرة مرة في الدقيقة. في المرة الأولى التي استعرضتُ فيها الفوج الخاص بي قاموا بمرافقتي إلى منزلي وكانوا قد قاموا بتحيتي ببعض الدفعات من الطلقات التي تم إطلاقها أمام بابي والتي تساقطت وحطمت عدة عدسات لجهازي الكهربائي. وإن مقامي الجديد ثبت كثيراً أنه ليس أقل هشاشة لأن كل مأمورياتنا قد تم إيقافها بعد ذلك بسبب إبطال القانون في (إنكلترا).

أثناء تلك الفترة القصيرة لي كعقيد، عندما كنتُ على وشك أن أقوم بإعداد رحلة إلى (فيرجينيا)، اعتقدَ ضباط الفوج التابع لي أنه من اللائق بهم أن يقوموا بمرافقتي خارج المدينة إلى حد (لورفيري). وأنا أركب ظهر الجواد مباشرةً وصل الى بابي ما بين الثلاثين والأربعين وهم ممتطون الخيول، وجميعهم في زيّهم الرسمي. لم يكن لديّ علم مسبق بالخطة وإلا لكنتُ قد منعتُها، لكوني بطبيعة الحال معارضاً لادعاء الأبهة في حالتي، وكنتُ مغتمّاً كثيراً لمظهرهم لأنني لم أتمكن من تفادي مرافقتهم لي. وما جعله أسوأ هو حالما بدأنا بالتحرك قاموا بسحب سيوفهم وساروا بها مسلولة طوال الطريق. كتب أحدهم تقريراً عن هذا إلى حاكم المقاطعة وسبّب له إزعاجاً كبيراً. إذ لم يكسب تكريماً كهذا عندما كان في المقاطعة ولا لأي من ولاته، وقال إنه يلائم فقط الأمراء ذوي الدم الملكي والذي ربما يكون حقيقياً لأنني بأية حال أعلم من أكون ولا أزال جاهلاً بالأصول في حالات كهذه. غير أن هذه

---

(1) البراص: سبيكة من النحاس والخارصين. (المترجمة)

المسألة السخيفة قد زادت من حقده تجاهي - والذي كان قبل ذلك ليس قليلاً - بسبب تصرفي في الجمعية فيما يتعلق بإعفاء أملاكه من الضريبة الأمر الذي كنت دائماً رافضاً له بشكل حماسي جداً وليس بدون ملاحظات قاسية على أنانيته وعدم عدالته بالكفاح لأجل الموضوع. قام باتهامي عند الحكومة بأنني عقبة كبيرة أمام خدمة الملك حائلاً (من خلال تأثيري في المجلس النيابي) دون العرف الأصيل لقوانين جمع الأموال، ووضّح ذلك التفاخر بضباطي كدليل على امتلاكي النية لانتزاع حكم المقاطعة من بين أيديهم بالقوة. كما أنه لجأ إلى السيد (إيفيرارد فوكنر) مدير البريد العام - ليجرّدني من منصبي، لكنه لم يمتلك تأثيراً آخر سوى بأن يجلب من السيد (إيفيرارد) عتاباً لطيفاً. على الرغم من المشاحنات المستمرة بين المحافظ والمجلس النيابي - والذي أنا كعضو فيه أمتلك حصة كبيرة جداً - إلا أنه لا يزال هناك علاقات مهذبة باقية بين الرجل وبيني ولم يكن لدينا أبداً أي خلاف شخصي. من وقتها أفكر أحياناً بأن استياءه القليل والمعدوم تجاهي بسبب الردود المعروف انني قمت بصياغتها لخطاباته ربما يعود إلى تأثير عادات المهنة وذلك لأنه نشأ كمحامٍ ربما يعتبر كلينا مجرد محامين لعملاء متنافسين في قضية: هو عن حكّام المقاطعات وأنا عن الجمعية. لذلك كان يتصل بي أحياناً بطريقة ودية كي يتشاور معي بخصوص أمور صعبة وأحياناً - وأن ليس غالباً - يأخذ بنصيحتي. عملنا بانسجام كي نجهز جيش (برادوك) بالمؤن. وعندما وصلت الأخبار الصادمة بهزيمته، أرسل إلي المحافظ على عجل كي أتشاور معه بخصوص إجراءات منع انشقاق المقاطعات الخلفية. نسيتُ الآن النصيحة التي أشرتُ له بها،

لكنني أعتقد بأنها كانت: أنه يجب أن نكتب إلى (دنبار) وأن ينتشر ـ إذا أمكن ـ كي يراسل بالبريد قواته التي على الحدود لحمايتهم إلى أن يصبح (بتعزيزات من المستعمرات) قادراً لأن يتقدم بالحملة. وبعد عودتي من الحدود كان سيُلقي على عاتقي الاتصال بالقوات الإقليمية لحملة كهذه لانقسام (فورت دو كويسن) فقام (دنبار) ورجاله بتنفيذها بدلاً من ذلك واقترح بأن يفوضني كقائد. لم تكن لدي فكرة جيدة جداً عن قابلياتي العسكرية كما صّرح. وأنا أعتقد بأنه لا بد أن تصريحاته قد تجاوزت آراءه الحقيقية، لكن على الأرجح ربما سيعتقد بأن شعبيتي كانت ستُسَهِّل استنهاض الرجال، وتأثيري في الجمعية، والهبة المالية التي عليّ أن أدفعها وذلك ربما بدون فرض ضريبة على أموال حكّام المقاطعات. وباكتشافه عدم تطلعي التام إلى لفت الانتباه كما توقع هو تم إسقاط الخطة، وبعدها مباشرة ترك الحكومة وتم إحلال النقيب (ديني) محله.

قبل أن أمضي بحكاية الدور الذي حزتُهُ في القضايا العامة تحت إدارة هذا المحافظ الجديد، ربما لن أكون مخطئاً هنا أن أروي نشوء ونمو شهرتي في مجال الفلسفة. ففي عام 1746، عندما كنتُ في (بوسطن) التقيتُ هناك بالدكتور (سبنس) الذي كان قد وصل مؤخراً من (اسكتلندا) وأراني بعض التجارب الكهربائية. كانت قد تم إنجازها بشكل معيب لأنه لم يكن خبيراً. لكن لكونه يعمل على موضوع جديد جداً بالنسبة لي فقد أدهشتني وأسرّتني بنفس القدر. بعد عودتي مباشرةً إلى (فيلادلفيا) تسلمتْ فرقة المكتبة الخاصة بنا من السيد (ب. كولينسون) ـ زميل جمعية لندن الملكية ـ هدية

من أنبوب زجاجي مع تقرير معين باستعمالها لإجراء تجارب كهذه. فاستغليتُ بلهفة فرصة إعادة ما رأيتُهُ في (بوسطن). وبالممارسة الكثيرة اكتسبتُ سهولة كبيرة بإنجاز تلك، كذلك، التي لدينا تقريراً بها من (إنكلترا)، مضيفاً عدداً من التجارب الجديدة لها. أقول ممارسة كثيرة لأن بيتي كان مليئاً على الدوام ـ لبعض الوقت ـ بأناس أتوا ليروا هذه الأعاجيب الجديدة.

كي نتقاسم قليلاً هذا العبء بين أصدقائي بعثتُ بعدد من الأنابيب المتشابهة كي يتم نفخها في بيتنا الزجاجي والتي زودوا أنفسهم بها بحيث أصبح لدينا في النهاية عدة منفذين. من بين هؤلاء كان السيد (كينرسلي) الشهير، وهو جار نابغة والذي كان عاطلاً عن العمل، تشجعتُ كي آخذ على عاتقي عرض التجارب من أجل المال، وأعدُّ له محاضرتين والتي تم ترتيب التجارب فيها بنظام، وتم إرفاقها بتفسيرات بطريقة بحيث يساعد ما سبق على استيعاب ما لحق. جلب جهازاً أنيقاً من أجل هذا الغرض، والذي كانت كل الأجهزة الصغيرة التي صنعتُها تقريباً بنفسي قد تم تشكيلها بإتقان من قبل صانعي آلات. كانت محاضراته مشهودة بشكل جيد وقد منحتْ رضاً كبيراً. وبعد فترة، عَبَرَ المستعمرات عارضاً إيّاها في كل مدينة كبيرة وحصد بعض الأموال. كان من الصعب إجراء التجارب في الحقيقة في جزر الهند الغربية بسبب الرطوبة العالية في الهواء. اعتقدت، امتناناً للسيد (كولينسون) على هديته الأنبوب، إلخ.. إنه من الصائب إخباره عن نجاحنا باستعماله وكتبتُ له عدة رسائل تتضمن تقارير عن تجاربنا. فقرأها في الجمعية الملكية حيث لم يكونوا في البداية يعتقدوا بأنها تستحق هذا الاهتمام الكثير كي يتم طبعها في محاضر جلساتهم.

أرسلتُ أحد تقاريري التي كتبتُها للسيد (كينرسلي) عن تشابه البرق بالكهرباء إلى (د.ميتشيل) ـ أحد معارفي، وأيضاً أحد أعضاء تلك الجمعية ـ الذي كتب لي عبارة: بأنه قد تم قراءته لكن تم الضحك عليه من قبل العلماء الجهابذة. مع ذلك فقد تم عرض التقارير على (د. فوذرغيل)، فاعتقدَ بأنها ذات قيمة كبيرة جداً من أن يتم تجاهلها، ونصح بطباعتها. فسلّمها السيد (كولينسون) بعد ذلك إلى (كييف) لنشرها في مجلته (الجنتلمان)، لكنه اختار بأن يطبعها كمنشورات بشكل منفصل، وكتب (د.فوذرغيل) المقدمة. يبدو أن (كييف) قد قدّر بشكل صحيح ربحه من خلال الطبعات التي وصلت ـ بعد أن ازدهرت ـ بالحجم الربعي ـ إلى خمس طبعات ولم تكلفه شيئاً سوى حقوق الطبع. رغم ذلك كانت قد مرت فترة قبل أن تتم ملاحظة هذه التقارير في (إنكلترا)، إذ صادف أن وقعتْ نسخة منها بين يدي (كونت دي بافون) ـ فيلسوف ذو شهرة عظيمة بجدارة في فرنسا ـ في الحقيقة في أوربا كلها، فقد تم إقناعه من قبل (م. داليبارد) كي يقوم بترجمتها إلى الفرنسية، وتم طباعتها في (باريس).

أزعجت النشرةُ (آبي نولييه) ـ معلم في الفلسفة الطبيعية عند العائلة المالكة، وصاحب تجارب علمية بارع والذي قام بتأليف ونشر نظرية الكهرباء والتي لاقت وقتها شهرة كبيرة. في البداية لم يستطع التصديق بأن عمل كهذا صدر من (أميركا)، وقال بأنه لا بد أنه قد تم تلفيقه من قبل أعدائه في (باريس) كي يشجب طريقته. بعد ذلك بعد أن تم التأكيد له بأن هناك شخصاً موجوداً حقاً باسم (فرانكلين) في (فيلادلفيا) والذي شك بأمره، فكتب ونشر مجلداً من الخطابات معنون بشكل رئيسي

إليّ مدافعاً عن نظريته وينكر سلامة تجاربي وسلامة الآراء المستنبطة منها. نويتُ ذات مرة الرد على (آبي)، وفي الواقع بدأتُ الرد، لكن على اعتبار أن كتاباتي تضمنت:وصفاً لتجارب يتمكن أي شخص من إعادتها والتحقق منها وإذا لم يتم التحقق منها لا يمكن الدفاع عنها أو: ملاحظات تم تقديمها كتخمينات ولم يتم التسليم بها بشكل جازم، لذا لن يضعني تحت أي فرض كي أدافع عنها: وتعكس جدلاً بين شخصين ـ يكتبان بلغتين مختلفتين ـ قد يطول بشكل كبير بسبب سوء الترجمة وبالتالي سوء فهم قصد أحدنا للآخر. ارتكز أكثر من خطاب واحد من خطابات (آبي) على خطأ في الترجمة. فتوصلتُ إلى قرار بأن أدع تقاريري تدبر أمر نفسها مؤمناً أنه من الأفضل أن أقضي الوقت الذي استطعتُ توفيره من العمل في الشأن العام بعمل تجارب جديدة من أن أتجادل بخصوص تلك التي أجريتُها أصلاً. لذا لم أقم بالرد أبداً على (م. نولييه)، ولم يمنحني الحدث أي سبب لأن أندم على صمتي لأن صديقي (م. لو روي) من الأكاديمية الملكية للعلوم قد تبنى قضيتي وقام بتكذيبه هو.

تم ترجمة كتابي إلى الإيطالية والألمانية واللاتينية وتم تبني المبادئ التي احتواها عالميّاً وبشكل تدريجي من قبل فلاسفة (أوروبا) وبأفضلية على مبادئ (آبي). لذا فقد عاش كي يرى نفسه آخر جماعته ـ ما عدا السيد (ب. باريس) طالبه ومريده المباشر. إن ما منح كتابي الشهرة الذائعة والغير متوقعة أكثر كان نجاح واحدة من تجاربه المعروضة التي أُجريت من قبل السادة (داليبارد) و(دي لور آمارلي) عن اجتذاب البرق من الغيوم. إن هذا قد جذب انتباه العامة في كل مكان. أخذ (م. دي

لور) الذي كان يملك جهازاً للفلسفة التجريبية والذي حاضر في هذا الفرع من العلم على عاتقه أن يكرر ما أسماه تجارب (فيلادلفيا).وبعد أن تم إجراؤها أمام الملك والبلاط احتشد جميع فضوليو (باريس) لرؤيتها. لن أقوم بتضخيم تلك الحكاية ببيان عن تلك التجربة الكبيرة ولا عن المتعة الغير منتهية التي قمتُ بتحقيقها بنجاح تجربة مماثلة قمتُ بإجرائها بعد ذلك مباشرةً بطائرة ورقية في (فيلادلفيا) لأن كليهما موجودتان في تاريخ الكهرباء.

كتب (د. رايت) ـ طبيب إنكليزي ـ عندما كان في (باريس) إلى صديق من الجمعية الملكية تقريراً عن التقدير العالي الذي تحظى به تجاربي من بين التجارب التي يتم تعليمها خارج البلاد، وعن تعجبهم بأن كتاباتي لا يتم الاهتمام بها كثيراً في (إنكلترا). على هذا أعادت الجمعية الاعتبار للرسائل التي تم قراءتها لهم، وأعدّ الدكتور (واطسون) الشهير ملخصاً تقديراً لها ولكل ما قمتُ بإرساله بعد ذلك إلى (إنكلترا) بخصوص الموضوع والتي تم إرفاق بعض المديح للكاتب معها. بعد ذلك تم طبع الملخص في محاضرهم وقام بعض أعضاء الجمعية في (لندن)، خصوصاً النابغة جداً السيد (كانتون) بالتحقق من تجربة جذب البرق من الغيوم بواسطة قضيب مدبب. وأعلمهم بالنجاح وسرعان ما جعلوني أكثر من راضياً مقابل الإغفال الذي عاملوني به من قبل. قاموا بانتخابي كعضو ـ بدون أن أطلب هذا الشرف ـ وقاموا بالتصويت بأنه يجب أن يتم إعفائي من الأجور العرفية والتي كانت ستصل إلى خمسة وعشرين جنيهاً. ومن وقتها منحوني تقاريرهم مجاناً.كذلك منحوني ميدالية السيد (غودفري كوبلي)

الذهبية للعام 1753 والتي يرافق تسليمها خطاباً فخماً للرئيس (لورد ماكسفيلد) الذي تم تشريفي من خلاله.

جلب لي محافظنا الجديد النقيب (ديني) الميدالية الذهبية ـ السابق ذكرها ـ من الجمعية والتي قدّمها لي في احتفال أقيم له من قبل المدينة وأرفقها بكلمة مهذبة جداً عن تقديره لي، وأنه ـ كما ذكر ـ على معرفة طويلة بشخصي. بعد العشاء ـ عندما كان الرفاق كما كانت العادة في ذلك الوقت منهمكين بالشراب ـ أخذني جانباً الى غرفة أخرى وأعلمني بأنه تم إخباره من قبل أصدقائه في (إنكلترا) كي ينمّي صداقة معي كواحد قادر على منحه أفضل نصيحة وعلى المساهمة بفعالية قصوى بجعل حكمه سهلاً وأنه لذلك رغب من بين كل شيء أن يتفاهم معي جيداً، وتوسل الي كي أكون متأكداً من استعداده في كل المناسبات بأن يسدي إليّ أية خدمة ممكنة تحت يده. قال لي الكثير أيضاً عن التصرف الجيد لحكّام المقاطعات تجاه المقاطعة وعن الفائدة المحتملة لنا جميعاً ـ ولي بالأخص ـ إذا تم نبذ المعارضة التي استمرت طويلاً جداً لتدابيره والانسجام المتجدد بينه وبين الشعب. في الواقع، كان يُعتقد أنه ليس بإمكان أحد أن يكون خدوماً غيري أنا، وأنه بإمكاني أن أعتمد على اعترافات وجوائز كافية، إلخ.. إلخ... عندما اكتشف الشاربون بأننا لم نعد فوراً الى المائدة أرسلوا لنا إناء من (الماديرا) التي وفّر منها المحافظ بسخاء، وبالمثل أصبح مسرفاً أكثر بالتماساته ووعوده. كانت إجاباتي لهذا المطلب: إن ظروفي ـ حمداً لله ـ أصبحت لا تعتمد على حسنات حكّام المقاطعات، وجعلتُها غير ضرورية بالنسبة لي. وأنه ـ لكوني عضواً في الجمعية ـ لم أتمكن من قبول أي منها. وأنه رغم أنه ليس لدي

عداء شخصي تجاه حكّام المقاطعات وأنه مهما بدت الإجراءات العامة التي اقترحها هو لصالح الشعب لا أحد يجب أن يتبناها ويتابعها بشكل حماسي سواي.

إن معارضتي السابقة قد تأسست على هذا: وهو أن الإجراءات التي تتم إثارتها كانت النية منها وبشكل واضح هو خدمة مصالح حكّام المقاطعات مع إجحاف كبير لمصالح الشعب. وأنه أنا كنت مديناً له (للمحافظ) كثيراً لمهنه المحترمة لي وأنه بإمكانه أن يعتمد على كل شيء ضمن إمكانياتي كي أجعل حكمه أسهل ما يمكن آملين في نفس الوقت أن لا يجلب معه نفس التوجيهات الغير ملائمة التي أعيق سلفه بسببها. عندها لم يفصح عن رأيه على هذا، لكن بعد ذلك عندما أتى ليعقد عملاً مع الجمعية ظهرت ثانيةً، تجددت النزاعات وكنتُ نشطاً أكثر من أي وقت مضى في المعارضة لأنني أولاً أنا هو كاتب طلب كي نكون على تواصل مع التعليمات ومن ثم التعليق عليها والتي قد توجد في تصويتات ذلك الوقت وفي (المجلة التاريخية) التي قمتُ بنشرها بعد ذلك. لكن لم تنشأ بيننا ضغائن شخصية فقد كنا دوماً مجتمعين. كان رجل خطابات وقد رأى كثيراً من الحياة وكان مسليّاً جداً ويبعث على السرور أثناء المحادثة. منحني أول معلومة وهي أن صديقي القديم (جاس رالف) كان حيّاً، وأنه يُعتبر واحد من أفضل الكتاب السياسيين في (إنكلترا)، وأنه تم توظيفه في النزاع بين الأمير (فريدريك) والملك، وأنه قد حظي براتب تقاعدي، ثلاثمائة سنوياً، وأن سمعته كشاعر في الحقيقة ضئيلة، وكان (بوب) قد أدان شعره في (الدونسياد)[1] لكن يعتقد أن نثره كان جيداً كنثر أي إنسان آخر.

---

(1) الدونسياد: ملحمة شعرية بطولية من تأليف الشاعر ألكسندر بوب. (المترجمة)

وجدت الجمعية[1] أخيراً أن حكّام المقاطعات مصرّون بعناد على تقييد نوابهم بتعليمات لا تتعارض فقط مع امتيازات الشعب وإنما مع مصلحة الحكم الملكي. فعزمتُ على تقديم عريضة للملك ضدهم وقامت بتعييني كنائب عنهم للذهاب إلى (إنكلترا) كي أقوم بتقديم ودعم العريضة. أرسل المجلس النيابي قانوناً إلى المحافظ بمنح مبلغ ستين ألف باوند تحت تصرف الملك (عشرة آلاف منها خاضعة لأوامر القائد لورد لودون آنذاك) والذي رفض المحافظ إقراره بشكل مطلق تماشياً مع تعليماته.

كنت قد اتفقت مع القبطان (موريس) على قارب ذاهب إلى (نيويورك) لغرض سفري. ووضعت مؤني على متن القارب، عندما وصل (لورد لودون) إلى (فيلادلفيا) ـ بصراحة كما قال لي ـ ساعياً إلى تسوية الخلافات بين المحافظ والجمعية، وأن مصلحة جلالته لن يتم عرقلتها بسبب خلافاتهما. وعلى ذلك رغب من المحافظ ومني أن نقابله.وأنه قد يسمع ما كان يقال من الطرفين. فاجتمعنا وقمنا بمناقشة القضية. جادلتُ نيابة عن الجمعية ـ جميع الحجج المختلفة التي يمكن إيجادها في التقارير العامة في ذلك الوقت والتي كانت من كتابتي، وقد تم طبعها من المحاضر الرسمية للجمعية. وبرّر المحافظ تعليماته والوثيقة التي تم منحها له كي يراقبهم، ودماره إذا لم يقم بالتنفيذ. مع ذلك بدا غير راغب بأن يخاطر بنفسه إذا كان (اللورد لودون) سيقوم بتقديم المشورة له. لم يرغب سيادته بعمل شيء على الرغم من أنني اعتقدتُ لوهلة بأنني كنت قريباً من إقناعه بعمل شيء. لكن في النهاية

(1)قرارات الجمعية العديدة بالإجماع ـ بأي تاريخ؟ ـ [ ملاحظة هامشية]

اختار بدلاً من ذلك الحث على الامتثال للجمعية وتوسل إلي كي يعتمد على مساعيي معهم لأجل هذا الهدف، معلناً أنه ما كان سيبخل بقوات الملك من أجل الدفاع عن حدودنا، وأنه إذا لم نستمر بالذود عن هذا الدفاع بأنفسنا فستبقى مستهدفة للعدو.

اعلمتُ المجلس النيابي بما سبق، عارضاً عليهم مجموعة من قرارات قمتُ بصياغتها مؤكداً فيها حقوقنا وأنه لن نتنازل عن مطلبنا لهذه الحقوق وإنما فقط أرجأنا ممارستنا لها في هذه الحالة من خلال القوة التي احتججنا ضدها. في النهاية وافقوا على إسقاط ذلك القانون وشكلوا قانونا آخر مطابقا لتعليمات حكّام المقاطعات وذلك طبعا قد أقرّه المحافظ وعندها أصبح لي الحق بأن أمضي قدماً برحلتي. لكن في تلك الأثناء كان القارب قد أبحر بمؤني البحرية والذي كان خسارة لي بعض الشيء، وعوضي الوحيد كان تشكرات سيادته لخدماتي، فكل فضل الحصول على التسويات يعود إلى مساهمته. كان قد ارتحل إلى (نيويورك) قبلي، ولأن وقت إرسال القوارب كان عند رغبته، ولأنه كان هناك آنذاك اثنان باقيان، أحدهما ـ كما قيل ـ كان يجب أن يبحر قريباً جداً، طلبت معرفة الوقت بالتحديد كي لا أفوته بسبب أي تأخير من قبلي. كان جوابه: «كنت قد أعلنت بأنه يجب أن يبحر يوم السبت القادم لكن بإمكاني إعلامك ـ فيما بيننا ـ بأنه إذا كنت هناك يوم الاثنين صباحا فستكون قد وصلت في الوقت المحدد. لكن لا تتأخر أكثر».

بسبب بعض العوائق العرضية عند معبرٍ ما، كان مساء الاثنين قبل أن أصل، وكنت خائفاً كثيراً من أن يكون قد أبحر لأن الرياح كانت

رائقة لكنني هدأت من روعي حالاً بإخباري بأنه كان لا يزال في الميناء ولن يتحرك حتى اليوم التالي. قد يتخيل أحد بأنني أغادر إلى (أوروبا) لنفس الغرض. اعتقدت ذلك لكن، في وقتها لم أكن أعرف شخصية سيادته بشكل جيد والتي كان التردد إحدى أقوى سماتها. سأعطي بعض الأمثلة:

كان الوقت بداية نيسان تقريباً عندما أتيتُ إلى (نيويورك)، وأعتقد بأنه كانت نهاية حزيران تقريباً قبل أن نبحر. كان هناك وقتها قاربان واللذان كانا موجودين لمدة طويلة في الميناء لكن كانا محجوزين من أجل رسائل القائد والتي يجب أن تكون جاهزة ـ دائماً ـ يوم غد. وصل قارب آخر، هو الآخر كان محجوزاً. وقبل أن نبحر كان يتم انتظار قارب رابع. كان قاربنا الأول هو الذي يجب أن يتم إرساله لأنه كان هناك أطول مدة. اندفع المسافرون كلهم، والبعض غير صبور إلى أبعد الحدود كي ينطلق، والتجار قلقون حول رسائلهم والأوامر التي تم منحها لهم مقابل التأمين (كان الوقت وقت حرب) للبضائع المنخفضة السعر. لكن قلقهم لم ينفعهم شيئاً، فرسائل سيادته لم تكن جاهزة. ومع ذلك أياً كان من يزوره يجده دائماً على مكتبه وقلمه في يده، يستنتج بأنه لا بد وأنه يكتب كثيراً.

في أحد الأيام عندما كنتُ ذاهباً بنفسي لأقدم احتراماتي، وجدتُ في حجرة الانتظار الخاصة به مبعوث (فيلادلفيا) الذي أتى من ذلك المكان (تم إرساله بسرعة بقارب من المحافظ ديني للقائد). سلّم لي بعض الرسائل من أصدقائي هناك والتي استتبعت استعلامي منه متى كان سيعود، وأين يسكن، لأنني قد أقوم بإرسال بعض الرسائل عن طريقه. أخبرني

بأنه أُمِرَ بأن يرسل في طلب إجابة القائد غداً في التاسعة للمحافظ وأن انطلق فوراً. فوضعتُ رسائلي بين يديه في نفس اليوم. التقيتُ به ثانيةً بعد أسبوعين في نفس المكان فقلت: «إذن، عدتَ بسرعة أيها المبعوث؟»ـ «عدتُ!. كلا، فأنا لم أذهب بعد»

ـ «كيف ذلك؟» ـ «كان يتم استدعائي إلى هنا كل صباح بالأمر في هذين الأسبوعين الماضيين من أجل رسالة سيادته وأنها غير جاهزة لحد الآن» ـ «هل هذا ممكن وهو كاتب عظيم جداً؟. لأنني باستمرار آراه على مكتبه» ـ «نعم، لكنه يشبه القديس جورج من ناحية التواقيع، دائماً على ظهر الخيل ولم يتجول به أبداً».

كانت ملاحظة المبعوث هذه على ما يبدو ـ على أساس من الصحة، لأنني عندما كنت في إنكلترا فهمتُ أن السيد (بيت) أعطاه سبب واحد لإزاحة هذا القائد وإرسال القواد (أمهيرست) و (وولفه) لأن الوزير لم يسمع منه أبداً ولم يكن بإمكانه أن يعلم ماذا كان يفعل.

إن هذا الترقب اليومي للإبحار وكل القوارب الثلاثة ذاهبة إلى (ساندهوك) كي تلتحق بالأسطول هناك، ظن المسافرون أنه من الأفضل البقاء على متن القارب خشية أن تبحر السفن بأمر مفاجئ ويتم تركهم.

هناك ـ إذا أذكر بشكل صحيح ـ بقينا ستة أسابيع نستهلك مؤننا البحرية وأجبرنا على جلب غيرها. في النهاية أبحر الأسطول والقائد وكل جيشه على متنه قاصدين (لويس بيرج) بنيّة محاصرتها والاستيلاء على تلك القلعة. تم أمر جميع القوارب في المجموعة باللحاق بسفينة الجنرال

ومستعدة لاستلام رسائله عندما تكون جاهزة. كنا في حالة من اللاوعي خمسة أيام قبل أن نستلم رسالة وإذن بالرحيل. ومن ثم تركتْ سفينتنا الأسطول واقتيدت إلى (إنكلترا). وحمل القاربين الآخرين اللذين كان لا يزال يحجزهما معه إلى (هاليفاكس) حيث بقي لبعض الوقت كي يمرن الرجال على هجمات تمثيلية على حصون زائفة، ثم غيّر رأيه ليحاصر (لويس بيرج) وعاد إلى (نيويورك) بكل قواته في نفس الوقت بالقاربين المذكورين أعلاه وبكل مسافريه!.

استولى الفرنسيون والمتوحشون أثناء غيابه على (فورت جورج) على حدود تلك المقاطعة، وذبح المتوحشون العديد من القوات الحامية بعد الاستسلام. رأيتُ بعد ذلك قبطان (بونيل) في (لندن) الذي قاد أحد تلك القوارب. أخبرني أنه بعد أن تم حجزه شهراً، أعلم سيادته بأن سفينته تتعفن لدرجة أنه من الضروري يجب أن نكبحها من الإبحار السريع، وهي مسألة ذات أهمية بالنسبة للقوارب وطلبتُ تخصيص وقت لإنزاله وتنظيف قعره. فسئل كم من الوقت يتطلب ذلك. فأجاب ثلاثة أيام. أجاب القائد: «إذا كان بإمكانك إتمامه في يوم واحد أسمح لك وإلا فلا، لأنه عليك أن تبحر بدون نقاش بعد يوم غد». لذا لم يحصل أبداً على إذن رغم أنه قد تم حجزه بعد ذلك من يوم إلى آخر خلال ثلاثة أشهر كاملة. رأيتُ أيضاً في (لندن) أحد مسافري (بونيل) والذي كان غاضباً جداً من سيادته لخداعه وحجزه طويلاً جداً في (نيويورك) ومن ثم يحمله إلى (هاليفاكس) ويعود به ثانيةً، وأنه أقسم بأنه سيقاضيه مقابل الأضرار. لم أسمع أبداً فيما إذا كان قد فعل ذلك أم لا لكنه كما شرح الضرر في شؤونه، فقد كان كبيراً جداً. على العموم، تساءلتُ كثيراً كيف

لرجل كهذا أن يتم الاعتماد عليه بعمل مهم كهذا كقيادة جيش عظيم. لكن بعد أن رأيت الكثير من هذا العالم الكبير ووسائل الحصول على، ودوافع تسليم المناصب، اختفى عجبي.

كان القائد (شيرلي) الذي آلت إليه قيادة الجيش عند موت (برادوك) ـ برأيي ـ لو استمر في منصبه لكان قد حقق حملة أفضل كثيراً من حملة (لودون) في 1757 والتي كانت طائشة ومكلفة ومخزية لأمتنا فوق التصور لأن على الرغم من أن (شيرلي) لم ينشأ كجندي إلا أنه كان عاقلاً وفطناً بطبعه ومهتم بالنصيحة الجيدة من الآخرين ومتمكناً من إنشاء خطط حكيمة وسريع وفعال في حملها على التنفيذ. أما (لودون) فبدلاً من الدفاع عن المستعمرات بجيشه الكبير تركهم معرضين للخطر تماماً بينما هو يتنزه بكسلٍ في (هاليفاكس) في الوقت الذي فُقِدَتْ فيه (فورت جورج)، إضافة إلى ذلك فقد تسبب باضطراب كل عملياتنا التجارية وأقلق تجارتنا بحصار طويل على تصدير المؤن تحت ذريعة الحفاظ على المؤن من أن يتم الاستيلاء عليها من قبل العدو، إنما في الحقيقة من أجل المساومة على سعرها لصالح المتعهدين الذي له حصة في أرباحهم كما قيل ـ ربما بحكم الشبهة فقط ـ . وعندما انتهى الحصار في النهاية بسبب تجاهل إرسال إبلاغ بشأنه إلى (تشارلزتاون) كان أسطول (كارولينا) محجوزاً لما يقارب أكثر من ثلاثة أشهر، في الوقت الذي كانت أعماقه متضررة كثيراً جداً بسبب التآكل بحيث غرق جزء كبير منها أثناء عودتهم للوطن.

أعتقد بأن (شيرلي) كان مسروراً بصدق من كونه قد تم إعفاؤه من مسؤولية متعبة جداً كقيادة جيش لأن قيادة جيش يجب أن تكون لرجل

غير ملم بالأمور العسكرية. كنتُ في الاحتفال الذي أقيم من قبل مدينة (نيويورك) للورد (لودون) بمناسبة توليه القيادة. كان (شيرلي) ـ رغم أنه بهذه الطريقة قد تمت تنحيته ـ موجود أيضاً.

كان هناك مجموعة كبيرة من الضباط والمواطنين والغرباء، وتم استعارة بعض الكراسي في الحي. كان هناك واحد من بينهم واطئاً جداً والذي أصبح من نصيب السيد (شيرلي). لاحظتُهُ لأنني جلستُ إلى جواره، فقلت: «لقد أعطوك، سيدي، مقعداً واطئاً جداً». فقال: «لا يهم، يا سيد فرانكلين، فإنني أجد المركز الواطئ هو الأكثر راحة».

بينما كنتُ محتجزاً في (نيويورك) ـ كما ذكرت سالفاً ـ تسلمتُ كل أرباح المؤن، إلخ.. التي قمت بتزويد (برادوك) بها. بعض هذه الأرباح لم أتمكن من الحصول عليه فوراً من الأشخاص المختلفين الذين وظفتُهم كي يساعدونني في العمل. قمت بتقديمها إلى القائد (لودون) راغباً بأن يتم دفع الحساب لي. فوجّه بأنه يجب أن يتم التأكد منها بشكل نظامي من قبل الموظف القانوني الذي شهد عليها أنها صحيحة بعد أن قام بمقارنة كل بند مع المستند الخاص به، والرصيد المستحق الذي وعد سيادته بأن يمنحني به أمراً إلى أمين الصندوق. كان يتم تأجيل ذلك من وقت لآخر. ورغم أنه يتم استدعائي من أجل ذلك دائماً بموعد إلا أنني لم أحصل عليه. في النهاية، قبل مغادرتي مباشرةً، أخبرني بأنه قرر بعد تفكير متمعن بأن لا يخلط حساباته مع حسابات من سلفه في المنصب، وقال: «وما عليك أنت عندما تكون في إنكلترا سوى أن تظهر حسابك عند الخزينة وسوف يتم الدفع لك في الحال». فذكرتُ (لكن بدون نتيجة) النفقات الكبيرة

والغير متوقعة التي تعرضتُ لها بكوني محتجزاً ولمدة طويلة جداً في (نيويورك) كسبب لرغبتي بأن يتم الدفع لي في الحال وبتنبيهي إلى أنه ليس من العدل بأن أتعرض لأية مشاكل أخرى أو تأخير بالحصول على المال الذي قمتُ بتقديمه لهم لأنني لا أتقاضى أية عمولة مقابل خدمتي، فقال: «أوه يا سيدي، لا تعتقد بأنه بإمكانك أن تقنعنا بأنك لست متكسباً، فنحن نفهم أكثر هذه القضايا ونعلم أنه أي واحد معني بتجهيز الجيش يجد طرقاً لملِء جيوبه بفعل ذلك». فأكّدتُ له بأن ذلك لم يكن مطلبي وأنه لم أربح فلساً. لكنه بدا واضحاً بأنه لم يصدقني، وفي الحقيقة، تعلمتُ منذ ذلك بأن الثروات الضخمة تُصنَع دائماً بهكذا أشغال. أما بالنسبة لحسابي فلم يتم دفعه لي إلى هذا اليوم.

تباهى قبطان مركبنا كثيراً قبل أن نبحر ـ بسرعة مركبه. لكن لسوء الحظ عندما أصبحنا في البحر أثبت أنه أثقل إبحار من الستة وتسعين إبحاراً، مما سبب له خجلاً كبيراً. بعد عدة تخمينات فيما يتعلق بالسبب، وعندما أصبحنا بالقرب من سفينة أخرى ثقيلة كسفينتنا تقريباً والتي رغم ذلك غلبتْنا، أمر القبطان كل العمال كي يأتوا إلى مؤخرة المركب ويقفوا بالقرب من حامل الراية ما أمكنهم. كنا ـ مع المسافرين ـ حوالي أربعين شخصاً. حسّنت السفينة من سرعتها عندما وقفنا هناك، وسرعان ما تركت مجاورتها خلفها بعيداً. وبذلك أثبتت السفينة بوضوح ما شك فيه قبطاننا من أنها محملة كثيراً جداً حتى قمتها. على ما يبدو تم وضع براميل الماء كلها في الأمام لذلك أمر بنقلها خلف المركب وبذلك استعادت السفينة سمعتها وعزّزت المركب الشراعي في الأسطول. قال

القبطان انطلقتْ مرة بمعدل ثلاث عشرة عقدة وهو ما يعادل ثلاثة عشر ميلاً في الساعة. لدينا على متن القارب ـ كمسافر ـ القبطان (كينيدي) من البحرية الذي أكّد بأن ذلك مستحيل وأنه لا توجد سفينة أبداً قد أبحرت بهذه السرعة وأنه لا بد أن هناك خطأً ما في تقسيم خط قياس سرعة السفينة أو خطأً ما في ارتفاع مقياس السرعة. تبع ذلك رهان بين القبطانين كي يتم الحكم عندما تكون هناك رياح كافية. عند ذلك تفحّص (كينيدي) بدقة خط قياس سرعة السفينة. ولكي يكون مقتنعاً بذلك قرر أن يرمي مقياس السرعة بنفسه. وبعد عدة أيام على ذلك عندما هبّت الرياح بشكل رائق جداً ومنعش، وقال قبطان المركب (لودفيغ) بأنه مقتنع بأنها تسير وقتها بمعدل ثلاث عشرة عقدة، قام (كينيدي) بالتجربة واعترف بأنه خسر الرهان.

إن الحقيقة التي أعطيتها أعلاه من أجل الملاحظة التالية: تم التعليق إلى أنه لا يمكن أبداً معرفة فيما إذا ستكون السفينة الجديدة مركبة شراعية جيدة أم لا حتى يتم تجربتها بسبب عيب في فن بناء السفن لأن نموذج السفينة الجيدة الإبحار تم اتباعه بالضبط في بناء سفينة جديدة والتي أثبتت ـ على العكس ـ أنها ثقيلة بوضوح. ففهمتُ بأن يكون سبب ذلك جزئياً الآراء المختلفة للبحارين فيما يخص تحميل وإصلاح وقيادة سفينة. فكل واحد منهم له طريقته ويمكن لنفس المركب الشراعي الذي يتم تحميله بقرار وأوامر أحد القباطنة من أن يبحر بشكل أفضل أو أسوأ بأوامر قبطان آخر. إضافة إلى ذلك نادراً ما يحدث من أن يتم بناء سفينة مناسبة للبحر ويتم قيادتها من قبل نفس الشخص. فواحد يبني الهيكل والآخر يجهزها وثالث يقوم بتحميلها وقيادتها. لا يملك أي واحد

من هؤلاء ميزة معرفة كل آراء وخبرات الآخر لذا لا يستطيعون رسم قرارات صائبة من دمج الكل. حتى في عملية القيادة البسيطة في البحر فقد لاحظتُ دائماً أحكاماً مختلفة في الضباط الذين أمروا المراقبين المتتابعين والرياح نفسها. فواحد كان سيقطع الأشرعة بشكل أكثر حدة أو أكثر تسطيحاً من الآخر، لذا يبدو كأنه ليس لديهم قاعدة محددة يحتكمون إليها. مع ذلك أعتقد بأن مجموعة من التجارب ممكن أن يتم تأسيسها أولاً لتحديد أفضل شكل للهيكل من أجل الإبحار السريع، بعد ذلك أفضل الأبعاد وأصح مكان للصواري، ثم شكل وعدد الأشرعة وموقعها كما تكون الرياح، وأخيراً ترتيب الحمولة. إن هذا هو عصر التجارب وأنا أعتقد بأن مجموعة يتم إنجازها بدقة ويتم جمعها ستكون ذات فائدة عظيمة. لذا أنا مقتنع بأنه عما قريب سيأخذ فيلسوفٌ ما من النجباء ذلك على عاتقه والذي أتمنى النجاح له.

كنا قد تم ملاحقتنا عدة مرات أثناء سفرنا، لكن أبحرنا أفضل من أي شيء، وخلال ثلاثين يوماً كان لدينا استطلاع للآراء. شكّلنا مراقبة جيدة وكان رأي القبطان بأننا على مقربة من مينائنا (فولماوث) بحيث لو كنا أسرعنا في سيرنا أثناء الليل لكنا أصبحنا بعيدين عن منفذ الميناء في الصباح. وبالسير أثناء الليل نُفلت من انتباه سفن القراصنة الأعداء الذين عادة ما يجوبون قرب مدخل القناة. وعلى ذلك كل الأشرعة كانت جاهزة وكانت الرياح منعشة جداً ورائقة فذهبنا مباشرة وسلكنا ممراً ضخماً. قام القبطان بتغيير طريقه بعد مراقبته كي نمر بجزر (صقلية) برحابة كما ظن. لكن يبدو أن هناك أحياناً تياراً داخلياً قوياً يتشكل أعلى قنال (سانت جورج) والذي يخدع البحارة وسبَّب فقدان أسطول السيد

(كلاودسلي شوفلز). إن هذا التيار الداخلي كان على الأرجح هو السبب في ما حصل لنا.

كان لدينا مراقب متواجد في مقدمة السفينة والذي نطلب إليه دائماً: «انظر جيداً، أمام هناك». ويجيب دائما: «نعم، نعم».غير أنه ربما تكون عيناه مغلقتين ونصف نائم في ذلك الوقت. فهم أحياناً يجيبون ـ كما يقال ـ بشكل آلي. لأنه لا يرى ضوءاً أمامنا مباشرة والذي قد يكون مختفياً ـ بفعل الأشرعة الإضافية ـ عن الرجل الذي عند الدفة وعن بقية المراقبين. لكن باكتشاف انحراف عرضي للسفينة ـ يسبب إنذاراً كبيراً عندما نكون قريبين جداً منه ـ يبدو الضوء لي كبيراً كعجلة عربة. كان الوقت منتصف الليل واستغرق قبطاننا في النوم بسرعة، لكن القبطان (كينيدي) الذي كان يقفز على ظهر المركب وهو يرى الخطر أمر السفينة بأن تغير من اتجاهها وأن تقام الأشرعة كلها، عملية خطرة على الصواري لكنها خلصتنا ونجّتنا من تحطم السفينة لأننا كنا نسير مباشرة نحو الصخور التي تنتصب عليها المنارة. إن هذا الخلاص أثار في الإعجاب الشديد بفائدة المنارات وجعلني أقرر تشجيع بناء الكثير منها في (أميركا) إذا عشت لأعود هناك.

عند الصباح، وُجد من خلال النقاشات، إلخ.. بأننا كنا على مقربة من مينائنا لكن ضباباً كثيفاً أخفى اليابسة عن نظرنا. بدأ الضباب حوالي الساعة التاسعة ينقشع ويظهر كأنه قد تم رفعه من على الماء كالستارة في مسرحية كاشفاً تحته مدينة (فولماوث) والقوارب التي في مينائه والحقول المحيطة به. كان هذا أكثر المناظر التي تبعث على السرور لأولئك الذين كانوا بدون

أية مشاهد لمدة طويلة سوى المنظر المنتظم لمحيط خالي، ومنحتنا سروراً أكثر لأننا الآن أحرار من القلق الذي سببته حالة الحرب.

انطلقتُ فوراً مع ابني نحو (لندن)، وتوقفنا قليلاً فقط على الطريق لنرى (الستونهينج) على سهول (سالزبري)، وبيت حدائق اللورد (بيمبروك) مع مقتنياته الأثرية المثيرة للاهتمام كثيراً في (ويلتون). وصلنا (لندن) في 27 من تموز عام 1757. حالما استقريتُ في سكن أمّنه لي السيد (شارلز) ذهبتُ لزيارة (د.فوذرغيل) والذي تمت تزكيتي له بشدّة والذي تم نصحي للحصول على مشورته فيما يخص إجراءات وقائع الجلسة. كان ضد الشكوى المباشرة للمحافظة واعتقدَ بأنه يجب أولاً أن تتم مخاطبة حكّام المقاطعات بشكل شخصي والذين قد يكون بالإمكان استمالتهم بتوسيط وإقناع بعض الأصدقاء الشخصيين لتسوية الأمور بشكل سلمي. عندها انتظرتُ صديقي القديم والمراسل السيد (بيتر كولنسون) الذي أخبرني بأن (جون هانبري)، تاجر (فرجينيا) الكبير، طلب بأن يتم تبليغه بوصولي، وأنه قد يأخذني إلى لورد (غرانفيل) الذي كان وقتها رئيس المجلس ورغب برؤيتي بأسرع ما يمكن. فوافقتُ على الذهاب معه في اليوم التالي. ومن ثم دعاني السيد (هانبري) وأخذني بعربته إلى ذلك الرجل النبيل، الذي استقبلني بتهذيب كبير، وبعد عدة أسئلة فيما يخص الوضع الحالي للقضايا في (أميركا) والحديث في هذا الشأن قال لي: «أنتم الأميركيون تمتلكون أفكاراً خاطئة عن طبيعة دستوركم، فأنتم تدّعون بأن تعليمات الملك لمحافظيه ليست قوانين، وتظنون أنفسكم أحراراً باحترامها أو عدم احترامها على

هواكم الشخصي. لكن هذه التعليمات ليست كتعليمات الجيب تُعطى لقس مسافر إلى الخارج لتنظيم أدائه في موضوع تافه لمراسيم ما. فهي أولاً صيغت من قبل قضاة مطلعين على القانون، ثم هي تُعتبر محسومة وربما مُعَدَّلة في المجلس ومن بعدها تم توقيعها من قبل الملك. ومن ثم إلى هذا الحد يتم تبليغها لكم (كقوانين الأرض) لأن الملك هو مشرّع قوانين المستعمرات». فأخبرتُ سيادته بأن هذا كان مبدأ جديداً بالنسبة لي. فإنني طالما فهمتُ من رموزنا بأن قوانيننا يجب أن توضع من قبل جمعياتنا كي يتم تقديمها في الحقيقة إلى الملك لأجل موافقته الملكية. لكن حالما يتم منح هذه، لا يستطيع الملك أن يرفضها أو يغيّرها. ولأن الجمعيات لا تتمكن من عمل قوانين دائمة بدون موافقته الملكية كذلك ولا هو بإمكانه صناعة قانون لهم بدون موافقتهم. أكّد لي بأنني مخطئ تماماً. رغم ذلك لم أكن أعتقد ذلك. وقد أقلقتني محادثة سيادته قليلاً إلى مثلاً: ماذا قد تكون وجهة نظر المحكمة بشأننا، فقمتُ بكتابتها حالما رجعتُ الى مسكني. تذكرتُ قبل عشرين عاماً مضت أنه تم إحضار بند من قانون إلى البرلمان من قبل مبعوث يقضي بجعل تعليمات الملك قوانين في المستعمرات، لكن البند قد تم رميه من قبل مجلس العموم، ولأجل هذا عشقناهم كأصدقائنا وأصدقاء الحرية حتى عام 1765، فمن خلال سلوكهم تجاهنا ظهر بأنهم قد رفضوا مسألة السيادة للملك تلك فقط بإمكانهم أن يحتفظوا بها لأنفسهم. بعد بضعة أيام بعد أن تحدّث (د.فوذرغيل) إلى حكّام المقاطعات وافقوا على الاجتماع معي في بيت السيد (ت. بين) في (سبرنغ غاردن). تضمن الحديث

في البداية تصريحات متبادلة للوصول الى تسويات معقولة، لكنني أعتقد بأن كل حزب له أفكاره الخاصة بما يجب أن تعنيه كلمة (معقولة). بعد ذلك تطرّقنا الى استعراض نقاطنا العديدة فيما يخص الشكوى والتي قمتُ بتعديدها. قام حكّام المقاطعات بتبرير تصرفهم أفضل ما باستطاعتهم وأنا قمتُ بتبرير تصرف الجمعية. ظهر الآن بأننا بعيدون جداً عن بعضنا في آرائنا وكأنما نثبط كل أمل بالاتفاق. رغم ذلك، تم التوصل إلى أنه عليّ أن أقدم لهم شكوانا كرؤوس أقلام كتابةً، ووعدوا آنذاك بالتفكير بها. فعلتُ هذا مباشرة بعد ذلك، لكنهم وضعوا الورقة في يد محاميهم (فرديناند جون باريس) الذي تولى نيابة عنهم جميعهم قضيتهم القانونية في مقاضاتهم الكبيرة مع حاكم مقاطعة ماريلاند (لورد بالتيمور) والتي استمرت سبعين عاماً، وكتب نيابة عنهم جميعهم تقاريرهم ورسائلهم في نزاعهم مع الجمعية. كان رجلاً مزهواً بنفسه، غضوباً، وكلما كنت أحياناً أتعامل ببعض الشدة مع تقاريره في إجابات الجمعية يكون ضعيفاً حقاً من ناحية الجدال، ومتغطرس في التعبير، كان قد تخيل عداوة دائمة تجاهي والتي تكشف نفسها كلما اجتمعنا. رفضتُ مقترح حكّام المقاطعات، وبأنه يجب عليه وعليّ أن نناقش مواضيع الشكوى بيننا نحن الاثنين، ورفضتُ التعامل مع أي واحد منهم. عندها وضعوا التقارير بناءً على نصيحته بين يدي المحامي وكاتب العدل العمومي من أجل رأيهم ومشورتهم بخصوصها حيث بقيتْ من دون رد سنة ناقص ثمانية أيام والتي طالبتُ خلالها وبشكل متكرر بإجابة من حكّام المقاطعات لكن من دون الحصول على أية إجابة سوى أنهم

لم يتسلموا رأي المحامي وكاتب العدل العمومي. ماذا كانت الإجابة عندما تسلموها، لم أعلم أبداً لأنهم لم يوصلوها إليّ وإنما أرسلوا رسالة طويلة إلى الجمعية تم صياغتها وتوقيعها من قبل (باريس)، تروي تقريري متذمرة من حاجته للشكليات، كفظاظة من جانبي، معطية مبررات واهية لتصرفهم مضيفين بأنهم يجب أن يكونوا راغبين بتسوية الأمور إذا كانت الجمعية سترسل شخصاً ذا إخلاص كي يتعامل معهم من أجل هذا الهدف، ملمحين بهذه الطريقة إلى أنني لم أكن كذلك. إن الحاجة للشكليات أو الفظاظة كانت على الأرجح كوني لم أعنون التقرير لهم بلقبهم المتصنع «حكّام مقاطعة بنسلفانيا الحقيقيين والمطلقين» والذي اسقطتُهُ لاعتقادي بأنه غير ضروري في كتابة تقرير، كانت النية من ذلك فقط اختصار ما أُلقيه في الحديث مشافهةً من أجل السياق عند الكتابة. لكن أثناء هذا التأخير، بعد أن أقنعت الجمعيةُ المحافظَ (ديني) للتوقيع على قانون فرض ضريبة على أملاك حكّام المقاطعات على غرار أملاك الشعب والذي كان النقطة الحاسمة في الجدال، رفضوا الرد على الرسالة. عندما وصل هذا القانون، عزموا (بإيعاز من باريس) على معارضة حصوله على الموافقة الملكية. وعلى ذلك قدموا عريضة للملك في المجلس النيابي، وتم تحديد موعد جلسة استماع، وفيها تم توظيف محامين من قبلهم ضد القانون، واثنان من قبلي لتأييده. زعموا أن القانون كان القصد منه إرهاق أملاك حكّام المقاطعات للاقتصاد في أملاك الشعب وأنه إذا تمت المكابدة على استمراره بالقوة، وإذا تم ترك حكّام المقاطعات الذين على بغض من الشعب، لرحمتهم

بتقسيم الضرائب، فسيتم تحطيمهم بشكل حتمي. فأجبنا بأن القانون لا يملك قصد كهذا ولن يكون له تأثير كهذا، وإن مخمني الضرائب أناس صادقين وعقلاء تحت يمين الجباية بشكل عادل ومنصف. وأية فائدة قد يتوقعها كل واحد منهم بتقليل ضريبته الشخصية بتعزيز ضريبة حكّام المقاطعات ستكون تافهة جداً من أن تشجعهم على الحنث باليمين. هذا مضمون ما أتذكره كما تمت المطالبة به من كلا الطرفين، ما عدا إصرارنا بشدة على التبعات المؤذية التي لا بد وأن تصاحب الإلغاء، لأن مبلغ المائة ألف باوند عندما تم طبعها ومنحها تحت تصرف الملك قد تم إنفاقها في خدمته. والآن تم الإذاعة بين الناس بأن الإلغاء سيتسبب بكساد المال بين أيديهم مما يؤدي إلى انهيار العديدين. إن التثبيط العام للمنح المالية في المستقبل وأنانية حكّام المقاطعات بالحث على كارثة عامة كهذه لمجرد خوف لا أساس له من أن يتم فرض ضريبة عالية جداً على أملاكهم، قد تم الإصرار عليه بأقوى التعابير. وعلى هذا، نهض لورد (مانسفيلد) ـ أحد المستشارين ـ وهو يشير إليّ، أخذني إلى غرفة كاتب المحكمة بينما كان المحاميان يترافعان وسألني فيما إذا كان حقاً من رأيي أنه لن يصيب أملاك حكّام المقاطعات أي ضرر بتنفيذ القانون. فقلت بالتأكيد. فقال: «إذن، لا تمانع بإبرام تعهد كي تؤكد على هذه النقطة». فأجبتُ: «لا مانع إطلاقاً». فاستدعى عندها (باريس). وبعد بعض الحديث تم قبول اقتراح سيادته من كلينا. تم صياغة تقرير بهذا الغرض من قبل كاتب المحكمة والذي قمتُ بتوقيعه مع السيد (تشارلز) الذي كان أيضاً مبعوث المقاطعة لشؤونهم المعهودة،

عندما عاد لورد (مانسفيلد) الى غرفة المشاورات حيث تم السماح للقانون أخيراً بالتنفيذ. تم تسوية بعض التغييرات رغم ذلك وتعهدنا أيضاً بأنه يجب تنفيذها بقانون لاحق، لكن الجمعية لم تكن تظن أنها ضرورية، لأن ضريبة سنة واحدة قد تم فرضها بالقانون قبل أن يصل أمر المجلس النيابي، قاموا بتعيين لجنة للتحقق من تقدم عمل الجباة ووضعوا في هذه اللجنة عدة أصدقاء معنيين من حكّام المقاطعات.

بعد تحقيق شامل قاموا بالتوقيع بالإجماع تقريراً بأنهم وجدوا أن الضريبة قد تم فرضها بعدالة تامة. نظرت الجمعية إلى كتابتي الجزء الأول من التعهد كخدمة أساسية للمقاطعة لأنها قامت بتأمين الاعتماد على النقود الورقية التي انتشرت في عموم البلاد. فمنحوني تشكراتهم بالشكل المناسب عندما عدتُّ. لكن حكّام المقاطعات كانوا غاضبين من المحافظ (ديني) لتنفيذه القانون، وطردوه مع التهديد بمقاضاته لاختراقه تعليمات كان قد قطع وعداً بمراعاتها. رغم أنه قد نفّذها بطلب من القائد ومن أجل خدمة جلالته، وأن لديه بعض المصالح القوية لدى البلاط، إلا أنه ازدرى التهديدات ولم يضعوها موضع التنفيذ.......

# ريتشارد المسكين

## أمثال مختارة

[ريتشارد المسكين) هو الاسم المألوف لـ (ريتشارد سوندرز)، المؤلف الخيالي لصحيفة (الألماناك) التي أصدرها (فرانكلين) وحررها من سنة 1733 وحتى سنة 1758].

[كان لعدد هذه السنة الأخيرة من (ريتشارد المسكين) مقدمة أطول من المعتاد والتي طُبعت بشكل منفصل وتم إعادة طباعتها منذ ذلك الوقت بإصدارات مختلفة بلغات عديدة بعنوان (الطريق إلى الثروة)، جمع فيها (فرانكلين) أغلب الأمثال الاقتصادية لخمسة وعشرين عاماً. لكن (ريتشارد المسكين) لأعداد (الألماناك) الأصلية (والتي هي الآن نادرة جداً) قد اهتم بمواضيع أخرى لا حصر لها كما سيظهر هنا. لم يتظاهر (فرانكلين) بأن جميع هذه الأمثال كانت جديدة عنده. فقد اخترع بعضها واستعار أخرى أكثر وحسّن غالبيتها بإيجاز ولذاعة].

- لا تذخر أبداً خمر الكاهن ولا حلوى الخبّاز.
- منزل بلا امرأة ونور، كجسد بلا روح.
- الملوك والدببة عادةً ما يُقلقون حرّاسها.
- أحمق من يجعل طبيبه وريثه.

ـ كُلْ لتعيش، ولا تعيش لتأكل.

ـ من ينام مع الكلاب سينهض بالبراغيث.

ـ من يشرب سريعاً، يدفع المال بهدوء.

ـ الناس كالبطيخ، من الصعب معرفتهم.

ـ لا يوجد هناك عدو صغير.

ـ قلب الأحمق في لسانه، لكن لسان الحكيم في قلبه.

ـ البراءة حجة نفسها.

ـ حيث يوجد زواج بلا حب، سيوجد حب بلا زواج.

ـ اعمل الخير لصديقك لتحتفظ به، ولعدوك كي تكسبه.

ـ طالما السحر هراء، فالهراء هو سحر.

ـ الغني لا يحتاج للعيش بزهد، ومن يمكنه العيش بزهد لا يحتاج أن يكون غنياً.

ـ بيضة اليوم أفضل من دجاجة غداً.

ـ من يمتلك الثروة فستمتلكه.

ـ ابنك يا ماري عند الرغبة، لكن ابنتكِ عند المقدرة.

ـ الجشع والسعادة لم يلتقيا أبداً، فكيف إذن يعرف بعضهما البعض؟

ـ لا تستحسن من يمدح كل ما تقول.

ـ انظر للأمام وإلا ستجد نفسك في الخلف.

ـ بيت صغير مكتظ جيداً، مزرعة صغيرة محروثة جيداً، وزوجة صغيرة قنوعة جيداً، هم ثروة كبيرة.

ـ عائلة الحمقى عتيقة.

ـ الحاجة، لا تجلب صفقة جيدة.

ـ الحزن يهلك الجسد، والسرور يهلك الفهم.

ـ جبن الملك يضيع بالتقشير، لكن لا يهم ما دام قد صُنع من حليب الشعب.

ـ قد يحفظ ثلاثةٌ سرّاً، إذا مات اثنان منهما.

ـ الفقر يحتاج بعض الأشياء، الغنى عدة أشياء، والجشع كل الأشياء.

ـ تقف الكذبة على ساق واحدة، والحقيقة على اثنتين.

ـ الكسل والصمت فضيلة الحمقى.

ـ الأفكار الكبيرة تقفز، يقول الشاعر، وترطم رأسه بالعمود.

ـ نكران الذات من أجل الذات.

ـ الشاب العجوز سيصبح عجوزاً متصابياً.

ـ ليس جلفاً من يقود المحراث، وإنما الذي يلوم أموراً جلفة.

ـ السمك والزوّار تنبعث رائحتهم في ثلاثة أيام.

ـ الثروة ليس هي ما تملكه، وإنما ما تتمتع به.

ـ اجعل خادمك أميناً، قوياً وبيتوتياً.

ـ المساومة ليس لها أصدقاء ولا أقرباء.

ـ السكارى العجائز أكثر من الأطباء العجائز.

ـ من يتخذ زوجة، فليتخذ حذره.

ـ من يمتلك الصبر بإمكانه أن يمتلك ما يريد.

ـ لماذا تزوّق زوجة الأعمى نفسها؟.

ـ لا أحد يعض أفضل من النملة، وهي لا تقول شيئاً.

ـ لا الغائب بلا خطيئة أبداً، ولا الحاضر بلا عذر.

ـ التفاحة الفاسدة تفسد رفيقاتها.

ـ الريفي بين المحامين كالسمكة بين قطتين.

ـ الحب والسيادة يكرهون الرفقاء.

ـ لا يوجد حب قبيح ولا سجون جميلة.

ـ أسوأ عجلة في العربة هي التي تسبب كل الضجّة.

ـ اكتب مع المثقف، وتحدث مع السوقي.

ـ هل تمتلك فضيلة؟ فاكتسب أيضاً نِعَم وجمال الفضيلة.

ـ إذا لم ترغب بأن تكون منسياً حالما تموت وتبلى، إما أن تكتب أشياء تستحق القراءة، أو تعمل أشياء تستحق الكتابة.

ـ أبقِ عينيك مفتوحتين قبل الزواج، ونصف مغمضتين بعده.

ـ الأقدمون يخبروننا بما هو أفضل، لكن علينا أن نتعلم من الجدد المناسب أكثر.

ـ لا تؤجل أفضل أعمالك، لا تكن كالقديس جورج، الذي كان دائماً على ظهر الحصان ولم يتجول به أبداً.

ـ كما يجب أن نحسب حساب كل كلمة تافهة، علينا أن نكون كذلك مع كل صمت تافه.

ـ الوقت عشبة تشفي كل الأمراض.

ـ كُلْ لتسعد نفسك، لكن ارتدِ لتسعد الآخرين.

ـ ابحَث عن الفضائل في الناس، والنقيصة في نفسك.

ـ من يحب نفسه لن يكون له منافسون.

ـ لا تتحدث بكل ما تعلمه، ولا بكل ما تدين به، ولا بكل ما تملكه ولا بكل ما تستطيعه.

ـ الخطيئة ليست ضارّة لأنها محرّمة، وإنما محرّمة لأنها ضارّة.

ـ ليس العمل مفيداً لأنه واجب، وإنما هو واجب لأنه مفيد.

ـ الجمال العظيم، والقوة العظيمة، والأموال العظيمة لا فائدة منها حقاً وصدقاً، فقلبٌ نقيّ يفوقها جميعاً.

ـ الأفضل أن تأكل الملح مع فلاسفة اليونان على أن تأكل السكر مع خدم إيطاليا.

ـ اخْشَ مِن أن تفعل الشر، ولن تخاف شيئاً.

ـ من يعمل دعابة، يصنع عدواً.

ـ تعلّم من الماهر، الذي يعمل نفسه أحمق من أجل رب العمل.

ـ إذا أردتَ أن تخفي سراً عن عدوك، فلا تخبره لصديق.

ـ من يزرع الشوك، لا يجب أن يمشي حافياً.

ـ إن أخطأتَ فإنك إنسان، وإن تبت فإنك قديس، وإن أصررت فأنت شيطان.

ـ العديد يشكو من ذاكرته، والقليل من قراره.

ـ قد يكون هناك رجل أكثر احتيالاً من رجل آخر، لكن ليس أكثر احتيالاً من أي أحد آخر.

ـ الأمهات النشيطات يصنعن بنات كسولات.

ـ حسن التمييز شيء نحتاجه جميعاً، القليل يمتلكه، ولا أحد يعتقد بأنه يريده.

ـ ما هو قويم فهو لائق، انظر للحدّاد بصدريته الحريرية البيضاء.

ـ لسعة العتاب هو حقيقته.

ـ أكثر الأفكار حماقة روعة صُنعت من حكمة نُسجت بدقة كبيرة.

ـ الملوك المجانين والثيران الهائجة لا يجب يُقَيَّدوا بمعاهدات وخيوط سميكة.

ـ جزء من حسن الضيافة يفتح بابه ويغلق حسابه.

ـ لسنا متعقلين جداً بشأن الصحة المثلى بقدر أقل الأمراض.

ـ ليس السخاء أن تمنح أكثر، وإنما أن تمنح بحكمة.

ـ من هو منيع، ليس آمناً.

ـ لم يتربَّ جيداً من لم يحتمل قلة التربية في الآخرين.

ـ نهاية الشغف هو بداية التوبة.

ـ العديد من الثعالب تكبر في السن، لكن القليل منها تصبح صالحة.

ـ أن تكون فقيراً ليس عيباً، لكن أن تكون خجلاً منه هو العيب.

ـ يضيّع الطموح غالباً بحماقة ما جمعه الجشع بوحشية.

ـ يبدأ الاحتيال من نقص القدرة.

ـ للصبية الكبار ألعابهم كما للصبية الصغار، الفرق فقط في السعر.

ـ يتمكن الشجعان والحكماء كلاهما من الشفقة والعفو عندما لا يُظهِر الجبناء والحمقى الرحمة.

ـ إن دفع الربا هو ضد مبادئ بعض الناس، ويبدو أن دفع رأس المال هو ضد مصالح أناس آخرين.

ـ تُرى اللوحات والمعارك بشكل أفضل إذا شوهدت من على بعد.

ـ أكثر الناس فهماً للعالم، أقلهم محبةً له.

ـ لا يوجد غضب بدون سبب أبداً، لكن نادراً ما يكون لسبب وجيه.

ـ زوجٌ من أذنين سليمتين، تُفرغ مائة لسان.

ـ يُتوقع أكثر في الهدايا أن تُدفَع لا أن تُهدى.

ـ يدعو الجرس الآخرين للكنيسة، لكنه هو نفسه لا يأبه للخطبة.

ـ قُصَّ جناح دجاجاتك وآمالك خوفاً من أن تقودك إلى رقصة غريبة وراءها.

ـ أحِبَّ جارك، لكن مع ذلك لا تُخفِض سياجك.

ـ عندما يستحكم الثراء ينفلت الزمام وسرعان ما نسقط من على السرج.

ـ إذا كنتَ ستُحَب، أحِبَّ وكن جديراً بالمحبة.

ـ لا توجد أبداً سِكّينة جيدة صُنعت من حديد رديء.

ـ يبدل الذئب معطفه مرة واحدة في السنة، لكن طبعه لا.

ـ أبواب الحكمة لا تُغلَق أبداً.

ـ كونك جاهلاً ليس عيباً كبيراً كعدم رغبتك بالتعلم.

ـ مائة لص لا يستطيعون تجريد رجل أعزل.

ـ من عدم الأخلاق أن تُسكِت أحمق، ومن البشاعة أن تجعله يستمر.

ـ لا تضمن العزلةُ دائماً الفضيلةَ، فالكثيرون كانوا أسوياء في المدينة، متوحشين في الجبال.

ـ تعامَل بشرف وانبذ النميمة، فالقذارة قد تلتصق بحائط من الطين لكن ليس بالرخام المصقول.

ـ نصف الحقيقة غالباً كذبة كبيرة.

## الطريق إلى الثروة

أيها القارئ المهذّب: سمعتُ بأن لا شيء يسعد الكاتب أكثر من أن يجد أعماله يتم تداولها باحترام من قبل كُتّاب مثقفين آخرين. إن هذه السعادة نادراً ما تمتعتُ بها. رغم أنني (إن كان بإمكاني قول ذلك بلا غرور) كاتب بارز لأعداد الألماناك سنوياً الآن ولمدة ربع قرن كامل، وإن أصدقاء أخي المؤلفين بنفس الطريقة لم يكونوا بخلاء في ثنائهم، لسبب لا أعلمه، إلا أنه لم يُبدِ أي كاتب أدنى انتباه لي. بحيث لم تجلب لي كتاباتي حتى بعض القدر من الحلوى. إن العوز الكبير للثناء كان سيحبطني تماماً.

فاستنتجتُ في النهاية أن الناس أفضل حاكم لجدارتي لأنهم يشترون أعمالي. وإضافةً لذلك، دائماً ما أسمع في نزهاتي، حيث أكون غير معروف شخصياً، أحد أقوالي المأثورة تُكرّر وفي نهايتها العبارة «كما يقول ريتشارد المسكين». إن هذا قد منحني بعض الرضا لأنه لم يُظهِر فقط أن تعليماتي كانت تؤخذ بعين الاعتبار وإنما اكتشفتُ أيضاً بعض الاحترام لأعمالي، أنا أعترف بذلك لكي أشجّع ممارسة التذكر وإعادة تلك الجمل التي اقتبستُها بنفسي في بعض الأحيان بإجلال كبير.

احكم إذن كم عليّ أن أكون ممتناً، من خلال حادثة سأرويها لكم. مؤخراً أوقفتُ حصاني حيث كان يتجمع عدد كبير من الناس عند مزاد علني لبضائع التجار. كانت ساعة البيع لم تحن بعد، وكانوا يتحدثون بشأن

سوء الضرائب. ونادى واحد من الجمع على رجل عجوز بسيط، نظيف، بخصلات شعر بيضاء: «صَلِّ أيها الأب أبراهام، ما رأيك بالضرائب؟ ألن تدمر هذه الضرائب الثقيلة البلاد تماماً؟ كيف ستتمكن من دفعها يوماً؟ ماذا ستنصحنا بأن نفعل؟». وقف الأب أبراهام وأجاب: «إذا أردت رأيي فسأقوله لك باختصار (كلمة واحدة للحكيم تكفي) و (كلمات عديدة لن تُزيد بوشل[1] كما قال ريتشارد المسكين». فتجمعوا كلهم راغبين منه أن يقول ما في نفسه، فاستمرّ وهو يتجمعون حوله:

[أصدقائي وجيراني، إن الضرائب فعلاً ثقيلة جداً، وإذا فُرضت من قبل الحكومة سيكون نحن فقط من عليه أن يدفع، قد نقوم بتسديدها بسهولة كبيرة، لكن لدينا أخرى غيرها، وثقيلة الوطأة على بعضنا. تُفرَض علينا ضريبة بمقدار مرتين بسبب البطالة، بمقدار ثلاث مرات بسبب بذخنا، وبمقدار أربع مرات بسبب أعمالنا الباهظة النفقات. ولا يستطيع الجباة السماح لنا بالتخفيض. رغم ذلك، فلنستمع إلى نصيحة جيدة عسى أن تفيدنا. «يساعد الله من يساعدون أنفسهم» كما قال ريتشارد المسكين في جريدته الألماناك لعام 1733].

سيُعتقد بأن الحكومة المتشددة التي في حالة فرضها ضرائب على شعبها عُشْر جزء من وقتهم، فستقوم بتوظيفها لمصلحتها، لكن ضرائب البطالة أكثر بكثير إذا افترضنا أن كل ذلك قد أُنفق على الكسل المطلق أو على عمل لا شيء، مع تلك التي أُنفقت في توظيف العاطلين أو اللهو الذي يوصِل إلى لا شيء.

---

(1) البُوشِل: مكيال إنكليزي للحبوب. (المترجمة)

إن الكسل يقصر العمر فعلاً بجلبه للأمراض، «فالكسل كالصدأ يبلى أسرع من حذاء العامل، بينما يظل المفتاح المستعمل لامعاً» كما قال ريتشارد المسكين، «لكن هل تحب الحياة؟ إذن لا تبدد الوقت، لأنه هو المادة الخام التي صُنعت منها الحياة» كما قال ريتشارد المسكين.

كم من الوقت نقضيه أكثر من اللازم في النوم؟ وناسين أن «الثعلب النائم لا يصطاد الدجاج»، وأنه «هناك نوم كفاية في القبر» كما قال ريتشارد المسكين. إذا كان الوقت أغلى من كل الأشياء «فلا بد أن تضييع الوقت»، كما قال ريتشارد المسكين، «أكبر تبذير». لأنه يقول لنا في موضع آخر «الوقت الضائع لن نجده ثانيةً أبداً»، وأن ما نسميه «بالوقت الكافي! يدل دائماً على القليل الكافي». إذن، لننهض ولنكن فعّالين ونحقق الهدف. وبالجد سننجز أكثر بأقل تشويش. «الكسل يجعل كل الأمور صعبة، لكن المثابرة تجعل كل شيء سهلاً» كما قال ريتشارد المسكين. و«من ينهض متأخراً عليه أن يركض طول اليوم وبالكاد سينجز عمله في الليل. بينما يتجول الكسل ببطء جداً بحيث يصيبه الفقر بسرعة» كما قرأنا في ريتشارد المسكين الذي يضيف «قُد عملك! ولا تجعل عملك يقودك!». و-

«النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً، يجعل المرء معافى، غنياً وحكيماً».

إذن ماذا يعني تمني وتأمل أوقات أفضل؟ قد نجعل تلك الأيام أفضل إذا أجهدنا أنفسنا بالعمل، «لا تحتاج المثابرة إلى أمنية» كما يقول ريتشارد المسكين، و«من يعيش على الأمل سيموت جوعاً»، «لا يوجد مكسب بلا جهد، فاطلب المساعدة لعدم امتلاكك أرض». أو إذا كنتُ أمتلكها فسيتم فرض ضريبة عليها. وكما ينوه ريتشارد المسكين «من يملك تجارة كأنما يملك ثروة، ومن يمتلك حرفة كأنما يمتلك وظيفة ذات ربح وشرف».

لكن عندها لا بد للتجارة أن نجتهد بها، وأن نستمر بالحرفة، وإلا لن تمكننا لا الثروة ولا الوظيفة من دفع ضرائبنا. إذا كنا مثابرين فلن نجوع أبداً لأن كما قال ريتشارد المسكين «عند العمل ينظر الجوع للداخل لكن لا يتجرأ على الدخول». ولن يدخل حاجب المحكمة أو الشرطي لأن «المثابرة تدفع ديونها، بينما اليأس يزيدها».

ماذا لو لم تجد كنزاً، ولا تملك أقارب أغنياء يتركوا لك إرثاً، «فالمثابرة أم الحظ الحسن» كما قال ريتشارد المسكين، و«يهب الله كل شيء للمثابرة».

«احرث عميقاً بينما الكسالى نائمون، وستحصل على الذرة لتبيعها وتخزنها».

كما قال ديك المسكين. اعمل اليوم لأنك لا تعلم ما يخفيه لك الغد. وهو ما جعل ريتشارد المسكين يقول «ما يساوي قرشاً اليوم، يساوي قرشين غداً». وكذلك «هل لديك ما تنجزه غداً؟ انجزه اليوم!».

إذا كنتَ خادماً، ألن تكونَ خجلاً إذا رآك سيدك الطيب لا تعمل؟ هل ستكون عندها سيد نفسك؟، «اخجل من أن تجد نفسك عاطلاً» كما قال ديك المسكين. عندما يكون هناك الكثير مما يجب فعله تجاه نفسك وعائلتك وبلادك وملكك الكريم، فاستيقظ عند بزوغ الفجر!، «لا تدع الشمس تنظر وتقول، يقبع هنا شخص عاطل!». فاحمل عدّتك بلا قفازات! وتذكر أن «القطط لا تصطاد الفئران بالقفازات!» كما قال ريتشارد المسكين.

صحيح أن هناك الكثير يجب عمله، وربما تكون ناعم اليدين، لكن إذا تابعت باستمرار ستحصد نتائج عظيمة، لأن «قطرات الماء المستمرة

تنحت الصخر» و«بالمثابرة والصبر أكل الفأر الخيط» و«الضربات القليلة المستمرة تسقط أشجار الصنوبر العظيمة» كما قال ريتشارد المسكين في صحيفته الألماناك، لا أتذكر السنة الآن.

أعتقد بأنني سمعتُ بعضكم يقول، «هل يجب على الإنسان أن يمنح لنفسه وقت استراحة؟» وسأقول لكم يا أصدقائي ما قاله ريتشارد المسكين «اشغل وقتك جيداً إذا أردت الإفادة من وقت استراحتك» و«لأنك لا تضمن دقيقة فلا تضيّع ساعة!». إن وقت الاستراحة هو وقت لعمل شيء مفيد، سيحظى الإنسان المثابر بوقت الاستراحة هذا، أما الكسول فلن يحظى به أبداً لذا كما قال ريتشارد المسكين «حياة المتعة وحياة الكسل أمران مختلفان». هل تتخيل أن الكسل سيمنحك راحة أكبر من العمل؟ كلّا! لأن، عندما قال ريتشارد المسكين «تنبعث المتاعب من البطالة، والعناء الخطير من الراحة الغير ضرورية»، «العديد ممن هم بلا عمل، سيعيش على ظرافته فقط، لكنهم سيفلسون بسبب الافتقار إلى المخزون»، «كان [يقصد] بينما تمنح المثابرة الراحة والمال الوفير والاحترام». «حلّق بسرور وسيتبعونك»، «المغزل الشغّال له ترس كبير»، و

«اليوم، أنا أملك خروفاً وبقرة، كل واحد يعرض عليّ غداً أفضل».

كل ما هو جيد قيل من قبل ريتشارد المسكين. لكن بمثابرتنا علينا أن نكون أيضاً مستمرين، راسخين، وحريصين، وأن نرى مصالحنا الخاصة بأم أعيننا وأن لا نثق كثيراً جداً بالآخرين لأن، كما قال ريتشارد المسكين:

«لم أرَ من قبل شجرة منزوعة ولا عائلة لحد الآن معزولة ازدهرت بشكل جيد جداً كما تفعل الشجرة والعائلة الراسخة».

وأيضاً، «ثلاثة أقارب أمر سيّئ كالحريق»، وأيضاً «اهتم بمتجرك وسيهتم متجرك بك»، وأيضاً «إذا كنتَ ستنهي عملك، فاستمر؛ وإلا، فابعثه». وأيضاً

«من كان يريد الحرث بالمحراث عليه إما أن يمسكه أو يقوده بنفسه»

وأيضاً، «عينا رب العمل ستؤدي عملاً أكثر مم تؤديه كلتا يديه»، وأيضاً «نقص الالتزام يدمرنا أكثر من نقص المعرفة»، وأيضاً «من لا يراقب العمّال كمن يترك خزانته مفتوحة لهم».

إن الثقة الكبيرة جداً بالتزام الغير هو سبب دمار الكثيرين لأن كما قالت الألماناك «من مشاكل هذا العالم أن الناس مقتصدون، ليس بالإيمان، وإنما بالحاجة له». لكن التزام الانسان الشخصي مدر للربح لأن كما قال ديك المسكين «التعلم للمولع بالدراسة، والغنى للملتزم». كذلك «القوة للجسور» و«الجنة للمتقين». وأيضاً «إذا كنتَ ستحظى بخادم مؤمن وآخر يعجبك، فاخدم نفسك».

وأيضاً، يدعو إلى الحذر والحرص حتى في الأمور البسيطة لأن في بعض الأحيان «إهمالٌ صغير قد يحدث خسارة عظيمة». ويضيف «الحاجة لمسمار أضاعت نعل الفرس، الحاجة لنعل الفرس أضاعت الفرس، الحاجة لفرس أضاعت الفارس»، فكونه أُخذ وذُبِحَ من قبل العدو، كل ذلك بسبب الحاجة لقليل من الاهتمام بمسمار نعل فرس.

إذن أصدقائي، عليكم بالمثابرة والاهتمام تجاه عملكم، لكن يجب أن نضيف إلى ذلك، التوفير إذا كنا نرغب بجعل مثابرتنا ناجحة بالتأكيد. «فالإنسان»، إذا كان لا يعلم كيف يدخر ما يحصل عليه، «فسيضع أنفه

طوال حياته في الرحى ويموت وهو لا يساوي فلساً في النهاية». «من يأكل كثيراً يترك وصية هزيلة». و

«العديد من الأموال تنفق في الاقتناء، لأن النساء من أجل الشاي[1] تترك الغزل والحياكة، والرجال من أجل البنش[2] يتركون قَطْع الحطب».

إذا كنت تريد أن تصبح غنياً، فيقول في عدد ألماناك آخر «فكّر بالادّخار كما تفكر في الاقتناء. فجزر الهند لم تجعل إسبانيا غنية، لأن صادراتها أكثر من وارداتها».

إذن، «ابتعد عن حماقاتك المكلفة ولن تحظى بسبب للشكوى من الأيام الصعبة والضرائب المكلفة والعائلات المستحقة ضريبة»، لأن كما قال ديك المسكين

«النساء والخمر، اللعب والخداع، تجعل الثروة صغيرة والمتطلبات كبيرة».

وكذلك، «تكلفة عادة سيئة واحدة تعادل تكلفة تربية طفلين». قد تعتقد ربما أن القليل من الشاي أو القليل من البنش من حين لآخر، طعام أكثر كلفة قليلاً، ملابس أرقى قليلاً، والقليل من الترفيه من حين لآخر، لن يكون ذا أهمية كبيرة، لكن تذكر ما قاله ريتشارد المسكين «كثير من قليل يسبب الكثير». وكذلك «احترس من النفقات الصغيرة، فشق صغير يغرق سفينة كبيرة». وأيضاً

(1) كان الشاي في ذلك الوقت مكلفاً ويعتبر من مظاهر الترف.
(2) نوع من الشراب. (المترجمة)

«المحب للتأنق بإفراط سينتهي مع الشحاذين».

وعلاوة على ذلك، «الحمقى يعملون المآدب والحكماء يأكلونها».

ها أنتم مجتمعون كلكم في مزاد الحلي والتحف الزهيدة هذا. أنتم تسمونها بضاعة، لكن إن لم تتوخوا الحرص فستسبب الشر للبعض منكم. أنتم تتوقعون بأنها ستباع بثمن زهيد، وربما أقل مما تساويه، لكن إذا لم يكن لديكم سبباً لذلك فلا بد أنها عزيزة بالنسبة لكم. تذكروا ما قاله ريتشارد المسكين «اشترِ ما لستَ بحاجةٍ له، وعما قريب ستبيع ما أنت بحاجة له». وأيضاً، «عند الشيء التافه القيمة تمهل قليلاً»، يقصد بهذا أن رخص الثمن ربما يكون ظاهرياً فقط وليس حقيقياً. أو أن الصفقة قد تؤذيك أكثر مما تنفعك، بالتضييق عليك في عملك. لأنه يقول في موضع آخر «افتقر الكثيرون بشراء بضائع جيدة تافهة القيمة».

يقول ريتشارد المسكين ثانيةً «من الحماقة أن تدفع مالاً في شراء ندم». ومع ذلك تُمارَس هذه الحماقة كل يوم عند المزادات العلنية بسبب الحاجة لتذكُّر الألماناك. «فالحكماء»، كما يقول ريتشارد المسكين، «يتعلمون من مصائب الآخرين، والحمقى بالكاد يتعلمون من مصائبهم». لكن محظوظ هو من أصبح حكيماً من خسائر الآخرين. فالعديد ممن مات جائعاً وجوّع عائلته من أجل حلية على الظهر. «الحرائر والساتان، والأقمشة القرمزية والمخملية» كما قال ريتشارد المسكين، «تطفئ حريق المطبخ». هذه ليست ضروريات الحياة، يمكن تسميتها بالرفاهيات. ومع ذلك، ما أكثر من يرغب باقتنائها فقط لأنها تبدو جميلة! وعليه، إن الحاجات الصناعية للبشر تصبح أكثر من الطبيعية، وكما يقول ديك المسكين «من أجل شخص فقير واحد هناك مائة محروم».

بهذا التبذير يهبط المتأنق إلى الفقر ويضطر إلى الاستدانة من أولئك الذين احتقرهم مسبقاً والذين، من خلال المثابرة والتوفير، قد حافظوا على مكانتهم. في هذه الحالة يظهر بوضوح أن «الفلاح على ساقيه أعلى من رجل ارستقراطي على ركبتيه» كما قال ريتشارد المسكين. ربما قد تُركت لهم ثروة صغيرة لا يعرفون تكوين مثلها، فسيعتقدون «بأنه نهار ليس له ليل أبداً» وإن «إنفاق القليل من الكثير جداً لن يضر». (الطفل والأحمق، كما قال ريتشارد المسكين، يتخيلون أن 20 شلناً و20 سنة لا يمكن أن تنتهي). لكن «الأخذ المستمر من وعاء الطعام وعدم وضع شيء فيه أبداً فسرعان ما سنصل إلى القعر». ثم، كما قال ريتشارد المسكين «عندما يجف البئر يعرفون قيمة الماء». لكنهم قد يعلمون ذلك مسبقاً قبل أن يأخذوا بنصيحته. «إذا كنت تعلم قيمة المال، اذهب وحاول أن تقترض بعضاً منه» لأن «من يعتد الاقتراض، يعتد الحزن» ويحصل ذلك أيضاً في الواقع لكل من يُقرِض أناس كهؤلاء عندما يذهب لاسترداده. ينصح ديك المسكين أيضاً ويقول:

«إن الاغترار الأحمق بثوب هو، بالتأكيد، لعنة بحد ذاتها، قبل أن تتخيل أنك استشرت، الجأ إلى محفظتك».

وأيضاً «الغرور مسرف». فعندما تشتري شيئاً جميلاً واحداً عليك أن تشتري 10 أخرى منه من أجل مظهرك. لكن ديك المسكين يقول «الأكثر سهولة هو أن تكبح الرغبة الأولى من أن تفي بكل ما سيليها». وأنه من الحماقة بحق من أن يقلّد الفقير الغني، كالضفدعة التي تنتفخ كي تضاهي الثور.

«قد تغامر الأموال الكبيرة أكثر، لكن القوارب الصغيرة يجب أن تبقى قرب الشاطئ».

بهذا التبذير يهبط المتأنق إلى الفقر ويضطر إلى الاستدانة من أولئك الذين احتقرهم مسبقاً والذين، من خلال المثابرة والتوفير، قد حافظوا على مكانتهم. في هذه الحالة يظهر بوضوح أن «الفلاح على ساقيه أعلى من رجل ارستقراطي على ركبتيه» كما قال ريتشارد المسكين. ربما قد تُركت لهم ثروة صغيرة لا يعرفون تكوين مثلها، فسيعتقدون «بأنه نهار ليس له ليل أبداً» وإن «إنفاق القليل من الكثير جداً لن يضر». (الطفل والأحمق، كما قال ريتشارد المسكين، يتخيلون أن 20 شلناً و20 سنة لا يمكن أن تنتهي). لكن «الأخذ المستمر من وعاء الطعام وعدم وضع شيء فيه أبداً فسرعان ما سنصل إلى القعر». ثم، كما قال ريتشارد المسكين «عندما يجف البئر يعرفون قيمة الماء». لكنهم قد يعلمون ذلك مسبقاً قبل أن يأخذوا بنصيحته. «إذا كنت تعلم قيمة المال، اذهب وحاول أن تقترض بعضاً منه» لأن «من يعتد الاقتراض، يعتد الحزن» ويحصل ذلك أيضاً في الواقع لكل من يُقرِض أناس كهؤلاء عندما يذهب لاسترداده. ينصح ديك المسكين أيضاً ويقول:

«إن الاغترار الأحمق بثوب هو، بالتأكيد، لعنة بحد ذاتها، قبل أن تتخيل أنك استشرت، الجأ إلى محفظتك».

وأيضاً «الغرور مسرف». فعندما تشتري شيئاً جميلاً واحداً عليك أن تشتري 10 أخرى منه من أجل مظهرك. لكن ديك المسكين يقول «الأكثر سهولة هو أن تكبح الرغبة الأولى من أن تفي بكل ما سيليها». وأنه من الحماقة بحق من أن يقلّد الفقير الغني، كالضفدعة التي تنتفخ كي تضاهي الثور.

«قد تغامر الأموال الكبيرة أكثر، لكن القوارب الصغيرة يجب أن تبقى قرب الشاطئ».

رغم ذلك، فإن هذه الحماقة سرعان ما نُعاقَب عليها لأن «الغرور الذي يتغذى على التفاخر، يتعشى على الخزي» كما قال ريتشارد المسكين. وفي موضع آخر «يفطر الغرور بالمال، يتغذى بالفقر، ويتعشى بالعار».

وبعد كل شيء، ما فائدة غرور المظاهر هذا، الذي يخاطر من أجله الكثير، والذي يعاني منه الكثير؟ إنه لا يديم الصحة أو يخفف الألم. فهو لا يزيد الفضل في الشخص، فهو يولد الحسد ويعجل سوء الحظ.

«ما هي الفراشة؟ في أحسن الأحوال، هي مجرد دودة ارتدت، صورة الغندور المبهرج فقط»

كما قال ريتشارد المسكين.

لكن ماذا عساه أن يكون هذا الجنون الذي يجعلنا نغرق في الدين من أجل هذه الأشياء الغير ضرورية!. فنحن يُقَدَّم إلينا دَيْن ستة أشهر بشروط هذا المزاد العلني، وهذا ربما، يحفز أحداً منا للانضمام إليه لأننا لا نستطيع الاحتفاظ بسيولة نقدية ونأمل الآن أن نكون بخير بدونها. لكن آه! فكّر بما ستفعل عندما تغرق في الدين: ستستسلم لقوة أخرى على حساب حريتك. إذا لم تستطع التسديد في الوقت المحدد ستكون خجلاً من مواجهة دائنك. ستكون في حالة خوف من التحدث معه. ستقوم باختلاق أعذار واهية، مثيرة للشفقة، حقيرة، وبالتدريج ستفقد مصداقيتك وتغرق للحضيض، كاذباً بمعنى الكلمة لأن، كما قال ريتشارد المسكين «الإثم الثاني هو الكذب، والأول هو الغرق في الدين». وقال أيضاً في نفس المعنى «الكذب يمتطي ظهر الدَّيْن»، بينما الإنكليزي الحر لا يجب عليه أن يخجل من رؤية أو التحدث لأي شخص. لكن الفقر يجرد الإنسان عادةً من كل الحيوية

والفضيلة. «من الصعب على الكيس الفارغ أن يبقى منتصباً!» كما قال بحق ريتشارد المسكين. ماذا ستعتقد بشأن ذلك الأمير أو الحكومة التي تصدر مرسوماً تمنعك فيه من الارتداء كالرجل النبيل أو المرأة النبيلة وتعاقبك بالسجن أو العبودية؟ ألن تقول بأنك حر ولك الحق بأن ترتدي ما يسرك وأن مرسوماً كهذا سيكون انتهاك لحقوقك وأن حكومة كهذه استبدادية؟ ومع ذلك أنت على وشك أن تضع نفسك تحت استبداد كهذا عندما تغرق في الدين من أجل ثوب كهذا!. إن دائنك له الحق، لسروره، من أن يحرمك من حريتك بزجك في السجن مدى الحياة أو أن يبيعك كعبد إذا لم تتمكن من السداد له. عندما تحصل على صفقتك، ربما ستفكر قليلاً بالدفع، لكن الدائنين، كما يخبرنا ريتشارد المسكين «لديهم ذاكرة أقوى من المدينين». ويقول في موضع آخر «إن الدائنين عصابة خرافية، مراقبون عظماء لأيام وأوقات السداد». سيدور اليوم قبل أن تدرك، وطلب السداد سيحين قبل أن تكون مستعداً له. أو إذا كنت تتذكر دينك، فالمدة التي بدت في البداية طويلة جداً، ستبدو قصيرة جداً. يبدو أنه سيصبح للوقت جناحان في أعقابه وكذلك في أكتافه. «الذين يستدينون المال كي يسددوه في عيد الفصح ستكون فترة صومهم قصيرة» كما قال ريتشارد المسكين. ثم قال «المقترض عبداً للمُقرِض، والمدين عبداً للدائن». ازدَرِ القيد وحافظ على حريتك، كن مقتصداً وحراً. قد تعتقد نفسك في الوقت الحاضر في ظروف مزدهرة وأنه بإمكانك تحمل القليل من التبذير بدون ضرر، لكن:

«للزمن والحاجة، ادخر ما دمت تقدر، فشمس النهار لا تدوم طوال اليوم».

كما قال ريتشارد المسكين. فالمكسب قد يكون مؤقتاً وغير مؤكد، لكن

طالما تعيش فالنفقات مستمرة ومؤكدة، و«من الأسهل أن تبني مدخنتين من أن تحتفظ بواحدة بوقودها» كما قال ريتشارد المسكين. إذن «الأفضل أن تنام بلا عشاء على أن تغرق في الدين».

«اظفر بما تستطيع، وبما احتفظت به، فالحجر فقط من سيحول ما عندك من رصاص إلى ذهب[1]».

كما قال ريتشارد المسكين. وعندما ستحصل على حجر الفيلسوف تأكد بأنك لن تشتكي بعدها من الأوقات الصعبة أو من صعوبة دفع الضرائب.

إن هذا المذهب، يا أصدقائي، منطقي وحكيم. لكن بعد كل شيء لا تعتمد كثيراً جداً على كدك الخاص وتدبيرك وحكمتك، رغم تميزهم، فقد تُنسف بدون بركة السماء. لذلك أُطلب البركة بتواضع ولا تكن غير متسامح تجاه اولئك الذين يبدو أنهم بحاجة لها في الوقت الحاضر، بل أرحهم وساعدهم. وتذكر أيوب الذي عانى وأصبح بعد ذلك ثرياً.

[والآن، في الختام، «تبقى الخبرة مدرسة غالية، لكن لن يتعلم الحمقى في غيرها، وبالكاد فيها» لأن فعلاً «إننا نمنح النصيحة لكن لا يمكننا منح السلوك» كما قال ريتشارد المسكين. رغم ذلك، تذكر هذا: «من لن يتم نصحهم لا يمكن مساعدتهم» كما قال ريتشارد المسكين: وكذلك، «إذا لم تستمع للمعلمة فستعاقبك بالتأكيد»].

وهكذا أنهى الرجل العجوز خطبته. سمعها الناس واستحسنوا المذهب، وسرعان ما مارسوا العكس كما لو كانت خطبة مملة مألوفة.

---

[1] حجر الفيلسوف: يدعى كذلك،هو معدن يمتلك قوة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

بالنسبة للمزاد فقد فُتح وبدأوا بالشراء بتبذير رغم كل تحذيراته وخوفهم من الضرائب. اكتشفت أن الرجل الطيب قد درس صحيفتي الألماناك بشكل شامل ولخّص كل ما أنزلته بخصوص هذه المواضيع خلال الـ 25 سنة. لا بد أن ذكره المتكرر لي قد أتعب كل شخص آخر، لكن غروري قد طرب له بشكل رائع، رغم أنني كنت أدرك بأن عُشر الحكمة لم تكن لي، وقد عزاها إليّ، بل هي بالأحرى معلومات جمعتها عن فحوى كل العصور والأمم. رغم ذلك قررت أن أكون أفضل استجابة له، ورغم أنني كنت عازماً في البداية على شراء نسيج صوفي من اجل معطف جديد، إلا أنني غادرت عازماً على ارتداء معطفي القديم لمدة أطول قليلاً. عزيزي القارئ، إذا كنتَ ستفعل المثل فسيكون ربحك كبيراً كربحي. فأنا دائماً في خدمتك.

**ريتشارد سوندرز**

**7/تموز/1757**

## نُكات، مقالات، أقوال قصيرة ورسائل مختارة بعناية

### مرثية[1] نيو إنغلاند

«امنحني إلهام الشاعر، الذي قوته الجامحة، لا تحتمل الزمام،
تسلك طرقاً غير مطروقة، تكسر كل السلاسل الحديدية للنقاد».

واتس

إلى صاحب جريدة (نيوإنغلاند كورانت)

سيدي: إنها شكوى العديد من الأجانب الحاذقين الذين يتجولون بيننا، من أن الشعر الجيد لا نتوقع وجوده في نيو إنغلاند. أنا ميال إلى تخيل أن السبب ليس لأن مواطنينا جميعهم فاقدون للعبقرية الشعرية ولا لأننا لا نمتلك مزايا التعليم تلك التي تمتلكها بلدان أخرى، وإنما لأننا لا نمنح ذلك الثناء والتشجيع الذي يُستحق عندما يصدر بيننا أي شيء استثنائي من هذا النوع: فكرتُ بهذا عندما صادفتُ مقطعاً من قصيدة نيو إنغلاند، كي أمنحها إطراءً مناسباً وبذلك أسعى لأن أكشف للعالم بعضاً من جمالها، كي نشجع الكاتب على الاستمرار وأن نبارك العالم بإنتاجات أكثر وأكثر تميزاً.

---

(1) المرثية: هي قصيدة حزينة تقال في رثاء الموتى. (المترجمة)

مؤخراً ظهرت بيننا مقطوعة الأكثر تميزاً من الشعر معنونة (مرثية عن الموت المأساوي للسيدة ميهيتابيل كيتل، زوجة السيد جون كيتل من سالم، إلخ). يمكن أن يُقال بأنصاف في الثناء عليها، بدون محاولة إطراء الكاتب، من أنها المقطوعة الأكثر روعة كُتبت يوماً في نيو إنغلاند. فاللغة رقيقة جداً وسلسة، التعبير مؤثر جداً ومحزن، لكن فوق كل ذلك، الشعر والأعداد ساحر جداً وطبيعي بحيث لا يضاهيه شيء.

«يزدري الإلهام تلك القيود والسلاسل، والمقاييس والأحكام
للنزعات المألوفة، وعلى قوانين الإيقاع تتربع ملكة مستقلة».

واتس

اكتشفتُ أنه لا يوجد كاتب إنكليزي، من القدماء أو من المحدثين، من تضاهي مرثياتهم بهذه، من ناحية حسن الأسلوب أو سلاسة القافية. وبالنسبة للجزء المؤثر سأترك الحكم لقرائك إذا كانوا قد قرأوا يوماً أية أسطر جعلتهم يحبسون أنفاسهم في الحال ويتنهدون، هذا إذا لم يذرفوا الدموع، من الأسطر التالية:

«تعال لننتحب، لفقداننا زوجةً، بنتاً، وأختاً، حلّقت مؤخراً بعيداً.
وقد افتقدناها كثيراً».

وفي موضع آخر،

«قبل أن تسلم الأنفاس بقليل، قالت لن أسمع أبداً خُطبة واحدة
أخرى على الأرض. قبّلت زوجها قبل أن تلهث الأنفاس، ثم
أحنت رأسها على الوسادة، منقطعة النفس ومتعبة».

لكن اللقب الثلاثي: (زوجة، بنت، أخت) في البيت السابق لا يجب أن يمر بدون ملاحظة. فالبيت التالي للشهير (واتس)، «(غنستون)، ذلك

العادل، الكريم، والشاب» لا شيء يضاهيه. فالأخير يذكر فقط ثلاث صفات لشخص واحد، والذي توفى، وبذلك يكون قد أثار الحزن والرثاء لكن لشخص واحد. بينما البيت السابق (لشاعرنا الأكثر تميزاً) يمنح قارئه نوعاً من فكرة عن موت ثلاثة أشخاص، أي (الزوجة والبنت والأخت) وهو فقدان أكبر بثلاث مرات من موت شخص واحد وبالتالي لا بد أن يثير حزناً ورثاءً بقدر ثلاث مرات في القارئ.

> عليّ أن أكون متقيداً جداً بسبب ضيق المساحة إذا حاولتُ الكشف عن حتى نصف مميزات هذه المرثية والواضحة بالنسبة لي. مع ذلك لا أستطيع التغاضي عن ملاحظة واحدة وهي أن الكاتب (لتميزه) اخترع نوعاً جديداً من الشعر والذي يحتاج اسماً لم يكن معروفاً من قبل. فإلهامه يزدري أن يكون مقيداً بالمقاييس والحدود القديمة، أو أن يراقب الأحكام البليدة للنقاد والتي، «لا (رابين) منحها قواعد لتطير، ولا (بورسيل) أخذها بعين الاعتبار ليغني».

واتس

الآن، من المؤسف أن مقطوعة متميزة كهذه أن لا يتم تبجيلها باسم خاص. وبالوقوف عند الموضوع، لا يمكن تسميتها ملحمية، أو غنائية، أو بندارية، ولا أي اسم آخر مخترَع لحد الآن. وأتجرأ وأسميها (kitelic) (تشريفاً وذكرى للأموات). وهذا ثناء لشعر الـ (kitelic).

## محاورة بين (فيلوقليس) و(هوراشيو)

### بشأن الفضيلة والسعادة، وهما يلتقيان بالصدفة في الحقول

فيلوقليس: صديقي هوراشيو! مسرور جداً لرؤيتك. كيف أتى رجل مثلك إلى هنا لوحده؟ ومستغرق في التفكير أيضاً؟ أية مصيبة حدثت لمتعتك وأرسلتك إلى الفلسفة من أجل الراحة؟

هوراشيو: أنت تحزر بشكل صحيح جداً، يا عزيزي فيلوقليس! نحن صائدي المتعة لسنا بدونها أبداً، ومع ذلك فاللعبة ساحرة جداً لا نستطيع التوقف عن الصيد. كم هي هادئة وغير مضطربة حياتك هي! كم هي خالية من المشاكل الحالية والهموم المستقبلية! أنا أعلم بأنك تحبني وتنظر لتصرفاتي بشفقة. أرِني إذن الطريق الذي يقود إلى ذلك الخير الدائم والذي سمعتُ بأنك وصفتَه بشكل جميل جداً والذي يبدو أنك تملكه تماماً.

فيلوقليس: هناك أناس قليلون في العالم أقدّرهم أكثر منك يا هوراشيو؛ لأن من بين جميع نواقصك وسعيك المؤلم نحو المتعة، لاحظتُ فيك قلباً صادقاً وعقلاً متجه بقوة نحو الفضيلة. أتمنى من أعماقي بأن أتمكن من مساعدتك لتمثل بحزم دور مخلوق عاقل، لأنك إذا لم تعتقده تفضّل علي أن أخبرك بأني أحبك أكثر مما تحب نفسك.

هوراشيو: تناقض فعلاً! أكثر مما أحب نفسي! عندما أحب نفسي العزيزة جيداً، فسأحب أي شيء آخر من أجل نفسي.

فيلوقليس: يحب نفسه جيداً فقط، من يحب نفسه بحق وباتزان.

هوراشيو: ماذا تعني بذلك يا فيلوقليس! أنتم يا رجال المنطق والفضيلة دائماً ما تتعاملون بالألغاز رغم أنكم تضحكون عليها عندما تتحدث الكنيسة بها. فأنا أعتقد يحب نفسه جيداً فقط وباتزان أيضاً، كما تسميه، من يسمح لنفسه أن تعمل كل ما يسرها.

فيلوقليس: كم تقود تلك النفس التي يحبها جيداً جداً، للدمار والضياع!. يحب نفسه باتزان فقط، من يستجلب لنفسه أقصى خير ممكن من خلال وجوده، وكذلك السعي للمتعة لأنه ليس عليك أن تعطي من أجلها أكثر مما تساوي.

هوراشيو: ذلك كله يعتمد على الرأي. فمن سيقرر ماذا تساوي المتعة؟ على افتراض أن أحداً ضربني كثيراً، فذلك لا يمكنني أن أستمتع به بدون متعة مشتركة مع هدف ذلك الشخص. أو تلك المتعة المفضلة على العموم، سيدة سآخذها كما يفعل الزوج مع زوجته، ولن أمانع النتائج، ولا آخذ بعين الاعتبار ماذا سيحصل، فلم لا أفعل ذلك؟

فيلوقليس: افترض يا هوراشيو أن صديقاً لك دخل العالم في حوالي 22، بجسد صحيح البنية وقوي، مع ثروة كبيرة حوالي 500 باوند في السنة. ومع ذلك، قبل أن يصل إلى عمر الثلاثين ويلاحق متعه وليس كما تقول فيما يخص النتائج، أدار ثروته وأضعف جسده إلى درجة أنه لم يبقَ لا الوسائل ولا القدرة على التمتع ولا أي شيء آخر يفعله، سوى أن يطلق

على رأسه النار بحكمة ليرتاح. ماذا كنت ستقول بشأن التصرف التعيس لهذا الرجل؟ أهو مخطئ في القرار، أو يتمتع فقط؟. أو هل هناك حقاً صواب وخطأ في هذه الحالة؟ أليس رأي واحد عن الحياة والسلوك أكثر عدالة من الآخر؟ أو نوع واحد من السلوك مفضل على الآخر؟ أو هل يبدو ابن المتعة البائس هذا كائناً منطقياً ومحبوباً في نظرك، مساوياً للرجل الذي (بإرضائه لشغفه الطبيعي بحكمة وباتزان) حافظ على جسده بكامل صحته وثروته بكاملها واستمتع بالاثنين إلى عمر متأخر ومن ثم مات بقلب ممتن للأشياء الجميلة التي تلقاها، وبخضوع تام إلى مشيئة الله التي كانت [illegible] من دعته للوجود؟. قل يا هوراشيو! هل هؤلاء الناس حكماء وسعداء بنفس القدر؟ وهل كل شيء يجب قياسه بالمتعة والرأي فقط بدون التفكير فيما إذا كانت هذه المتعة أو ذلك الرأي صائبين؟

هوراشيو: لا هذا ولا ذاك. ما متأكد منه لحد الآن هو أن خالق الطبيعة الحكيم والطيب لا يمكن أن يعذبنا. فهو لا يمنحنا شغفاً بغرض كبته وقهره، ولا أن يخلق نفسي أو أي نفس أخرى فقط لكي ننكرها، لأن ذلك نكران لأعمال الخالق نفسه. لذا أعتقد أن نكران الذات، وهو ما أعتقد أنك تقصده بالحكمة، لا يبدو لي بأنه غريب فقط وإنما غير مشرف لحكمته العليا والخير الذي يُعتقد انه صنع مخلوقاً سخيفاً جداً ومتناقضاً كهذا، عليه دائماً أن يتقاتل مع نفسه كي يكون مرتاحاً وأن يخضع إلى أذى طوعية لكي يكون سعيداً: فهل خُلقنا مرضى، فقط كي نؤمر كي نكون أقوياء؟ هل وضعنا تحت قانون واحد (شغفنا) ومع ذلك مرتبط بالآخر وهو المنطق؟ أجبني يا فيلوفليس لأنني مهتم بإجلال الطبيعة، أمّا جميعاً.

فيلوقليس: أرى يا هوراشيو أن المثالين قد أفزعاك، لذا تقوم برفض

محاكمة ما هو صالح، بالمنطق: وقمتَ بدلاً من ذلك بعمل هجمة قوية على العناية الإلهية، وهو أسلوبكم المعتاد أنتم السادة النبلاء، وهو عندما تعيشون بتحدي للقوانين الأبدية للمنطق تقحمون أنفسكم في ألف إحراج، ساعين بالتهوين على أنفسكم بإلقاء الحمل على كاهل الطبيعة. أنت يا هوراشيو في حالة بائسة جداً بالفعل. لأنك تقول بأنه لا يمكنك أن تكون سعيداً إذا سيطرت على شغفك. وتشعر بأنك بائس بسبب الأشباع اللامحدود له. وهنا هو الشر، شر لا يمكن علاجه، بكلتا الحالتين.

هوراشيو: إن هذا صحيح تماماً، على الأقل أنه كذلك بالنسبة لي. صلِّ يا فيلوقليس! ماذا يجب عليك أن تقول لتبجيل الطبيعة أو العناية الإلهية. يبدو بأنني أتألم لأجلها، فكيف تنقذها؟ هذه السيدة المسكينة!.

فيلوقليس: هذا، يا عزيزي هوراشيو، ما يجب عليّ قوله، وهو أن ما تجده خطأً وتتذمر تجاهه وكأنه أكثر الأشياء شرّاً في العالم، نكران الذات، هو الخير الأكبر والإشباع الذاتي الأسمى. في الواقع، إذا استعملتَ الكلمة بالمعنى الذي يعطيه بعض الأخلاقيين الحمقى والفطّين، والكهنة الأكثر حماقة، فسيكون لديك سبب مبرر للضحك. لكن إذا أخذتَه بالمعنى الذي يفهمه الفلاسفة ورجال المنطق، فسوف ترى سحرها في الحال وستطير نحوها لاعتناقها رغم مظهرها الرزين، لأنه من الضروري جداً أن تحقق حتى سعادتك العزيزة الصالحة الخاصة بك. بالنسبة لنكران الذات، فهو أبداً ليس واجباً أو تصرف منطقي، لكن لأنه وسيلة طبيعية لاستجلاب سعادة أكبر مما لو أنت بدونها، لذا فإن هذه المرشدة الجليلة للسعادة والتي تشبه القديس، رغم القسوة والرعب الذي خُلقت لتظهر به، إلا أنها في حقيقتها ألطف سيدة والأكثر جمالاً في العالم.

محاكمة ما هو صالح، بالمنطق: وقمتَ بدلاً من ذلك بعمل هجمة قوية على العناية الإلهية، وهو أسلوبكم المعتاد أنتم السادة النبلاء، وهو عندما تعيشون بتحدي للقوانين الأبدية للمنطق تقحمون أنفسكم في ألف إحراج، ساعين بالتهوين على أنفسكم بإلقاء الحمل على كاهل الطبيعة. أنت يا هوراشيو في حالة بائسة جداً بالفعل. لأنك تقول بأنه لا يمكنك أن تكون سعيداً إذا سيطرت على شغفك. وتشعر بأنك بائس بسبب الأشباع اللامحدود له. وهنا هو الشر، شر لا يمكن علاجه، بكلتا الحالتين.

هوراشيو: إن هذا صحيح تماماً، على الأقل أنه كذلك بالنسبة لي. صلِّ يا فيلوقليس! ماذا يجب عليك أن تقول لتبجيل الطبيعة أو العناية الإلهية. يبدو بأنني أتألم لأجلها، فكيف تنقذها؟ هذه السيدة المسكينة!.

فيلوقليس: هذا، يا عزيزي هوراشيو، ما يجب عليّ قوله، وهو أن ما تجده خطأً وتتذمر تجاهه وكأنه أكثر الأشياء شرّاً في العالم، نكران الذات، هو الخير الأكبر والإشباع الذاتي الأسمى. في الواقع، إذا استعملتَ الكلمة بالمعنى الذي يعطيه بعض الأخلاقيين الحمقى والفطِّين، والكهنة الأكثر حماقة، فسيكون لديك سبب مبرر للضحك. لكن إذا أخذتَه بالمعنى الذي يفهمه الفلاسفة ورجال المنطق، فسوف ترى سحرها في الحال وستطير نحوها لاعتناقها رغم مظهرها الرزين، لأنه من الضروري جداً أن تحقق حتى سعادتك العزيزة الصالحة الخاصة بك. بالنسبة لنكران الذات، فهو أبداً ليس واجباً أو تصرف منطقي، لكن لأنه وسيلة طبيعية لاستجلاب سعادة أكبر مما لو أنت بدونها، لذا فإن هذه المرشدة الجليلة للسعادة والتي تشبه القديس، رغم القسوة والرعب الذي خُلقت لتظهر به، إلا أنها في حقيقتها ألطف سيدة والأكثر جمالاً في العالم.

هوراشيو: واو، فيلوقليس! لا تُخفي نفسك بالرموز والاستعارات الرمزية. لماذا تغيظني بهذه الطريقة؟ لطالما كان عليّ أن أقتنع بماهية نكران الذات الفلسفي هذا، ضرورته ومنطقه. أنا قليل الصبر وعلى أحر من الجمر، اشرح إذن بطريقتك السهلة الطبيعية الجميلة عن المنطق ماذا يجب عليّ فهمه من سيدتك الجليلة هذه، بنظراتها المنخفضة المنيعة جداً ومع ذلك الضرورية جداً لسعادتي. فأنا مستعد لمعانقتها، لأنك كما تعلم، أغازل السعادة تحت كل الأشكال والصور.

فيلوقليس: تعال إذن، وسترى سبب نكران الذات الفلسفي هذا. فهناك، لا مكان للمثالية المطلقة في أي مخلوق، لأن كل مخلوق مولود وتابع. لا يمكن لكائن مخلوق أن يكون حكيم تماماً، صالح تماماً، وقوي تماماً، لأن قوته ومقدرته نهائية ومحدودة. بالنتيجة، لا بد أن يكون أي شيء مخلوق معرّض للخطأ والفوضى والاضطراب بطبيعته. يجد كل الأشخاص الأذكياء والمتعقلين في أنفسهم القوة للحكم على أي نوع من الكائنات هم، ما هي التصرفات صحيحة التي تحميهم، وما هي التبعات التي ستلحق بهم عموماً، ما هي المسرّات التي نشأوا لأجلها، وإلى أي درجة قادرة طبيعتهم على إيفائها. كل ما علينا فعله إذن يا هوراشيو هو أن نفكر عندما نكون مذهولين بشيء جديد ونرغب بشغف بالتمتع به، فيما إذا كان إشباع هذا الشغف منسجم مع إشباع شغف ولذات أخرى أو فيما إذا كان ضرورياً إذا لم يكن أكثر ضرورة بالنسبة لنا، وفيما إذا كانت تنسجم مع سعادتنا غداً، الأسبوع القادم، أو السنة القادمة. لأننا، كما يرغب جميعنا أن يعيش، مجبرون بالمنطق أن نهتم بالقدر الكثير بمستقبلنا كما سعادتنا الحالية وأن لا نبني أحدهما على حطام الآخر. لكن إذا كنا، من خلال قوة

متعة اللحظة الحالية ومن خلال خلو الاهتمام بالتبعات، أخطأنا وتجاوزنا الحدود التي وضعتها لنا الطبيعة، سيكون علينا عندها، بسبب خطأنا نحن، أن نحجم أو ننكر على أنفسنا متعة وقتية في لحظة الحاضر من أجل مستقبل مستقر ومتين. لذا يرفض فقط نكران الذات الفلسفي هذا أن تؤدي تصرفاً ترغبه بشدة لأنه لا ينسجم مع صحتك وثروتك أو ظروفك في العالم. أو بكلمات أخرى، لأنها ستكلفك أكثر مما هي تستحق. فستخسر عندها كما خسر (رجل المتعة). وهكذا، كما ترى يا هوراشيو!، أن نكران الذات هو ليس فقط منطقي بل الشيء الأكثر سعادة في العالم.

هوراشيو: نحن على وشك الوصول إلى المدينة لذا لا نستطيع متابعة هذا الجدال أكثر من ذلك في الوقت الحالي. فقد قلت القدر الكبير لصالح الطبيعة والعناية الإلهية والمنطق. سعداء هم من تمكن من اتباع نصائح إلهية كتلك.

فيلوقليس: عمت مساءً يا هوراشيو!. أتمنى لك الحكمة في تصرفاتك الممتعة.

هوراشيو: أتمنى، يا فيلوقليس!، أن أكون حكيماً في تصرفاتي الممتعة كما أنت حكيم بشكل ممتع. فحكمتك جميلة، وفضيلتك دمثة، وفلسفتك هي الأكثر رقياً. الوداع! فأنت مفكر ساحر!

[صحيفة بنسلفانيا الرسمية، 23 من حزيران /1730]

## محاكمة ساحرة في (ماونت هولي)

اجتمع في آخر يوم سبت عند ماونت هولي، حوالي 8 أميال عن هذا المكان، ما يقارب 300 شخص ليروا تجربة أو اثنتين تُجرى على بعض الأشخاص المتهمين بالسحر. يبدو أن المتهَمين قد أدينوا بجعل خراف جيرانهم ترقص بشكل غير مألوف وجعل الخنازير تتكلم وتتلو آيات المزامير... إلخ، مما سبب الرعب الكبير والذهول لرعية الملك الطيبين والمسالمين في تلك المقاطعة. والمدّعين متيقنين جداً من أن المتهَمين إذا تم وزنهم بميزان مع الإنجيل، سيبدو الإنجيل ثقيلاً جداً بالنسبة لهم. أو أنه إذا تم تقييدهم ووضعهم في النهر فسيسبحون. عرض المتهمون المذكورون، رغبةً منهم بظهور البراءة، بشكل طوعي، الخضوع للتجربة المذكورة إذا كان سيشارك معهم التجربة 2 من متهِميهم (بكسر الهاء) الأقوياء. وفقاً لذلك، تم الاتفاق على الزمان والمكان وتم الإعلان عن ذلك في البلد. كان المتهِمون (بكسر الهاء) رجلاً واحداً وامرأة واحدة. وكذلك المتهَمون. التقى الفريقان واجتمع الناس. وعُقدت مشاورات ضخمة قبل أن ينفذوا التجربة وتم على ضوئها الاتفاق على استعمال الميزان أولاً. وتم تعيين لجنة من الرجال لتفتيش الرجال، ولجنة من النساء لتفتيش النساء، ليروا إذا كان لديهم أي شيء ليزنوهم به، وخصوصاً دبابيس. بعد أن انتهى التفتيش الدقيق تم الإتيان بإنجيل كبير ضخم يعود

إلى قاضي البلدة، وتم عمل طريق بين الحشود من المحكمة إلى الميزان الذي تم تثبيته على مشنقة نُصبت لهذا الغرض مقابل المحكمة وذلك لكي ترى زوجة القاضي وبقية السيدات التجربة بدون الحضور بين الرعاع. ووفقاً لطريقة (مورفيلد) تم صنع حلقة كبيرة أيضاً. ثم خرج من المحكمة رجل طويل مهيب يحمل وثيقة مقدسة أمام الساحر المزعوم...إلخ (بشكل رسمي كحامل السيف لمدينة لندن أمام السيد العمدة). تم وضع الساحر أولاً في الميزان وقُرئ عليه فصل من كُتُب موسى، ثم بعد ذلك وُضع الإنجيل في الكفة الأخرى (التي تم جعلها منخفضة مسبقاً) وتم إفلاته مباشرةً. ولكن لدهشة المتفرجين نزلت كفة اللحم والعظم وفاقت ذلك الكتاب الكبير وزناً. وتم اتباع نفس الطريقة مع الآخَرَيْن، وكانت كتلتهم كلٌ على حدة ثقيلة جداً بالنسبة لموسى وكل الأنبياء والرسل. بعد أن انتهى هذا، لم يقتنع المُدَّعون وبقية الرعاع بهذه التجربة ورغبوا بتجربة الماء. وفقاً لذلك، تم عمل مسيرة مهيبة نحو بحيرة الطاحونة، حيث تعرّى كل من المتهَمين والمتهِمين (عدا ملابسهم الداخلية فقط بالنسبة للنساء) وتم وضعهم في الماء كل على حدة وهم مقيدي اليدين والقدمين، لديهم للسلامة فقط حبلاً حول خاصرة كل منهما من جانب مركب والذي تم مسكه من قبل البعض في المركب. بدأ المتهم الذي كان نحيفاً وهزيلاً بالغطس أخيراً بصعوبة، لكن الباقون، كل واحد منهم، سبح بخفة على الماء. قفز بحّار من على المركب على ظهر الرجل المتهَم بنيّة جره للقاع. لكن الشخص المقيّد وبدون أية مساعدة صعد للأعلى قبل الآخر لبعض الوقت. أما بالنسبة للمرأة المتهمة (بكسر الهاء)، فلكون قيل لها بأنها لم تغرق، كان عليها أن تغطس للمرة الثانية. وسبحت ثانيةً بخفة كالمرة

السابقة. وأعلنت بشأن ذلك بأنها تعتقد بأن المتهَم قد سحرها لكي يجعلها خفيفة الوزن جداً وأنها كانت ستغطس ثانيةً مائة مرة فقط لتغرق الشيطان. لم يكن المتهَم (الذي كان مندهشاً لسباحته) واثقاً جداً من براءته كالسابق. لكنه قال «لا أعلم إن كنتُ ساحراً أم لا». الأمر الذي يدعو للتفكير أكثر بالنسبة للمتفرجين هو رأيهم بأن أي شخص يُقيّد بقوة ويوضع في الماء (ما لم يكن مجرد جلد وعظم) فسيسبح إلى أن تنقطع أنفاسه وتمتلئ رئتاه بالماء. لكن المعتقد العام للجماهير هو أن الملابس الداخلية ورباط الجوارب للمرأتين والتي رُبطت المرأتان بهم قد ساعدوا على نجاتهما، وقيل بأنه يجب عليهما المحاولة مرة ثانية في الطقس الدافئ القادم، وهما عاريتان.

**[صحيفة بنسلفانيا الرسمية في 22 من تشرين الأول/1730]**

## نصيحة لرجل شاب

**فيلادلفيا، 25 من حزيران/1745**

إلى صديقي العزيز: لا أعلم عن وجود دواء مناسب يقلل من الميول الطبيعية العدائية التي ذكرتَها، ولو عرفتُ فلا أعتقد بأنني سأوصله لك. فالزواج هو الوصفة الصحيحة. فهو الطور الأكثر طبيعية للبشر وبالتالي الطور الذي على أكثر الاحتمالات تجد فيه السعادة الرائعة. إن أسبابك في رفض الزواج تبدو لي لا أساس لها. فالمزايا الحالية التي تمتلكها لتأجيله ليست ملتبسة فقط وإنما قليلة الشأن مقارنةً بالأمر نفسه، أن تكون متزوجاً وأن تستقر. إن اتحاد الرجل والمرأة هو ما يصنع الكائن البشري المتكامل. بينما وهما متباعدان، هي تحتاج إلى قوته الجسدية وقوة المنطق، وهو إلى رقتها ووعيها وبصيرتها. فمعاً ينجحان في الحياة. لا يمتلك العازب على نحو وثيق التقدير الذي سيحظى به في حالة الاتحاد، فهو حيوان غير متكامل. فهو يشبه نصف مقص.

إذا حظيتَ بزوجة حكيمة ومعافاة، فمثابرتك في عملك مع تدبيرها الجيد ستكون محظوظاً. لكن إذا لم تستمع لهذه النصيحة واستمريت بالتفكير المحتوم تجاه الجنس بشكل تجاري، فسأكرر نصيحتي السابقة بأن في كل علاقاتك الغرامية عليك أن تفضّل المرأة الكبيرة في السن على المرأة الشابة. ستسمي ذلك تناقضاً وستطلب أسبابي لذلك، وها هي:

1 ـ لأنهن أكثر معرفة بالعالم وأن عقولهن مليئة بالملاحظات فسيكون حديثهن مشجّعاً أكثر، وأكثر قبولاً دائماً.

2 ـ لأنهن عندما لن يعدن جميلات فسوف يدرسن كي يصبحن صالحات. ولكي يُبقين تأثيرهنّ على الرجال مستمراً فسيقمن بملء نقص الجمال بتعزيز المنفعة. سيتعلمن لكي يعملن ألف وظيفة، صغيرةً كانت أم كبيرة. وسيكنّ الأكثر رقة وفائدة من كل الأصدقاء عندما تصبح مريضاً. وبهذا سيبقين ودودات. وبالتالي بالكاد ستجد امرأة كبيرة في السن ليست امرأة طيبة.

3 ـ لأنه لن يكون هناك خطر الأطفال الذي قد يصاحب ولادتهم الغير منظمة إزعاج كبير.

4 ـ لأنه من خلال حنكتهن الكبيرة يكنّ أكثر حكمة وحصافة من أن يتصرفن بخداع، ليتفادين عدم الثقة. لذلك فالتعامل معهن أكثر أماناً من ناحية سمعتك. ومن ناحية سمعتهن، إذا صادف وأن عُرفت العلاقة الغرامية، فقد يميل الناس المتفهمون نوعاً ما لأن يعذروا امرأة كبيرة في السن التي ستعتني بلطف برجل شاب، تشكّل سلوكه بمشوراتها النافعة وتمنع أن يدمر صحته وأمواله بين العاهرات المستأجَرات.

5 ـ لأن في كل حيوان يمشي وهو واقف، يظهر نقص السوائل التي تملأ العضلات أولاً في أعلى جزء، لذا فالوجه هو أول ما يبدأ بالضعف ويتجعد، ثم الرقبة، ثم الصدر والذراعين، بينما الأجزاء السفلى تبقى مليئة إلى النهاية كما هي. بحيث إذا قمنا بتغطية الأجزاء العلوية ولاحظنا فقط ما هو تحت الحزام فسيكون من المستحيل معرفة المسنّة من الشابة. إن السرور بالمتعة الجسدية

بامرأة كبيرة في السن، على الأقل هو نفسه، وكثيراً ما يكون أفضل، كالقطط التي تبدو جميعها رمادية في الظلام. فكل موهبة تتحسن بالممارسة.

6- لأن الخطيئة تكون بدرجة أقل. فإغواء عذراء قد يكون دمار لها ويجعلها غير سعيدة مدى الحياة.

7- لأن وخز الضمير يكون أقل. فجعْل فتاة شابة بائسة قد يسبب لك أفكاراً مرّة متكررة لا تصل أيٌّ منها لفكرة جعْل امرأة كبيرة في السن سعيدة.

8- وأخيراً، يكنَّ ممتنات!.

لكن مع ذلك أنصحك بأن تتزوج على الفور.

المخلص،

صديقك المحب،

**بنيامين فرانكلين**

## خِطاب (بولي بيكر)

هذا خطاب الآنسة (بولي بيكر) أمام محكمة القضاء في (كونيكتكت) بالقرب من بوسطن في نيوإنغلاند حيث تم محاكمتها للمرة الخامسة لإنجابها طفلاً غير شرعي، والذي أثّر في المحكمة وأعفتها من العقوبة، والذي شجّع أحد قضاتها للزواج منها في اليوم التالي وأنجبت منه خمسة عشر طفلاً.

هلا سمح لي القاضي المحترم بكلمة:

أنا امرأة فقيرة وتعيسة لا أملك مالاً كي أدفع للمحامين كي يترافعوا عني في المحكمة لكوني أواجه صعوبة في كسب عيشي. لن أزعج حضراتكم بخطابات طويلة لأنني لا أعتقد بأية حال من الأحوال توقع بأنكم ستحيدون عن القانون في قراركم لصالحي. كل ما آمله بتواضع هو أن تنقلوا بإحسان عطف المحافظ بالنيابة عني كي تُدفَع غرامتي. إن هذه هي المرة الخامسة، أيها السادة، التي يتم فيها جرّي إلى هنا أمام محكمتكم لنفس السبب. مرتان دفعتُ فيها غرامات ثقيلة، ومرتان عوقبتُ فيها أمام الملأ بسبب عدم امتلاك المال لدفع تلك الغرامات. قد يكون هذا مقبولاً بالنسبة للقانون، وأنا لا أجادل في ذلك، لكن لأن القوانين في بعض الأحيان غير منطقية بحد ذاتها ولذلك متناقضة، وأخرى تتحامل كثيراً في الموضوع في ظروف معينة، ولذلك بقي للسلطة أن تحسم أمر تنفيذهما. أعطيتُ لنفسي الحق

بأن أقول بأنني أعتقد بأن هذا القانون والذي عوقبتُ به هو غير منطقي بحد ذاته وقاسي بشكل خاص تجاهي أنا التي عشتُ دائماً حياةً مسالمة في الحيّ حيث ولدتُ وتحديتُ أعدائي (إذا كان لديّ أعداء). أريد أن أقول بأنني لم أظلم أي رجل أو امرأة أو طفل. ما استخلصتُه من القانون هو أنني لا أستطيع فهم (وهذا قد يُرضي حضراتكم) ما هي طبيعة جريمتي؟. فقد أنجبتُ خمسة أطفال رقيقين إلى الحياة معرضةً حياتي للخطر. حافظتُ عليهم جيداً بجهدي الخاص بدون أن أُثقِل على البلدة، وكنتُ سأحافظ عليهم أكثر لولا الرسوم والغرامات الثقيلة التي دفعتُها. فهل يمكن أن تكون هذه جريمة (بطبيعة الأشياء أقصد) بأن أزيد رعية الملك في بلدة جديدة تحتاج فعلاً لسكان؟. أنا أعترف بذلك، كان عليّ أن أعتقد بدلاً من ذلك بأنه فعل يستحق الثناء بدلاً من أن يستحق العقوبة. لم أغوِ زوج امرأة أخرى ولا خدعتُ أي شاب آخر. فلم أُتَّهَم بهذه الأشياء أبداً ولا يملك أي أحد أدنى سبب يسبب الشكوى ضدي ما لم، ربما، وزراء العدل لكوني حظيتُ بأطفال بدون زواج والذي بسببه فقدوا عمولة الزواج. لكن هل يمكن أن يكون هذا خطإي؟ أنا أحتكم لحضراتكم. لو سمحتم لي، فأنا لا يعوزني حسن التمييز، لكن أكون مخبولة إلى أبعد حد لو لم أفضّل الوضع المحترم للزواج على الحالة التي أعيشها. فلطالما كنت ولا زلت راغبة بالدخول فيه وتأكد من حسن سلوكي فيه، كوني أمتلك كل الجد والتدبير والخصوبة والمهارة في الادخار، الخاص بشخصية زوجة صالحة. أنا أتحدى أي شخص يقول بأنني رفضتُ عرضاً من هذا النوع. بل بالعكس فقد استجبتُ وبسرعة إلى عرض الزواج الوحيد الذي عُرض عليّ وهو عندما كنتُ عذراء، لكنني وثقتُ بسهولة بصدق الشخص الذي

عرضه. ففقدتُ شرفي بحزن بوثوقي به لأنه جعلني حاملاً بطفل ثم تركني.
إن هذا الشخص، كلكم تعرفونه جيداً، أصبح الآن قاضياً لهذا البلد وكان لديّ أمل بأن يظهر اليوم في المحكمة وأن يسعى إلى أن يليّن المحكمة لصالحي. عندها سأكون حقيرة لذكري ذلك، لكن الآن عليّ أن أشتكي من ذلك لكون من الظلم ومن غير المنصف أن يرتقي خائني، السبب الأول لكل خطاياي وإخفاقاتي (إذا اعتُبِرتْ كذلك) إلى المجد والسلطة في هذه الحكومة التي تعاقب شقائي بالضرب والمهانة. كان ينبغي إخباري بأنه في حال عدم وجود تشريع للمجلس، أكون كمن انتهك تعاليم الدين بمخالفاتي. إذا كانت مخالفاتي إساءة دينية فدعوها للعقاب الديني. فأنتم قد طردتموني مسبقاً من سكينة العشاء الرباني لكنيستكم، أليس هذا كافياً؟ أنتم تعتقدون بأنني أهنتُ السماء ويجب أن أعاني من النار الأبدية. ألن يكون ذلك كافياً؟ إذن ما الحاجة لغراماتكم الإضافية والجلد بالسوط؟ أنا أعترف بأني لا أفكر كما تفكرون، لأنني لو اعتقدتُ أن ما تسمونه خطيئة كان فعلاً كذلك فلن أكون قادرة على ارتكابها بوقاحة. لكن كيف يمكن تصور ان السماء غاضبة لكوني حظيت بأطفال، بينما يَرضى الله تجاه فعلي الضئيل هذا بإضافة براعته الإلهية وصنعه البديع بتكوين أجسادهم ويتوجها جميعاً بتزويدها بأرواح عاقلة وخالدة؟

سامحوني أيها السادة إذا تحدثتُ بإسراف قليلاً بشأن هذه الأمور. فأنا لستُ مقدسة، لكن إذا كان عليكم أيها السادة وضع قوانين، فلا تحوّلوا تصرفات طبيعية ومفيدة إلى جرائم بتحريماتكم. وخذوا بعين اعتباركم الحكيم العدد الكبير والمتزايد للعزّاب في البلاد الذين لم يتودد العديد منهم أبداً بصدق وبشرف طوال حياتهم إلى امرأة بسبب الخوف الديني

من نفقات العائلة. وبسبب أسلوب معيشتهم يتركون المئات (وهو أفضل قليلاً من القتل) من ذريتهم لم يولدوا للوجود إلى الجيل الألف. أليست هذه جريمة تجاه الصالح العام أكبر من جريمتي؟. أجبرهم إذن بالقانون إما على الزواج أو على دفع ضعف غرامة الزنا سنوياً. ماذا يجب على النساء الشابات المسكينات أن يفعلن، اللاتي ترفض عاداتهم وطبيعتهم إغواء الرجال واللاتي لا يستطعن فرض أنفسهم على أزواج عندما لا يهتم القانون بمنحهن أي شيء. ومع ذلك يعاقبهن بقسوة إذا أدَّيْن واجبهن بدونهم. واجب أول وأعظم أمر للطبيعة، والطبيعة هي الله، تزايَدْ وتكاثَر. الواجب الذي بسبب الأداء المستمر له لم يستطع أي شيء ردعي، لكن بسببه خاطرتُ بفقدان احترام العامة، ودائماً ما تحملت استهجان العامة والعقاب. لذلك «أعتقد برأيي المتواضع أن أحظى بدلاً من الجَلد، بتمثال يُنصَب لتخليد ذكراي».

[مجلة الجنتلمان، نيسان/1747]

## إلى (جَيْن فرانكلين ميكوم)

[كان (بيني) ابن أخ فرانكلين، قد تدرب عند شريك عمه في نيويورك. أما (جيمي) فهو ابن أخ آخر والذي تدرب عند فرانكلين في فيلادلفيا]

**فيلادلفيا [1747]**

أختي العزيزة: تلقيتُ رسالتك التي تخص (بيني) والأخرى التي تخص السيد باركر، وكذلك رسالتيّ (بيني) بخصوص الشكوى والتي كما لاحظتِ لا تصف الكثير. عليّ أن أكوّن فكرة سيئة عنه لو كان قد كتب لك هذه الاتهامات التي ذكرتيها عن سيده، لأن من معرفتي الطويلة بسيده الذي عاش بضعة سنوات في منزلي، أعرفه رجلاً حكيماً وتقيّاً وحي الضمير. لذا لا بد أن (نيوبورت) الذي يبدو أنكِ منحتيه دَيْناً كبيراً قد ظلم السيد باركر كثيراً في قصته، وظلَمَ (بيني) أيضاً لو كان قد قال بأن (بيني) من أخبره بأمور كتلك لأنني واثق بأنه لم يفعل ذلك.

بالنسبة للخدم الرديئين الذين أصابوه بالجدري فأعتقد أن المرأة الزنجية لو لم تكن أدت واجبها، لكان سيدها أو سيدتها قد أصلحوا الأمر لو كانوا على علم به. لكن السيدة (باركر) نفسها كانت، إذا لم أكن مخطئاً، مريضة في ذلك الوقت وكذلك طفلها. ورغم أنه منح تلك المرأة صفة سيئة عموماً إلا أن كل ما يتهمه بها على وجه الخصوص هو أنها لا تجلب له ما يطلبه على الفور، وأحياناً لا تجلبه مطلقاً. كان يمتلك حدة في المزاج، ومع

ذلك أعتقد بأن من السوء كفاية أن يكون، كالمرضى الآخرين، قليل الصبر وربما قد يعتقد الوقت القصير وقت طويل وفي بعض الأحيان يطلب أشياء لا تناسب شخصاً في حالته. أما بالنسبة للملابس فأنا في نيويورك بشكل دائم ولم أره أبداً معوزاً لما هو جيد ولائق وكافي. كنتُ هناك لفترة أقل، من آذار السابق وكان حينها مهندماً ولم يشتكِ لي من أي شيء. سمعتُ كلاً من سيده وسيدته يدعو أنه صباح الأحد كي يكون مستعداً للذهاب إلى القداس ويخبرانه بشأن تأخيره ولخبطته المتكررين إلى أن تأخر الوقت ولم يبدِ أي اعتراض بشأن الملابس. لم أره أمراً غير عادي بأن يكون راغباً بالتهرب من الذهاب للقداس لأنني أظن بأنه حال كل الصبية أو غالبيتهم. فأنا قد قمتُ بتربية أربعة أو خمسة بنفسي وقد لاحظتُ بشكل متكرر بأنه إذا كانت أحذيتهم رديئة فلن يذكروا عن زوج جديد شيئاً حتى صباح الأحد، فقط عندما يدق الجرس وعندما تسألهم لماذا لم يستعدوا، تكون الإجابة جاهزة «لا أملك حذاءً». وكذلك عن أمور أخرى، قبعات وما شابه. أو إذا علموا بشيء يحتاج إلى تصليح، يكون سراً حتى صباح الأحد، وأعتقد أحياناً بأنهم كانوا سيعملون فتق قليل على أن يكونوا بلا عذر.

أما فيما يخص الذهاب إلى مأموريات بسيطة، فلا أحد يحبها من الصبية لكن عليهم جميعاً عملها. حالما يصبحون مناسبين لعمل معين، سيتخلصون من ذلك بشكل طبيعي لأن مصلحة السيد تتدخل مما يسبب إراحتهم. أنا لا أشك بأن السيد (باركر) سيتخذ متدرباً آخر حالما يجد أحداً مناسباً. في تلك الأثناء سأكون سعيداً لو يُظهِر (بيني) بعض الصبر. هناك امرأة سوداء تقوم بالكثير من تلك المأموريات.

لا أعتقد بأن ذهابه على متن سفينة القرصنة قد نتج من أي خلاف بينه

وبين سيده أو من سوء معاملة تلقاها. فعندما يرى الصِبية الغنائم تُجلَب وكميات الأموال يتم تقاسمها بين الرجال، فذلك يملأ عقولهم بأفكار تذهلهم وتجعلهم غير مدركين تماماً للتجارة والطرق المبهمة للحصول على المال بالعمل. إن هذه على ما أفترض هي حالة (بين)، فقد كانت (السفينة كاثرين) قد وصلت للتو بثلاث غنائم ثمينة، وكان مجد استلاب سفينة العدو التي كان كل من الضباط والبحارة فخورين ومنتشين... إلخ بها، قد لعب كثيراً بمخيلته. سترين في إجابته على رسالتي بأن الأمر غير مستبعد. أرسلتُها لكِ مرفقة. كتبتُ له كثيراً عن الوضع، ورغم أنه قد يشتكي من مكانه كي يبرر هذه الهفوة للآخرين، إلا أنك سترين بأنه لن يتفوه بجملة عن شيء كهذا أمامي. إن ابني الوحيد قبل أن أسمح له بالذهاب إلى (ألباني) ترك منزلي بدون أن يعلم جميعنا وركب متن سفينة القرصنة من حيث جلبتُه منها. لم يتخيل أحد أن السبب كان المعاملة السيئة في البيت هي ما جعله يفعل ذلك. فكل شخص يعرفني يعتقد بأنني أب وكذلك سيد متسامح جداً.

ربما سأتعبك بطول هذه الرسالة، لكنني مسهِب أكثر وذلك كي أقنعكِ ما أمكن بخصوص موقف ابنكِ. إن سيده (برسالة هذا البريد) رغب مني بالكتابة له بشأن مبيته خارجاً في الليل، أحياناً الليل بأكمله، رافضاً منح سبب بشأن أين قضى وقته أو مع مَن مِن الصحبة. إن هذا لم أسمع به من قبل، رغم أنني أدرك بأنك سمعتِ به. أنا لا أندهش من معاقبته على ذلك. فلو كان ابني، فسينبغي أن أعتقد بأن سيده لا يؤدي واجبه تجاهه لو كان قد تجاوز عن ذلك، لأن ذلك، لكي تكوني متأكدة، هو الطريق السريع نحو الدمار. وأعتقد بأن العقوبة خفيفة جداً ومن المستبعد أن تكون ذات تأثير لو لم تترك الضربات أثراً.

يقول سيده أيضاً ما يلي: «أعتقد بأنني لا أستطيع أن أثقل ضميري بكوني مقصراً كثيراً بواجبي تجاهه. سأطلب منكَ الآن، إذا لم تكن قد فعلتَ ذلك مسبقاً، بأن تدعوه كي يلقي بشكواه أمامك، ذلك بأنني أعلم كيف أطعن بها». إلى هذا الحد كانت كلمات رسالته، والتي تمنحني بداية مقبولة كي أبحث في القضية، وسأفعل وفقاً لذلك وآمل بأن أقوم بتسوية كل شيء من أجل رضاكِ التام. في تلك الأثناء، وضعتُ جانباً رسالتك إلى كل من السيد باركر و (بيني) ولن أرسلهما حتى أسمع ثانيةً منكِ لأنني أعتقد أن بمنحك إذُناً مصغية لقصص لا أساس لها كتلك، قد تسبب إساءة وتخلق المزيد من سوء الفهم، ولأنني أعتقد أن ما تكتبيه لـ (بيني) بشأن صَرْفِهِ من الخدمة قد يقلق فكره، ولذا فهو غير مناسب في هذا الوقت.

لديّ وجهة نظر جيدة بشأن (بيني) عموماً، ولدي آمال كبيرة بأن يصبح رجلاً هاماً، وأن أخطاءَه تكون هكذا كما هو حاصل عموماً للأولاد الذين في سنه، ويمتلك صفات جيدة عديدة، والتي لأجلها أحبه. لم أعرف أبداً متدرباً قنوعاً بالملابس التي خُصصت له من قبل سيده، جعلها تصبح كما هي عليه الآن. فعندما كان جيمي فرانكلين معي، كان دائماً غير راضياً ومتبرماً. وعندما كنتُ آخر مرة في بوسطن، دعته عمته بأن يذهب إلى متجر ويسعد نفسه، وهو ما فعله السيد المهذّب، واشترى مجموعة من الملابس على حسابي أغلى بمقدار النصف من أي ملبس منحتُه لنفسي، عدا بدلة واحدة والتي لا أذكرها من باب التذمر من جيمي، لأنه وأنا أصدقاء جيدين، بل لأريك طبيعة الأولاد. أنا، مع حبي لأخي كلنا في خدمتكِ وخدمة أمي، التي لم يتسنّ لي الوقت الآن لأكتب لها. أخوك المخلص

**ب. فرانكلين**

## إلى صديق في (بوسطن)

**فيلادلفيا، 25 من كانون الأول/1750**

عملتُ مؤخراً تجربة في الكهرباء والتي لا أرغب بأن تكررها. كنتُ قبل ليلتين مضتا على وشك أن أقتل ديكاً رومياً بصعقة من جرتين زجاجيتين كبيرتين تحويان برقاً كهربائياً يعادل 40 قارورة مجتمعةً. قبضتُ على الكل بدون قصد بذراعيّ وجسدي وتلقيت النار من السلكين المتحدين في الأعلى بيد واحدة، بينما مسكَتِ اليد الأخرى سلسلة متصلة بخارج كلتا الجرتين. قال الرفقاء المتواجدون (الذين أعتقد أن حديثهم معي: وحديثهم إلى أحدهم الآخر، قد سبب عدم انتباهي إلى ما كنتُ على وشك فعله) بأن الوميض كان عظيماً جداً، والصوت عالياً كصوت المسدس. مع ذلك، لكون حواسي قد تلاشت على الفور، لا رأيتُ الأولى ولا سمعت الأخرى، ولا شعرت بالضربة الصغيرة بيدي والتي وجدتُها بعد ذلك قد ارتفعت بانتفاخ دائري حيث دخلت النار، وكبيرة بحجم نصف طلقة مسدس. قد تحكم من خلال ذلك على سرعة البرق الكهربائي والذي يبدو بهذا المثال أكبر من سرعة الصوت والضوء والشعور الحيواني.

ما أستطيع تذكره عن الموضوع هو أنني كنت على وشك تجربة فيما إذا كانت القناني أو الجرار مشحونة بالكامل من خلال قوة وامتداد التيار المتدفق إلى يدي، كما اعتدتُ عمل ذلك بشكل مألوف، والذي كنت

ماعمله بأمان بشكل كافي لو لم أمسك السلسلة باليد الأخرى. ثم أدركتُ ما لم أعرف كيف أصفه. انفجار كامل خلال كل جسدي من الرأس حتى القدم والذي بدا داخلياً وكذلك خارجياً، والذي لاحظتُ بعده أولاً كان هزّة سريعة عنيفة لجسدي والتي خفّفت إحساسي بالتدريج كما عاد بالتدريج. ومن ثم فكرتُ بأن القناني يجب تفريغ شحنتها، لكن لم أتمكن من إدراك كيفية ذلك حتى لامستُ السلسلة في النهاية بيدي وأعدتُ التفكير بما أنا على وشك فعله. إن ذلك الجزء من يدي وأصابعي الذي مسك السلسلة بقي أبيض وكأنّ الدم قد سُحب منه. وبقي كذلك 8 أو 10 دقائق بعد ذلك أشعر وكأنه لحم ميت. وأصبت بخَدَر في ذراعاي ومؤخرة رقبتي والذي استمر حتى الصباح التالي ثم تلاشى. لم يبقَ شيء الآن من هذه الصعقة الكهربائية سوى تقرّح في عظام صدري والذي أشعر به وكأنه مكدوم. لم أسقط، لكني أفترض بأنني كنتُ سأُصرَع لو كنتُ قد تلقيتُ الصعقة في رأسي. كل شيء قد انتهى بأقل من دقيقة.

عسى أن توصل ذلك إلى السيد (بودوين) كتحذير له، لكن لا تجعله علنياً، لأنني خجل من كوني مذنب ذو سمعة بعمل الأخطاء، ومشابه للإيرلندي الذي أخبرتني عنه أختي، الذي بهدف ملاطفة زوجته صبَّ قنينة البارود على فحم مشتعل. أو ذلك الآخر الذي كان على وشك سرقة مسحوق البارود، عمل ثقباً في البرميل بمكواة حارة. المخلص،

ب. فرانكلين

ملحوظة: تحتمل القناني 6 غالونات لكل واحدة منها.

# تصدير المجرمين إلى المستعمرات

## إلى طابعيّي الصحيفة الرسمية

فهمتُ من خلال فقرة في أحد تقاريرك الأخيرة أن الحكومة في الوطن لن تسمح لمجلس نوابنا المخطئ بوضع أي قانون لمنع أو عدم تشجيع استيراد السجناء من بريطانيا العظمى لهذا السبب اللطيف وهو، بأن قوانين كهذه هي ضد المصلحة العامة لأنها تميل إلى منع تطور وإعمار المستعمرات.

إن قلقاً أمومياً حساساً كهذا في بلدنا الأم بشأن مصلحة أبنائها يتطلب جهاراً أقصى موارد الامتنان والواجب والتي يجب على كل شخص أن يكون مدركاً لها. لكن قيل: إن في ظروفنا الحالية من المستحيل بشكل مطلق فعل ذلك بالشكل المطلوب. أنا أعترف بذلك، لكن مع ذلك، فلنعمل كل ما بوسعنا. فهو أمر يجب أن نُظهِر تجاهه استعداداً معبراً عن الجميل.

هناك في بعض الأجزاء الغير مأهولة لهذه المقاطعات، أعداد من الزواحف السامة نطلق عليها اسم الأفاعي ذات الأجراس، المجرم المدان منذ الخليقة. أينما التقيناها نجهز عليها بحكم القانون الأزلي بسحق رأسها. لكن ذلك قانوناً دموياً وقد يبدو وحشياً، فمهما كانت هذه

المخلوقات مؤذية لنا، فمن الممكن أن تغيّر طبيعتها لو غيّرتُ بيئتها. كنتُ سأقترح بتغيير هذا الحُكم العام بالموت إلى النفي.

في فصل الربيع من السنة عندما تزحف لأول مرة خارج مكامنها تكون ضعيفة وثقيلة وبطيئة ويمكن الإمساك بها بسهولة. وإذا خُصصت جائزة صغيرة مقابل كل رأس، يمكن جمع الآلاف سنوياً ونقلها إلى بريطانيا. وهناك أقترح أن تُوزع في متنزه (سانت جيمس) وفي حدائق (سبرنغز) وأماكن أخرى للمتعة حول لندن وفي حدائق الطبقات العليا والنبلاء خلال البلد لكن بالخصوص في حدائق رؤساء الحكومات ولوردات التجارة وأعضاء البرلمان، فهؤلاء بالخصوص نحن ممتنون لهم.

لا يوجد هناك مخطط بشري مثالي جداً، بل قد تعترضه بعض المصاعب. مع ذلك، عندما تتخطى المصاعب الحد بكثير يُعتبر المخطط معقولاً ومناسباً للتنفيذ. وعليه تم الاعتراض على ذلك التصرف الجيد والحكيم للبرلمان، والذي بموجبه تُفرَّغ جميع سجون (نيوغيت) و (دنجيون) في بريطانيا إلى المستعمرات. لقد قيل بأن أولئك اللصوص والأوغاد الذين جُلبوا بيننا قد أفسدوا أخلاق الشباب في الأحياء التي آوتهم وارتكبوا عدة جرائم فضيعة. لكن لا تدع المصالح الشخصية تعيق المصلحة العامة، فأمنا تعلم ما هو الأفضل لنا. فما أقل اقتحام المنازل، السرقة، أو السلب على الطريق العام. ماذا يعني أن يفسَد ابن من الآن فصاعداً ويُشنق، بنت تمارس الدعر وتصاب بالزهري، زوجة تُطعَن، عنق زوج تُقطَع، أو دماغ طفل تُقطَع بالفأس، مقارنةً بـ «تطور وإعمار المستعمرات!».

وعليه، قد يتعارض ذلك ربما مع مخططي بأن الأفعى ذات الأجراس هي مخلوق مؤذي وأن تغيير طبيعتها مع البيئة هو مجرد افتراض لم يثبت

بحقائق كافية لحد الآن. ماذا بعد؟ أليس مثالاً شائعاً أكثر مما هو مبدأ؟. عسى أن لا يتعلم أبناء الطبقة الراقية البريطانيون المحترمون الأجلاف، من خلال الاعتياد على هذه الأفاعي، الزحف والتسلل وأن يسيل لعابهم وأن يتلوّوا في المكان (وربما يسممون من يقف في طريقهم)، وهي مؤهلات ذات فوائد ليست بالقليلة للخدم! بالمقارنة مع «التطوير والمصلحة العامة»، ماذا يعني أن يُقتَل طفل من الآن فصاعداً بعضّتهم السامة.... أو حتى كلبهم المدلل؟

أود أن أضيف فقط، إلى أن هذا التصدير للمجرمين إلى المستعمرات ربما يُعتبر كتجارة، كذلك على ضوء الإعفاء، تُدخِل جميع التجارة الآن عائدات، فالقضاء يحتاجها، إذ لا يمكن أن تكون هناك تجارة بدونها. ويبدو أن الأفاعي ذات الأجراس هي العائدات الأفضل من الأفاعي البشرية المرسلة من بلدنا الأم. رغم ذلك فهي ستحضى بالفائدة منا كأي فرع آخر من فروع التجارة، وستحصد منافع ملائمة بدون الدخول في مخاطر وصعوبات.

بالنسبة للأفعى ذات الأجراس، فهي تعطي تحذيراً قبل أن تحاول الإيذاء، وهو أمر لا يفعله المجرم.

المخلص،

الأميركي.

**[صحيفة بنسلفانيا الرسمية، 9 من أيار/1751]**

# ملاحظات

## حول ازدياد الجنس البشري، إسكان المقاطعات، إلخ

1 ـ إن جداول نسب الزيجات إلى الولادات، والموت إلى الولادات، والزيجات إلى أعداد المستوطنين، المعمولة على الملاحظات المستندة إلى وثائق الوفيات والتعميد للمدن الكثيفة السكان، لن تناسب الريف، ولا الجداول المستندة على الملاحظات المعمولة على دول قديمة مستقرة بالكامل كأوروبا، ستناسب دول جديدة كأميركا.

2 ـ إن ازدياد نسبة السكان يتناسب مع عدد الزيجات، وتلك بدورها تكون أكبر بالتناسب مع سهولة إعالة العائلة. عندما تُعال العائلة بسهولة، يتزوج أشخاص أكثر وبعمر مبكر أكثر.

3 ـ في المدن، حيث تكون كل التجارات والمهن والوظائف غير شاغرة، يتأخر العديد في الزواج إلى أن يتدبروا تحمل نفقات عائلة، هذه النفقات تكون أكثر في المدن لأن وسائل الترف تكون شائعة أكثر، فيعيش العديد عازبين خلال حياتهم ويستمرون كخدم للعائلات أو عمال بالتجارة. لذا تُزيد المدن نفسها بالسكان بالتوالد الطبيعي. والوفيات أكثر من الولادات.

4 ـ في الريف المستقر بالكامل لا بد أن يكون الحال مشابهاً تقريباً. فكل الأراضي مأهولة ومُصْلَحة إلى أقصى حد، وأولئك الغير قادرين على الحصول على أرض لا بد عليهم أن يعملوا لصالح الذين يملكونها. عندما يكون العاملون كثيرين فستكون أجرتهم أقل، وبالأجرة الأقل سيكون من الصعب إعالة عائلة، وتمنع هذه الصعوبة العديدين من الزواج، الذين يستمرون لهذا السبب خدماً لمدة طويلة وعازبين. فقط عندما تستقبل المدن سكان الأرياف، وبذلك ستفسح مجالاً في الريف، فسيزداد الزواج أكثر قليلاً هناك وستفوق الولادات الوفيات.

5 ـ إن أوروبا بشكل عام مستَوطَنة بالكامل بالفلاحين والصُّنّاع، ولذلك لا تستطيع الآن أن تزداد كثيراً بالسكان. فأمريكا مأهولة بالكامل بالهنود بشكل رئيسي، الذين يعتاشون غالباً على الصيد. لكن لأن الصياد (وجميعهم من الرجال) يحتاج إلى أكبر مقدار من الأرض يجني منها معاشه (يعتاش الفلاح على أقل بكثير، والجنائني لا يزال على أقل، ويحتاج الصانع إلى أقلهم جميعاً) يجد الأوروبيون أمريكا مأهولة بالكامل بالصيادين. مع ذلك لكون لديهم آثار كبيرة فيمكن أن ينتشروا إلى أجزاء من المقاطعات إلى القادمين الجدد الذين لا يتدخلون كثيراً مع المحليين في الصيد ويجهزونهم بالعديد من الأشياء التي يريدونها.

6 ـ الأرض على ذلك تكون وافرة في أمريكا ورخيصة جداً، كما أن الرجل الكادح الذي يفهم بالفَلاحة سيتمكن في وقت قصير من ادخار كمية كافية من المال لشراء قطعة أرض جديدة كافية للزراعة يعيل عائلة عليها، وهؤلاء لن يكونوا خائفين من الزواج. وحتى إن

نظروا بعيداً إلى الأمام بالتفكير كيف على أطفالهم عندما يكبروا أن يؤمنوا معاشهم، سيرون بأنه يمكن الحصول على أراضي بأجر بسيط أيضاً، فكل الظروف تؤخذ بعين الاعتبار.

7- إن الزواج في أميركا أكثر بشكل عام، ومبكر أكثر بشكل عام مما في أوروبا. وإذا فرضنا أن هناك فقط زواجاً واحداً سنوياً من بين 100 شخص، هنا نفترض اثنين، وإذا في أوروبا لديهم فقط 4 ولادات إلى زواج واحد (كون العديد من زيجاتهم تكون متأخرة)، نفترض هنا 8، إذا كبر منهم النصف (ونجحت زيجاتنا) بافتراض كلهم على بعضهم في 20 عاماً، فيكون سكاننا في حالة تضاعف على الأقل كل 20 عاماً.

8- لكن رغم هذا الازدياد، فأرض أميركا الشمالية لكونها شاسعة جداً فستتطلب العديد من الأجيال كي يتم تأهيلها بالكامل، وإلى أن يتم تأهيلها بالكامل، لن يكون العمل هنا رخيصاً أبداً، بحيث لن يستمر إنسان كعامل لفترة طويلة لدى الآخرين وإنما سيتخذ مزرعة له. ولن يستمر إنسان بالعمل طويلاً كصانع، بل سيذهب بين أولئك المستوطنين الجدد ويفتح متجراً لنفسه. وبالتالي لم يعد العمل أرخص هنا في بنسلفانيا مما كان قبل 30 عاماً مضت، ورغم ذلك تم استيراد الآلاف العديدة جداً من العمال.

9- إن خطر تعارض هذه المستعمرات في التجارة التي تعتمد على العُمّال والصُّنّاع مع بلدهم الأم، بعيد جداً من أن يستحق اهتمام بريطانيا العظمى.

10- لكن بتزايد نسبة المستعمرات تتزايد كثيراً الحاجة للصُّنّاع البريطانيين، سوق فخم تحت يد بريطانيا كلياً وفيه لا يستطيع الأجانب التدخل،

والذي سيتسع في وقت قصير حتى أكثر من قوة التموين، رغم ذلك ينبغي أن تكون جميع تجارتها إلى مستعمراتها. لهذا السبب لا يجب على بريطانيا أن تقمع كثيراً الصناع في مستعمراتها، فالأم الحكيمة والطيبة لن تفعل ذلك. إن تصيبها بمحنة يعني أن تضعفها، وبإضعاف الأبناء تضعف العائلة برمتها.

11 ـ إضافةً إلى ذلك، إذا كان على صناع بريطانيا (بسبب المتطلبات الأمريكية) أن يزيدوا في السعر كثيراً جداً، فسيُخرِج الأجانب، الذين يتمكنون من البيع بسعر أرخص، تجارهم من السوق الأجنبية، وبهذه الطريقة سيتشجع الصناع الأجانب وسيزدادون، وبالنتيجة ستزداد الأمم الأجنبية (وربما منافسوها في القوة) في السكان والقوة، بينما لن تتمكن مستعمراتها الخاصة، التي بقيت في درجات واطئة جداً، من مساعدتها أو أن تزيد في قوتها.

12 ـ إن الرأي القائل بأن بعمالة العبيد ستتنافس أميركا في رخص سعر الصناع مع بريطانيا، هو رأي لا أساس له. فعمالة العبيد لا يمكن أبداً أن تكون رخيصة جداً هنا كعمالة الرجال العاملين في بريطانيا. بإمكان أي شخص أن يحسبها. فالفائدة على الأموال في المستعمرات تبلغ من 6 إلى 10 في المائة. يكلف العبيد كلهم على بعضهم 30 جنيهاً إسترلينياً للرأس. بعد ذلك احسب فائدة أول شراء للعبد، التأمين على الحياة، ملابسه وطعامه، نفقات مرضه وخسارة الوقت وخسائر إهماله للعمل (الإهمال أمر طبيعي بالنسبة للإنسان الذي لن ينتفع بالتزامه أو تعبه)، نفقات السائق كي يوصله إلى موقع العمل، سرقاته من وقت لآخر، فكل عبد تقريباً يكون لصاً بطبيعته. ثم قارن المبلغ الكلي بأجور

صانع حديد أو خشب في إنكلترا، سترى أن العامل أرخص بكثير من أي شخص زنجي هنا. لماذا إذن سيشتري الأمريكيون العبيد؟ لأن العبيد يتم الاحتفاظ بهم حسب رغبة المالك، أو لديه سبباً لتشغيلهم، بينما يترك العمال المستأجَرون باستمرار أسيادهم (غالباً في منتصف عمله) ويؤسسون عملهم الخاص لأنفسهم. (نقطة رقم 8)

13- لأن ازدياد السكان يعتمد على تشجيع الزيجات، فلا بد للأمور الآتية أن تضعف الأمة، أي، (1) أن تكون محتلاً، لأن الغزاة سيستحوذون على العديد من الوظائف ويفرضون أتاوة كبيرة أو ربح على عمل المحتَل، كما سيبقيهم في وضعهم الجديد، وهذا سيضعف رزق السكان المحليين ويثبط عزيمتهم على الزواج، وبالتالي سيقلون بالتدريج بينما يزداد الأجانب. (2) فقدان الأراضي، وعليه، إذا ضُمَّت (برايتونز) إلى (ويلز) وحُشرت في بلد مجدب غير كافي على إعالة أعداد كبيرة كهذه، فسيتناقصون حتى يُحَمِّل الناس نسبة على الإنتاج، بينما ازداد السكسونيون على أراضيهم الجرداء حتى أصبحت الجزيرة ممتلئة بالإنكليز. وإذا دُمج الإنكليز الآن مع ويلز من قبل أمة أجنبية فلن يكون هناك إنكليز في بريطانيا بعد سنوات قلائل أكثر مثلما هم الآن في ويلز. (3) فقدان التجارة، سيجني الصناع المستوردون الرزق من دول أجنبية، وبهذه الطريقة سيكونون متمكنين من الزواج وإنشاء عائلة. إذا حُرمت الأمة من أي فرع من التجارة، ولم توجد وظائف جديدة للناس العاملين بهذا الفرع، فستُحرَم سريعاً أيضاً من العديد جداً من الناس. (4) فقدان الطعام، افرِضْ أمة تعتاش على صيد الأسماك، فهي لا توفر أعداد كبيرة من السمك فقط بل تجعل طعام

ومعاش الناس أرخص. إذا أصبحت أمة أخرى سيدة البحار ومنعت الصيد فستتناقص نسبة الناس لأن فقدان الوظيفة وندرة التموين تجعل من الصعب إعالة عائلة. (5) الحكومة السيئة والملكية الغير آمنة، لا يغادر الناس فقط بلداً كهذا ويستقرون خارجاً ويندمجون مع أمم أخرى ويفقدون لغتهم المحلية ويصبحوا أجانب، وإنما ستُحبَط ما بقي من مثابرة لهؤلاء، وستقل كمية الرزق في البلد وستصبح إعالة عائلة أكثر صعوبة. لذا تميل الضرائب الثقيلة إلى تقليل الناس. (6) استقدام العبيد، إن استجلاب الزنوج إلى جزر السكر الإنكليزية قلل بشكل كبير أعداد البيض هناك. فالفقراء بهذه الطريقة حُرموا الوظيفة، بينما تمتلك عائلات قليلة أملاكاً شاسعة والتي ينفقونها على رفاهيات غريبة، ويعلمون أطفالهم عادة هذه الرفاهيات. فنفس الوارد المطلوب لدعم واحد قد يعيل 100. إن البيض الذين يملكون عبيداً لا يعملون، هم ضعفاء، لذلك فهم غير وَلودين بشكل عام. كون العبيد يعملون بجد كبير وبقليل من الطعام فستنهدم بنيتهم وتصبح الوفيات بينهم أكثر من الولادات. لذا فالتجهيز المستمر مطلوب باستمرار من أفريقيا. إن المستعمرات الشمالية بامتلاكها القليل من العبيد تزداد نسبة البيض فيها. يزدري العبيدُ أيضاً العائلات التي تستخدمهم. يصبح الأطفال البيض مغرورين ويشمئزون من العمل، ولكونهم تعلموا على البطالة، فسيبقون غير مؤهلين بكسب عيشهم بالكد.

14 ـ وعليه، فالأمير الذي يحصل على أرض جديدة، إذا وجدها خالية أو أزال السكان المحليين كي يوفر مساحة لشعبه، يقوم المشرع الذي يضع القوانين الفعلية من أجل استمرار التجارة، بزيادة التوظيف،

تحسين الأرض بالحراثة الكثيرة أو الجيدة، توفير طعام أكثر من خلال صيد السمك، حماية الملكية..إلخ، والرجل الذي يخترع تجارات، فنوناً، أو صناعات جديدة، أو تحسينات جديدة على الزراعة يُطلَق عليه فعلياً (أباء دولتهم) لأنهم سبب جموع الأجيال، من خلال التشجيع الذي يقدموه من أجل الزواج.

15- بالنسبة للامتيازات الممنوحة للمتزوجين (كحق الأبناء، كما عند الرومان) قد تعجّل ملء البلاد التي ضعفت بالحروب والوباء، أو الأراضي الخالية. لكن ليس باستطاعتها زيادة السكان أكثر من حدود معاشهم.

16- إن وسائل الترفيه الأجنبية والصناعات الغير ضرورية المستوردة والمستعملة في الأمة تزيد (لنفس السبب) من عدد سكان الأمة التي تزودنا بها وتقلل سكان الأمة التي تستعملها. لذلك تسمى القوانين التي تمنع استيرادات كهذه، وبالعكس تُديم تصدير الصناعات كي يتم استهلاكها في دول أجنبية، بالقوانين المُحْدَثة (نسبةً إلى الناس الذين وضعوها)، لأن بزيادة المعاش يشجعون الزواج. إن قوانين كهذه تقوي أيضاً الريف بشكل مضاعف بزيادة سكانها أنفسهم ونقصان سكان الدول المجاورة لها.

17- ترفض بعض الأمم الأوروبية بحكمة استهلاك صناعات الهند الشرقية. عليهم أيضاً حظرها على مستعمراتهم لأن ربح التاجر لا يجب أن يُقارَن بفقدان (بهذه الوسائل) أناس الأمة.

18- إن وسائل الترفيه المنزلية في الغالب تزيد أعداد صانعي الأمة الذين يشتغلون بها (والذين هم عديدين) وتميل فقط إلى تقليل العائلات

التي تتمتع بها (والتي هي قليلة). كلما زادت النفقات على السلع الترفيهية لأي طبقة من الناس، كلما ازداد التخوف من الزواج. لذلك لا يجب أن تكون السلع الترفيهية شائعة أبداً.

19 ـ إن الزيادة الكبيرة في الذرية لعائلات معينة لا تُعزى دائماً إلى الخصوبة العالية، وإنما أحياناً إلى نماذج مثابِرة يُقتدى بها، وتعليم يشجع المثابرة، والذي يتمكن الأطفال بواسطته أن يحسنوا من أنفسهم وتزداد نسبة زيجاتهم المبكرة من منظور المعاش الجيد.

20 ـ إذا كان هناك فئة في أمتنا تعتبر التدبير الاقتصادي والمثابرة واجبات عقائدية وتقوم بتعليم أطفالها ذلك أكثر مما يفعل آخرون عادةً، فعلى طائفةٍ كهذه أن تزداد بالتوالد الطبيعي أكثر من أية فئة أخرى في بريطانيا.

21 ـ إن استيراد الأجانب إلى دولة تمتلك من المواطنين بعدد الوظائف الموجودة وشروط المعيشة، لن يكون فيها في النهاية ازدياد في السكان ما لم يمتلك القادمون الجدد مثابرة وتدبير اقتصادي أكثر من السكان المحليين، وعندها سيوفرون معاشاً أكثر وسيزدادون في البلد. لكنهم بالتدريج سيلفظون السكان المحليين. ليس من الضروري جلب أجانب لملء أي شاغر عَرَضي في البلاد، لأن شاغراً كهذا (إذا كانت القوانين سليمة. نقطة رقم 14، 16) سيُملأ قريباً بالتوالد الطبيعي. من يمكنه الآن أن يجد الشاغر، في السويد وفرنسا أو أمم محبة للحروب أخرى، الذي سبَّبه وباء البطولة قبل 40 سنة مضت، في فرنسا بسبب طرد البروتستانت، في إنكلترا باستقرار مستعمراتها، أو في غينيا بتصدير العبيد على مدى 100 عام والذي سوَّد نصف

أميركا؟. إن ضعف المستوطنين في إسبانيا يُعزى إلى الغرور الوطني والبطالة وأسباب أخرى، بدلاً من عزوه إلى طرد المغاربة أو إلى إنشاء مستعمرات جديدة.

22- باختصار، لا حدود على الطبيعة الخصبة للنباتات أو الحيوانات، وما يحصل فبسبب تزاحم وتداخل وسائل معيشتها مع بعضها البعض. هل كان وجه الأرض خالياً من نباتات أخرى. قد تكون غُرست وانتشرت بنوع واحد، كالشمر على سبيل المثال. وهل كانت خالية من سكان آخرين. قد يكونوا خلال عصور قليلة قد انتشروا من أمة واحدة فقط كالإنجليز على سبيل المثال. عليه، يُفترض الآن وجود ما يفوق المليون إنكليزي في أميركا الشمالية (رغم أنه يُعتقد بأنه تم جلب 80 ألفاً بشق الأنفس عبر البحر) من أجل الوظائف التي تقدمها المستعمرات للصناع في الوطن. إن هذا التضاعف المليوني (على افتراض مرة فقط كل 25 سنة) سيصبح في بلد آخر أكثر من سكان إنكلترا، والعدد الأعظم للإنجليز الذي سيكون على هذا الجانب هو الصافي. يا لها من زيادة في قوة الإمبراطورية البريطانية عبر البحار وكذلك على الأرض! يا لها من زيادة في التجارة والملاحة! يا لعدد السفن والبحارة! فلسنا هنا سوى أكثر من مائة عام بقليل ومع ذلك كانت قوة سفننا المسلحة في الحرب الأخيرة، بمجموعها، أكثر بالرجال والسلاح من البحرية البريطانية برمتها في عهد الملكة إليزابيث. كم هي مهمة إذن لبريطانيا قضية المعاهدة الحالية لإقرار الحدود بين مقاطعاتها ومقاطعات الفرنسيين، وكيف ينبغي أن تكون حريصة كي تؤمن مساحة كافية، لأن على المساحة تعتمد كثيراً جداً زيادة سكانها.

23 ـ الخلاصة، إن الأمة المنظمة جيداً كالأخطبوط، أزِلْ ذراعاً وستُستبدَل مكانها بسرعة أخرى. اقطعه إلى نصفين، وسينمو كل جزء ناقص بسرعة من الجزء المتبقي. وعليه، إذا كان لديك مساحة ومعاش كافٍ، يمكنك من واحدة أن تصنع عشر أمم وأيضاً آهلة بالسكان وقوية، كمن يحصل على عشرة أخاطيب من واحد بالتقطيع. أو بالأحرى تزداد الأمة عشر مرات بالعدد والقوة. لأن ابتعاد الإنجليز، المُرسَلين إلى أميركا، عن بريطانيا، سيتم ملء مكانه في الوطن وسيتزايدون أكثر هنا، فلماذا ينبغي على البلاطينيين[1] الوقحين أن يندفعوا إلى مستوطناتنا ويؤسسوا (بتجمعهم معاً) لغتهم وأساليبهم بمعزل عن لغتنا وأساليبنا؟. لماذا ينبغي على بنسلفانيا التي تأسست من قبل الإنجليز أن تصبح مستعمرة للأجانب الذين سيصبحون بوقت قصير عديدين ويجعلونا ألمان بدلاً من أن نجعلهم إنجليز، ولن يتبنوا أبداً لغتنا أو عاداتنا أكثر من تمكنهم اكتساب لون بشرتنا؟

24 ـ إن ما يقودني إلى أن أضيف ملاحظة واحدة هو أن عدد البيض الأصليين في العالم هو قليل جداً نسبياً. فأفريقيا جميعها من السود أو الصفر، آسيا من الصفر بشكل رئيسي، أميركا (حصرياً القادمين الجدد) جميعهم كذلك. وفي أوروبا يكون الإسبان والإيطاليين والفرنسيين والروس والسويديين عموماً من ما نسميهم بالبشرة السمراء. والألمان أيضاً ـ باستثناء السكسونيين ـ الذين (أي الألمان) مع الإنكليز كوّنوا الكتلة الرئيسية للبيض على وجه الأرض. كنتُ أتمنى أن يزداد عددهم. ومثلما نقوم (إن صح ما أسميه) بتلميع

(1) البلاطينيين: جمع بلاطيني وهو الموظف الكبير في البلاط. (المترجمة).

كوكبنا بتصفية أميركا من الغابات لجعل هذا الجانب من الكرة الأرضية يعكس ضوءاً أكثر لمعاناً إلى عيون السكان في المريخ أو الزهرة، فلماذا بنظر الكائنات الأرقى علينا أن نُسَوِّد سكانها؟ لماذا نُزيد أعداد أبناء أفريقيا بزرعهم في أميركا بينما نمتلك فرصة جيدة جداً بإخراج جميع السود والصفر لزيادة البيض والحمر اللطفاء؟. ربما أكون متحيزاً إلى لون بشرة بلدي، لأن هكذا نوع من التحيز هو أمر طبيعي بالنسبة للجنس البشري.

**[كُتب في 1751، ونُشر عام 1753]**

# الطائرة

## إلى (بيتر كولينسون)

**فيلادلفيا، 19 من تشرين الأول/ 1752**

سيدي: بما أنه تكررت الإشارات في التقارير العامة من أوروبا عن نجاح تجربة فيلادلفيا بجذب البرق من الغيوم بواسطة قضبان مدببة من الحديد نُصبتَ على بنايات عالية، سيكون من المقبول إخبار المهتمين أن نفس التجربة قد نجحت في فيلادلفيا رغم تنفيذها بأسلوب مختلف وأكثر سهولة، وهي كما يلي:

اصنع صليباً صغيراً من شريطين خفيفين من خشب الأرز تصل ذَراعاه عند مدّه إلى الزوايا الأربع لمحرمة كبيرة رقيقة من الحرير. اربط زوايا المحرمة إلى أطراف الصليب كي تحصل على هيكل طائرة والتي (لكون تم تثبيت ذيل وحلقة وخيط فيها) سترتفع في الهواء كتلك المصنوعة من الورق. لكن لكون هذه مصنوعة من الحرير فستكون مناسبة أكثر لتحمل الرطوبة والعواصف الرعدية بدون أن تتمزق. يجب تثبيت سلك مدبب حاد جداً على قمة العصا العمودية للصليب، يرتفع قدماً أو أكثر عن الخشبة. يجب ربط شريط حريري في نهاية جديلة الخيط التي تلي اليد، ويُثبت مفتاح حيث مكان التقاء الشريط الحريري مع جديلة الخيط. يجب

رفع هذه الطائرة عندما تبدو العاصفة الرعدية قادمة، ويجب على الشخص الذي يمسك الخيط أن يقف داخل باب أو شباك أو تحت ستار بحيث لا يتبلل الشريط الحريري، ويجب أن نحرص أن لا تلامس جديلة الخيط إطار الباب أو الشباك. حالما تصيب أي من الغيوم الرعديةُ الطائرةَ، سيسحب السلك المدبب البرق الكهربائي منها وستتكهرب الطائرة مع كل جديلة الخيط وستتنافر الخويطات المرتخية لجديلة الخيط بجميع الاتجاهات وستنجذب بواسطة تقريب أصبع. وعندما يبلل المطر الطائرة وجديلة الخيط بحيث يمكنها توصيل البرق الكهربائي بحرية، ستجد بأنه ينساب بغزارة من المفتاح على مقربة من مفاصل أصابعك. عند هذا المفتاح قد يتم شحن القارورة، ومن برق كهربائي تم الحصول عليه بهذه الطريقة قد تشتعل مشروبات كحولية. إن جميع التجارب الكهربائية الأخرى التي تم إنجازها (والتي تم عملها بشكل معتاد بمساعدة كرة زجاجية أو أنبوب زجاجي تم دلكهما) والتي بها تم توضيح تشابه ماهية الكهرباء مع الضوء، قد تم شرحها بشكل كامل.

**ب. فرانكلين**

## إلى (كاثرين رَيْ)

**فيلادلفيا، 4 من آذار/1755**

عزيزتي (كيتي): إن رسالتك الكريمة بتاريخ 20 من كانون الثاني قد وصلت إلى يدي للتو وسأستغل هذه المناسبة للاعتراف بالفضل. إنه ليسعدني كثيراً أن أسمع بأنك وصلت للبيت سالمة وبخير ذلك اليوم. فقد كنتُ أعتقد أنه لمن المخاطرة جداً أن أراكِ تنزلين البحر في هذا الزورق الصغير جداً تُرمَيْنَ من كل موجة. لكن السبب كان قوياً وشرعياً، وهو والد مريض. وقفتُ على الشاطئ وتتبعتُكِ بنظراتي إلى أن لم أعد أتمكن من تمييزكِ، حتى بنظارتي. ثم عدتُّ إلى أختكِ وأنا أصلّي كي تَصِلي بسلام. عند حلول المساء اتفق الجميع بأنه لا بد أنك وصلت بالتأكيد قبل ذلك الوقت فالطقس كان مناسباً، ما جعلني مرتاح أكثر ومبتهجاً، لأنني كنتُ بحق قلقاً بشأنكِ.

غادرتُ (نيوإنغلاند) على مهل وبتردد كبير. إن الرحلات اليومية القصيرة والزيارات التسكعية في الطرقات على مدى ثلاثة أو أربعة أسابيع قد أظهرت عدم رغبتي بهجر بلد تنشقتُ فيه أول أنفاسي وقضيتُ طفولتي والأيام الأكثر بهجة فيه، والآن أتلقى العديد جداً من سيماء الطيبة والإحسان لدى الناس، بمعاملة كريمة وعطوفة ألاقيها في كل مكان. كنتُ قد نسيتُ تقريباً أنه لدي بيت إلى أن أصبحتُ على بعد أكثر من نصف المسافة باتجاهه، إلى أن هجرت جميع رفاقي النيوإنغلانديين الواحد بعد الآخر ووصلتُ إلى الحدود الغربية لكونيكتيكت مع

مجرد غرباء. ثم بدأتُ، كالرجل العجوز الذي دفن كل من أحبَّهم في هذا العالم، أفكر بالسماء، وبدأت أفكر وأتمنى البيت. واكتشفتُ بأن الجذب يكون أقوى وأقوى كلما اقتربتُ إليه. إن مثابرتي وسرعتي قد ازدادت مع نفاد صبري. ناظلتُ بقوة وعملتُ بطاقة قصوى كهذه بحيث جلبتني في أيام قليلة جداً إلى بيتي الخاص وإلى ذراعيّ زوجتي الطيبة وأطفالي حيث بقيتُ (والفضل لله) بخير وسعادة الآن.

بعض الأشخاص يشتكون من الرياح الشمالية الشرقية لأنها تزيد من مرضهم. لكن لأنكِ وعدتِ بإرسال قُبلات لي في تلك الرياح، وأنكِ وفيتِ بوعدكِ كما يجب، فهي بالنسبة لي أكثر الرياح التي تبعث على المسرة هبوباً والتي تمنحني أفضل روح معنوية. أنا أكتب ذلك في عاصفة شمالية غربية من الثلج، وهي الأقوى هذا الشتاء. إن حسناتكِ أتت ممتزجة مع النتف الثلجية النقية كبراءتكِ، والبيضاء كقلبكِ المحب، والباردة. لكن دعيها تدفئ شاباً ما شريفاً. وعسى أن تبارك السماء كليكما بكل أنواع السعادة.

رغبتُ من (آنا وورد) أن ترسل لك كتاباً صغيراً تركتُه معها ليسليك في تلك الجزيرة المنعزلة. احتراماتي لوالدكِ الطيب وأمكِ وأختكِ. دعيني أسمع دائماً عن أخباركِ الطيبة لأنني من غير المحتمل بأنني سأراك ثانيةً. تقبلي تشكراتي الصادقة أنا وزوجتي للمحاسن العديدة التي تلقيتُها منك ومن أقربائك. وأنصفيني بالثقة بي يا فتاتي العزيزة. صديقكِ المخلص الودود وخادمك المتواضع،

ب. فرانكلين

ملحوظة: تحياتي المتسمة بالاحترام لأخيك الطيب (وورد) وأختك وإلى عائلة (آل وورد) الطيبة في نيوبورت عندما ترينهم. الوداع.

# الزوبعة

**إلى (بيتر كولينسون)**

سيدي العزيز: أرسل لك الآن قصة عن زوبعة والتي حظيت مؤخراً برؤيتها والبحث فيها بنفسي، كما حظيتَ بتقاريري السابقة عن الزوابع.

عند تواجدي في (ماريلاند) راكباً مع الكولونيل (تاسكر) وبعض الرجال الآخرين إلى منزله الريفي حيث تم استضافتنا من قبل ذلك الرجل اللطيف والفاضل بترحيب وعطف كبيرين، رأينا في الوادي تحتنا زوبعة صغيرة تبدأ في الطريق وتُظهِر نفسها بالتراب الذي تحمله وتحتويه. ظهرت على شكل قمع مخروطي يلتف حول قمته صاعداً نحو التل باتجاهنا ويكبر كلما تقدم إلى الأمام. عندما عبرتْ خلالنا ظهر جزؤها الأصغر القريب من الأرض ليس أكبر من برميل عادي. لكن وهي تتوسع باتجاه الأعلى بدا نصف قطرها 20 أو 30 قدماً عند ارتفاع 40 إلى 50 قدماً. وقف بقية الرفاق ينظرون لها بتمعن، لكن لكون فضولي أكبر قمتُ باتباعها من جانبها وأنا أقود بالقرب ورأيتُ أثناء مسيرتها، سحبها لكل الغبار الذي كان عند جزئها الأسفل. حاولتُ، بسبب شيوع الرأي بأنه إذا أطلقت طلقة خلال ماء متدفق فسيوقفه، أن أوقف هذه الزوبعة الصغيرة بضرب سوطي بشكل متكرر خلالها، لكن بدون أي تأثير. بعد ذلك مباشرةً تركت

الطريق ودخلت الغابات وهي تزداد في كل لحظة حجماً وقوةً، رافعةً بدل الغبار أوراق الأشجار الجافة العتيقة التي كانت تغطي الأرض بكثافة مُصدرةً بواسطتها ضجة كبيرة، وأغصان الأشجار مسببةً انحناء بعض الأشجار الطويلة في دائرة بسرعة وبشكل مفاجئ جداً. رغم ذلك فالحركة التدريجية للزوبعة لم تكن سريعة جداً وإنما يمكن للشخص الواقف أن يمشي خلالها، لكن الحركة الدائرية كانت سريعة بشكل مذهل. تمكنتُ من خلال أوراق الأشجارالتي كانت مليئةً بها الآن من الإدراك بوضوح أن تيار الهواء الذي يسوقها كان يتحرك باتجاه الأعلى بخط حلزوني، وعندما رأيتُ جذوع وهياكل الأشجار الكبيرة مُغَلَّفة بالزوبعة المارة والتي استمرت قائمة بعد أن تركتْهم، لم أتعجب من أن سوطي لم يملك تأثيراً عليها في هيئته الصغيرة. لازمتُها حوالي ثلاثة أرباع الميل إلى أن تحطمتْ بعض أذرع أشجارٍ ميتة بالزوبعة وهي تتطاير وتتساقط بالقرب مني، مما جعلني متخوفاً من الخطر. ومن ثم توقفتُ وأنا أنظر إلى قمتها وهي تمضي، والتي كانت مرئية من خلال أوراق الأشجار المحتواة فيها، بارتفاع عالي جداً فوق الأشجار. تبعثرت العديد من أوراق الأشجار في الرياح وهي تفلت من الجزء الأعلى والأعرض، لكن ارتفاعها كان كبيراً جداً في الهواء لدرجة أنها ظهرت أصغر من الحشرات. اتبع ابني ـ الذي كان قد أتى معي في هذا الوقت ـ الزوبعة إلى أن غادرت الغابات وعبرت حقل تبغ قديم، حيث، لأنها لم تجد لا غبار ولا أوراق شجر كي ترفعها، أصبحت غير مرئية من الأسفل وهي تمضي فوق ذلك الحقل. كان مسار الرياح العامة التي كانت تهب آنذاك، إلى جانبنا طوال رحلتنا، وكانت الحركة المتزايدة للزوبعة باتجاه معاكس تقريباً. رغم أنها لم تستمر على خط مستقيم ولا

حتى حركتها المتزايدة كانت نظامية، إلا أنها سببت اندفاعات قليلة على كلا الجانبين وهي تمضي، متقدمة أحياناً أسرع وأحياناً أبطأ، وتبدو أحياناً لبضع ثواني ساكنة تقريباً، ثم تبدأ بالتوجه نحو الأمام بسرعة كبيرة جداً مرة ثانية. عندما عدنا وانضممنا إلى الرفاق كانوا متعجبين من الارتفاع الهائل لأوراق الشجر التي كانت تجلبها الآن الرياح العامة على رؤوسنا. رافقتنا تلك الأوراق طوال رحلتنا، بعضها يتساقط الآن ومن ثم يلتف حولنا، وبعضها لم تصل الأرض حتى مضينا قرابة الثلاثة أميال من المكان الذي رأينا الزوبعة تبدأ منه. عند سؤالي الكولونيل (تاسكر) فيما إذا كانت زوابع كهذه شائعة في (ماريلاند)، أجاب ببهجة: «كلا، ليست شائعة مطلقاً، لكننا فعلنا ذلك عن عمد لنستضيف السيد فرانكلين». وكانت استضافة رفيعة جداً.

إلى السيد العزيز،

صديقك المحب وخادمك المتواضع،

ب. فرانكلين

## إلى (كاثرين رَيْ)

**فيلادلفيا، 16 من تشرين الأول/1755**

عزيزتي (كيتي): إن رسالتكِ المؤرخة 28 من حزيران قد وصلت إلى يدي لكن بتاريخ 28 من أيلول، بعد 3 أشهر فقط من كتابتها. كنتُ قبل أسبوعين قد كتبتُ لكِ محادثة طويلة وأرسلتُها عن طريق أخيكِ (وورد). سمعتُ بأنكِ الآن في بوسطن، مرحة وودودة كالعادة. دعيني أقدم لكِ نصيحة أبوية، لا تقتل حمامات أكثر من قدرتك على أكلها. كوني فتاة متعقلة ولا تنسي مبادئك الدينية. اذهبي باستمرار إلى القداس أو الكنيسة إلى أن تحظي بزوج طيب. ثم ابقِ في البيت، وراعِ الأطفال وعيشي كمسيحي. اقضِ ساعات فراغك في صلوات معتدلة خفيفة، أو في تعلم الحساب، عليك أن تتعودي على جمع أموال زوجك بالمثابرة والتدبير الاقتصادي، وطرح كل النفقات الغير ضرورية، والضرب (كنتُ سأعلمكِ ذلك بنفسي بسرور لكنكِ اعتقدتِ بأن الوقت قد فات وما كنتِ لتتعلمي) سيعمل منكِ على الفور سيدته. بالنسبة للقسمة، فأنا مع الأخ (بول) أقول، لا تجعلي هناك انقسام بينكما. لكن بالنسبة لأختك الطيبة (هابارد) (وتحياتي لها) فهي ذات معرفة جيدة بـ (حُكْم الاثنين)، وأتمنى أن تصبحي خبيرة بـ (حكم الثلاثة)، بحيث عندما أتشرف بلقائك ثانيةً عسى أن أجدك كعريشة الكروم خاصتي، محاطة بمجموعة من العفاريت

الصغار الفاتنين البدينين الغضّين المتوردين، كأمهم. الوداع. فالجرس يرن وعليّ أن أذهب بين الرجال الأجلّاء وأتحدث في السياسة.

صديقكِ المحب

ب. فرانكلين

ملحوظة: وصل الخوخ سليماً وكان حلواً جداً من السبب الذي ذكرتيه بحيث بالكاد تمكنتُ من تذوق السكر.

## إلى (ديبورا ريد فرانكلين)

[كُتبت عندما كان فرانكلين على الحدود يبني حصوناً ضد الهنود]

طفلتي العزيزة: في هذا اليوم من الأسبوع وصلنا هنا. كتبتُ لكِ في نفس اليوم ولمرة واحدة من ساعتها. نحن مستمرون بشكل حسن والحمد لله. لقد أعاقنا الطقس السيِّئ. مع ذلك، فحصننا في حالة دفاعية جيدة، ونعيش كل يوم بشكل مريح أكثر. يجب بناء اثنين آخرين، واحد على كل جانب من هذا عند مسافة حوالي 15 ميلاً. آمل أن يتم الانتهاء منهما في غضون أسبوع أو عشرة أيام. بعد ذلك أنوي أن أغير طريقي باتجاه البيت.

لقد استمتعنا بلحم البقر المشوي الذي أرسلتيه لنا، وبدأنا اليوم بلحم العجل المشوي. اتفق الجميع بأن كلاهما الأفضل من نوعهما. لا يعرف مواطنوك الذين يتناولون عشاءهم حاراً، شيئاً عن أصول تناول الطعام، فقد اكتشفنا أنه من المثالي جداً أن يبعد المطبخ 4 أميال عن غرفة تناول الطعام.

كان التفاح مرحَّباً به للغاية ومن الشجاعة تناوله بعد لحم خنزيرنا المملح. لم تكن فطائر اللحم في متناول اليد لكنني أعتقد بأننا سنجدها بين الأغراض المنتظر مجيئها من (بيتيلهيم) يوم الثلاثاء. الكابيلير[1]، كان ممتازاً، لكن لم يصب أحدنا بالبرد لحد الآن، وقمنا بتذوقه فقط.

(1) الكابيلير: شراب يحضر من نبتة كزبرة البئر، يعتقد سابقاً بأن له خواص علاجية. (المترجمة)

بالنسبة لمأوانا، فهو على أسرّة من الريش وبأغطية دافئة، وأكثر راحة بكثير من مأوانا في حانتنا في الليلة الأولى بعد مغادرتنا البيت. بالنسبة للمرأة التي كانت على وشك وضع ملاءات رطبة جداً على السرير، رغبنا منها بأن تجففهم أولاً. بعد ذلك بنصف ساعة أخبرتنا بأن السرير كان جاهزاً وأن الملاءات تم تجفيفها جيداً. ذهبتُ للفراش، لكنني قفزتُ مباشرةً ووجدتُها باردة كالموت ومتجمدة جزئياً. لقد جففتهم بالفعل لكن في الخارج على السياج. فاضطررتُ إلى تغطية نفسي بمعطفي الكبير وبنطاليّ الصوفيين. كان كل شيء آخر بشأن الفراش قذراً بشكل مريع

آمل أن أكون معكم ومع عائلتي في وقت قريب وأن نستعيض عن الكلام. أما الآن فأضيف فقط، بأنني يا عزيزتي (دبي)، زوجك المحب.

ب فرانكير

## إلى (جَيْن فرانكلين ميكوم)

**نيويورك، 19 من نيسان/1757**

أختي العزيزة: كتبتُ إليكِ أمس بضعة أسطر لكني نسيتُ أن أجيب عن أسئلتك فيما يتعلق بالأخت (دوس). بالنسبة لاتخاذهم طريقهم الخاص فهو واحد من أكبر نعم الحياة على الناس الكبار في السن. أنا أعتقد بأنه ينبغي على أصدقائك استيعابهم في ذلك كما يستوعبون أي شيء آخر. عندما يكونوا قد عاشوا في المنزل مدة طويلة فسيصبح طبيعياً لهم، وسيصبحوا متعلقين به بشدة كتعلق السلحفاة بصدفتها، إذ تموت إذا أخرجناها منه. إذا نقلنا الأناس الكبار في السن والأشجار الكبيرة في السن فستكون نسبة موتها عشرة إلى واحد. لذا لا تَدَعي الأخت الفاضلة تلح بشأن الموضوع. فنحن أنفسنا نشيخ بسرعة وسنتوقع نفس النوع من التساهل، فإذا منحناه فسيكون بدورنا لنا الحق بتلقيه. وبالنسبة لحاجياتها الفاخرة القليلة، فأعتقد بأن ليس لها الحق في بيعها، وللسبب الذي هي ذكرته، وهو أنها لن تجلب سوى القليل. وعندما يُنفَق هذا القليل فلن يكون ذا فائدة كبيرة لها، لكن انتظار امتلاكها عند وفاتها قد يجعل ذلك الشخص حساساً وحذراً منها ومفيدة لها بمقدار عشر مرات قيمتها. فإذا كان الأمر كذلك فعليهم الاستفادة منها أقصى ما يمكنهم.

آمل أن تزوري الأخت كلما سمحت ظروفك بذلك، وأن تمنحيها من

المساعدة والعزاء ما تستطيعين في وضعها الحالي، فكبر السن والمرض والفقر مجتمعين هي محن كفاية، فلا يجب إضافة إهمال وازدراء الأصدقاء والأقرباء المقربون، إلى ذلك. فالناس الذين في ظروفها ميالون إلى توهم ذلك، وأحياناً بلا سبب. لذلك، يجب الاهتمام بالمظاهر في سلوكنا تجاههم، كما البواطن. أنا أكتب عبر هذا البريد إلى ابن العم (ويليامز) لكي يستمر بعنايته والتي لا أشك بها.

نتوقع الإبحار في غضون أسبوع، لذا بالكاد ستصلني أخباركِ وأنا في هذا الجانب من البحر، لكن دعيني أحظى بسطر أو اثنين منك من حين لآخر وأنا في لندن، فأنا أتوقع أن أبقى هناك على الأقل اثني عشر شهراً. عنوني رسائلك لي إلى مقهى بنسلفانيا، بيركن لين، لندن.

حبي لكم جميعاً، أيتها الأخت العزيزة،

أخوك المحب،

**ب. فرانكلين**

ملحوظة: 25 من نيسان. نحن لا نزال هنا وربما سنبقى هنا لأسبوع. الوداع مرة أخرى، أختي العزيزة.

# منشأ العواصف الشمالية الشرقية

[قيل بأن علم الأرصاد الجوية الحديث قد بدأ بملاحظة فرانكلين هذه]

**إلى (ألكسندر سمول)**

**لندن، 12 من أيار/1760**

سيدي العزيز: أرسل لك، موافقةً على طلبك، أسبابي للاعتقاد بأن عواصفنا الشمالية الشرقية في أميركا الشمالية تبدأ أولاً، في وقت معين، في الأجزاء الجنوبية الغربية: أي أن الرياح في (جورجيا)، وهي أبعد مستعمراتنا من جهة جنوب غرب، تبدأ بالتحرك بالاتجاه الجنوبي الغربي قبل رياح (كارولينا)، وهي المستعمرة التالية باتجاه شمال شرق. تمتلك رياح (كارولينا) نفس الحركة قبل رياح (فرجينيا) والتي تقبع ساكنة بالاتجاه الشمالي الشرقي أكثر. وهكذا بالاتجاه الشمالي الشرقي عبر (بنسلفانيا)، (نيويورك)، (نيوإنغلاند)، وتتوقف عند (نيوفاوندلاند).

إن هذه العواصف الشمالية الشرقية عموماً عنيفة جداً وتستمر أحياناً يومين أو ثلاثة وتؤدي غالباً إلى أضرار جسيمة في الموانئ التي على طول الشاطئ ومصحوبة بغيوم كثيفة وأمطار.

إن ما منحني هذه الفكرة كان الحادثة التالية: قبل حوالي 20 عاماً، أكثر

بقليل أو أقل، غير قادر على التذكر على وجه التحديد، كان لدينا خسوف للقمر في فيلادلفيا في يوم جمعة حوالي الساعة 9. كنتُ أنوي مشاهدته لكنني مُنعت من ذلك بسبب عاصفة شمالية شرقية والتي بدأت حوالي عند السابعة، وبغيوم كثيفة كالمعتاد والتي حجبت تماماً نصف الكرة الأرضية برمتها. مع ذلك، عندما جلب لنا ساعي البريد صحيفة (بوسطن) وهي تصف تأثيرات نفس العاصفة في تلك الأجزاء، اكتشفتُ أن بداية الخسوف قد تمت مشاهدته هناك بشكل واضح، رغم أن بوسطن تقع إلى الشمال الشرقي من فيلادلفيا بحوالي 400 ميل. وكان هذا قد حيرني لأن العاصفة بدأت معنا بسرعة بحيث مَنعت أي مشاهدة. فتخيلتُ (لكونها عاصفة شمالية شرقية) بأنه لا بد وأنها بدأت في أماكن أبعد بالاتجاه الشمالي الشرقي أسرع نوعاً ما مما فعلت في فيلادلفيا. ولذلك قمت بذكر ذلك في رسالة إلى أخي الذي كان يعيش في بوسطن وأخبرني بأن العاصفة لم تبدأ معهم حتى قرابة الساعة 11، لذلك حظوا بمشاهدة جيدة للخسوف. وعند مقارنة جميع القصص الأخرى التي تلقيتُها من المستعمرات العديدة عن وقت بداية نفس العاصفة وعواصف أخرى من نفس النوع، اكتشفتُ أن البداية تكون دائماً في وقت لاحق أبعد عن الاتجاه الشمالي الشرقي. لا أملك ملاحظاتي معي هنا في إنكلترا ولا أستطيع القول من الذاكرة نسبة الوقت إلى المسافة، لكنني أعتقد بأنها ساعة لكل 100 ميل.

من هذا، كونتُ فكرة عن سبب هذه العواصف والتي أود أن أشرحها بمثال شائع أو اثنين. افرض أن قناة طويلة من الماء سُدَّت في النهاية ببوابة. يكون الماء في حالة سكون تام إلى أن تُفتَح البوابة وعندها سيبدأ بالخروج من خلال البوابة. يبدأ الماء الذي يلي البوابة مباشرةً بالتحرك أولاً ويتجه

باتجاه البوابة، ثم يتحرك الماء الذي يلي ذلك الماء الأول، وهكذا على التعاقب إلى أن يتحرك الماء الذي عند رأس القناة وهو آخرهم جميعاً. في هذه الحالة يتحرك جميع الماء فعلاً باتجاه البوابة، لكن الأوقات المتعاقبة للحركة الأولية تكون بطريق معاكس. أي من البوابة باتجاه الخلف إلى رأس القناة. أيضاً، افرض هواءً في الحجرة عند السكون. لن يحصل تيار هوائي خلال الغرفة إلى أن تشعل النار في المدخنة. سيرتفع مباشرةً الهواء الذي في المدخنة لكونه قد تخلخل بالنار. ينساب الهواء الذي يلي المدخنة إلى الداخل ليسد مكانه متحركاً باتجاه المدخنة. وبالنتيجة يرتد باقي الهواء كله بالتعاقب نحو الباب. وهكذا، أعتقد أن ما يصنع عاصفتنا الشمالية الشرقية هو وجود حرارة كبيرة وتخلخل للهواء في أو حول خليج المكسيك. فهناك يتم سد مكان الهواء المرتفع بهذه الطريقة بالهواء الشمالي الذي يليه الأكثر برودة وبالتالي الأكثر كثافة والأثقل والذي، لكونه في حالة حركة، يتبعه الهواء الشمالي الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، في تيار متعاقب. بسبب هذا التيار المتعاقب، يعطي ساحلنا والسلسلة الداخلية للجبال، الاتجاه شمال شرق لأنها تقع في الشمال الشرقي والجنوب الغربي.

إن أقدم ذلك كفرضية فقط كوصف لهذه الحقيقة المعينة. وربما ببحث أكثر قد نجد الأفضل والأصدق. أنا لا أفترض أن كل العواصف تنشأ بنفس الطريقة. فأنا أدرك أن عواصفنا الرعدية الشمالية الغربية في أميركا ليست كذلك، لكنني كتبت رأيي عنها بشكل تام في تقرير والذي رأيتَه أنا......إلخ.

**ب. فرانكلين**

# حكاية رمزية ضد الاضطهاد

1 ـ وحدث بعد هذه الأمور، أن جلس (أبراهام) عند باب خيمته، قبيل غروب الشمس.

2 ـ ولمح رجلاً، أحنى العمر ظهره، قادماً من طريق البرية وهو يتكئ على عصا.

3 ـ ونهض (أبراهام) والتقى به وقال له أدعوك لتدخل ولأغسل قدميك، والبَثْ طوال الليل كي تصحو مبكراً في الصباح وتذهب في طريقك.

4 ـ لكن الرجل قال، كلا لأنني سأبقى تحت هذه الشجرة.

5 ـ وألحّ عليه (أبراهام) بشدة. لذا استدار ودخلا الخيمة. وخبز (أبراهام) الفطير وأكلا.

6 ـ وعندما رأى (أبراهام) أن الرجل لم يحمد الله قال له، لماذا لا تعبد الله الأعلى، خالق السماء والأرض؟

7 ـ فأجاب الرجل وقال، أنا لا أعبد إلهك ولا أدعو باسمه لأنني صنعتُ لنفسي إلهاً والذي يبقى دائماً في منزلي ويزودني بكل الأشياء.

8 ـ واشتعل تعصب (أبراهام) ضد الرجل، ونهض وانحنى عليه ودفعه نحو البرية بضربات.

9 ـ وصاح الله على (أبراهام) قائلاً، أين الغريب يا (أبراهام)؟

10 ـ فأجاب (أبراهام) وقال، يا إلهي، ما كان ليعبدك وما كان ليدعو باسمك، لذا طردته من أمام وجهي إلى البرية.

11 ـ وقال الله، هل أنشأتُهُ في هذه المائة والثمانية والتسعين عاماً وغذيتُه وكسيتُه متحملاً تمرده ضدي، وأنت لم تستحمل أنت (الذي هو أنت نفسك الآثم) معه ليلة واحدة؟

12 ـ وقال (أبراهام)، لا تدع غضبك يا رب يتعاظم تجاه عبده. لقد أخطأت، لقد أخطأت، أرجو منك أن تسامحني.

13 ـ فنهض (أبراهام) وذهب مباشرةً إلى البرية وبحث باجتهاد عن الرجل ووجده وعاد به إلى الخيمة. وعندما استرحمه بلطف، رحّله في يوم الغد مع الهدايا.

14 ـ وتحدث الله مرة ثانية إلى (أبراهام) قائلاً، لأجل هذا ستُبتَلى ذريتك بذنبك 400 عام في أرض غريبة.

15 ـ لكن بسبب توبتك سأخلصهم وسيولدون أقوياء وبقلب مسرور وبثروة كبيرة.

[طبعت لأول مرة في عام 1764]

# حكايات طويلة عن أميركا

## إلى محرر صحيفة

**الاثنين، 20 من أيار [1765]**

سيدي: في صحيفتك ليوم الأربعاء الفائت، حاول مراسل متحاذق والذي يسمي نفسه «المراقب» وتحت ستار النية الحسنة، تجاه كُتّاب الأخبار الذين يسميهم «الحزب النافع للبشر في هذه المدينة الكبيرة»، بدهاء أن يجعلهم هم وأعمالهم أضحوكة، حيث لو كان قد تمكن من النجاح لكان قد تسبب، برأيي، بضرر جسيم للعامة وكذلك لأولئك الناس الطيبين.

إفرضْ، يا سيدي، ان الخبر الذي زودوه بنا في فقرة (سمعنا أن) عن هذه الرحلة أو الزيارة المقصودة أو غيرها، لهذه الشخصية البارزة أو غيرها، كان مجرد اختلاقات، لكانوا قد طلبوا منا على الأقل تسلية بريئة بينما نقرأ، وموضوع مفيد للحوار عندما نكون ميالين للحوار.

إن الإنجليز، يا سيدي، ميالون لأن يصمتوا عندما لا يملكون شيئاً يقولونه، وميالون جداً للتجهم عندما يكونون صامتين، وعندما يتجهمون يشنقون أنفسهم. لكن نحن بهذه الأخبار في فقرة (سمعنا أن)، التي زُوِّدنا بها بكميات وافرة من المواضيع، نناقش دوافع رحلات كهذه، واحتمالية

تنفيذها ومدى فائدة القيام بها. فهنا نقوم بعرض رأينا في السياسة، معرفتنا اهتمامات الأمراء، ومهارتنا في علم الجغرافيا، وعلاوة على ذلك عرض مهارتنا (إذا كانت لدينا) في الجدال. في تلك الأثناء، تكون الساعة المملة قد انتهت، ونعود للبيت مسرورين بالإطراء الذي تلقيناه من الآخرين، ننام بعمق، ونعيش من أجل راحة عائلاتنا. لكن، يا سيدي، أستأذن وأقول أن جميع مقالات الأخبار التي تبدو بعيدة الوقوع هي ليست مجرد اختلاقات. فبإمكاني أن أؤكد لك استناداً إلى أحد المسافرين، بأن بعضها حقائق هامة. وهنا اسمح لي (بعيداً عن ما ذكره السيد «المراقب») أن أعطي على سبيل المثال القصص المختلفة التي لا عد لها التي منحوها لنا كتاب الأخبار (بحماس صادق وكبير جداً من أجل ثروة إنكلترا العتيقة الفقيرة) عن تأسيس مصانع في المستعمرات مما يسبب الإضرار بتلك التي في هذه المملكة. عارض قُرّاء سطحيون (الذين يدّعون بأنهم على معرفة بهذه البلدان) بأن مؤسسات كهذه ليست فقط بعيدة الاحتمال وإنما مستحيلة، لأن خروفهم لا يملك سوى القليل من الصوف، وغير كافي عموماً لصنع زوج من الجوارب في السنة لكل مستوطِن، وأن (بسبب الغلاء المنتشر للمهن بينهم) صناعة الحديد ومعادن أخرى غير قابلة للتطبيق فيما عدا بعض الحالات الرديئة الصنف والقليلة.

سيدي العزيز، لا تدعنا نشغل أنفسنا باعتراضات لا أساس لها. فذيول الخروف الأمريكي نفسها مثقلة بالصوف بحيث يحتاج كل واحد منها إلى عربة بأربع عجلات صغيرة لإسناده ومنعه من السقوط إلى الوراء. ألا يسدّون شقوق سفنهم، ألا يَحْشَوْن أَسِرَّتَهم، ألا يغطون حتى خيولهم بالصوف، لو لم يكن وافراً ورخيصاً؟ وماذا يدل غلاء العمل عندما يتجاوز

الشلن الإنجليزي الـ 25؟ إن تشغيلهم لـ 300 عامل في الحرير هنا في أسبوع واحد (بالنسبة إلى نيويورك) تم اعتباره على أنه كذب لأن في الحقيقة ليس لديهم هناك حرير كي يعملوا به. إن أولئك الذين أبدوا هذا الاعتراض ربما لم يعلموا بأن في نفس الوقت الذي كان فيه وكيل من ملك أسبانيا في (كويبيك) يتعاقدعلى 1000 قطعة من المدافع ليتم صنعها هناك لتحصين المكسيك، وفي (نيويورك) يشارك في العرض السنوي للسجاد الأرضي المنسوج لمنازلهم في الهند الغربية؛ كان وكلاء آخرون من إمبراطور الصين في بوسطن يتداولون بشأن مقايضة الحرير الخام مقابل الصوف كي يتم حمله في السفن الشراعية الصينية خلال مضيق ماجلان.

ومع ذلك، كل هذا صحيح بشكل مؤكد كالقصة التي قيل أنها من (كويبيك) في جميع صحف الأسبوع الماضي من أن مستوطني كندا يجرون استعدادات لاصطياد أسماك القد والحيتان هذا «الصيف في البحيرات العليا». قد يعترض الناس الجهلاء من أن البحيرات العليا عذبة وأن سمك القد والحيتان هي أسماك مياه مالحة؛ لكن دعهم يعلمون يا سيدي بأن سمك القد، كالأسماك الأخرى التي تُهاجَم من قبل أعدائها، ينتشر في أية مياه حيث يمكنه أن يكون آمناً؛ وأن الحيتان عندما يكون لها رغبة بأكل أسماك القد فستلاحقها أينما ذهبت؛ وأن القفزة الكبيرة للحوت في تلك المطاردة فوق شلال (نياغارا) تعتبر، من قبل جميع من رآها، واحدة من أجمل المظاهر في الطبيعة. فعلاً يا سيدي، إن العالم يزداد تشكُّكاً، فهو كالرقّاص يتأرجح دائماً من الجهة القصوى إلى الأخرى. سابقاً، كان كُل ما يُطبَع يتم تصديقه لأنه مطبوع، أما الآن فيبدو أن الأمور يُشَكَّك بها للسبب نفسه تماماً. يتعجب الحكماء من التنامي الحاضر للخيانة. كان عليهم أن

يفكروا ـ عندما علّموا الناس التشكيك بسلطة الصحف وصحة التنبؤات في التقاويم ـ إن الخطوة القادمة قد تكون التشكيك بالحسابات المكفولة للأشباح والساحرات، ويشكّون حتى في حقائق الجشع!

وعليه، أعتقد أن هناك الكثير مما يجب قوله لصالح مجموعة صادقة من الكتّاب الذين يعتمد تحصيل رزقهم على جمع وتزويد الطابعيين بالأخبار بسعر قليل، ستة بنسات للمقالة، والذين يُظهرون دائماً احترامهم للحقيقة من خلال نفي ما هو خاطئ في مقالة لاحقة ـ من أجل ستة بنسات أخرى ـ مما يسبب رضانا واستحساننا نحن طلبة المقهى في التاريخ والسياسة. والفضل المطلق لجميع آل (ليفي)، (رابد)، (روبرتسون)، (هيوم)، و(ملك آلي) المستقبليين الذين ينبغي أن يميلوا بصدق لتزويد العالم بتأريخ حقيقي. أنا، يا سيدي، خادمك المتواضع،

مسافر

**إلى اللورد (كَيْمْز)**

**شارع (كريفن)، لندن، 2 من حزيران/1765**

عزيزي اللورد:........ أثناء سفري إلى أميركا قرأتُ كتابك المتميز (عناصر النقد) والذي وجدتُ فيه متعة كبيرة، والكثير من الإعجاب، ولا شيء يدعو للاستنكار. وددتُ فقط لو كنتَ قد بحثتَ بشكل جيد أكثر موضوع الموسيقى وأوضحتَ أن المتعة التي يشعر بها الفنانون بسماع الكثير من الموسيقى التي تم تلحينها بنكهة الحداثة، ليست هي المتعة الطبيعية الناشئة من اتساق أو تناغم الأصوات، وإنما من نفس نوع المتعة التي نشعر بها عند رؤية الأعمال المدهشة للبهلوانيين والراقصين على الحبال الذين يؤدون أموراً صعبة. من جانبي، أعتبر ذلك هو القضية حقاً وأعتقد أنها السبب في أن أولئك ـ الغير متمرسين في الموسيقى وبالتالي ليسوا على دراية بهذه الصعوبات ـ يستمتعون قليلاً أو لا يستمتعون بسماع هذه الموسيقى. إن العديد من المقطوعات منها هي مجرد مجموعة من الخدع. عندما أكون في حفلة موسيقية يحضرها سامعون عاديون، أقوم أحياناً بالجلوس بطريقة بحيث أرى جميع وجوههم، ولا أرى أية علامة عليهم تدل على الاستمتاع أثناء أداء جزء كبير أُعجِبَ به المؤدون أنفسهم. بينما يمنح نغم اسكتلندي قديم وبسيط والذي يزدرونه وبالكاد يقتنعون بعزفه، بهجة واضحة وعامة.

اسمح لي بهذه المناسبة أن أوسع قليلاً من معنى وجهة نظرك بأنّ «الاتساق والتناغم يكونان مقبولين إذا كانا كلٌ على حدة، وباعثين للبهجة إذا كانا متحدين». وبرأيي إن سبب بقاء الأنغام الاسكتلندية مدة طويلة جداً، وربما ستعيش للأبد (لو تخلصتْ من البهرجة الحديثة المصطنعة) هو فقط هذا، وهو أنها فعلاً تركيبات من الاتساق والتناغم مجتمعين، أو بالأحرى أن اتساقها تناغُم. أقصد أن النغمات البسيطة تُغنى بصوت منفرد. عليّ أن أشرح قصدي لأن ذلك سيبدو تناقضاً. في الواقع، إن المسلم به عموماً هو أن التتابع المقبول للأصوات فقط هو ما يسمى بالاتساق، وتَصاحُب الأصوات المقبولة فقط هو ما يسمى بالتناغم. لكن، لأن الذاكرة قادرة على الاحتفاظ لبضع لحظات بفكرة مثالية عن طبقة الصوت السابق لكي تقارن معها طبقة الصوت اللاحق، وتحكم بحق عن توافقهما أو عدم توافقهما، عندها قد ينشأ من هنا إحساس بالتناغم بين الصوت الحالي والصوت السابق، وباعث للسرور على حد سواء مع التناغم الذي بين صوتين حاليين.

الآن، إن تركيب الأنغام الاسكتلندية القديمة هو كذلك، أي أن تقريباً كل (نوته) مفخمة متتالية هي نوته ثالثة، خامسة، ثُمانِيّة. أو باختصار، نوته في تناغم مع نوته سابقة. النوتات الثالثة هي التي تُستخدم بشكل رئيسي، وهي تناغمات بهيجة جداً. استخدمتُ كلمة «مفخمة» كي أميّز تلك النوتات التي يُشَدَّد عليها عند الغناء، عن النوتات الأخف الرابطة التي (تشبه أدوات النحو) تقوم فقط بربط النوتات معاً.

قد ألتمس من جميع الذين لديهم معرفة بالموسيقى الذين يعرفون كم هو سهل تكرار صوت بنفس طبقة صوت سُمع توًّا، بأن لدينا الفكرة

الأمثل عن صوت ذُكر توًّا. عند توليف آلةٍ ما، يمكن لأذن جيدة أن تميز بسهولة وترين في حالة انسجام بالضرب عليهما كل على حدة، كالضرب عليهما معاً في وقت واحد. إن عدم انسجامهما يمكن تمييزه بسهولة أيضاً (أعتقد بأنه يجب أن أقول أسهل وأفضل تمييزاً) عندما يُضرَب عليهما كلّ على حدة، لأن عند الضرب عليهما معاً في نفس الوقت (رغم أنك تعرف بالضرب أن أحدهما أعلى من الآخر) لا تتمكن من تحديد أيهما الأعلى. [لقد عزيتُ إلى الذاكرة، القابلية على مقارنة طبقة النغمة الحالية مع طبقة نغمة سابقة.لكن إذا كان هناك خطبٌ ما في الأذن، كما يحدث عادةً، مشابه لما نجده في العين، فلن تُعزى تلك القابلية إلى الذاكرة بشكل كلي. من المحتمل أن الذبذبات الواصلة للأعصاب السمعية من خلال صوت معين أن تستمر في الحقيقة لبضع الوقت بعد انتهاء سبب تلك الذبذبات، وأن انسجام أو عدم انسجام صوت لاحق يصبح، بالمقارنة معهم، ملحوظ أكثر. بالنسبة للأثر المعمول على الأعصاب البصرية من قبل جسم مضيء سيستمر لعشرين أو ثلاثين ثانية. اجلس في غرفة وانظر بسكون إلى وسط نافذة لبرهة عندما يكون اليوم مشرقاً ثم اغمض عينيك. سيستمر شكل النافذة باقياً في العين وبوضوح جداً بحيث يمكنك حساب الألواح.

يصاحب هذه التجربة حالة جديرة بالملاحظة، وهي أن أثر الأشكال يبقى بشكل أفضل من شكل الألوان، لأن بعد غلق العينين، عندما تلاحظ أولاً شكل النافذة، تظهر الألواح داكنة وتظهر الألواح المتصالبة للزنابير مع إطارات النافذة والجدران بيضاء أو ساطعة. لكن إذا أضفت إلى الظلام الذي في العينين بتغطيتهما بيدك فسيحصل العكس على الفور، ستظهر الألواح مضيئة والألواح المتصالبة داكنة. وبإزالة اليد، فسينعكس الأمر

ثانيةً. [لا أعلم كيف أعلّل هذا. ولا أعرف كيف أعلل ما يلي: أنه بعد النظر طويلاً خلال نظارات خضراء، ستبدو الورقة البيضاء لكتاب عند نزعهما مباشرةً محمرّة. يبدو أن لهذا علاقة وثيقة بين الأخضر والأحمر لم يُفسَّر لحد الآن].

كذلك، عندما نأخذ بعين الاعتبار الذين قاموا بتلحين هذه النغمات، وكيف تم تأديتها أول مرة، سنرى بأن تعاقُب منسجم للأصوات كهذا كان طبيعياً وحتى حيوياً في تركيبها. كانت قد تم تلحينها من قبل منشدي تلك الأيام كي يتم عزفها على القيثارة بمرافقة الصوت. كانت القيثارة تُركَّب من الأسلاك [والتي تعطي صوتاً متواصلاً]، ولم يكن لها إعداد كذاك الذي في البيان القيثاري الحديث الذي بواسطته يمكن للصوت السابق أن يتوقف في اللحظة التي تبدأ بها نوته لاحقة. لتفادي النشاز الآني، كان من الضروري أن تكون النوتة المفخمة اللاحقة منسجمة مع السابقة لأن صوتيهما يجب أن يخرجا في نفس الوقت. من هنا نشأ ذلك الجمال في تلك النغمات التي بعثت السرور ولمدة طويلة جداً وستستمر كذلك إلى الأبد على الرغم من أن الناس بالكاد يعرفون السبب. عندما أقول بأنه تم تلحينها في الأصل على قيثارة ومن أبسط نوع، أقصد قيثارة بدون أي نوتات جزئية سوى تلك التي في السُّلَّم الطبيعي، التي ليست أكثر من وترين ثمانيين من (سي) إلى (سي). أخمن من حالة أخرى أن ولا واحدة من تلك النغمات (القديمة فعلاً) تمتلك نوته جزئية مصطنعة واحدة فيها، وأنه في النغمات التي يكون فيها استعمال النوتات الوسطى للقيثارة ووضْع المفتاح في (F) مريح أكثر للصوت، حيث لو استُعمل (B) يجب أن يكون (B) خفيف الصدى، تُلغى دائماً بتجاوزها بثالثة. إن المتذوق للموسيقى الحديثة سيقول بأنه

ليس لدي ذوق، لكن لا يسعني إلا أن أضيف بأنني أعتقد ان أجدادنا ـ بسماعهم لأغنية جيدة معبر عنها بوضوح، منظومة لإحدى تلك النغمات ومصحوبة بقيثارة ـ شعروا بمتعة حقيقية أكثر من الأوبرا الحديثة الشائعة، باستثناء تلك الناشئة من المنظر الطبيعي والرقص. إن معظم النغمات الملحنة مؤخراً التي لا تمتلك هذا التناغم الطبيعي المتحد مع اتساقها قد لجأت إلى التناغم المصطنع للنغمات الخفيضة الطبقة والمقاطع المصاحبة الأخرى. إن هذا الدعم برأيي لا تحتاجه النغمات القديمة لأنه يسبب التشويش ولا يعينها. كل من سمع (جيمس أوزوالد) يعزفهم على آلته الـ (تشيللو) لن يتجادل معي في ذلك. فقد رأيتُ أكثر من مرة دموع السعادة في عيون مستمعيه. ومع ذلك، أعتقد بأنه لو قلّل البهرجة الحديثة بعزفه هذه النغمات لكانت سببت سعادة أكثر. رغب ابني مني عندما افترقنا أن أقدم لك احتراماته الرقيقة، وللسيدة (كيمز) ولأطفالك الودودين. تقبل احتراماتي الصادقة، عزيزي اللورد.

ب. فرانكلين

ملحوظة: أنا أعِدُ نفسي بشرف رؤيتك وأصدقائي الآخرين في اسكتلندا قبل أن أعود إلى أميركا.

## إلى (ماري ستيفنسُن)

باريس، 14 من أيلول/1767

عزيزتي (بولي): أنا دائماً أُسعَد برسالة منكِ، وأساير نفسي بأنكِ تُسعَدين أحياناً بتلقي واحدة مني حتى وإن كانت قليلة الأهمية كهذه والتي تتضمن ملاحظات عَرَضية قليلة دونتُها هنا، وفي رحلتي هنا.

بعد أن تركتكِ مباشرةً في ذلك النادي اللطيف في (بروملي)، قررتُ عمل رحلة مع السيد (جون برينغل) في فرنسا. فانطلقنا في يوم 28 الفائت. تم تزويدنا بعربة، على طول الطريق إلى (دوفر)، منكّسة بحيث تنحني إلى الأمام، وقمتها منحدرة على أعيننا كالقلنسوة وكأنها تريد منعنا من رؤية البلاد التي كانت واحدة من مصادر سروري الكبير. انخرطتُ في جدالات مستمرة مع أصحاب الحانات والسائسين والحوذيين بشأن امتلاك الأحزمة في السابق لثقب أو اثنين، وخفض العربة أكثر من الوراء، وهم يصرون على أن انحدار العربة إلى الأمام مريح أكثر للخيل وأن الوضع المعاكس يقتلها. أنا أعتقد أن العربة التي تنحدر نحو الأمام تبدو لهم كرغبة بالمضي نحو الأمام، وأن تنكيسها إلى الوراء يُظهِر مقاوَمة. ويضيفون أسباب أخرى لا وجود لها إطلاقاً، وجعلوني في أكثر من 100 مناسبة أخرى أتمنى تقريباً أتمنى لو لم يُمنح الإنسان ملكة التفكير، لأنهم يعلمون قليلاً جداً كيفية الاستفادة، وغالباً يُضِلّون أنفسهم بها، وأنهم زُوِّدوا بحدس منطقي جيد بدلاً منه.

في الصباح التالي عند (دوفر) ركبنا متن السفينة المتوجهة إلى (كاليه) مع عدد من المسافرين الذين لم يركبوا البحر من قبل أبداً. كانوا قد أعدّوا مسبقاً إفطاراً ترحيبيًّا لأننا (إذا ضعفت الرياح) قد لا نصل حتى وقت العشاء. بدون شك أنهم قد اعتقدوا بأنهم عندما دفعوا مقابل إفطارهم فلهم الحق فيه، وعندما ابتلعوه كانوا متأكدين منه. لكن ما إن أصبحنا في البحر نصف ساعة حتى طالب البحر به، فكانوا مجبرين على إفراغه. لذا يبدو أن لا شيء مؤكد حتى ما بين الكوب والشفة. إذا ذهبتَ يوماً للبحر اعمل بنصيحتي وعش بزهد يوماً أو اثنين مسبقاً، فسينتهي دوار البحر (إذا حصل لك) بشكل أخف وأسرع. وصلنا (كاليه) ذلك المساء.

عانينا أشكال من الاستغلال من قبل المراكبية والحمالين ومن كلا الطرفين. لا أعلم كثيراً أيهما الأكثر احتيالاً، الإنكليزي أم الفرنسي، لكن الأخيرين على احتيالهم كانوا الأكثر تهذيباً.

وجدنا الطرقات جيدة كطرقاتنا في إنكلترا، وفي بعض المناطق معبدة بحجر أملس ولعدة أميال مثل شوارعنا الجديدة، وصفوف الأشجار عى الجانبين، لكن مع ذلك لا توجد هناك طرق رئيسية. لكن في ذلك الوقت اشتكى لنا الفلاحون الفقراء بحزن بأنهم أُجبروا على العمل على الطرق لشهرين كاملين في السنة بدون أن يتم الدفع لهم مقابل عملهم. فسواء كانت هذه الحقيقة أو ـ كالإنكليز ـ يتذمرون بسبب أو بدون سبب، إلا أنني لم أتمكن وقتها من التأكد بنفسي بشكل تام.

كانت النساء التي رأيناها في (كاليه)، وعلى الطريق، وفي (بالوا)، وفي الحانات والقرى، من البشرة السمراء عموماً، لكن بالوصول إلى (أبيفيل) وجدنا تغيراً مفاجئاً، تظهر عامة النساء والرجال في ذلك المكان من الشعر

بشكل لافت للنظر. فسواء يرجع ذلك إلى جماعة صغيرة مهاجرة من النسّاجين والصوافين والحائكين الذين تم جلبهم إلى هنا من هولندا مع صناعة الصوف حوالي 60 سنة مضت؛ أو إلى كون تعرضهم للشمس أقل من باقي المناطق، إلا أن عملهم يبقيهم أكثر داخل البيت. لا أعلم، ربما تتضارب الأسباب كما في حالات أخرى في التسبب بالتأثير، لكن التأثير نفسه مؤكد. لم أكن يوماً في مكان صناعي كبير لا تدور فيه العجلات والأنوال[1] في كل منزل.

حالما غادرنا (أبيفيل) عادت السمرة. أنا أتحدث بشكل عام، لأن هنا بعض النساء الشقراوات في باريس اللواتي لا أعتقد بأنهن أصبحن بيضاوات بسبب المهنة. أما بالنسبة لأحمر الوجنات فهن لا يتظاهرن بتقليد الطبيعة بوضعه. ليس هناك نقصان تدريجي للون من الزهري الكامل في وسط الوجنتين إلى اللون الشاحب قرب الجوانب، ولا هو يُظهِر نفسه بشكل مختلف في وجوه مختلفة. لم يحصل لي الشرف بأن أتواجد في أية غرفة زينة لامرأة كي أرى كيفية وضعه، لكنني أتخيل بأنه بإمكاني أن أخبرك كيف يوضع. اعملي ثقباً بنصف قطر 3 إنجات في قطعة من الورق. ضعيها على جانب وجهك بحيث تكون الحافة العلوية للفتحة تحت عينك مباشرةً. ثم اصبغي وجهك والورقة بفرشاة مغموسة في اللون. وهكذا، عندما تُنزَع الورقة ستبقى بقعة حمراء من اللون الأحمر تشبه تماماً شكل الثقب. هذه هي الطريقة، من الممثلات على المسرح صعوداً خلال كل أصناف السيدات إلى الأميرات ذوات الملكي، لكنها تتوقف عند هذا الحد، فالملكة لا تستعمله لأنها بالسكون والرضا الذاتي والحنان الذي

---

(1) الأنوال: جمع (نَوْل) وهي آلة الحياكة... (المترجمة).

يتألق بشكل بارز، أو بالأحرى من خلال محياها، تمتلك جمالاً كافياً رغم أنها الآن كبيرة في السن، وتعمل صالحاً إن بقيت بعيدة عنه.

كما ترين، فأنا أتحدث عن الملكة وكأنني رأيتُها، وهذا ما فعلتُ. لأن عليك أن تعلمي بأنني كنتُ يوماً في البلاط. فقد ذهبنا إلى (فرساي) الأحد الفائت وتشرفتُ بأن تم تقديمي للملك. تحدث إلى كلينا بشكل مؤدب وبهيج جداً. كان رجلاً وسيماً ويمتلك مظهراً قوياً جداً، ويبدو أصغر سنًّا مما هو عليه. في المساء، كنا في قاعة (غراند كوفيرت) حيث تتعشى العائلة على الملأ. كان شكل جلوسهم على الطاولة كما يأتي: كانت المائدة على شكل نصف مربع مجوف، عندما يعمل أي أحد منهم إشارة طلباً للشراب كانت الكلمة التي تُمنَح من قبل أحد النُّدُل هي (شراب للملك) أو (شراب للملكة). ثم يقترب شخصان من ضمن المربع، واحد بالنبيذ، والآخر بالماء في أواني. يشرب كل واحد منهما كأساً صغيراً مما جلبه ثم يضع كلاهما الأواني مع الكأس على طبق ويقدمانه. كانت المسافة عن أحدهما الآخر كذلك لأنه قد يوضع كرسي أخر بين أي اثنين منهما. أحضرَنا موظف البلاط من خلال حشد المتفرجين وحضّر مكاناً للسيد جون كي يقف بين الملك والمدام (آديليد)، وأنا بين الملكة ومدام (فيكتوار). تحدث الملك كثيراً إلى السيد جون، سائلاً العديد من الأسئلة عن عائلتنا الملكية، وشرّفني أيضاً بأخذ بعض المعلومات مني. أكتفي بهذا القول لأني ما كنتُ أريد أن تعتقدي بأني مسرور كثيراً بهذا الملك وهذه الملكة وكأنني أملك احترام أقل لملكنا وملكتنا. لن يذهب أي شخص فرنسي أبعد مني بالاعتقاد أن ملكي وملكتي الأفضل في العالم والأكثر لطفاً.

وُضعت مبالغ لا حدود لها في بناء فرساي وتجهيزه بالماء. يقول البعض بأن النفقات زادت عن 80 مليون جنيه إسترليني. إن امتداد المبنى هائل. الحديقة الأمامية الأكثر فخامة، كلها من الحجر المقطّع. عدد التماثيل والنقوش والجرار من الرخام والبرونز لأمهر الصانعين، تفوق الخيال. لكن محطات المياه غير قابلة للتصليح، ولذلك لا يبدو، جزء كبير من واجهة المبنى المجاور للمدينة بجدرانه الشبه ـ طابوقية المتهرئة والشبابيك المكسورة، أفضل من البيوت في باحة (دَرهام). باختصار، هناك في كل من فرساي وباريس مزيج استثنائي من الفخامة والإهمال، مع كل أنواع اللياقة ما عدا النظافة. على الرغم من ذلك عليّ أن أنصف باريس وأقول بأنها تفوقنا بنقطتين من ناحية النظافة؛ بالماء الذي يشربونه، فعلى الرغم من أنه من النهر إلا أنهم يحولونه إلى ماء نقي كماء أفضل الينابيع بتصفيته خلال أكياس مملوؤة بالرمل؛ وبالشوارع، فمن خلال الكنس المستمر تكون مناسبة للمشي على الرغم من عدم وجود طريق معبّد، لذا، يُرى العديد من الناس المهندمين وهم يمشون فيها. حشود المركبات والكراسي لهذا السبب ليست كبيرة جداً.يحمل الرجال وكذلك النساء مظلات بأيديهم والتي تتمدد في حالة المطر أو الشمس الحارقة. لا يحتل رجل مع مظلته أكثر من 3 قدم مربع، أو 9 أقدام مربعة من الشارع، بينما لو كان في مركبة كان سيحتل 240 قدماً مربعاً. بإمكانكِ أن تتخيلي بسهولة أنه رغم أن الشوارع هنا أضيق إلا أنها أقل إعاقة بكثير. فهي معبدة بشكل جيد للغاية، ولكون الحجارة على شكل مكعبات عموماً فعندما تتهرأ إحدى الجهات تُقلَب وتصبح جديدة.

إن الكياسة التي نتلقاها في كل مكان تمنحنا أقوى الانطباعات عن

التهذيب الفرنسي. يبدو أنه موضوع محسوم هنا بشكل عام وهو أن الغرباء يجب أن يُعامَلوا باحترام، وللفرد نفس الرعاية تماماً لكونه غريب كما في إنكلترا لكونها سيدة. حالما دخلنا باريس، كان موظفو الجمارك عند (بورت سانت دينيس) على وشك مصادرة 2 دزينة من خمر (بوردو) الممتاز والذي تم منحه لنا في (بولون)، لكن حالما اكتشفوا أننا غرباء، تم إعفاؤه من الرسوم على هذا الأساس.

عند كنيسة (نوتردام) حيث ذهبنا لرؤية إضاءة باهرة ذات أشكال من أجل الابنة الكبرى المتوفاة للملك الفرنسي، وجدنا حشد هائل تم إبقاؤه خارجاً من قبل الحراس، لكن لكون تم إخبار الموظف بأننا غرباء من إنكلترا، أدخلنا في الحال ورافقنا وأرانا كل شيء. لماذا يُسمَح لهم بالتفوق علينا في أي شيء؟

هنا معرض للوحات كمعارضنا في لندن والذي تتوافد الجموع إليه يومياً. لست خبيراً بما يكفي كي أحكم أيها الأفضل. هناك كل ليلة مسرحيات أو أوبرات، الأحد ليس مستثنى. وعلى الرغم من أن الطقس حار، والمنزل مزدحم، لا ينزعج الشخص من الحرارة بقدر ما ينزعج معه في الشتاء. لا بد أنه لديهم وسيلة لتغيير الهواء لا نعرفها. وسأتحرى عنها.

إن السفر هو أحد الطرق لإطالة العمر، على الأقل في المظهر الخارجي. إنها فقط أسبوعان تقريباً منذ أن غادرنا لندن، لكن المَشاهد المتنوعة التي مررنا بها جعلتْها تعادل ستة أشهر معيشة في مكان واحد. ربما قد تعرضت إلى تغيير كبير أيضاً في شخصيتي بالذات أكثر مما لو حاولتُ فعل ذلك في ست سنوات في البيت. لم يمضِ عليّ ستة أيام هنا قبل أن يقوم الخياط والحلّاق الخاص بي بتحويلي إلى رجل فرنسي. تخيلي فقط الهيئة التي

تحولتُ إليها بالشعر المستعار والأذنين المكشوفتين!. لقد أخبروني بأنني أصبحتُ أصغر سناً بـ 20 عاماً وبدوتُ أنيقاً جداً.

وهكذا، لكوني في باريس حيث يجب أن تُتَّبع الموضة بشكل مقدس، كنتُ على وشك أن أمارس الحب مع صديقة زوجتي.

إن هذه الرسالة ستكلفكِ شلن، وربما ستعتبرينها رخيصة، عندما تفكرين، بأنها كلفتني على الأقل 50 جنيهاً كي أصل إلى الحالة التي مكّنتني من كتابتها. إضافةً إلى ذلك، لو كنتُ قد بقيتُ في البيت، ربما كنتُ سأربح شلنين منكِ بلعب الورق. بمناسبة ذكري لورق اللعب، دعيني أخبركِ أن الرقصة الرباعية هنا قد انتهت موضتها تماماً، والمكنسة الإنكليزية منتشرة جداً في باريس وفي البلاط.

وصلِّ كي لا أعتبره بالأمر البسيط من أن أُحاط كما أنا بأمجاد هذا العالم ووسائل الترفيه من كل الأنواع. أتذكرك أنتِ و(دوللي) وجميع الأقرباء الأعزاء الطيبين في (برروملي). هذا صحيح، لا أستطيع تحمله، لكن لا بد وسوف أتذكركم جميعاً بسعادة وإلى الأبد.

أحتاج أن أضيف بأنني على وجه الخصوص، يا صديقتي العزيزة الطيبة، المخلص.

**ب. فرانكلين**

## إلى (ماري ستيفنسُن)

**شارع (كافيرن)، 28 من أيلول/1768**

عزيزتي (بولي): إن الاعتراض الذي أبديتيهِ لتصحيح أبجديتنا بقولك «بأنه سيكون مصحوباً بعقبات وصعوبات» هو أمر طبيعي، لأن ذلك يحصل دائماً عند اقتراح أي إصلاح سواء في الدين أو الحكومة أو القوانين نزولاً حتى الطرقات والعربات. إذن، ليس السؤال الصحيح هو فيما إذا ستكون هناك أي صعوبات أو عقبات، وإنما فيما إذا لن يتم التغلب على الصعوبات، وفيما إذا لن تكون الحلول بالمجمل أكبر من العقبات. في هذه الحالة ستكون الصعوبات فقط في بداية التطبيق، وعندما يتم التغلب عليها ستدوم المنافع. فبالنسبة لكِ ولي اللذين نتهجى بشكل جيد بالطريقة السارية، فأتخيل أن صعوبة تغيير تلك الطريقة إلى الطريقة الحديثة لن تكون كبيرة جداً بل قد نتغلب عليها في غضون أسبوع.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا يتهجون جيداً، فإذا تمت المقارنة بين الصعوبتين ـ أي صعوبة تعليمهم التهجئة الصحيحة بالطريقة الحديثة، وصعوبة تعليمهم الأبجدية الجديدة والتهجئة الجديدة وفقاً لها ـ فأنا واثق من أن الأخيرة ستكون الأقل صعوبة بكثير، فهم مسبقاً سينغمسون في الطريقة الجديدة بشكل طبيعي بقدر ما تسمح به تهجئتهم المضطربة

بذلك.إن تهجئتهم الحالية السيئة، هي سيئة فقط لأنها مناقضة للقواعد الحالية السيئة. إن صعوبة تعلم التهجئة الجيدة بالطريقة القديمة كبيرة جداً بحيث ينجح بها القليل، ويكتب الآلاف والآلاف حتى عمر متأخر بدون أن يحرزوا تقدماً بها يوماً. إضافةً إلى ذلك، فهي صعوبة تتزايد باستمرار لأن اللفظ يختلف تدريجياً أكثر فأكثر عن التهجئة. وبالنسبة للأجانب، فهو يجعل تعلم تلفظ لغتنا كما هي مكتوبة في كتبنا، مستحيل تقريباً.

الآن، بالنسبة للعقبات التي ذكرتيها،: الأولى هي «جميع اشتقاقاتنا كانت ستضيع، وبالنتيجة لن نتمكن من التحقق من معنى العديد من الكلمات». إن الاشتقاقات في الوقت الحاضر هي غير مُتَحَقَّق فيها جداً. لكن لا تزال الكتب القديمة تحتفظ بها كما هي وبإمكان متخصصي اللغة إيجادها هناك. إن الكلمات بمرور الزمن تغيّر معناها، وكذلك تهجئتها وتلفظها، ونحن لا ننظر إلى الاشتقاق وهي في معناها الحالي. فإذا كان ينبغي عليّ أن أدعو رجلاً بـ (knave) و (villain)[1]، فسيقتنع بصعوبة بقولي له أن إحدى الكلمتين تدل في الأصل فقط على (صبي) أو (خادم)، والأخرى (دون المزارع) أو (ساكن القرية). لذا يجب تحديد معاني الكلمات من الاستعمال الحالي فقط.

أما عقبتك الثانية والتي هي «أن التمييز بين كلمات ذات معنى مختلف ولفظ مختلف سيضيع»، فإن هذا التمييز قد ضاع مسبقاً بتلفظه، وستعتمدين على المعنى وحده للجملة كي تتحققي أي من الكلمات العديدة المتشابهة اللفظ هي التي نقصدها. إذا كان ذلك كافياً لسرعة

(1) لأن هاتين الكلمتين تمتلكان معنى آخر أيضاً وهو (وغد) أو (نذل)...... (المترجمة).

المحادثة، فسيكون كافياً أكثر بكثير في حالة الجمل المكتوبة التي قد تُقرأ على مهل ويُنشَغَل بها على وجه الخصوص في حالة الصعوبة أكثر من أن تنشغلي بجملة في الزمن الماضي بينما يستعجلك المتحدث بجملة جديدة.

عقبتك الثالثة والتي هي «أن كل الكتب التي تمت كتابتها مسبقاً ستكون بلا فائدة». إن هذه العقبة ستحصل فقط بشكل تدريجي على مدى عصور. فأنتِ وأنا والقراء الآخرون الذين على قيد الحياة الآن سينسون بصعوبة فائدتها. فالناس ستستغرق مدة طويلة في تعلم قراءة الكتابة القديمة على الرغم من استعمالهم الجديدة، وأن العقبة ليست أكبر مما حصل فعلاً في قضية مماثلة في إيطاليا. ففي السابق كان جميع سكانها يتكلمون ويكتبون باللاتينية، وحينما تغيرت اللغة تبعتْها التهجئة. صحيح أنه في الوقت الحالي لا يستطيع الإيطالي الغير متعلم فقط من قراءة الكتب اللاتينية، غير أنها لا تزال تُقرأ وتُفهَم من قبل العديدين. لكن إذا لم تكن التهجئة قد تغيرت لكان قد وجدها الآن أكثر صعوبة بكثير ليقرأ ويكتب لغته الخاصة لأنه لن يكون للكتب المكتوبة أية علاقة باللفظ ولأصبحت ترمز للأشياء فقط بحيث لو أراد أن يعبّر بالكتابة عن الفكرة التي لديه عندما يتلفظ الكلمة (vescovo) فعليه أن يستعمل المعنى الحرفي (episcopus)[1]. باختصار، مهما كانت الصعوبات والعقبات فسيكون التغلب عليها الآن أسهل مما في المستقبل، ويجب فعل ذلك عاجلاً أو آجلاً وإلا فستصبح كتابتنا تشبه

(1). (vescovo) و (episcopus) تعنيان (أسقف)، لكن الأولى بالإيطالية والثانية باللاتينية. (المترجمة)

الكتابة الصينية من حيث صعوبة تعلمها واستعمالها، ولكانت أصبحت كذلك لو كنا استمرينا على التهجئة والكتابة السكسونية المستعملة من قبل أسلافنا.

أنا يا صديقتي العزيزة،

المخلص،

ب. فرانكلين

# قضايا يجب دراستها تخص الثروة الوطنية

**4 من نيسان /1769**

1 ـ تنشأ جميع طعام وموارد رزق البشرية من الأرض أو المياه.

2 ـ لضروريات الحياة (ليس الطعام من بينها) وجميع وسائل الراحة الأخرى، قيمتها المحسوبة من نسبة الغذاء المستهلَك ونحن موظفون للحصول عليه.

3 ـ إن الأناس القليلين في بلد واسعة، قد يعتاشون على منتجات الطبيعة بدون عمل آخر غير جمع النباتات واصطياد الحيوانات.

4 ـ إن الأناس الكثيرين في بلد صغيرة، يجدونها غير كافية، وعليهم لكي يعتاشوا أن يعملوا في الأرض لجعلها تنتج كميات أكبر من الطعام النباتي الكافي لتغذية البشر، ومن الحيوانات التي ينوون أكلها.

5 ـ ينشأ من هذا العمل زيادة كبيرة في الطعام النباتي والحيواني وفي المواد المستعملة لصناعة الملابس كالكتان والصوف والحرير... إلخ. والفيض في هذه المواد هو الثروة. وبهذه الثروة ندفع مقابل العمل المنجز في بناء منازلنا ومدننا التي بالتالي يتغير مظهرها بهذه الطريقة.

6 ـ إن الصناعات هي فقط شكل آخر يتحول إليه الكثير جداً من

الاحتياطي وموارد الرزق بينما تكون مساوية في القيمة للصناعات المنتَجة. يظهر ذلك من عدم حصول العامل في الواقع من صاحب العمل مقابل عمله أكثر فقط من معاش يتضمن كسوة ووقود ومأوى، تستمد قيمتها جميعاً من الاحتياطي المستهلَك في استحصالها.

7ـ إن إنتاج الأرض المتحول بهذه الطريقة قد يُنقَل إلى أسواق بعيدة بسهولة أكبر مما قبل تحويل كهذا.

8ـ إن التجارة المتعادلة هي تبادل قيم متساوية مقابل شيء مماثل، من ضمنها نفقات النقل. وعليه، إذا كان يكلف إنبات بوشل من الحنطة في إنكلترا (أ) بقدر العمل والشحن، مثلما يكلف إنتاج 4 غالونات من الخمر في فرنسا (ب). إذن 4 غالونات من الخمر هي تبادل متعادل مقابل بوشل من الحنطة. يلتقي (أ) و (ب) في منتصف المسافة بسلعهما ليتم التبادل. إن فائدة هذه التجارة المتعادلة هي أن كل طرف يعمل على زيادة عدد حيازاته المشتركة بالانتفاع بكل من الحنطة والخمر بدلاً من الحنطة لوحدها والخمر لوحده.

9ـ كلما كان العمل ونفقات إنتاج كلتا السلعتين معروفة لكلا الطرفين، ستكون الصفقات بشكل عام نزيهة وعادلة. بينما لو كانت معروفة لطرف واحد فقط، ستكون الصفقات عادةً غير عادلة، فالمعرفة تستغل الجهل.

10ـ وعليه، من يحمل 1000 بوشل من الحنطة كي يبيعها خارج البلاد، قد لا يحصل على قدر كبير جداً من الربح في هذا الشأن، وكأنه حوّل القمح أولاً إلى صناعة، بإعالة العمال على أثر ذلك أثناء إنتاجه هذه الصناعات، لأن هناك العديد من الطرق السريعة والسهلة للعمل غير

معروفة بشكل عام، والغرباء عن هذه الصناعة رغم معرفتهم الجيدة بنفقات إنبات الحنطة إلا أنهم غير ملمّين بهذه الطرق المختصرة للعمل، ومن ثم لكونهم ميالين إلى توهم جهد مستخدم في الصناعات أكثر مما هناك في الحقيقة، يكونون عرضة للخداع بسهولة في قيمتها ويتم إغراؤهم بالدفع من أجلها أكثر مما تستحق في الحقيقة.

11 ـ وعليه، لا تتضمن فائدة امتلاك صناعة في بلدٍ ما في قمة تقدمها، قيمة المواد الخام التي تكونت منها كما يُعتقد بشكل شائع لأن الكتان الذي يستحق ستة بنسات قد يساوي 20 شلناً عندما يُحَوَّل إلى مخرمات. مع ذلك، فإن السبب الحقيقي في أنه يساوي 20 شلناً هو ـ إضافةً إلى الكتان ـ إنه يكلف 19 شلناً وتُنفَق على معاش العامل. لكن فائدة الصناعات هي نقل الاحتياطي إلى السوق الأجنبية بسهولة أكبر بمقتضى شكلها، وقد يقوم تجارنا بغش الغرباء بسهولة أكثر بواسطتها، والقليلون هم الخبراء بقيمة المخرم. قد يطلب المستورِد 40 شلناً (وقد يحصل على 30) مقابل ذلك الذي لم يكلفه سوى 20.

12 ـ أخيراً، يبدو أنه لا يوجد هناك سوى ثلاث طرق لتحصل بها الأمة على الثروة. الأولى عن طريق الحرب كما فعل الرومانيون بنهب جيرانهم المغلوبين، وهذه سرقة. الثانية بالتجارة، وهي عموماً غش. الثالثة بالزراعة، وهي الطريقة الوحيدة الصادقة حيث يحصل الإنسان على زيادة حقيقية من البذرة المرمية في الأرض كنوع من المعجزة المستمرة المعمولة بيد الله وفي رعايته كمكافأة لحياته البريئة ومثابرته الفاضلة.

# حكايات رمزية جديدة

كُتبت بتواضع إلى سكرتير الولاية للمجلس الأمريكي

**حكاية 1**

كان هناك قطيع من الأبقار ينتج الكثير جداً من الحليب والزبدة والجبن ولمدة طويلة لمزارع بخيل، الذي حسدها على العشب الذي تقتات عليه، وفي النهاية جزّه ليحصل على المال من القش، تاركاً إيّاها تتجول بحثاً عن الطعام قدر استطاعتها، ومع ذلك كان يتوقع أن يحلبها كما هو من قبل، لكن الأبقار امتعضت من عدم تعقله وقررت في المستقبل أن ترضع إحداها الأخرى.

**حكاية 2**

رأى نسرٌ ـ ملك الطيور ـ وهو يطير بجناحيه عالياً على حظيرة مزارع، قطة هناك تتدفأ بالشمس وتوهم أنها أرنب، فانحدر واستولى عليها ورفعها إلى السماء بنيّة أكلها. وضعت القطة وهي تستدير مخالبها في صدر النسر الذي اكتشف خطأه، ففتح مخالبه وكان سيُسقطها، لكن القطة تشبثت سريعاً غير راغبة بالسقوط من هذا العلو، ووجد النسر أنه من الضروري إنزالها من حيث أخذها كي يتخلص من الإزعاج.

**حكاية 3**

وُضع صغير أسد على متن سفينة غينيا متوجهة إلى أميركا كهدية إلى صديق في تلك البلاد. كان مروَّضاً وغير مؤذي كقطة ولذلك لم يتم حبسه وإنما تُرك يتجول حول السفينة بسعادة. لكن كان هناك كلب درواس إنكليزي كبير فخم يعود للقبطان، يستخف بضعف الأسد الصغير وكان دائماً ما يستولي على طعامه بالقوة، ويخرجه من صندوقه الذي يسكن فيه عندما يقرر أن يرتاح هناك. ومع ذلك، كان الأسد الصغير يزداد يومياً في الحجم والقوة، ولكون الرحلة طويلة، أصبح في النهاية مضاهياً للدرواس الذي كان يواصل أذاه، فتلقى ضربة صاعقة من كف الأسد حفرت جلد أذنيه، وردعته من أي منافسة مستقبلية مع قوة متنامية كهذه، نادماً من أنه لم يؤمن صداقته وأثار بدلاً من ذلك عداوته.

**(صحيفة ببلك أدفرتايزر، 2 من كانون الثاني/1770)**

# صحيفة (كريفن ستريت) الرسمية

[أثناء الغياب المؤقت للسيدة مرغريت ستيفنسن ـ صاحبة سكن فرانكلين في لندن ـ راعى صحيفة فكاهية عن الأعمال المنزلية على نمط جريدة البلاط الرسمية. أُشير إلى السيدة ستيفنسن بـ (الملكة مارغريت)، وإلى ابنتها ماري بـ (بولي) والتي تزوجت مؤخراً بـ (وليام هوسن) حاجب للوزيرة الأولى. و(الشخص العظيم) أو الدكتور (فاتسايدز) هو طبعاً فرانكلين نفسه].

السبت، 22 من أيلول/1770

انطلقت هذا الصباح الملكة مرغريت إلى (روتشستر) مصحوبة بخادمة الشرف الأولى الآنسة فرانكلين. كان الشارع كله حال مغادرتهما يبكي بسبب وابل الأمطار الثقيلة. كان يُقال همساً أن تولّي العائلة الجديدة والذي حدث عند رحيل جلالتها، قد وعد كباقي جميع الإدارات الجديدة الأخرى، بأن تحكم أفضل من سابقتها.

سمعنا أن (الشخص العظيم) (والذي يدعى كذلك بسبب ضخامته) لعائلة معينة في شارع معين متأثر بشدة بالتغييرات الأخيرة وبالكاد يمكن مواساته هذا الصباح رغم أن الوزارة الجديدة وعدتْه بكتف مشوي من لحم الضأن وبطاطا في عشائه.

قيل بأن (الشخص العظيم) نفسه نوى بأن يقدم احتراماته إلى شخصية بارزة أخرى هذا اليوم عند (سانت جيمس) لكون اليوم يوم التتويج، آملاً بذلك أن يلطف حزنه قليلاً لكنه مُنع من ذلك بسبب حادث. فالملكة مرغريت أو خادمة الشرف خاصتها قد أخفت مفتاح الجارورات كي لا تتمكن مسؤولة حجرة النوم من الهجوم على القميص المخرم لجلالته. وحدث لغط كبير ضد جلالتها بشأن هذا الموضوع.

تقول قصص أخرى، بأن القمصان قد وُجدت بعد ذلك، لكن بشكل متأخر جداً، في مكان آخر. ويشك البعض أن فقدان قميص من هذه الجارورات كان فقط ذريعة وزارية لتبرير سرقة الأقفال كي يكون كل شيء تحت تصرف الإدارة الجديدة.

سمعنا أن خادمة العائلة ذهبت للسوق هذا الصباح لوحدها ومنحت القصّاب ما طلبه مقابل لحم الضأن، ولم تجادل بائعة البطاطا، مما سبب دهشتهم الكبيرة لتغير الزمن.

تم التأكد بشكل موثوق بأن (الشخص العظيم) هذا المساء بسبب رطوبة الطقس، يرتجف قليلاً ولم يوجد أحد في البيت يلومه على تكلفة الوقود. كان يتغنج على النار في حجرته. يبدو أن النية هي جعله راضياً بالتدريج بغياب الملكة.

كان هناك مشروع تحت رعاية الحكومة، وهو استغلال فرصة غياب الملكة لتنفيذ أمر كانت دائماً عازفة عنه وهو تثبيت قفل جديد على الباب المفضي للشارع، أو الحصول على مفتاح معمول على المفتاح القديم، وُجد أنه من المزعج للغاية أن يُجبَر موظف أو آخر من الموظفين العظماء

للدولة على أن يلازموا الباب عندما تخرج الخادمة من أجل رمل يساوي نصف بنس أو باينت من البورتر[1]، كي يسمحوا لها بالدخول ثانيةً. لكن لكون الآراء قد انقسمت حول أي من الوسائل التي يجب تبنيها، تم تنحية المشروع جانباً في الوقت الحالي.

نحن نملك سلطة قانونية لنؤكد لقراءنا أن مجلس الوزراء قد عُقد هذا المساء عند موعد تناول الشاي وكان موضوعه: مقترح لإعادة تشكيل الأخلاق، ومراقبة يوم اللورد بشكل متشدد أكثر. كانت النتيجة قرار بالإجماع لا يجب أن يُعَدَّ اللحم حتى يوم الغد، ووفقاً لذلك سيكون للطباخ وللقسيس الأول الحرية للذهاب إلى الكنيسة، فالأول ليس لديه شيء يفعله والثاني لا يوجد شواء ليشرف عليه. يبدو أنه كان يُعتقد أن الكتف البارد للحم الضأن وفطيرة التفاح كافيتان لعشاء الأحد. أطرى جميع الناس المتدينين هذا الإجراء، ويُعتقد أن الوزارة الجديدة ستصبح محبوبة عما قريب.

سمعنا أن السيد (ويلكيس) كان في بيت معين في شارع كريفن هذا اليوم وسأل عن الملكة الغائبة. سيدته الطيبة والأطفال بخير. إن التقرير الذي يذكر أن السيد ويلكيس (الوطني) قام بالزيارة أعلاه، لا أساس له، وتبيّن أن أخيه أحد رجال الحاشية الملكية.

**الأحد، 23 من أيلول**

لقد اكتُشف الآن من خلال تجربة مؤسفة، أن القرارات الجيدة وضعُها أسهل من تنفيذها. فعلى الرغم من قرار يوم أمس الرسمي للمجلس، لم

---

[1] البورتر: نوع من الجعة الثقيلة الداكنة.. (المترجمة)

يذهب أحد إلى الكنيسة اليوم. يبدو أن البِنية الضخمة لجسد (الشخص العظيم) قد رقدت في الفراش طويلاً لدرجة أن الإفطار لم ينتهِ إلى أن أصبح الوقت متأخر على إعداده. على الأقل هذا هو العذر. باختصار، يبدو أنه أمر عبث أن تأمل إصلاحاً من شعب كشعبنا العظيم.

رغم ذلك، استغل الطبّاخ والقسيس كلاهما القرار إلى هذا الحد، كأنما ليوفرا على نفسيهما كل مشكلة، وتم تنفيذ بند العشاء البارد بالقوة، رغم أن الذهاب للكنيسة قد تم الاستغناء عنه، فقط لأن الشعب العامل يتّبع الوصايا، فهم يعتقدون أن الوصية (في اليوم السابع ستستريح) هي أمر مقدس، لكن الوصية الأخرى (والأيام الستة الباقية ستعمل) يعتبروها فقط مجرد جزء من نصيحة والتي قد يطبقونها عندما يحتاجون للخبز وعندما يكونون غير مدينين عند الحانة، وقد يتجاهلونها كلما كان لديهم أموال في جيوبهم.

وعمل الدكتور فاتسايدز 469 دورة في غرفة الطعام خاصته، كالمسافة نفسها تماماً عند زيارة السيدة المحبوبة (بارويل) والتي لم يجدها في البيت، لذا لم يكن هناك نزاع من أجل أو ضد قُبْلة، وجلس ليحلم في المقعد المريح الذي امتلكَه بدون أية متاعب.

**الإثنين، 24 من أيلول**

تم إخبارنا بشكل موثوق أن (الشخص العظيم) تعشى لحم بقري مسلوق هذا اليوم مع المجموعة عند نادي (كات آند باك بايبس) في المدينة. إن هذا يُظهِر بأنه كان تحت ضرورةٍ ما لفعل ذلك (رغم أنه يكره لحم البقر إلى حدٍ ما)، لأن في الحقيقة كان على الوزراء جميعهم أن يكونوا

خارج المدينة في مكانٍ ما كي يتعشوا لحم غزال مشوي ساخن. ويُعتقد أنه لو كانت الملكة في البيت لما كان قد أُهين كذلك. وعلى الرغم من أنه لم يُبدِ علامات الاستياء ظاهرياً إلا أنه يُشتبه بأنه بدأ يتمنى عودة جلالتها.

تم تناقل، في الوقت الحاضر، أن المربية المسكينة ليس لديها شيء للعشاء لنفسها وللقطة في المطبخ سوى مخلفات عظام ضأن يوم السبت.

هذا المساء كان هناك مزاح في منزل (كريفن ستريت)، فقد أضاع الشخص العظيم أموالاً. يُعتقد أن الوزراء، كما هي عادة جميع الوزراء، تشاركوا الأتعاب فيما بينهم.

**الثلاثاء، 25 من أيلول**

هذا الصباح، تم استدعاء اللورد الطيب (هاتون) إلى منزل كريفن ستريت وتم سؤاله بشكل محترم ولطيف عن أحوال الملكة، فأرسل عندئذٍ إلى الرجل العظيم جزءاً من خبر مهم لكل منهما، ولكن تم توصيله فقط من قبل السيدة (هوكسوورث)، وهو أن الرفيقة الودودة الحلوة الآنسة (دوروثي بلونت) قد قطعت عهداً على أن تزوجه بشكل مؤكد من الاثنين في حالة إذا فارقت زوجته هذه الحياة أولاً. من المستحيل التعبير عن الاحتياجات المختلفة للعقل والبادية على وجه كل منهما بشأن هذا الموضوع. فعند المقارنة، الغرور قد وُهب لهما أعلى من بقية البشر؛ العاطفة تجاه زوجاتهم الحاليات والخوف من فقدانهم وأمل الحصول على الراحة المقدمة إذا كان عليهم فقدانهم؛ الغيرة من أحدهما الآخر في حالة موت كل من الزوجتين معاً... وهكذا، كلها تعمل في نفس الوقت مغيرة طباعهما إلى اضطراب لا تفسير له. في النهاية، غادرا بمظهر صداقة

دائمة ظاهري في الحقيقة، لكن كان يُعتقد أن كليهما بالكاد كانا صادقين بتمني الصحة وطول العمر لزوجة أحدهما الآخر، وأنه مهما كان المدى الذي يرغب أن يعيشه كل واحد من هذين الصديقين لوحده، فإن الآخر سيكون مسروراً بشكل أكثر بأن ينقذه.

تمت ملاحظة أن السماء تبكي كل يوم في شارع كريفن بسبب غياب الملكة.

يؤكد العامة أنه هذا الصباح تم سؤال شخصية بارزة عظيمة معينة بشكل مؤدب من قبل سيدة المنزل فيما إذا كان سيرغب بتناول عظم لوح ضأن يوم السبت والذي تم الاحتفاظ به لعشاءه لهذا اليوم، ساخناً أم بارداً. فأجاب بحزن، إذا كان هناك بعض اللحم عليه فأرغب به ساخناً، وإذا لا، فبارد. فتم منح الأوامر وفقاً لذلك بتسخينه. لكن عندما وصل المائدة، كان هناك بالفعل لحم قليل جداً للغاية أو بالأحرى لم يوجد لحم (فالقطة قد تعشت به يوم أمس بعد المربية)، ذلك لو كانت إدارتنا الجديدة كاقتصادي خبير كما يُعتقد لكانت قد وفرت تكلفة الشواء للعامة ونقلتها إلى صندوق الاستهلاك. تم التأكد من أن (الشخص العظيم) يتحمل ذلك بصبر لا حدود له. لكن الأمة مندهشة من التقدير الوقح الذي يجرؤ على معاملة لطف كبير جداً كهذا بهذه الطريقة الوحشية!.

حادث رهيب أراد أن يحدث هذا المساء عند موعد تناول الشاي. إذ تم وضع الغلاية قريبة جداً من طرف المائدة الصغيرة المربعة. كانت الوزيرة الأولى جالسة عند أحد أطراف المائدة لتقديم الشاي. كان (الشخص العظيم) على وشك الجلوس عند الطرف الآخر حيث توجد الغلاية. وبحركة مفاجئة سببت السيدة ميلان المائدة. بعد أن تم تجاوز ذلك، لا بد

أن (الشخص العظيم) قد احترق، ربما إلى حد الموت. كثيرةٌ هي الظنون والملاحظات عن هذه الحادثة. فالمتدينون يقولون بأنه لا بد وأنه عقاب له لمنعه العائلة من الذهاب إلى الكنيسة السبت الفائت بسبب كسله. أما المعارضة فلا تتحمل إلا وتُدخل إلى الأذهان بأن هناك مخطط لحرقه وقد أُحبط فقط بقبضه السريع للمائدة. قال أصدقاء الوزارة بأنه هو نفسه رجّ المائدة بتهور، وأنه كان سيحترق حتماً لو لم تنقذه الوزيرة. من الصعب على العامة أن تستنتج الحقيقة في هذه الحالات.

في الساعة السادسة هذا المساء، أتت الأخبار بالبريد بأن جلالتها قد وصلت بسلام إلى روتشستر ليلة السبت. فرنت الأجراس في الحال، أضاءت الشموع قاعة الاستقبال، وانخرط البلاط في لعب الورق، واختُتِم المساء بكل العروض الأخرى من المتعة.

قيل بأن جميع موظفي الدولة المهمين قد تلقوا دعوة من الدوقة (دوجر)، دوقة روتشستر، كي يذهبوا هناك يوم السبت القادم، لكن لم يُعرَف بعد فيما إذا كانت قضايا الدولة الكبيرة التي بين أيديهم ستسمح لهم بهذه الزيارة.

سمعنا أنه منذ أن غادرت جلالتها منزل شارع كريفن إلى هذا اليوم لم يتم الاهتمام بإرسال مواد للنشر إلى الصحف، وإنما هي مبعثرة في كل غرفة عند كل نافذة، وعلى كل كرسي، تماماً حيث كان (الشخص العظيم) يلقيها عندما يقرأها. من المستحيل على حكومة أن تستمر لمدة طويلة بين أيدي كتلك.

## إلى محرر صحيفة كريفن ستريت الرسمية

سيدي: أنا لا أشك بحقيقة ما تخبره لنا الصحف من أن (شخص عظيم) معين، يتضور جوعاً على عظم كتف خروف (لا أستطيع أن أقول ضأن، لعدم وجود شيء منه) بسبب مجموعة من وزراء الأكثر إهمالاً، والعديمي القيمة، والعديمي التفكير، الأكثر تهوراً، الأكثر فساداً، الأكثر جهلاً، الأكثر تخبطاً، الأكثر حماقةً، الأكثر مكراً واحتيالاً، والذين دخلوا المنزل يوماً وتظاهروا بحكم عائلة وتقديم العشاء. واحسرتاه على إنكلترا العتيقة الفقيرة التابعة لشارع كريفن!. فلو استمروا بالسلطة أسبوعاً آخر فستنهار الأمة. انتفضْ، الكل ينتفض، إذا لم يتم تعييننا أنا وأصدقائي لنخلفهم. أنا معجب كبير بصحيفتك المفيدة والنزيهة، لذا أطلب منك أن تُدرج هذا بدون إهمال، من

«خادمك المتواضع»

الغضب

## إلى ناشر صحيفة كريفن ستريت الرسمية

سيدي: إن مراسلك «الغضب» قد اختلق قصة لطيفة في صحيفتك ضد وزارتنا في شارع كريفن، وكأنهم قصدوا تجويع جلالته بمنحه عظماً عارياً فقط لعشائه بينما هم يثيرون الشغب على لحم الغزال المشوي. إن شراسة الكُتّاب في هذا العمر لهي مدهشة حقاً. أعتقد بأنه حتى لو تنازل الملاك جبريل ليكون وزيرنا وقام بتزويدنا بعشائنا، فبالكاد سيتخلص من تشنيع الصحف من عصابة جياع، لا يهدأون أبداً، ساخطين، مؤلفين تافهين خبثاء.

«يا سيدي، من الإنصاف أن تدين لإدارتنا العادلة بتحرير العامة من الأوهام بشأن هذه القضية بطمأنتهم على الحقيقة والتي هي بأنه تم تقديم (وفي الحقيقة مع تبغ على المائدة تحت أنفه الملكي في نفس الوقت) أحسن قطعة من ضلوع البقر المشوي قطعتْه سكين يوماً، مع البطاطا، فجل أبيض، جوز مخلل، والذي قد يتناوله جلالته لو كان يرغب بذلك، ويمتنع عنه بسبب رأي غريب فقط (مع احترامي بأنه سيُكشَف) وهو أن لحم البقر لا يجعله يتعرق جيداً، لكن يجعل ظهره يصاب بالحكة مما يسبب إزعاج كبير. والآن فقد اليد العاجية الصينية الصغيرة التي في نهاية العصا والتي تسمى عموماً (حكّاكة الظَّهر) المقدمة له من قبل جلالتها، هذه هي الحقيقة. وإذا كانت نزاهتك المتباهى بها حقيقية فلن تتردد لحظة بإدراج هذه الرسالة في صحيفتك القادمة».

«أنا، على الرغم من أنني غاضب قليلاً في الوقت الحالي،

المخلص طالما أحسنتَ التصرف»

«كاره الفضيحة».

وصلتْ إلى يديّ (جونيوس) و(كينا) متأخرة جداً عن هذه الصحيفة، لكن سيتم إدراجها في صحيفتنا القادمة.

أخبار الزيجات: لا يوجد منذ عددنا الأخير. لكن قطتنا بدأت المغازلة.

أخبار الوفيات: العديد من الفئران المسكينة في الخزانة الخلفية وفي مكان آخر.

أخبار الأسهم: البسكويت ـ منخفض جداً. الحنطة السوداء والدقيق الهندي ـ كلاهما رديء. الشاي ـ ينخفض يومياً في العلبة. الخمرة ـ مغلقة.

الأربعاء، 26 من أيلول.

ملاحظة ـ لا يتورع أولئك المختصون في القضايا السرية عن التأكيد بشكل صريح بأن وزيرتنا الأولى الحالية مرموقة جداً، لأنها كانت في السوق هذا اليوم واشترت قطع من لحم الضأن، وتفاح، 4 للبنس، وصنعت فطيرة تفاح ممتازة بيديها، ورتقت زوجين من البناطيل.

**إلى (جورجيانا شِبْلي)**

**لندن، 26 من أيلول /1772**

آنستي العزيزة: أندب معكِ بكل صدق النهاية المؤسفة لـ (مانغو) المسكين. قليلة هي السناجب التي تفوقت أكثر (لأنه حظي بتدريب جيد) ورحلت بعيداً ورأت الكثير من الحياة. ولأنه كان له الشرف أن يكون المفضل لديكِ لمزاياه، لم يكن ينبغي أن يرحل كالسناجب العادية بدون مرثية أو كلمة قصيرة. فلنمنحه واحدة بالنمط والنظام التذكاري الأكثر ملائمة للحزن ربما، لكونه لا هو نثر ولا شعر. لأنه لو استخدمنا اللغة العادية فسيبدو وكأننا غير متأثرين، وكانت ستجعل القوافي تبدو ضئيلة في الشجن.

**كلمة قصيرة**

واحسرتاه! يا مانغو المسكين!

سعيد حيث أنت، ألا تعلم

بركتك الخاصة.

بعيداً عن النسر الضاري الأقرع،

المستبد بغاباتك المحلية،

ما كان عليك أن تخاف من مخالبه الحادة،

ولا من سلاح القتل

للرياضيين العديمي العقل.

آمناً في قلعتك المحمية،

لن تتمكن القطة العجوز أبداً أن تزعجك

كنتَ تُطعَم يومياً بأفضل الأطعمة

من اليد الكريمة لسيدة متسامحة؛

لكن ساخطاً،

كنتَ ترغب بحرية أكثر.

واحسرتاه! وقد نلتَها سريعاً؛

وتهيم على وجهك،

فسقطتَ بين أنياب حارس قاسٍ متوحش!

من هنا تعلَّم،

أنت يا من تطلب بتهور حرية أكثر،

سواء رعية، أبناء، سناجب، أو بنات،

أن السيطرة الظاهرية قد تكون حماية حقيقية،

تمنح سلاماً والكثير

من الأمان.

ها أنتِ ترين يا آنستي العزيزة، كم هو لائق وملائم أكثر هذا النمط المتقطع مما لو قلنا على طريقة النقش على الضريح:

يرقد هنا

سنجاب بأمان

كالحشرة

في سجادة

مع ذلك، ربما يكون هناك أناس في الحياة قليلو المشاعر يظنون بأن هذا سيكون نقشاً جيداً كفاية لمانغو المسكين.

إذا رغبتِ، فسأجلب لكِ واحداً آخر ليخلفه. لكن ربما تكوني الآن قد اخترتِ تسلية أخرى.

أذكريني بحرارة لباقي العائلة الطيبة، وثقي بي أبداً، صديقكِ الودود،

**ب. فرانكلين**

**إلى (ديبورا ريد فرانكلين)**

**لندن، 6 من كانون الثاني/1773**

طفلتي العزيزة، أشعر ببعض التقدير إلى السادس من كانون الثاني هذا لأنه عيد ميلادي الاسمي، رغم أن تغير اللقب قد قدّم اليوم الحقيقي إلى السابع عشر، عندما سأصبح - إن عشتُ بعدها - 67 عاماً من العمر. يبدو كأنه أمس منذ أن تم تصنيفنا أنت وأنا من بين الصبية والبنات، إن العمر يمضي سريعاً جداً. رغم ذلك، فلدينا سبب وجيه كي نكون ممتنين وهو أن جزءاً كبيراً جداً من حياتنا قد مرّ بسعادة جداً، وأنه قد بقي جزء وافر جداً من الصحة والقوة كي نقضي حياةً مريحة لحد الآن.

استلمتُ رسالتكِ اللطيفة للسادس عشر من تشرين الثاني من قبل (ساتون). لم يصل التفاح إلى الضفة لحد الآن، لكنني أشكركِ عليه. كان القبطان (أول) طيباً جداً لأنه أرسل لي برميلاً من النوع الممتاز والذي نفعني في تلك الأثناء. أنا سعيد بسماع أنكم جميعكم بخير. لكنكِ عوّدتيني بأن أسمع شيئاً جميلاً عن الصبي [الحفيد]، ذلك لأنني محبط قليلاً بأن لا أجد خبراً أكثر عنه سوى أنه ذهب إلى (بيرلنغتون). أرجو أن تذكري في رسالتكِ القادمة، كالمعتاد، قليلاً عنه.

جميع أصدقائنا هنا مسرورون بتذكركِ إيّاهم ويرسلون حبهم لكِ. وامنحي حبي إلى كل من يسأل عني، وحباً كبيراً إلى أطفالنا. أنا، يا عزيزتي ديبي، زوجكِ المحب دوماً،

**ب. فرانكلين**

# أحكام تخضع بموجبها إمبراطورية كبيرة إلى إمبراطورية صغيرة

## تم تقديمها إلى وزير سابق، عندما تسلم منصبه

إدّعى حكيم من القدماء أنه ـ مع أنه لا يكذب ـ عرف كيف يجعل مدينة عظيمة تابعة لمدينة صغيرة. الفكرة التي أنا ـ الإنسان البسيط الحديث ـ على وشك أن أوصلها هي العكس تماماً.

أنا أخاطب بنفسي جميع الوزراء الذين يديرون ممتلكات واسعة والتي أصبح حكمها متعِباً بسبب سعتها الكبيرة جداً، لأن تعدد شؤونها لا يترك مجالاً للولاء.

1 ـ في المقام الأول أيها السادة يجب أن تعتبروا الإمبراطورية الكبيرة، مثل قطعة الكعكة، تتناقص بسهولة كبيرة جداً عن الأطراف. لذا أولوا اهتمامكم أولاً إلى مقاطعاتكم الأبعد التي إنْ بددتموها فستتبعها الأخرى بالترتيب.

2 ـ بما أن احتمالية هذا الانفصال قد تكون موجودة دائماً، لذا أولِ انتباهاً خاصاً إلى أن المقاطعات لن تتحد أبداً مع البلد الأم، وإنها لا تتمتع بنفس الحقوق المشتركة والامتيازات المشتركة في التجارة، وإنها تُحكَم بقوانين أكثر قساوة، كلها من تشريعاتكم، بدون السماح

لها بالمشاركة في اختيار المشرِّع. إن بصنع وحفظ امتيازات كهذه فستتصرف (استمراراً للتشبيه بالكعكة) كخباز خبز الزنجبيل الحكيم الذي (لتسهيل التقسيم) يقسم عجينته إلى نصفين من خلال تلك المناطق وذلك لكي، عندما تُخبَز، يحصل عليها مقسمة إلى قطع.

3- إن هذه المقاطعات البعيدة ربما قد يكون تم الاستيلاء عليها وشراؤها أو تم الانتصار عليها، على حساب المستوطنين وحدهم أو أسلافهم بدون مساعدة البلد الأم. ففي حال حدوث هذا، ستزداد قوتها من خلال أعدادهم المتزايدة وسيكونون مستعدين للاشتراك في حروبها. وستزداد تجارتها من خلال متطلباتهم المتزايدة لصناعاتها. ستزداد سلطتها البحرية بالتوظيف الأكثر لسفنها وبحارتها، وقد يعتقدون بعض الميزةً في ذلك تخوِّلهم ببعض التأييد. لذا عليك أن تنسى الأمر برمته أو تستاء منه وإلا ستسبب لكم الضرر. وإن صادف وإن كانوا يمينيين متعصبين، أصدقاء الحرية، ناشئين على مبادئ الحرب، فتذكروا أن كل ذلك بسبب تعصبهم، ويقررون معاقبتها، لأن مبادئ كهذه لن تعود ذات فائدة بعد أن تندلع الثورة بشكل شامل بل ستكون مقيتة وحتى كريهة.

4- مهما خضعت مستعمراتكم إلى حكومتكم بسلام وأظهرت تعاطفها مع مصالحكم وتحملوا بصبر مظالمها، فعليكم اعتبارها دائماً ميّالة للثورة وأن تعاملوها وفقاً لذلك. إن المجموعات التي تنشأ بينهم في الأحياء والتي بسبب وقاحتها قد تسبب نشوء الغوغاء، اقمعها بطلقاتها وحرابها. يمكنك بهذه الطريقة ـ كالزوج الذي يسيء معاملة زوجته من الشك ـ أن تحول شكوكك إلى حقائق في الوقت المناسب.

5 ـ لا بد أن تمتلك المقاطعات البعيدة محافظين وقضاة لتمثيل الشخصية الملكية وتنفذ أينما كان الدور

التفويضي لمركزه وسلطته. تعرفون أيها السادة الوزراء، إن الكثير من قوة الحكومة يعتمد على رأي الشعب، والكثير من هذا الرأي يعتمد على اختيار الحكّام المُنَصَّبين عليهم مباشرةً. فبالنسبة للمحافظين، إذا أرسلتَ إليهم رجالاً حكماء وصالحين يبحثون مصالح المستعمرات ويدعمون رخاءها، فسيظنون أن ملكهم حكيماً وصالحاً وأنه يتمنى الرفاهية لرعيته. وبالنسبة للقضاة، إذا أرسلتَ إليهم رجالاً متعلمين وعادلين فسيظنونه محباً للعدل. إن ذلك قد يربط مقاطعاتكم أكثر بحكومته. لذا عليكم أن تكونوا حذرين بمن توصون هذه المناصب. فإذا كان بإمكانك أن تجد مبذرين بددوا ثروتهم، مقامرين أو مضاربي أسهم مفلسين، فهؤلاء يفلحون كمحافظين لأنهم سيكونون جشعين ويستفزون الناس بابتزازهم. أيضاً مسؤولي النظام والمحامين المنشغلين بالتوافه ليس اختياراً خاطئاً لأنهم سيتنازعون ويتشاجرون إلى الأبد مع برلمانهم الصغير. وإذا كانوا فوق ذلك جاهلين، ذوي قرارات خاطئة ووقحين يكون ذلك أفضل. بالنسبة لكتّاب المحامين وكاتبي العدل لسجن (نيوغيت)، سينفعون كرؤساء قضاء، خصوصاً إذا شغلوا وظائفهم أثناء فترة سعادتكم. وسيشارك جميعهم بتعميق هذه المُثُل لحكومتكم والملائمة لشعب كنتم تتمنون التخلي عنه.

6 ـ لتعزيز هذه الانطباعات وتعميقها، عندما يأتي الشخص المتضرر إلى العاصمة يشتكي من سوء الإدارة والظلم والأذى، عاقبْ مدعين كهؤلاء بتأخير طويل ونفقات ضخمة وبحكم نهائي لصالح الظالم. سيكون لهذا تأثير مثير للإعجاب بكل طريقة. وستُكبَح متاعب

الشكاوى المستقبلية، وسيتشجع المحافظون والقضاة نحو مزيد من أعمال الظلم والأذى، وبهذا سيصبح الناس ساخطين أكثر وفي النهاية سييأسون.

7ـ عندما يملأ محافظون كهؤلاء خزائنهم ويجعلون أنفسهم بغيضين جداً للشعب الذي لا يمكنهم أن يبقوا بينه آمنين على أنفسهم، استدعهم وكافئهم بمعاش. يمكنك أن تجعل منهم بارونات أيضاً إذا لم تكن هذه المرتبة المحترمة تجعلهم مستائين. كلهم سيتعاونون على تشجيع المحافظين الجدد على نفس الممارسة وجعل الحكومة العليا كريهة.

8ـ عندما تدخل حرباً، إذا كان على مستعمراتك أن تتنافس بمساعدات كريمة بالرجال والأموال ضد العدو المشترك ـ بطلب بسيط منك ـ ويعطون أكثر ما بمقدورهم، فَكِّرْ بأن بنساً مأخوذاً منهم بالقوة هو أشرف لك من باوند قُدِّمَ من تبرعهم. احتقرْ هباتهم التطوعية وقرر بأن تنهكهم بضرائب جديدة. ربما سوف يشتكون من برلماناتك بأنه قد فُرضت عليهم ضرائب من قبل مجموعة ليس فيها ممثل عنهم، وإن هذا مخالف للحق العام. سوف يلتمسون التعويض. دع البرلمانيين يهزأون من ادعاءاتهم ويرفضون التماسهم، ارفُضْ حتى أن تكلف نفسك عناء قراءته وتعامل مع تلك الالتماسات بأقصى ازدراء، فلا شيء يمكن أن يكون له تأثير أفضل من التسبب بالنفور المطلوب ـ لأن رغم أن العديد يمكنهم أن يغفروا الخسارة إلا أنه لا أحد يغفر الازدراء أبداً.

9ـ عند وضع هذه الضرائب، لا تأخذْ بعين الاعتبار الأعباء التي يرزح

تحتها مسبقاً أولئك الناس البعيدون في الدفاع عن حصونهم الخاصة، مساندة حكوماتهم الإقليمية الخاصة، عمل طرق جديدة، بناء جسور، كنائس، وصروح عامة أخرى والتي في الدول القديمة أقيمت بمساعدتك من قبل أسلافك، لكن هذه الحالة تستدعي وتتطلب أموال الأناس الجدد بشكل مستمر. انسَ القيود التي وضعتَها على تجارتهم لمصلحتك الخاصة، والفائدة التي يمنحها احتكار هذه التجارة لتجارك المتطلبين. لا تفكر بالثروة التي يحصل عليها أولئك التجار وصُنّاعك من خلال تجارة المستعمرات، وزيادة مقدرتهم بهذه الطريقة لدفع الضرائب في الوطن، جَمْعِهِم معظم تلك الضرائب من خلال أسعار بضائعهم، وكذلك تحصيلها من زبائنهم المستهلِكين، كل ذلك، وتوظيف ودعم آلاف فقرائكم من قبل المستوطنين، عليك نسيانه بشكل كلي. لكن تذكر بأن تجعل ضريبتك التعسفية شديدة أكثر على مقاطعاتك بتصريحات علنية تفيد بأن سلطتكم لفرض الضرائب عليهم ليس لها حدود، بحيث إذا أخذتَ منهم شلن واحد للباوند بدون موافقتهم، يكون لكم الحق الخالص بالتسعة عشر الأخرى. ن هذا ربما سيُضعِف كل فكرة عن أمان ممتلكاتهم ويُقنعهم بأن تحت ظل حكومة كهذه لا يوجد شيء اسمه (مُلْكُهُم) والذي نادراً ما يفشل في تحقيق أسعد النتائج!.

10 - في الواقع، ربما لا يزال البعض منهم يعزّي نفسه ويقول «رغم أننا ليس لدينا أملاك، لكن بقي لدينا شيء ما بقي له قيمة، فلدينا الحرية الدستورية لكل من الأشخاص والضمير. فهذا الملك، وهؤلاء اللوردات ومجلس العموم هذا الذين يبدون بعيدين عنا جداً كي

يعرفونا ويشعرون بنا، لا يستطيعون أخذ حقنا في المثول[1]، أو حقنا بالمحاكمة من قبل هيئة محلفين من جيراننا. لا يستطيعون حرماننا من ممارسة معتقدنا أو يغيروا دستورنا الكنسي ويجبرونا على أن نصبح من الرومان الكاثوليك، إذا يسعدهم ذلك، أو من المسلمين».

لتبديد هذا العزاء، ابدأ بقوانين تُرْبِك تجارتهم بلوائح لا نهائية، من المستحيل تذكرها وملاحظتها. أصدِر أوامر بالحجز على أملاكهم لكل إفلاس. أبعِد محاكمة هكذا ملكية من قبل هيئة محلفين وأعطِها إلى قضاة اعتباطيين من تعيينك الخاص ومن أوطأ الأشخاص في البلاد والذين يجب أن تنشأ رواتبهم ومكافآتهم من الجبايات أو مصادرة الممتلكات، والذين تم تعيينهم أثناء فترة حكم سعادتكم. ثم ليكن هناك إعلان رسمي من كلا المجلسين بأن مخالفة أوامركم العَليا هو خيانة وأن أي شخص مشتبه بالخيانة في المقاطعة قد يعتقل ويُرسَل إلى عاصمة الإمبراطورية للمحاكمة (وفقاً لقانون مهمَل). وأصدِر قانوناً بأن أولئك المتهمين بجرائم معينة أخرى سيتم إبعادهم بالسلاسل عن أصدقائهم وبلدهم كي تتم محاكمتهم بنفس حالة التآمر على الدولة. ثم نَصِّبْ محكمة جديدة للتحقيق بينهم، مصحوبة بقوة مسلحة مع تعليمات بنقل جميع الأشخاص المشتبه بهم هؤلاء. إذا جلبوا دلائل تثبت براءتهم، فيجب إفلاسهم بالنفقات، وإذا لم يتمكنوا من تقديمها يُدانون ويتم شنقهم. ولئلّا يظن الناس بأنك لا تستطيع عمل شيء، أصدِرْ قانوناً رسمياً تعليلياً بأن «الملك واللوردات ومجالس العموم، يملكون ـ وبالأصح يجب أن يمتلكوا ـ

---

(1) حق المثول: أمر قضائي يوجِب إحضار السجين أمام المحكمة للنظر في أسباب اعتقاله. (المترجمة)

السلطة المطلقة والتفويض لوضع تشريعات ذات قوة وشرعية كافيتين لإلزام المقاطعات الغير مُمَثَّلة بكل القضايا أيًّا كانت».

وسيتضمن ذلك الروحية والدنيوية، ويجب عليك استغلالهما بشكل بارع لتحقيق غرضك بإقناعهم بأنهم في الوقت الحاضر تحت سلطة تشبه تلك السلطة التي تتحدث عنها الكتب المقدسة، والتي بموجبها لا تستطيع فقط قتل أجسادهم، بل تلعن أرواحهم إلى الأبد بإجبارهم على عبادة الشيطان.

11 ـ لجعل ضرائبك مقيتة أكثر وتجلب على أكثر الاحتمالات المقاومة، اطلُب من العاصمة إرسال لجنة من الموظفين للإشراف على المال، تتألف من أكثر الرجال طيشاً وجلافةً ووقاحة يمكنك أن تجدهم. دع هؤلاء يحظون برواتب عالية من الضرائب المغتصبة ويعيشوا ببحبوحة، يصرفون بترف على عرق ودم الكادحين الذين يجب عليك أن تقلقهم بشكل مستمر بملاحقات قضائية مكلفة ولا مبرر لها قبل أن يصدر موظفو الضرائب التعسفية المذكورين أعلاه حُكماً: كله على نفقة الطرف المدعي، رغم تبرئته، لأنه ليس على الملك دفع تكاليف.

دع هؤلاء الرجال بأمر منك معفون من جميع الضرائب العامة وأعباء المقاطعة، على أن تتم حمايتهم وممتلكاتهم بقوانينها. إذا تم الاشتباه بأي من موظفي الضرائب بأدنى تسامح مع الناس، اطرده. وإذا تم الاشتكاء من آخرين بحق، احمهم وكافئهم. لو تصرّف أي واحد من أولئك الموظفين ذوي المرتبة الأدنى بطريقة تثير الناس لتضربه، قم بترقيته إلى مركز أعلى، فهذا سيشجع آخرين بالتسبب لأنفسهم بضربات مربحة كهذه بمضاعفة وتوسيع استفزازات كهذه، وكل ذلك سيعمل باتجاه الغاية التي تسعى لها.

12 ـ طريقة أخرى لجعل ضرائبك بغيضة، هي إساءة استعمال إيرادها. فإذا كانت قد خُصصت في الأصل للدفاع عن المقاطعات، ودعم أفضل للحكومة وإدارة العدالة، حيث ذلك ضروري، فلا تستعمل أيًّا منها لها الدفاع، بل خصصها في كل ما هو غير ضروري، في تعزيز رواتب ومعاشات كل محافظ عُرف بعدائه للناس وبالوشاية بهم لملكهم. فهذا سيجعلهم يدفعونها كرهاً وسيكونون ميالين أكثر للتشاجر مع أولئك الذين يجمعونها وأولئك الذين يفرضونها، والذين سيتشاجرون ثانيةً معهم. وكل ذلك سيساهم في هدفك الرئيسي وهو جعلهم ضجرين من حكومتك.

13 ـ إذا اعتاد أناس أية مقاطعة على مساندة محافظيهم وقضاتهم إلى حد الرضا، فعليك بالخشية من أن محافظين وقضاة كهؤلاء قد يتأثرون بهذه الطريقة فيعاملوا الناس بلطف وأن يعدلوا بينهم. وهذا سبب آخر لاستعمال جزء من ذلك الإيراد في كرواتب أكثر لمحافظين وقضاة كهؤلاء تُمنَح (كما تُمنَح عمولتهم) أثناء فترة سعادتكم فقط، مانعاً إياهم من أخذ أي رواتب من مقاطعاتهم، وبهذه الطريقة لن يأمل الناس أكثر بأي عطف من محافظيهم أو أية عدالة من قضاتهم. ولأن المال الذي ساء استعماله بهذه الطريقة في مقاطعة واحدة يُغتصَب من الكل، فعلى الأرجح سيستاء الكل من سوء الاستعمال.

14 ـ في حالة تجرأت برلمانات مقاطعاتك وادّعت بالحقوق أو اشتكت من سوء حكمك، فأمُر بمضايقتهم بإدانات متكررة. وإذا عاد نفس الرجال باستمرار بانتخابات جديدة، أجِّل اجتماعاتهم

إلى القرى حيث لا يتمكنون من التأقلم، وهناك احجزهم لأن هذا كما تعلم من حقك، وقلل من احترام أفضل واحد بهم وزِدْ من سخطه.

15 ـ حوِّل الموظفين الصادقين الشجعان في قوتك البحرية إلى خدم تافهين وموظفي جمارك. ودع أولئك، الذين في وقت الحرب حاربوا بشجاعة دفاعاً عن تجارة مواطنيهم، يتعلمون أن يضحي بها وقت السلم. دعهم يتعلموا كي يصبحوا فاسدين من قبل مهربين كبار وحقيقيين. طَهِّرْ بقوارب مسلحة كل يوم كل ميناء ونهر وخليج وكهف أو ركن خلال سواحل مستعمراتك. أوقِفْ كل سفينة ساحلية، كل قارب خشبي، كل صياد، اقلب حمولتهم وحتى الصابورة[1] الداخلية أخرجها واقلبها رأساً على عقب. وحتى الدبابيس التي تساوي بنساً واحداً إذا وُجدت غير مقيدة في بيانات الجمارك، احجز عليها كلها وقم بمصادرتها. وعليه ستعاني تجارة سكان مستعمراتك من أصدقائها في وقت السلم أكثر من معاناتها من أعدائها في وقت الحرب. ثم دع طواقم القوارب تلك تحط عند كل مزرعة في طريقها، لتسلب البساتين، وتسرق الخنازير والدجاج، واعتدِ على السكان. في حالة هاجمَ المزارعون المتضررون والغاضبون والغير قادرين على جلب حق الآخرين، على المعتدين، اضربهم واحرق قواربهم. عليك أن تسمي ذلك خيانة عظمى وتمرد وأرسِل بطلب الأساطيل والجيوش إلى بلادهم وهدد بحمل جميع المذنبين ثلاثة آلاف

(1) الصابورة: ثقل يوجد في قاع السفينة يساعدها على التوازن.. (المترجمة)

ميل لشنقهم، إغراقهم، وتقطيعهم أربع قطع. أوه! سينفع ذلك بشكل مثير للإعجاب!

16- إذا تم إخبارك بوجود استياء في مستعمراتك، فلا تصدق بأنه عام، أو أنه تم منحك سبباً له، لذلك لا تفكر بتطبيق أي إصلاح أو بتغيير أي إجراء اعتدائي. لا تعدل في أي تظلم لئلّا يتشجعوا بطلب العدل في مظالم أخرى. لا تستجب إلى طلبٍ عادلٍ ومنطقي لئلّا يعملوا طلباً آخر غير منطقي. خذ جميع معلوماتك عن حالة المستعمرات من محافظيك وموظفيك الذين على عداوة مع الشعب. شجِّع وكافئ هؤلاء المستغلين واخفِ اتهاماتهم الكاذبة لئلّا يتم دحضها، بل تصرف إزاءها على أنها أوضح دليل، ولا تصدق أي شيء تسمعه من أصدقاء الشعب. افترض أن كل تلك الشكاوى هي من اختراع وترويج القليل من المتحزبين والمحرضين الذين إذا تمكنتَ من القبض عليهم وشنقهم فسيهدأ كل شيء. اقبض عليهم واشنق القليل منهم وفقاً لذلك، وسيصنع دم الضحايا المعجزات لصالح غرضك.

17- إذا رأيتَ أمماً منافسة تفرح بمشهد تفرق مقاطعاتك وتسعى لإدامة ذلك، إذا كانت تترجم وتنشر وتهتف بكل شكاوى مقاطعاتك الساخطة، وفي نفس الوقت تحثك سراً باتخاذ إجراءات أكثر قساوة، فلا تدع ذلك يرعبك أو يضايقك. فلِمَ ذلك، طالما كلكم يقصد الشيء نفسه؟

18- إذا كان على كل مستعمرة أن تنصّب قلعة على نفقتها الخاصة لتحمي ميناءها من أساطيل عدو أجنبي، فدع محافظك يسلّم تلك

القلعة بين يديك. لا تفكر أبداً بدفع ما كلّفته القلعة البلاد لأن ذلك سيبدو على الأقل كاحترام للعدالة، بل حوّلها إلى معتقل لترهب به المستوطنين ولتضيّق على تجارتهم. إذا كان عليهم أن يضعوا في قلعة كهذه الأسلحة نفسها التي اشتروها واستعملوها لمساعدتك في غزواتك، فاستولِ عليها كلها، فذلك سيحرض ما يشبه الجحود زائداً السرقة.

واحدة من التأثيرات المثيرة للإعجاب لهذه العمليات ستكون، عدم تشجيع أية مستعمرة أخرى على تنصيب حصوناً كهذه وبهذا سيتمكن أعداؤك مهاجمتهم بسهولة أكبر، مما سيسبب الخزي الكبير لحكومتك، وبالطبع تعزيز مشروعك.

19 ـ أرسِل جيشاً إلى بلادهم تحت ذريعة حماية المستوطنين؛ لكن، بدلاً من حماية الحصون على حدودهم بهذه القوات لمنع الغزوات، هدِّم تلك الحصون، وأوعِز للقوات في قلب البلاد أن المتوحشين قد يتشجعوا على مهاجمة الحدود وأن القوات قد يتم حمايتها من قبل المستوطنين. إن ذلك سيبدو أنه ناتج من نقمتك أو جهلك، وسيساهم أكثر بخلق وتعزيز رأياً بينهم وهو: بأنك لم تعد مناسباً لتحكمهم.

20 ـ أخيراً، خَوِّلْ قائد جيشك في المقاطعات بسلطات كبيرة وغير دستورية، وحرره حتى من سيطرة محافظيك المدنيين. دعه يحظى بقوات كافية تحت إمرته وكل القلاع تحت يده. ومن يدري، فربما (كبعض القُوّاد الإقليميين في الإمبراطورية الرومانية، ومتشجعاً بالسخط العام الذي خلقتَه) يعدّها لنفسه؟ فإذا فعلها، وأنت مارستَ بدقة تلك القواعد

القليلة الممتازة العائدة لي، أعدك بأن جميع المقاطعات ستنضم إليه على الفور، وستتخلص آجلاً (إذا لم يكن عاجلاً) من متاعب حكمهم ومن الغزو المصاحب لتجارتهم وعلاقاتهم من الآن فصاعداً وإلى الأبد.

وهو المطلوب

**[مجلة الجنتلمان، أيلول/1773]**

# مرسوم من ملك بـروسيا

**دانتسيغ، 5 من أيلول [1773]**

تساءلنا طويلاً هنا عن خضوع الأمة الإنجليزية للضرائب البروسية على تجارتها الداخلة إلى مينائنا. لم نعلم إلا حديثاً بالشكاوى ـ القديمة والحديثة ـ التي تهدد تلك الأمة، ولذلك لا يمكننا الشك إلى بأنها ربما تخضع إلى تلك الضرائب من ناحية الحس بالواجب أو من مبادئ الضمير. إن المرسوم التالي الذي عُمِّمَ للتو قد يلقي بعض الضوء على هذا الموضوع ـ لو كان مهماً.

«فريدريك، بنعمة الله، ملك بروسيا....إلخ. العافية على كل الناس الحاضرين ومن سيأتي بعدهم. إن السلام الذي نستمتع به الآن خلال حكمنا قد منحنا فرصة كي نهتم بتنظيم التجارة وتحسين ماليتنا، وفي نفس الوقت التخفيف على رعايانا المواطنين في ضرائبهم. ولهذه الأسباب واعتبارات أخرى طيبة نحن نسير عليها، نُعلن بموجب هذا أنه بعد تدارس هذه القضايا في مجلسنا بحضور أخواننا الأعزاء، وموظفين كبار آخرين للدولة، أعضاء من الآنف ذكرهم، نحن، من منطلق معرفتنا المؤكدة وسلطتنا المطلقة ونفوذنا الملكي، أحدثنا وأصدرنا المرسوم الحالي:

«بما أنه من المعروف جيداً أن أولى المستوطنات الألمانية التي نشأت

في جزيرة بريطانيا كانت من قبل جاليات من أناس ينحدرون إلى أسلافنا الدوقية المشهورة ونزحت من بلدانها تحت قيادة (هينجيست)، (هورسا)، (هيللا)، (أووف)، (سيرديكاس)، (آيدا) وآخرين، وأن الجاليات المذكورة قد ازدهرت تحت حماية أسرتنا الجليلة لعقود مضت ولم تتحرر من ذلك أبداً، ومع ذلك، منحوا إلى الآنف ذكرهم إيراداً قليلاً إلى هذ اليوم. وبما أنه نحن أنفسنا حاربنا في السنة الفائتة ودافعنا عن الجاليات المذكورة ضد تسلط الفرنسيين ومكّنّاهم بهذه الطريقة من عمل فتوحات من السلطة المذكورة في أميركا والتي لم نتلقَّ مقابلها تعويضاً كافياً بعد. وبما أنه من الصائب والمناسب وجوب جمع الإيرادات من الجاليات المذكورة في بريطانيا لأجل تعويضنا، وأن أولئك المنحدرين من رعيتنا القديمة (ولهذا السبب لا يزالون يدينون لنا بالطاعة) عليهم أن يساهموا بسد نقص خزائننا الملكية كما لا بد لهم أن يفعلوا، وأن أجدادهم الذين مكثوا في الأقاليم يتمون لنا الآن. نحن، لذلك، نقضي بموجب هذا، ونأمر ابتداءً من وبعد تاريخ هذه القضايا أنه سيتم فرض ودفع إلى موظفي جماركنا، على كل البضائع، السلع، والتجارات، وعلى كل الحبوب ومنتجات الأرض الأخرى، المصدّرة من جزيرة بريطانيا المذكورة، وعلى كل البضائع من أي نوع المستوردة من الآنفة الذكر، ضريبة بأربعة ونصف بالمائة للقيمة، لمنفعتنا ومنفعة أجيالنا القادمة. وتلك الضريبة المذكورة ينبغي جمعها بشكل فعلي أكثر، لذا نأمر بموجب هذا أن يتم تفريغ وتفتيش وجباية، كل السفن والزوارق المبحرة من بريطانيا العظمى إلى أي جزء آخر من العالم أو من أي جزء آخر من العالم إلى بريطانيا العظمى في رحلاتها الخاصة والتي تلامس ميناءنا (كونينغزبيرغ)، بالضرائب المذكورة.

«وبما أن هناك يتم من حين لآخر اكتشاف في نفس جزيرة بريطانيا العظمى من قبل مستوطنينا هناك، العديد من المناجم أو طبقات حجارة الحديد، وأمور متناثرة لممتلكات أسلافنا الماهرين بتحويل الحجارة المذكورة إلى معدن، نقلوها في زمن مضى إلى هناك حامليها معهم وموصلين ذلك الفن. وإن سكان الجزيرة المذكورة ـ باعتبار أن لهم حق طبيعي للاستفادة المثلى ما أمكنهم من المنتجات الطبيعية لبلدهم لفائدتهم الخاصة ـ لم يبنوا فقط أفراناً لصهر الحجارة المذكورة وإنما نصبوا دكاكين الحدادة، طواحين التقطيع، وأفران الفولاذ، لعملية تصنيع أسهل للمذكور آنفاً. إن ذلك يعرِّض الصناعة المذكورة لخطر الاندثار في مستعمرتنا القديمة، لذا نأمر أيضاً بموجب هذا ابتداءً من وبعد تاريخ هذا القانون أنه لن تُنَصَّب أو تبقى في، الجزيرة المذكورة لبريطانيا العظمى، طاحونة أو آلة أخرى لتقطيع أو ليّ الحديد، أو أي دكان حدادة يعمل بالمطرقة المائلة، أو أي فرن لصنع الفولاذ. ويؤمر بموجب هذا القانون رئيس كل بلد في الجزيرة المذكورة بشأن إخبارية لأي تنصيب كهذا، بتقويض وتدمير المذكور آنفاً بالقوة، كما سيحقق بشأن إهمال ذلك على مسؤوليته. لكننا مع ذلك مسرورون جداً للسماح لمستوطني الجزيرة المذكورة بنقل الحديد خاصتهم إلى بروسيا، ليتم صناعته هناك ويُعاد لهم. فهم يدفعون لرعايانا البروسيين مقابل الصنعة، مع كل تكاليف العمولة، الحمولة، والمخاطر، الذهاب والإياب.

«رغم ذلك، لا نعتقد أنه من المناسب أن يمتد هذا إلى إعفائنا فقرة الصوف، لكن القصد هو ليس فقط تشجيع صناعة الملابس الصوفية وإنما أيضاً زيادة الصوف في مستوطناتنا القديمة ومنع كليهما بقدر ما ينبغي في

الجزيرة المذكورة، لذا نمنع بموجب هذا وبشكل مطلق نقل الصوف من هناك، حتى للبلد الأم بروسيا، وينبغي أن يُمنَع سكان الجزر أولئك بشكل فعلي أكثر، من الاستفادة بأي شكل من صوفهم الخاص بطريقة الحياكة، ونأمر أن لا يتم نقل أي منه من بلد لآخر، ولا أن يُنقَل إلى أي إقليم آخر أو يُحمَل عن طريق الماء عبر أصغر نهر أو خليج أي نسيج صوفي أو خيوط صوفية، ملبس، بلوزات، أقمشة صوفية، سجاد، أنسجة ملابس صوفية، أو أي مواد جوخية أخرى، أو صناعات صوفية أيًّا كانت مصنوعة من أو مخلوطة بالصوف، وستُطبَّق عقوبة المصادرة لما ورد آنفاً مع القوارب والحمولة والخيول في حال اكتشافها. مع ذلك، يُسمَح لرعايانا المحبوبين هناك بموجب هذا (لو كانوا يظنوه أمراً صائباً) باستعمال كل أصوافهم كسماد لتحسين أراضيهم.

«وبما أن فن وسر صناعة القبعات قد وصلا في بروسيا إلى درجة الكمال، وأن صناعة القبعات من قبل رعايانا البعيدين يجب أن تُمنَع قدر الإمكان، ونظراً لكون سكان الجزيرة الآنفة الذكر يمتلكون الصوف وفراء القندس وأنواع أخرى من الفراء، يتصورون بجرأة بأن لديهم الحق بالانتفاع من ذلك بحياكة ما ذُكر آنفاً إلى قبعات مما يسبب الضرر لصناعتنا المحلية؛ لذا نوجب بشدة بموجب هذا ونأمر: بأنه لن يتم شحن أي قبعة أو لباد أيًّا كان، مصبوغة أو غير مصبوغة، مكتملة أم غير مكتملة، في أو على أي زورق، عربة، مركبة أو حصان لنقلها أو إرسالها خارج أي بلد في الجزيرة المذكورة إلى بلد آخر أو إلى أي مكان آخر أيًّا كان، من قبل أي شخص أو أشخاص أيًّا كانوا، بعقوبة غرامة على ما ذُكر آنفاً قدرها 500 باوند إسترليني لكل مخالفة. ولا أن يوظِّف أي صانع قبعات في أي

من البلدان المذكورة، أكثر من اثنين من المتدربين، بعقوبة 5 باوندات إسترلينية شهرياً. نحن ننوي من ذلك أن لا يجد صناع قبعات كهؤلاء أية فائدة بالاستمرار بصناعتهم لكون تم التضييق عليهم جداً في كل من إنتاج وبيع بضاعتهم. لكن لكي لا يعاني سكان الجزيرة المذكورة من الانزعاج بسبب العوز إلى القبعات، سنكون مسرورين كثيراً بالسماح لهم بإرسال فراء القنادس خاصتهم إلى بروسيا، وسنسمح أيضاً بصنع القبعات هناك كي يتم تصديرها من بروسيا إلى بريطانيا. وعليه، سيفضل الناس دفع كل تكاليف ونفقات الصناعة، الفائدة، العمولة إلى تجارنا، التأمين والشحن ذهاباً وإيّاباً كما في حالة الحديد.

«وأخيراً، لكوننا راغبين أكثر بدعم مستعمراتنا المذكورة في بريطانيا، نأمر بموجب هذا أيضاً ونقضي بترحيل جميع اللصوص، السارقين وقطاع الطرق، مقتحمي المنازل، المزورين، القتلة، وكل المجرمين من كافة التسميات، الذين ضيعوا حياتهم بالمقاضاة في بروسيا، والذين لا نعتقد بأنه من المناسب أن يتم شنقهم هنا ـ لعطفنا الكبير ـ إلى الجزيرة المذكورة لبريطانيا العظمى، من أجل تعمير أفضل لتلك البلد.

«نحن نطري أنفسنا بأن هذه القوانين والأوامر الملكية سيُعتقد بأنها عادلة ومنطقية من قبل مستوطنينا الأكثر تأييداً في إنكلترا. فالقوانين المذكورة قد تم نسخها من لوائحهم (10 و2 وليام الثالث، جـ 5،10/ جورج الثاني، جـ 23،22/ جورج الثاني، جـ 4،29/ جورج الأول، جـ 2) ومن قوانين عادلة أخرى وُضعت من قبل برلمانييهم، أو من نصائح مُنحت من قبل أمرائهم، أو من قرارات لكلَيّ المجلسين، تم إبرامها من أجل حُكم جيد لمستعمراتهم الخاصة في إيرلندا وأميركا».

«وكل الأشخاص في الجزيرة المذكورة مبلَّغون بموجب هذا بأن لا يُخالِفوا تنفيذ مرسومنا هذا أو أي جزء منه لكون مخالفة كهذه هي خيانة عظمى والتي يُنقَل كل من يُشتبه بها بالأغلال من بريطانيا إلى بروسيا كي تتم محاكمته هناك ويُعدَم وفقاً للقانون البروسي».

«هذه سعادتنا»

«مرسل من بوتسدام، في اليوم 25 هذا من شهر آب، 1773، وفي السنة 33 من حكمنا».

«من الملك، في مجلسه».

«رسالة قانونية، سرية»

يعتبر البعض هذا المرسوم مجرد واحد من مزحات الملك، يفترض آخرون بأنه جدي وأنه يعني نزاع مع إنكلترا. لكن الكل يعتقد هنا أن التأكيد الذي تضمنه بقوله «إن هذه القوانين هي نسخة من قوانين البرلمان الإنجليزي الذي يحترم مستعمراته» هو تأكيد خبيث، لكون من المستحيل التصديق أن شعباً يتميز بحبه للحرية، أمة حكيمة جداً، تقدمية جداً في آرائها، منصفة جداً وعادلة تجاه جيرانها، تعامِل أبناءها بطريقة تعسفية واستبدادية! بسبب وجهات نظر وضيعة وطائشة للربح السريع التافه.

[مجلة الجنتلمان، تشرين الأول/1773]

## إلى (وليام فرانكلين)

**لندن، 6 من تشرين الأول/1773**

ابني العزيز، كتبتُ لك في الأول من الشهر الفائت، منذ أن تلقيتُ رسالتك في التاسع والعشرين من تموز، من نيويورك. لا أعلم عن أية رسائل لي يقصدها المحافظ (هاتشنسون) والتي أنصح بها الناس كي يصرّوا على استقلالهم. لكن أيّا كانت، أعتقد بأنه أرسل نسخاً منها هنا لأنه سمع بعض الإشاعات بشأنها. رغم ذلك، سأكون قادراً في أي وقت على تبرير كل شيء كتبتُه. إن المضمون كان رسمياً هو: أن يتفادوا بحرص كل الشغب وكل إجراء عنيف، وأن يكتفوا بالثبات على مطالبهم شفهياً وإبداء حقوقهم متى ما سنحت الفرصة. إطمئن إلى أن تلك المطالب سيُعنى بها عما قريب وتصبح معلنة بسبب الأهمية المتزايدة لأميركا.

من خلال تفكير طويل وشامل عن الموضوع، أنا في الواقع من الرأي؛ أن ليس للبرلمان الحق بوضع أي قانون أيّا كان، يرتبط بشأن المستعمرات؛ وأن الملك حاكمها، وليس الملك، اللوردات ومجالس العموم إجمالاً؛ وأن الملك مع برلماناته الخاصة به هما مشرعهم الوحيد. أنا أعلم أن آراءك تختلف عن آرائي بشأن هذه المواضيع. فأنت رجل حكومة مجتهد، وهو أمر لا أندهش له، ولا أهدف له بتغييرك. أنا فقط أتمنى منك أن تتصرف باستقامة وثبات متفادياً تلك الازدواجية

والتي، في حالة (هاتشنسون)، يضيف ازدراء الغضب. إذا كنت تستطيع تعزيز ازدهار شعبك وأن تتركهم أسعد مما وجدتهم مهما كانت مبادئك السياسية، فسيتم تشريف ذكراك.

لقد كتبتُ هنا مؤخراً نموذجين لصحيفة (بيلك ادفرتايزر) عن الشؤون الأميركية، خصصتُهما لعرض تصرف هذه البلاد تجاه المستعمرات بوجهة نظر مختصرة، شاملة وملفتة للنظر، ومصرح بها بصيغة غير مطروقة كي تستحوذ على الانتباه العام على أكثر تقدير. سميت الأولى (أحكام تخضع بموجبها إمبراطورية كبيرة إلى إمبراطورية صغيرة)، الثانية (مرسوم من ملك بروسيا). أرسلتُ لك واحدة من الأولى، لكن لم أحصل على ما يكفي من الثانية كي أستبقي لك واحدة، رغم أن ناشري ذهب في الصباح التالي إلى المطبعة حيث كانت قد بيعت. لقد بيعت كلها سوى اثنتين. في فكري الخاص فضلتُ الأولى، فمن ناحية التركيب كانت المادة كثيرة ومتنوعة وفيها نوع من النهاية الحماسية في كل فقرة. لكنني وجدتُ بأن الآخرين هنا يفضلون الثانية عموماً.

أنا لستُ متهماً ككاتب، ما عدا من قبل صديق أو اثنين، وقد سمعتُ الآخرين يتحدثون عنه بعبارات المبالغة، مثلاً العمل الأكثر حماسية والأكثر حدية الذي ظهر هنا ولمدة طويلة. سمعتُ أن اللورد (مانسفيلد) قد قال بشأنه بأنه كان قوياً جداً وإبداعياً جداً في الواقع، وكان سيعمل خطأً بتقديمه هنا انطباعاً سيّئاً عن إجراءات الحكومة، وفي المستعمرات، بتشجيعهم على تمردهم.

تمت إعادة طبعه في (الكرونكل) حيث ستراه، لكنه مجرد من كل الحروف الكبيرة والمائلة التي تشير إلى التلميحات والتي تحدد

الأمور البارزة للكلام المكتوب لتقربهم أكثر ما يمكن إلى هؤلاء المتحدثين.

إن طباعة عمل كهذا كله أو حتى حرف صغير منه يُعتبر بالنسبة لي كتكرار لإحدى مواعظ (وايتفيلد) بوتيرة صبي مدرسة.

إن ما جعله العمل الأكثر شهرة هنا هو أن الناس عند قراءته كانوا قد خُدِعوا بكل معنى الكلمة، إلى أن وصلوا إلى نصفه وتخيلوه مرسوم حقيقي. أنا أعتقد أن شخصية ملك بروسيا كان يجب أن تُقدَّم بسوء الفهم هذا. كنتُ عند اللورد (ديسبينسر) عندما جلب ساعي البريد صحف ذلك اليوم. كان السيد (وايتهيد) هناك أيضاً (بول وايتهيد، مؤلف كتاب «الأخلاق») والذي كان يقرأ بسرعة مبكراً كل الصحف ويخبر الرفاق بما يجده جديراً بالاهتمام. كنا نتحادث في حجرة الإفطار عندما وصل راكضاً نحونا وهو لاهث النفس والصحيفة في يده، فقال «هنا! هنا أخبار لك! هنا يدعي ملك بروسيا بالحق في هذه المملكة!»

فحدق إليه الكل، وأنا أيضاً كأي شخص، فاستمر بقراءته. عندما قرأ فقرتين أو ثلاثة، قال أحد السادة الموجودين «اللعنة على وقاحته، أتجرأ وأقول ذلك، سنسمع في البريد القادم بأنه سائر بمائة ألف رجل ليسترد ذلك». قال وايتهيد، الذي كان فطناً جداً، بعد أن بدأ يدخن مباشرةً وهو ينظر إلى وجهي «اشنقني إن لم تكن هذه واحدة من مزحاتك الأميركية تجاهنا». استمرت القراءة، وانتهت بفيض من الضحك ورأي عام بأنها كانت صدمة منصفة. وتم اقتطاع المنشور من الصحيفة وتم حفظه في مجموعة اللورد الخاصة بي.

أنا لا أعجب بأنه يجب على (هاتشنسون) أن يكون حزيناً. فلا بد أنه أمر غير مريح أن تعيش بين أناس يدرك هو بأنهم يكرهونه بشكل عالمي. مع ذلك، أتخيل بأنه لن يحظى بإجازة كي يعود للبيت لأنهم لا يعلمون جيداً ما علاقته بالموضوع، ولأنهم لا يحبون جداً تصرفه. أنا إلى الأبد والدك المحب،

**ب. فرانكلين**

# خمر (الماديرا) والشمس

**إلى (بارو دابورج)**

إن ملاحظاتك بشأن أسباب الموت، والتجارب التي تقترحها لاستعادة أولئك الذين يبدو أنهم قتلوا بالبرق، إلى الحياة، يوضح حكمتك وإنسانيتك بنفس القدر. يبدو أن المعتقدات عن الحياة والموت على العموم لا تزال مفهومة بشكل قليل.

قيل إن الضفدع المدفون في الرمل سيعيش إلى أن يصبح الرمل متحجر. وبعد ذلك قد يستمر بالعيش لفترة لا نعلمها كونه محاط بالصخر. إن الحقائق المحددة التي تدعم هذا الرأي هي عديدة جداً وظرفية ولا يجب أن تستحق درجة مؤكدة من الثقة. فكما اعتدنا على رؤية كل الحيوانات التي نعرفها، تأكل وتشرب، يبدو من الصعب علينا فهم كيف للضفدع أن يعيش في حجرة تحت الأرض كتلك. لكن إذا فكرنا أن الحاجة إلى التغذية، والتي تواجهها الحيوانات في حالتها الاعتيادية، تنجم عن الفقدان المستمر لمحتواها بالتعرق، فسيبدو أقل لا معقولية أن بعض الحيوانات في حالة السبات يجب أن تكون أقل احتياجاً للغذاء، لتعرقها بشكل أقل لانعدام حركتها. وإن الحيوانات الأخرى المغطاة بالحراشف والأصداف والتي تتوقف عن التعرق، كسلاحف البر والبحر، الثعابين،

وبعض أنواع الأسماك، يجب أن تكون قادرة على البقاء فترة طويلة بدون أي تغذية مهما كانت. أما النبات مع أزهاره، فيذوي ويموت على الفور إذا تعرض للهواء بدون أن تُغمس جذوره في تربة رطبة والتي يستمد منها كمية كافية من الرطوبة كي يسد نقص ما يزفره من محتواه ويُحمَل بشكل مستمر عن طريق الهواء. رغم ذلك، إذا تم دفنها في الزئبق، فربما تبقى محافظة لفترة طويلة من الزمن على حياتها النباتية ورائحتها ولونها. إذا كان الأمر كذلك، فقد تمثل طريقة ملائمة لنقل تلك النباتات الحساسة من أماكن بعيدة، الغير قادرة على تحمل قسوة الطقس عند البحر والتي تتطلب عناية خاصة واهتمام. لقد رأيتُ مثالاً عن حشرات مألوفة حُفظت بطريقة مماثلة نوعاً ما، فقد تم إغراقها في خمر الماديرا (على ما يبدو في الوقت الذي تم وضعها في القنينة في فيرجينيا) كي يتم إرسالها إلى هنا (إلى لندن). عند فتح أحد القناني في بيت أحد الأصدقاء حيثُ كنتُ موجوداً عندئذٍ، سقطت ثلاث حشرات غارقة في أول قدح والذي تم ملؤه. لكوني كنتُ قد سمعتُ قولاً بأن الحشرات الغارقة تكون قادرة على العودة إلى الحياة بواسطة أشعة الشمس، اقترحتُ عمل التجربة على هؤلاء. وعلى ذلك، تم تعريضها إلى الشمس في غربال والذي استعمل لترشيحها من الخمر. في غضون أقل من ثلاث ساعات بدأت اثنتان منهما بالتدريج العودة إلى الحياة. بدأت ببعض الحركات الانقباضية للفخذين، وفي النهاية رفعوا أنفسهم على أرجلهم، مسحوا أعينهم بأقدامهم الأمامية، ضربوا ومشطوا أجنحتهم بأقدامهم الخلفية، ومباشرةً بعد أن بدأوا بالطيران وجدوا أنفسهم في إنكلترا القديمة بدون أن يعلموا كيف وصلوا إلى هنا. استمرت الثالثة بلا حياة حتى غروب الشمس عندما تم رميها بعيداً فاقدين كل الأمل بها.

أتمنى من هذا المثال أن يكون ممكناً اختراع طريقة لتحنيط الأشخاص الغارقين بطريقة بحيث تعيدهم للحياة في أية لحظة مهما يكن الأمر بعيداً. فلكوني أمتلك رغبة ملتهبة جداً برؤية ومراقبة حال أميركا بعد مائة عام من الآن، عليّ أن أفضّل عند أي ميتة عادية، أن يتم غمري في برميل من خمر الماديرا مع بعض الأصدقاء حتى ذلك الحين كي يتم استدعائي للحياة بواسطة دفء شمس بلدي العزيز!. لكن لأننا في كل الاحتمالات نعيش في عصر مبكر جداً وقريب جداً من بداية العلم على أن نأمل برؤية براعة كتلك تحصل في عصرنا إلى درجة الإتقان، عليّ أن أقنع نفسي في الوقت الحالي ببحث (والذي هو لطف منك أن تعدني به) قيامة الطير أو الديك الرومي. أنا... إلخ.

ب. فرانكلين، [1773]

**إلى (وليام شتراهان)**

[كُتبت لكن لم تُرسَل]

**فيلادلفيا، 5 من تموز/1775**

سيد شتراهان، أنت عضو برلمان وواحد من أولئك الأغلبية التي حكمت على بلدي بالدمار. أنت بدأتَ بحرق مدننا، وقتل شعبنا. انظر إلى يديك! فهي ملطخة بدماء أقاربك!. أنت وأنا كنا أصدقاء ولمدة طويلة، أنت الآن عدوي، وأنا

المخلص،

**ب. فرانكلين**

### إلى اللورد (هوو)

**فيلادلفيا، 30 من تموز/1776**

عزيزي اللورد، لقد تلقيتُ بثقة الرسائل التي أرسلتْها لي بلطف كبير سيادتُكم، وأتوسل أن تتقبل تشكراتي. إن الوثائق الرسمية التي تحدثني عنها، لا تتضمن أي شيء أكثر مما رأيناه في مرسوم البرلمان، أي عروض العفو بشأن الاستسلام، والذي أنا متأسف على وجوده، لأنها كانت لا بد أن تسبب لك الألم لإرسالهم لك أمر خائب جداً. إن منح توجيهات بالاستسلام لعرضها على المستعمرات التي هي الطرف المتضرر بالذات، يعبر عن أن هذا الرأي ناتج عن جهلنا ولؤمنا وعدم تعقلنا، وهو ما كانت أمتك الغافلة والمتكبرة تتحدث به إلينا ولمدة طويلة، لكنه لم يمتلك أي تأثير آخر سوى زيادة استيائنا. إنه من المستحيل أن نفكر بالاستسلام إلى حكومة قامت بحرق مدننا العزلاء بكل استهتار وحشي وبربري، في غمرة الشتاء، مثيرةً الرعاع لذبح مزارعينا الآمنين، والعبيد ليقتلوا أسيادهم، والآن تجلب المرتزقة لتغرق مستوطناتنا بالدم. إن هذه الأضرار الشنيعة قد أطفأت كل شرارة متبقية من التعاطف تجاه ذلك البلد الأم والتي حملناها يوماً باعتزاز. لكن هل من الممكن لنا النسيان ومسامحتهم، إنه من غير الممكن لك (أقصد الأمة البريطانية) أن تسامح الناس الذين آذيتَهم بشدة. لا يمكنك أبداً أن تثق ثانيةً في أولئك كأبناء بلد واحد وتسمح لهم بالتمتع

بحرية مساوية، والذين أنت تعرف بأنك قد مُنحتَ سبباً عادلاً كهذا لعداوة دائمة. ولا بد لهذا أن يحثك، حيث نحن تحت ظل حكومتك ثانيةً، للسعي بكسر روحنا المعنوية بأقسى استبداد، وأن تعيق بكل الوسائل في سلطتك، قوتنا المتنامية وازدهارنا.

لكن سيادتكم يذكر «اهتمام الملك الأبوي لتشجيع ترسيخ السلام الدائم والوحدة مع المستعمرات». فإذا كان القصد من «السلام» هنا يعني سلام يجب التحالف عليه بين بريطانيا وأميركا كدول مستقلة الآن عند الحرب، وأن جلالته قد منح سيادتكم سلطات كي تجارينا من منطلق سلام كهذا، فينبغي أن أتجرأ وأقول (رغم ذلك بدون تفويض) بأنني أعتقد أن معاهدة لهذا الغرض مستحيلة جداً بعد، قبل أن نبرم تحالفات أجنبية. لكنني مقتنع بأنك لا تملك سلطات كهذه. فأمتك، رغم ذلك، بمعاقبتها أولئك المحافظين الأميركيين الذين أثاروا النزاع، لو تعيد بناء مدننا المحترقة وتصلح قدر إمكانها الدمار الذي فعلتْه بنا، قد تستعيد جزءاً كبيراً من احترامنا لها، والجزء الأكبر من تجارتنا المتنامية، مع كل فوائد تلك القوة الفائقة التي ستجنيها من صداقتها معنا. لكنني أعلم جيداً جداً كبرياءها الفياض وحكمتها القاصرة كي أصدق من أنها ستتخذ يوماً إجراءات ناجعة كهذه. إن ولعها بالاحتلال كدولة محبة للحرب وتوقها الشديد للهيمنة كدولة طموحة ورغبتها لاحتكار مربح كدولة تجارية (لا أحد منها أسباب شرعية للحرب) ستجتمع كلها كي تُخفي عن ناظريها كل رأي لمصالحها الحقيقية وتدفعها بشكل مستمر في تلك البعثات البعيدة المخربة، المدمرة جداً لكل من الحياة والخزينة. يجب إثبات أن ذلك مدمر لها في النهاية مثلما كانت الحروب الصليبية سابقاً مدمرة لأغلب الأمم في أوروبا.

سيدي اللورد، أنا بهذا لا أملك الغرور كي أفكر بالتهديد بالتنبؤ بنتائج هذه الحرب لأنني أعلم أنها في إنكلترا سيكون لها نفس مصير تنبؤاتي السابقة، وهو أنه لن يتم تصديقها حتى يثبتها الحدث.

لقد سعيتُ طويلاً بحماس صادق لا يعرف الكلل، بالمحافظة على الإمبراطورية البريطانية، تلك الزهرية الصينية الرقيقة والفاخرة، من الانكسار، لأنني أعلم أنها حالما تنكسر، لن تتمكن الأجزاء المنفصلة من استعادة حتى حصتها من القوة والقيمة والتي كانت موجودة متحدة، وأن إعادة التوحيد المتقن لهذه الأجزاء بالكاد سيؤمل يوماً. قد تتذكر سيادتكم دموع الفرح التي بللت وجنتاي عندما منحت لي توقعات بأن إصلاحاً قد يحدث على الفور. لكنني وجدتُ لسوء الحظ بأن تلك التوقعات مخيبة للآمال ويجب معالجتها كسبب الدمار الذي كنتُ أعمل جاهداً لمنعه. كان عزائي تحت ظل ذلك الإجراء الواهي والشرير بأنني احتفظتُ بصداقة العديد من الرجال الحكماء والطيبين في تلك البلاد، ومن بين البقية، بعض القدر إزاء اللورد (هوو).

إن الاحترام الراسخ و (اسمح لي بأن أقول) التعاطف الذي سأكنّه دائماً لسيادتكم يجعل من الصعب عليّ أن أراك متورطاً في تدبير حرب سببها الأساسي (كما عّبرتَ في رسالتك) هو «ضرورة منع التجارة الأميركية من المرور في القنوات الأجنبية». بالنسبة لي، يبدو أن لا استحواذ أو حجز أي تجارة مهما كانت قيمتها، هدفاً ينبغي أن يهدر الناس من أجله دماء بعضهم البعض بشكل مبرر، وأن المقاصد الحقيقية والمؤكدة لتوسيع وتأمين التجارة هو جودة ورخص البضائع، وأن الفائدة من انعدام التجارة لا يمكن أن تكون مساوية إلى نفقات فرضها ونفقات حملها بالأساطيل والجيوش.

لذا، أنا أعتبر أن تلك الحرب هي ضدنا نحن، لأنها غير مبررة وغير حكيمة، وأنا مقتنع من أن أجيالنا القادمة الرابطي الجأش والنزيهين سيحكمون بالعار على أولئك الذين يشجعون عليها. وإنه حتى الانتصار لن يخلص أولئك الذين يشاركون بتدبيرها بطواعية من بعض العار. أنا أعلم أن باعثك الرئيسي بالقدوم إلى هنا هو رغبتك بأن تكون مفيداً في إصلاح. وأنا أعتقد أنه عندما تجد ذلك مستحيلاً تحت أية شروط مُنحت لك كي تقترحها، فستتخلى عن قيادة مشينة للغاية كهذه وتعود إلى مركز خاص مشرف أكثر.

مع أعظم وخالص احتراماتي، لي الشرف أن أكون، يا سيدي اللورد، خادمك المتواضع الأكثر طاعة لسيادتكم،

**ب. فرانكلين**

# بيع القوات الألمانية في أميركا

من كونت (شاومبيرغ) إلى بارون (هوهِن دورف)، وهو يأمر القوات الألمانية في أميركا.

**روما، 18 من شباط/1777**

سيدي البارون: عند عودتي من نابلس، تلقيتُ في روما رسالتك المؤرخة 27 من كانون الأول للعام الفائت. لقد علمتُ بسعادة لا توصف الشجاعة التي أظهرتها قواتنا عند (ترينتون)، ولا تستطيع أن تتخيل فرحتي عندما تم إخباري أن 1950 من قواتنا قد اشتبكت في القتال، لكن 345 قد فرّوا. كان هناك فقط 1605 رجلاً قد قُتلوا، ولا أستطيع أن آمر حصافتكم بشكل كافٍ بإرسال قائمة دقيقة بالقتلى إلى وزيري في لندن. إن هذا الاحتراز كان هو الأكثر ضرورة، لأن التقرير الذي أُرسِلَ إلى الوزارة الإنكليزية لا يذكر سوى 1455 قتيل، وكان هذا سيكلف 483450 فلورين[1] بدلًا من 643500 وهو ما مسموح لي بطلبه وفقاً لاتفاقيتنا. ستدرك ماذا كان سيفعل خطأٌ كهذا من ضرر في ماليتنا، ولا أشك بأنك ستتخذ الإجراء الضروري كي تثبت بأن قائمة اللورد (نورث) خاطئة وأن قائمتك هي الصحيحة.

إن محكمة لندن تعارض بأن هناك 100 من الجرحى لا يجب إدراجهم

(1) الفلورين: عملة ذهبية أوروبية قديمة. (المترجمة)

في القائمة ولا أن تَدفع مقابلهم كقتلى، لكنني واثق بأنك لن تتجاوز تعليماتي لك بشأن استقالة (كاسل)، وأنك لن تجرب بالإغاثة الإنسانية بأن تعيد الحياة إلى السيئي الحظ الذين لا يمكن إطالة أعمارهم سوى بفقدان ساق أو ذراع. فإن ذلك كان سيصنع لهم حاضراً ضاراً، وأنا واثق بأنهم كانوا سيودون الموت بدلاً من أن يعيشوا في حالة لم تعد ملائمة لخدمتي. أنا لا أقصد بذلك بأنه عليك أن تقتلهم، فيجب أن نكون إنسانيين عزيزي البارون، وإنما ينبغي عليك أن توعز إلى الجرّاحين بتهذيب كامل بأن الرجل المعاق هو عار على مهنتهم، وبأنه لا يوجد طريق أكثر حكمة من أن تجعل أي واحد منهم يموت عندما يصبح غير ملائم للقتال.

أنا على وشك أن أرسل إليك بعض المجندين الجدد. لا تقتصد عليهم. تذكر المجد قبل كل شيء. فالمجد ثروة حقيقية. لا شيء يذلّ الجندي كحب المال. عليه فقط أن يهتم بالشرف والسمعة الجيدة، لكن هذه السمعة الجيدة يجب أن تُكتَسَب في غمرة المخاطر. فحربٌ ننتصر فيها بدون أن نكلف الغازي قطرة دم هو انتصار شائن، بينما يسبغ المهزوم على نفسه بالمجد بالموت وأسلحتهم في أيديهم. هل تذكر أولئك الـ 300 اليونانيين الذين دافعوا عن ممر (ثرموبيلاي) ولم يرجع منهم أحد؟ كم سأُسعَد إذا حصل نفس الشيء إلى قواتنا الألمانية الشجاعة!

صحيح أن ملكهم (ليونيداز) مات معهم، لكن الأمور قد تغيرت ولم تعد عادة أمراء الإمبراطورية أن يذهبوا ويقاتلوا في أميركا لسبب لا شأن لهم به. وإضافةً إلى ذلك، إلى من يجب عليهم أن يدفعوا الثلاثين جنيهاً لكل رجل إذا لم أبقَ في أوروبا لأتسلمها؟ ثم إنه من الضروري أيضاً أن أكون مستعداً لإرسال مجندين ليحلوا محل الرجال الذين تفقدهم. لهذا

الغرض يجب عليّ أن أعود إلى (هِسّه). صحيح أن الرجال البالغين هم قلّة هناك، لكنني سأرسل لكم صِبْية. إضافة إلى ذلك، إنه كلما ندرت البضاعة كلما كان السعر أعلى. أنا متأكد بان النساء والفتيات الصغيرات قد بدأن بحرث أراضينا، وهن يتابعن ذلك بشكل غير سيّئ. عملتَ الصواب بإعادتك إلى أوروبا ذلك الدكتور (كروميرس) الذي كان ناجحاً جداً في علاج الزّحار. لا تزعج نفسك برجل مصاب برخاوة الأمعاء. فهذا المرض يصنع جنوداً سيئين. فرجل جبان واحد سيسبب أذى أكثر في الاشتباك مما سيبلي حسناً عشرة رجال شجعان. الأفضل أن ينفجروا في ثكناتهم على أن يهربوا في معركة، ويلوثون مجد قتالنا. إضافةً إلى ذلك، أنت تعلم بأنهم يدفعون لي مقابل كل من يموت بسبب المرض، كمن قُتل، ولا استلم فارذينغ واحد على الهاربين. إن رحلتي إلى إيطاليا والتي كلفتني كثيراً، تجعل من المرغوب فيه وجود نسبة وفيات عالية بينهم. لذلك، ستعد بترقية كل من يعرض نفسه للخطر. ستنصحهم بطلب المجد في غمرة المخاطر. ستقول للرائد (ماوندورف) بأنني غير مقتنع بالمرة بإنقاذه الـ 345 رجلاً الذين نجوا من مذبحة (ترينتون). فخلال الحملة كلها لم يكن لديه عشرة رجال قُتلوا جرّاء أوامره. في الختام، دع هدفك الرئيسي يكون إطالة أمد الحرب وتجنب اتفاقية حاسمة من جانبهم لأنني عملتُ بعض الترتيبات على أوبرا إيطالية رفيعة ولا أرغب بأن أكون مضطراً إلى التخلي عنها. في هذه الأثناء، أصلّي لله عزيزي بارون (هوهِن دورف) ليشملك بحفظه المقدس والكريم.

# نموذج لرسالة توصية

**باريس، 2 من نيسان/1777**

سيدي: إن حامل هذا، الذاهب إلى أميركا، ضغط عليّ كي أمنحه رسالة توصية، على الرغم من أني لا أعرف شيئاً عنه، ولا حتى اسمه. إن هذا ينبغي أن يبدو غير طبيعي، لكنني أؤكد لك بأنه أمر ليس غير مألوف هنا. في الحقيقة، يجلب أحياناً شخص غير معروف شخصاً آخر غير معروف أيضاً كي يوصي به، وأحياناً يوصي أحدهما بالآخر!. فبالنسبة لهذا الرجل المهذب، يجب أن أوعز إليك بأن ترجع إلى نفسه هو، لأن شخصيته ومزاياه هو على معرفة أفضل بها مني بالتأكيد. رغم ذلك، أنا أوصي به إلى أولئك اللطفاء الذين يكون لكل غريب، يعرفونه غير مؤذي، حق. وأطلب منك أن تقدم له كل الوظائف الجيدة وتُظهر له كل الإحسان الذي ستجد بأنه يستحقه عندما ستعرفه أكثر. لي الشرف أن أكون....إلخ.

[ب. ف.]

**إلى (تشارلز فيشنشتاين)**

[كان هذا الاسم قد وُقِّعَتْ به رسالة كُتبت إلى فرانكلين والمفوضين الأميركيين في باريس، في محاولة ظاهرية للتأثير بهم بشكل شخصي. كان فرانكلين يعتقد أن جورج الثالث له يد خفية في ذلك]

**باسي، الأول من تموز/1778**

سيدي: تلقيتُ رسالتك المؤرخة في 16 الفائت في بروكسل. من المحتمل أنه تم إطراء غروري بتعابيرك المجامِلة حسب فهمي، إذا لم تكن اقتراحاتك تُظهِر بشكل أوضح أكثر رأياً لئيماً عنه.

أنت تناشدني باسم الله العليم والعادل الذي لا بد لي أن أمثُل أمامه، وبآمالي بالشهرة المستقبلية، أن أفكر فيما إذا لم تكن هناك وسيلة لوضع حد لدمار أميركا ومنع بؤس الحرب العامة. فلأنني مدرك بأنني أتخذ كل إجراء في مقدرتي لمنع الخرق وليس على أحد توسيعه، أستطيع المثول بابتهاج أمام الله، لا أخاف شيئاً بسبب عدله في هذا الخصوص، رغم أني حظيتُ برحمته في مناسبات كثيرة أخرى. بالنسبة للشهرة المستقبلية، فأنا راضٍ بأن أؤسسها على تصرفي الماضي والمستقبلي بدون أن أضيف إلى ذلك الطريق المتعرج والمظلم الذي أنت تقترحه عليّ، حيث أنني سأفقدها بكل تأكيد. لذا سيكون خطابك الوحيد هذا مناسباً أكثر لو عَمِلْتَه

إلى ملكك وبرلمانه المرتشي. فهو وهم، الذين بدأوا بوحشية ويواصلون بجنون حرباً لتدمير أميركا، الوحيدون المسؤولون عن النتائج.

أنت تسعى إلى أن تؤثر عليّ برأي فاسد عن الولاء الفرنسي، لكن الأمثلة عن مساعيهم الودية لخدمة سلالة من الأمراء الضعفاء الذين أحبطوا بتهورهم أية محاولة تعزّز مصالحهم، ليس لها قيمة عندي إلا قليلاً، عندما آخذ بعين الاعتبار الصداقة الدائمة لفرنسا مع الولايات الثلاثة عشر المتحدة لسويسرا والتي استمرت منيعة لحد الآن مائتي سنة. أنت تقول لي بأنها بالتأكيد ستغشنا وأنها تزدرينا مسبقاً. أنا لا أعتقد بأنها ستغشنا، وأنا غير متيقن بأنها تزدرينا، لكنني أرى بوضوح بأنك تسعى إلى أن تغشنا بوثيقتك الاستعطافية، وأنه أنت في الحقيقة ازدريتَ تفاهمنا، عندما اطريتم أنفسكم بأن تلك الحيل كانت ستنجح. وأنه ليس فقط فرنسا بل كل أوروبا، وأنتم أنفسكم مشمولون، ستزدروننا بشكل مؤكد وإلى الأبد لو كنا ضعفاء كفاية كي نقبل اقتراحاتكم الخبيثة.

إن توقعاتنا عن العظمة المستقبلية لأميركا ليست باهرة جداً، ولذلك ليست تافهة جداً أو خيالية كما أنت تصفها. إن تركيب شعبنا ليس تجار وإنما فلاحين بسطاء، يبتهجون بزراعة أراضيهم التي من خصوبتها وتنوع مناخها قادرة بتزويدنا بكل الضروريات ووسائل الراحة للحياة بدون تجارة خارجية، ولدينا الكثير جداً من الأراضي ليكون لدينا أقل إغراء بتوسيع مقاطعتنا بالاستيلاء من جيران مسالمين، وكذلك الكثير من العدل لنفكر في ذلك. إن ميليشياتنا التي تجدها بالخبرة، كافية للدفاع عن أراضينا من الاحتلال، وأن التجارة معنا سيتم الدفاع عنها من قبل جميع الأمم التي تستفيد منها. لذا، ليست لدينا الحالة التي تتخيلها، من

الأساطيل والجيوش المتأهبة، وإنما يمكنك إبقاء تلك الآلات المكلفة لتحتفظ بها لخيلاء الأمراء ورفاهية الدول القديمة. نحن نقترح، لو أمكن، بأن تعيش بسلام مع كل البشر، وبعد أن تكون مقتنعاً بأن لا شيء تجنيه بمهاجمتنا، سيكون لدينا سبباً لنأمل بأنه لن تحكم أية سلطة أخرى بصواب القتال معنا، لئلّا يحرفونا عن صنعتنا الهادئة ويحولونا إلى قراصنة نفترس قراصنتهم. لذلك، فإن سطوة إمبراطورية مستقلة (والتي يبدو أنك متأكد من عدم قدرتنا على تحملها) لن تكون كبيرة جداً كما تتخيل. إن نفقة حكومتنا المدنية نتحملها دوماً، ويمكن بسهولة تحملها، لأنها صغيرة. إن الناس الفضلاء والأحرار يُحكَمون بثمن زهيد. قرر (كما نفعل نحن) بأن لا يكون لديك وظائف نافعة أو أي وظائف خالية أو تخصيصات لا فائدة منها كما هو مألوف في الدول القديمة أو الفاسدة، يمكننا أن نحكم أنفسنا عاماً كاملاً مقابل مجموع ما تدفعه في قسم واحد، أو مقابل ما يخدعك به متعاقد في أحد البنود لمصلحة وزير ما.

أنت تعتقد بأننا نداهن أنفسنا، وأننا قد خُدِعنا بالرأي أن إنكلترا لا بد أن تعلن استقلالنا. من ناحية أخرى، فنحن نعتقد بأنكم أنتم تسايرون أنفسكم بتخيل أن إعلان كهذا هو نعمة كبيرة، وأننا نرغب به بشدة، والذي ينبغي أن تحصلوا على بعض الفائدة الكبيرة منه بالمنح أو بالمنع. نحن لم نطلب ذلك منك، نحن فقط نخبرك بأنه ليس بإمكانك أن تبرم معنا أية معاهدة إلا كدولة مستقلة، وينبغي أن تسلّوا أنفسكم وأطفالكم بخشخيشة حقكم بحكمنا، طالما نجحتم بذلك بجعل ملككم ملك فرنسا، بدون مَنْحِنا أدنى شأن، إن لم تحاول ممارسته. إن هذا الحق المزعوم الذي لا يحتمل الجدل، كما قلتَ أنت، نحن ننكره تماماً، إذ ليس لبرلمانك الحق أبداً بحكمنا، وأن

ملكك قد صادره باستبداده الدموي. لكنني أشكرك لجعلي أعرف القليل عن رغبتك، وهي أنه حتى في حالة أن أعلن البرلمان استقلالنا، فالقانون ما كان ليكون ملزماً لأجيالنا القادمة، وإن أمتك كانت ستستأنف وتحاكم الدعوى طالما وجدوه مريحاً من تأثير مشاعركم وحقدكم الحالي تجاهنا. كنا قد شككنا من قبل، بأنكم لن تكونوا ملتزمين في الواقع بقوانين الصلح خاصتكم أطول من أن تحقق غرضها بحثّنا على حلّ قواتنا، لكننا لم نكن متأكدين بأنكم محتالين من حيث المبدأ وأنه ليس علينا أن نمتلك أدنى ثقة بعروضكم، وعودكم، أو معاهداتكم حتى وإن تم التصديق عليها من قبل البرلمان.

أنا، حقيقةً، أتذكر الآن بأنه تم إخباري منذ مدة طويلة عندما كنتُ في إنكلترا بأن هناك شخصية معينة عظيمة جداً، كان شاباً حينذاك، قد درس كثيراً كتاباً معيناً يسمى (قوة غامضة). كان لدي الفضول لأجلب الكتاب وأقرأه. كانت هناك أموراً منطقية وجيدة فيه، لكن بعضها سيّئ، لأن ـ لو كنتُ أتذكر بشكل صحيح ـ ملكاً معيناً تم الثناء عليه لإثارته تمرداً سياسياً بين رعاياه في وقت لم تكن لديهم قوة لدعمه في قمعها، سحب امتيازاتهم والتي كانت تزعجه، وتم التصريح بسؤال رسمي ومناقشته وهو: فيما إذا كان على أميرٍ ما، لكي يهدئ تمرداً بمنح وعود بالتعويض إلى المتمردين، أن يكون ملزماً بالوفاء بتلك الوعود. كان سيقول الناس الصادقون والطيبون، نعم. لكن هذا السياسي يقول، كما تقول أنت، لا. ويمنح هذا السبب اللطيف، وهو، رغم أنه من الصائب منح الوعود، لأنه ما كان التمرد ليُقمَع، مع ذلك سيكون من الخطأ الوفاء بها لأن المتمردين يجب أن يُعاقَبوا ليمنعهم من عمل تمرد مستقبلي.

إذا كانت هذه مبادئ أمتك، فلا ثقة يمكن وضعها فيكم، إنه من العبث التعامل معكم، ويمكن فقط إنهاء الحروب بإضعافها بالعجز المطلق عن جعلها مستمرة.

يبدو أن الرغبة الرئيسية لرسالتك هي لكي تثيرني بفكرة نزاهتك الخاصة من خلال الاستهجان المبرر لوزرائك وإجراءاتهم، ولكي تستوحي مني مقترحات السلام أو مصادقات على المقترحات التي أرفقْتَها لي والتي تشير إليها، والتي ربما يتم نقلها بواسطتك إلى الملك بشكل مباشر بدون تدخل أولئك الوزراء. كنتَ ستجعلني أعطيها إلى، أو أرسلُها إلى، غريب والذي ينبغي أن أجده الاثنين القادم في كنيسة نوتردام، ويجب عليّ أن أعرفه من خلال وردة في قبعته. أنت نفسك، يا سيدي، مجهول تماماً بالنسبة لي. فأنت لم تستأمني على اسمك الحقيقي. إن اتخاذنا أول خطوة باتجاه معاهدة مع إنكلترا من خلالك أنت ـ إذا كنتَ عدواً ـ قد تستخدمها لتدمرنا مع أصدقائنا الجدد والطيبين. قد أكون غير حكيم كفاية في عدة أمور، لكن بكل تأكيد، إذا كنتُ مخولاً بعمل مقترحات (لا أستطيع تنفيذها أو لأنه لم يعهد إلي أحد بوضعها) يجب عليّ أن لا أفكر أبداً بتسليمها إلى شخص كي يتم حملها إلى شخص آخر لتحقيق أهداف لا يعلمها أحد. فلكوني في هذا الوقت واحد من الشخصيات المعروفة في باريس، فحتى ظهوري في كنيسة نوتردام، حيث لا يمكن أن يكون لدي أي شأن ممكن تصوره هناك، وخصوصاً أُشاهَد وأنا أترك أو أُسقِط أية رسالة إلى أي شخص هناك، سيكون أمراً يدعو للتفكير. وربما سيكون لذلك تبعات مؤذية لمكانتنا هنا بسبب الشكوك التي ستثيرها.

إن الاقتراح ذاته عن الاتفاق بإدارته بطريقة غير ضرورية إذا كان القصد هو المفاوضات النزيهة، يدل على سبب مبرر لأن نفترض بأنكم تنوون خلاف ذلك. إضافةً إلى ذلك، بما أن محكمتكم قد أرسلت مبعوثين كي يتباحثوا مع مجلس النواب الأمريكي بكل سلطة ممنوحة لهم من قبل السلطة الملكية بمقتضى قانون البرلمان، فما هو الهدف النبيل الذي يمكن تحقيقه بالحصول بشكل سري على مقترحات منا؟ قبل ذهاب أولئك المبعوثين، تم التباحث معنا بناءً على سلطاتنا المطلقة (بعلم، ومشورة، وإقرار من أصدقائنا) بشأن أي مقترحات وُضعت لنا. لكن، لكي نضع اقتراحات لنا تحت الظروف الحالية، بينما يُفترض في الواقع أن تكون المعاهدة ماضية على قدم وساق مع مجلس النواب الأميركي، سيكون غير مناسب جداً، جريئاً بشكل كبير من ناحية ناخبينا، ولن نحقق هدفاً جيداً مهما كان.

أنا أكتب هذه الرسالة لك، رغم ذلك، (والتي أعتقد أن بإمكاني إرسالها بطريقة أقل غموضاً، وأن أظن بأنها ينبغي أن تصل بين يديك)، أنا أكتبها لأنني كنتُ أريدك أن تعلم تصورنا تجاه إجرائكم والذي يبدو خبيثاً كوثائق الصلح خاصتكم. إن طريقكم الحقيقي لتحقيق السلام، إذا كان وزراؤك يرغبون به، هو عرض شروط مجلس النواب الأميركي الشرعية والعادلة، وستصلون عاجلاً إلى قرار كهذا عندما تكتشفون أن تلك الإطراءات الشخصية، والتملقات الشائعة، والمدائح بشأن فضيلتنا وحكمتنا لا تمتلك التأثير الذي تتوقعونه؛ إقناعنا كي نتصرف بدناءة وحماقة بخيانة بلدنا وأجيالنا القادمة ووضعه بين يديّ أعدائنا الأكثر قسوة، الاستسلام أو بيع أسلحتنا ومخازننا الحربية، إبعاد سفننا

الحربية وقواتنا الحربية، وجعل أولئك الأعداء يستولون على حصوننا وموانئنا.

إن هذا الاقتراح بتسليم أنفسنا، مقيدين ومكممين، استعداداً للشنق، بدون حتى الحق بالشكوى، وبدون صديق نجده بعد ذلك من بين كل البشر. أنتم تريدون أن تطوقونا بمقتضى قانون البرلمان! يا إلهي! قانون برلمانكم! إن هذا يوضح بأنكم لا زلتم لا تعرفوننا، وأنتم تتخيلون بأننا لا نعرفكم؛ لكن ليس مجرد ذلك المبدأ المهلهل هو الذي يجب أن نتأثر به، بعرضك لنا الأمل، الأمل بالمسكن، المعاش، ألقاب النبالة. فأنتم تعتقدون بأن هذه حوافز لا تُقاوَم لأنكم تقيسون على أنفسكم. إن هذا العرض هو لإفسادنا، يا سيدي، وهو عندي يعتبر موافقتك، ويدفعني للاقتناع بأنك لست متطوعاً خاصاً بالتماسك. فهو يحمل أسلوب طابع البلاط البريطاني. إنه حتى توقيع ملكك. لكن فكر للحظة تحت أي ضوء يجب أن يُنظَر له في أميركا. فعلى ضوء المسكن، أنت تعني منازل بيننا، مقابل اهتمامك ببند خاص لتأمين مساكنكم الخاصة لأنفسكم، وعلينا عندها أن ندفع الرواتب لكي نمول أنفسنا بهذه المساكن. لكنك ستمنحنا معاشاً (pensions)، ربما لكي يتم دفعها أيضاً من ضمن إيراداتك الأميركية المتوقعة والتي لا يمكن لأي أحد منا القبول بها بلا استحقاق، وربما نحصل على إيقاف عن العمل (sus-pension). ألقاب النبالة! وأسفاه! سيدي. إن مراقبتنا الطويلة لغالبية الخانعين من نبلائك وهو يصوّتون بشكل ثابت لأي إجراء مقترح من قبل وزير مهما كان ضعيفاً أو شريراً، يجعلنا نقلل احترامنا لهذا اللقب. فنحن نعتبره

كنوع من شرف (القطران والريش)[1]، أو خليط من الانحلال والحماقة، الذي في حالة إذا قبلها أي إنسان من بيننا من ملكك، سيكون مجبراً على التنازل، أو يستبدله باللقب الممنوح من قبل غوغاء بلدهم، أو يتقلده بخزي أبدي. أنا، يا سيدي، خادمك المتواضع.

ب. فرانكلين

(1) القطران والريش: هو نوع من العقوبة المُذِلّة ظهرت في القرن 12، تتضمن تغطية الشخص بالقار ثم دحرجته في الريش، ليكون عِبرة لغيره. (المترجمة)

# ذبابة مايو

**إلى مدام (بريلون)**

قد تتذكرين، يا صديقتي العزيزة، عندما قضينا مؤخراً ذلك اليوم السعيد في الحديقة المبهجة والمجتمع الحلو لـ (مولان جولي) وتوقفتُ قليلاً عند أحد نزهاتنا ولبثتُ بعض الوقت خلف الرفاق. كان قد عُرِضَ علينا أعداد لا حصر لها من الهياكل العظمية لنوع من الحشرات الصغيرة تسمى (ذبابة مايو) والتي، كما قيل لنا، وُلدت أجيالها اللاحقة وماتت في نفس اليوم. صادف أن رأيتُ مجموعة حية منها على ورقة شجرة والتي يبدو أنها منخرطة في محادثة. أنتِ تعلمين بأنني أفهم كل لغات الحيوانات الدنيا. إن قابليتي الكبيرة جداً على دراستها هو أفضل عذر أستطيع منحه للتقدم الصغير الذي حققتُه في لغتكِ الساحرة. أصغيتُ باهتمام إلى محادثة هذه المخلوقات الصغيرة. لكن بينما تتحدث ثلاث أو أربع منها معاً بحيوية، لم أفهم سوى القليل من حديثها. رغم ذلك، اكتشفتُ من خلال بعض التعابير المتقطعة التي سمعتُها الآن وبعد ذلك، بأنها كانت تتجادل بحرارة بشأن جدارة اثنين من الموسيقيين الأجانب، الأول ناموسة، والثانية بعوضة. كانوا قد قضوا وقتهم في هذا الجدال، بغض النظر على ما يبدو بقصر الحياة وكأنها متأكدة من أنها ستعيش شهراً. ففكرتُ، يا لكم من قوم سعداء! أنتم

تعيشون بالتأكيد تحت ظل حكومة حكيمة، عادلة، ومتسامحة، لأنه ليس لديكم مظالم عامة كي تشتكوا منها ولا أي موضوع للخلاف سوى إتقان وعدم إتقان موسيقى أجنبية. أدرتُ رأسي عنهم نحو أخرى عجوز ذي شعر رمادي والذي كان وحيداً على ورقة أخرى يتحدث إلى نفسه. قمتُ، وهو مستمتع بمناجاة نفسه، بتدوينها كتابةً على أمل بأنها ستروق لها أيضاً، التي أدين لها بالفضل الكثير جداً لرفقتها الطيبة وتفاهمها الرائع الأكثر إمتاعاً من كل وسائل الترفيه.

قال هو «كان رأي الفلاسفة المتعلمين من سلالتنا الذين عاشوا وازدهروا قبل عصري بمدة طويلة، هو أن هذا العالم الواسع ـ مولان جولي ـ نفسه لا يمكن أن يعيش أكثر من 18 ساعة، وأنا أعتقد بأن هناك أساساً ما لهذا الرأي، لأن من خلال الحركة الواضحة للنجم المضيء العظيم الذي يمنح الحياة إلى كل الطبيعة، والذي هبط بشكل كبير في عصري بوضوح باتجاه المحيط في نهاية أرضنا، فلا بد أن تُنهي دورة حياتها عندئذٍ وأن تنطفئ في المياه التي تحيط بنا وتترك العالم في البرد والظلام متسببةً لا محالة بموت عالمي ودمار. لقد عشتُ سبعاً من تلك الساعات، عمر طويل جداً، لكونه ليس أقل من 420 دقيقة من الوقت. كم هم قليلون جداً منا من يستمر بعمر طويل!. لقد رأيتُ أجيالاً تولَد، تزدهر، وتموت. إن أصدقائي الحاليين هم أبناء وأحفاد أصدقاء أيام شبابي الذين هم الآن، وأسفاه، لم يعودوا كذلك! ولا بد أنني سألحق بهم عما قريب، لأن من خلال دورة الطبيعة ورغم أنني لا أزال بكامل صحتي، إلا أنه لا يمكنني أن أتوقع العيش أكثر من 7 أو 8 دقائق. ما فائدة الآن كل تعبي وعملي بجمع المن الذي على هذه الورقة والذي لن أعيش لأستمتع به! ما هي النضالات السياسية التي اشتركتُ بها

من أجل صالح مواطنيّ المقيمين في هذه الشجيرة، أو دراساتي الفلسفية من أجل فائدة سلالتنا عموماً! لأن، في السياسة، ماذا يمكن للقوانين أن تفعل بدون الأخلاق؟ إن سلالتنا الحالية من ذباب مايو ستصبح فاسدة في غضون دقائق كذباب الشجيرات الأخرى والقديمة، وبالنتيجة رديئة أيضاً. وفي الفلسفة، كم هو ضئيل تقدمنا! وأسفاه! الفن طويل، والحياة قصيرة! سيعزّوني أصدقائي بفكرة بأنني سأترك اسماً خلفي، كما يقولون، ويخبرونني بأنني عشتُ لمدة طويلة كفاية بخُلُق وبشرف. لكن ماذا ستكون الشهرة بالنسبة لذبابة مايو التي لن تعود موجودة؟ وماذا سيحل بكل التاريخ في الساعة الثامنة عشرة عندما يصل العالم نفسه، حتى مولان جولي كلها، إلى نهايته ويُدفَن في دمار عالمي؟»

بالنسبة لي، لم يبقَ الآن، بعد كل مساعيّي الطموحة، من ملذات رائعة سوى التفكير بحياة طويلة قضيتُها بالنية الحسنة، وبحديث عقلاني مع بضع سيدات طيبات من ذبابات مايو، ومن حين لآخر ابتسامة لطيفة وسماع ما يطرب من (بريلانتي)[1] الودودة دوماً.

**ب. فرانكلين، [1778]**

---

(1) بريلانتي: اسم تودد لمدام (بريلون)، أو كما نسميه في اللغة الدارجة (اسم دلع). (المترجمة)

# الصافرة

إلى مدام (بريلون)

باسي، 10 من تشرين الثاني/1779

تلقيتُ يا صديقتي العزيزة رسالتين، رسالة يوم الأربعاء ورسالة يوم السبت، وهذه ليوم الأربعاء مرة أخرى. أنا لا أستحق واحدةً لهذا اليوم لأنني لم أجب على الأولى. لكنني كسول وعازف عن الكتابة. والخوف أن لا أحظى أكثر بخطاباتكِ السارة إن لم أسهم بالمراسلة، يجبرني على أن أرفع قلمي. ولأن السيد ب. الذي له نفس اسمي قد أرسل إليّ بلطف وعداً بأنه سينطلق غداً ليراكِ، جلستُ كي أقضيه بالتفكير فيكِ وبالكتابة لكِ وبقراءة رسائلكِ المرة تلو الأخرى، بدلاً من قضاء مساء الأربعاء هذا برفقتك البهيجة.

أنا مفتون بوصفك للفردوس، وبخطتك بالعيش هناك، وأنا أوافق كثيراً استنتاجكِ بأنه يجب علينا أن نستمد من الخير قدر إمكاننا من هذه الحياة. برأيي، ربما يمكننا جميعاً أن نستمد منها خيراً أكثر مما نفعل، ونلاقي شراً أقل لو حرصنا على أن لا ندفع كثيراً جداً مقابل الصافرات، لأنه بالنسبة لي يبدو أن أغلب الناس التعساء الذين نلتقيهم يصبحون كذلك بإهمال ذلك التحذير.

ستسألين ماذا أعني؟ أنتِ تحبين القصص، واسمحي لي بأن أروي واحدة عن نفسي.

عندما كنتُ طفلاً بعمر السابعة، في يوم عطلة، ملأ أصدقائي جيبي بقطع نقدية نحاسية. فتوجهتُ مباشرةً إلى متجر حيث يبيعون لعباً للأطفال. ولكوني أُعجبتُ بصوت صافرة لقيتُها في يديّ صبي آخر، فعرضتُ وقدمتُ طواعيةً كل نقودي لقاء واحدة. ثم وصلتُ للبيت وانطلقتُ أصفر في أرجاء المنزل مسروراً بصافرتي، لكن مسبباً الاضطراب لكل العائلة. فأخبرني أخوتي وأخواتي وأبناء العم، بعد أن فهموا الصفقة التي عملتُها، بأنني كنتُ قد منحتُ مقابلها أكثر بأربع مرات مما تستحق، وذكّروني بالأشياء الجميلة التي كنتُ سأشتريها بباقي النقود. فضحكتُ على نفسي كثيراً جداً لحماقتي لدرجة أنني صرختُ من الغضب، ومنحني التفكير إزعاج أكبر من السعادة التي منحتها لي الصافرة.

رغم ذلك، فقد كانت هذه ذات فائدة لي بعد ذلك، وهو استمرار انطباعها في فكري. لذا غالباً عندما أحاول أن أشتري شيئاً ضرورياً، أقول لنفسي «لا تدفع كثيراً مقابل الصافرة»، وأوفر نقودي.

وعندما كبرتُ وانخرطتُ في الحياة وراقبتُ تصرفات الناس، اعتقدتُ بأنني التقيتُ بالعديدين، العديدين جداً، الذين دفعوا الكثير جداً مقابل الصافرة.

عندما أرى شخصاً تواق جداً لتأييد البلاط، مضحياً بوقته بحضور الاستقبال الملكي، براحته، بحريته، بفضيلته، وربما بأصدقائه، لتحقيق ذلك، أقول لنفسي «بأن هذا الرجل يدفع كثيراً مقابل صافرته».

عندما أرى آخر مولعاً بالشهرة، ويشغل نفسه بنشاطات سياسية صاخبة باستمرار، مهملاً شؤونه الخاصة ويديرها بهذا الإهمال، أقول «إنه فعلاً يدفع كثيراً جداً مقابل صافرته».

إذا عرفتُ بخيلاً تخلى عن كل نوع من العيش الرغيد، كل متعة عمل الخير للآخرين، كل احترام مواطنيه، ومرح الصداقة الخيرة، من أجل جمع ثروة، أقول «مسكين، أنت تدفع كثيراً جداً مقبل صافرتك».

عندما ألتقي برجل ذي ملذات، يضحي بكل تنمية محمودة للعقل، أو بثروته، لمجرد أحاسيس جسدية، ويدمر ثروته في ملاحقتها، أقول «مخطئ، أنت تسبب الألم لنفسك بدلاً من المتعة. أنت تعطي كثيراً جداً مقابل صافرتك».

لو رأيتُ شخصاً مولع بالمظاهر، أو بملابس فاخرة، منازل فاخرة، أثاث فاخر، عربات فاخرة، ما يفوق ثروته والتي يضيق بسببها بالديون، وينتهي عمله بالسجن، أقول «وأسفاه! لقد دفع غالياً، غالياً جداً مقابل صافرته».

عندما أرى فتاة جميلة، ذات طبع لطيف متزوجة من زوج بهيمي سيّئ الطباع، أقول «كم هو أمر مثير للشفقة، بأن عليها أن تدفع كثيراً جداً مقابل صافرة!».

باختصار، أنا أفهم بأن الكثير جداً من مآسي البشر تحصل لهم بسبب التقديرات الخاطئة التي يعملوها لقيمة الأشياء، وبمنحهم الكثير جداً مقابل صافراتهم.

مع ذلك، عليّ أن أعمل الخير لهؤلاء الناس التعساء عندما أفكر أن مع كل هذه الحكمة التي أنا محصن بها، هناك أشياء معينة في الحياة مغرية

جداً. على سبيل المثال، تفاحات الملك جون والتي لا يجب شراؤها لحسن الحظ، لأنها إذا عُرضت للبيع بالمزاد العلني قد أدمر نفسي بكل سهولة بشرائها، وأجد نفسي بأنني مَنحتُ مرة أخرى الكثير جداً مقابل الصافرة.

وداعاً، صديقتي العزيزة، وثقي بي بصدق وبوجدان راسخ، المخلص الأبدي.

ب. فرانكلين

## إلى الأب (موريل)

## [كُتبت بالأصل في فرنسا]

كثيراً ما تحييني يا صديقي العزيز بتراتيلك الرائعة عن الشراب. بالمقابل، أتوسل كي تنورني بعبرة مسيحية وأفكار فلسفية عن نفس الموضوع.

يقول الرجل الحكيم أن الحقيقة في النبيذ. قبل أيام نوح، لأن الناس كانت لا تملك شيئاً تشربه سوى الماء، لم يتمكنوا من اكتشاف الحقيقة، وعليه، استمروا في الضلال وأصبحوا شرسين بشكل بغيض، وتم إهلاكهم بالماء الذي أحبوا أن يشربوه، فكرهه الرجل الصالح نوح لرؤيته أن كل معاصريه قد هلكوا من خلال هذا الشراب الخبيث، ولكي يطفئ ظمأه خلق الله العنب وكشف له وسائل تحويل عصيره إلى نبيذ. وبسبب هذه الخمرة، اكتشف عدد لا يحصى من الحقائق المهمة، بحيث أصبحت الكلمة (to divine) (يتنبأ) منذ عهده شائعة الاستعمال وتعني بالأصل (يكتشف بواسطة النبيذ). وعليه، أخذ البطريارك جوزيف على عاتقه أن (divine) (يتنبأ) بواسطة كوب أو كأس من النبيذ[1]. إن الخمرة حصلت على هذا الاسم كي تثبت بأنها لم تكن من البشر، وإنما تدخل إلهي (دليل

(1) أعلن بصراحة الخطيب الروماني، المعروف جيداً بشعره السيّئ لكونه مدمناً على شرب الماء، في كتابه (العِرافة) بأنه «لم يكن يعلم كيف (يتنبأ)». « Quid futurum sit non divino».

آخر على قِدَم اللغة الفرنسية، خلافاً لرأي السيد جيبلين)؛ كلا، فمنذ ذلك الوقت كانت تسمى كل الأشياء المميزة بشكل خاص، حتى الآلهة نفسها، إلهي أو إلهيات.

سمعنا عن تحول الماء إلى نبيذ عند مراسيم عرس في قانا كنوع من المعجزة [1]. لكن هذا التحول الذي حصل لرحمة الله، يحصل كل يوم أمام أعيننا؛ انظُر إلى المطر الذي ينزل من السماء على أشجار الكروم خاصتنا، والذي يمزج نفسه مع العنب كي يتحول إلى خمر، هو دليل ثابت على أن الله يحبنا، ويحب أن يرانا سعداء. إن المعجزة المقصودة حدثت فقط لكي تعجّل العملية تحت ظروف ذات ضرورة حالية والتي كانت بحاجة لها.

صحيح أن الله قد أوصى الإنسان بأن يبدل الخمر بالماء، لكن أي نوع من الماء؟ ـ ماء الحياة [2]. وإن هذا الرجل ربما كان قادراً في الاحتفال على تنفيذ معجزة قانا وأن يحول الماء العادي إلى ذلك النوع الفاخر من الخمر الذي نسميه شراب البانش.

كن يا أخي المسيحي لطيفاً ومرحاً مثل الله ولا تفسد عمله الجيد، فقد صنع الخمر كي يسعد قلب الإنسان، لذا، عندما ترى جارك، صُبّ الخمر في كأسه ولا تكن حريصاً على خلطه بالماء. لماذا كنتَ ستُغرق الحقيقة؟ فمن المحتمل بأن يكون جارك أعرف بما يناسبه أكثر منك. ربما لا يحب

---

(1) عرس قانا: تعتبر حادثة عرس قانا في الدين المسيحي أولى معجزات يسوع الناصري، حيث وفقاً للإنجيل قام يسوع بتحويل الماء إلى خمر خلال مناسبة زواج في قرية قانا بعد أن نفد الخمر أثناء الاحتفال. (المترجمة)

(2) ماء الحياة (Eau-de-vie)، أي البراندي.

الماء. ربما كان سيضع بضع قطرات فقط من الماء على غرار الموضة. ربما لا يتمنى أي أحد أن يلاحظ كمية ما يضعه في كأسه. إذن لا تقدم الماء سوى للأطفال، فذلك جزء خاطئ من المجاملة، وغالباً غير مريح. أنا أمنحك هذا المقدار الضئيل كإنسان يحب الحياة، وسأكمل كما بدأتُ، كمسيحي صالح، بإبدائي ملاحظة عقائدية ذات أهمية كبرى أُخذت من الكتب المقدسة. أعني أن بولص الرسول نصح تيموثي جدياً كي يضع خمراً في مائه من أجل صحته، لكن ما من أحد من الرسل أو الآباء المقدسين نصح يوماً بوضع الماء في الخمر.

ب. ف.

ملحوظة: مع ذلك، لدعم تقواك وامتنانك للعناية الإلهية أكثر، تفكَّرْ في الحالة التي وُهبت لمفصل المرفق. فأنت ترى في الحيوانات التي تنوي أن تشرب الماء الذي ينساب على الأرض، بأن من كانت لديها سيقان طويلة، يكون لديها أيضاً رقبة طويلة بحيث تتمكن من الوصول إلى شرابها بدون أن تركع. لكن بالنسبة للإنسان المقدر له أن يشرب الخمر، تم تشكيله بطريقة بحيث يتمكن من رفع القدح إلى فمه. لو كان مفصل المرفق قد وُضع أقرب إلى الكف فسيكون الجزء السابق قصير جداً كي نجلب القدح إلى الفم. وإذا كان أقرب للكتف، فسيكون ذلك الجزء طويل جداً بحيث إذا حاولنا حمل النبيذ إلى الفم فسيذهب إلى ما وراء الهدف وسيذهب خلف الرأس. وعليه، بكلتا الحالتين سيكون حالنا كحال تنتالوس[1].

---

[1] تنتالوس: شخصية أسطورية في الأساطير الإغريقية عاقبته الآلهة بأن يقف في بركة ماء تحت شجرة فاكهة، وكلما أراد قطف ثمرة ترتفع فروع الشجرة عن متناول يده

لكن، من حالة المرفق الواقعية للمفصل سيكون بإمكاننا أن نشرب على راحتنا، وسيتوجه القدح مباشرةً إلى الفم. إذن، دعنا نُوَقِّرْ هذه الحكمة الخيّرة بقدح في اليد ـ فلنعشقْ ولنشربْ!

---

بحيث لا يتمكن من الوصول إليها، وكلما انحنى ليشرب من ماء البركة تنحسر المياه قبل أن يتمكن من الشرب. وأصبح العقاب رمزاً لكل من لا يقدر على إشباع رغبته... (المترجمة)

**إلى الأب (دي لا روشه)**

**[كُتبت بالأصل في فرنسا]**

تصفحتُ يا صديقي العزيز كتاب الشعر الصغير للسيد (إيليفيسيوس) الذي أهديتَه لي. أسعدتْني كثيراً القصيدة التي تتحدث عن السعادة وأعادت إلى ذاكرتي نشيداً صغيراً عن الشراب والذي كتبتُه قبل أربعين عاماً في نفس الموضوع، وبنفس الغاية تقريباً، مع العديد من نفس الأفكار لكن مُعَبَّر عنها بشكل أدق. وهي كما يلي:

**المنشِد**

فينوس الجميلة تنادي؛ ونداؤها أمر،

اقضِ الليل والنهار في أذرع الجميلات.

فمُتَع الحب تفوق كل المتع،

والمحب، بالتأكيد، يبلي حسناً.

**الفرقة**

أوه! أوه!

ليس كذلك!

لأن الأرواح النقية تعلم،
أن الأصدقاء والشراب لا زالوا يتفوقون.

**المنشد**

إذن دعونا نجلب المال، كالنحل وهو يضع العسل؛
سنبني لنا قِفاراً جديدة، ونخزن كل خلية.
سيمنحنا منظر ثروتنا سعادة كبيرة؛
سنعدها، نرن بها، نجلجل بها كما يجب.

**الفرقة**

أوه! أوه!
ليس كذلك!
لأن الأرواح النقية تعلم،
أن الأصدقاء والشراب لا زالوا يتفوقون.

**المنشد**

إذا لم يلائمك هذا، فلنحكم المدينة،
فالسعادة بالسلطة ولا أحد ينافسها في ذلك؛
مهما كنتَ منزعجاً، فسيسرّ كبرياؤك بالجماهير،
وهذا سيجعل حتى إبليس سعيداً في الجحيم!

الفرقة

أوه! أوه!

ليس كذلك!

لأن الأرواح النقية تعلم،

أن الأصدقاء والشراب لا زالوا يتفوقون.

المنشد

إذن اجرعوا كؤوسكم جرعة واحدة، واستهجنوا الحمقى المغفلين،

الذين لا زالوا يأكلون القشر، تاركين اللب؛

فما الحب، السلطة، أو الغنى؟ فسليمان الحكيم يعلمنا،

بأنها تبقى غرور، غرور، غرور.

الفرقة

هذا صحيح؛

فقد عرفَ؛

بأنه سينالها جميعاً من خلال؛

الأصدقاء والشراب الذين لا زالوا المتفوقين.

إن المنشد يا عزيزي الأب يعظ رفاقه بأن يبحثوا عن السعادة في الحب، في الغنى، وفي السلطة. فيجيبون بالإنشاد سويةً بأن السعادة لا توجد في أي من هذه الأمور، وأنها توجد فقط في الأصدقاء والخمر. ويوافق المنشد

في النهاية على هذا الافتراض. إن العبارة «لا زالوا يتفوقون» هي رد على العبارة الفرنسية «احصَلْ على الجائزة».

كنتُ أشير غالباً عند قراءتي لأعمال السيد (إيليفيسيوس) إلى أنه، على الرغم من أننا وُلدنا وتعلّمنا في بلدين بعيدين جداً عن بعضهما، إلا أننا دائماً ما نُلهَم بنفس الأفكار، وأنه بالنسبة لي، تفكير يدعو للإطراء بأننا لم نحب نفس الدراسات فقط، وإنما، نفس الأصدقاء، ونفس المرأة، بقدر ما عرفناهم بشكل مشترك.

الوداع! صديقي العزيز

ب. ف.، [1779]

## إلى مدام (إيليفيسيوس)

## [كُتبت بالأصل في فرنسا]

[إن النكتة المترجمة هنا موجودة فقط باللغة الفرنسية لأن فرانكلين طبعها في مطبعته في باسي. كان قد عرض الزواج على مدام (إيليفيسيوس)، أرملة الفيلسوف. وعندما رفضت طلبه، كتب لها أكثر نكته سحراً].

اعتزلتُ في حجرتي، مجروح المشاعر جراء القرار البربري المنطوق من قبلكِ بإصرار مساء أمس بأنكِ ستبقين غير متزوجة بقية حياتكِ وفاءً لذكرى زوجكِ. حلمتُ، وأنا ألقي بنفسي على سريري، بأنني ميت وتم نقلي إلى حدائق الإليسيون [1].

طُلب مني فيما إذا كنتُ أتمنى رؤية أي شخص بالتحديد، وأجبتُ على السؤال بأنني أتمنى أن أرى الفلاسفة.

- «هناك اثنان يعيشان هنا حالياً في هذه الحديقة. هما جاران طيبان وودودان تجاه أحدهما الآخر».

- «من هما؟».

---

[1] الإليسيون: في الأساطير الإغريقية هي جزيرة الخالدين، فيها حدائق غناء وأنهار، تقع في أقصى غرب قرص الأرض، يُرسل إليها الموتى المباركون كي يقضوا حياة أبدية كلها سعادة ونعيم. (المترجمة)

ـ «سقراط وإيليفيسيوس».

ـ «أنا أحترم كليهما بشكل كبير، لكن دعني أرى (إيليفيسيوس) أولاً، لأنني أفهم القليل من الفرنسية، لكن ولا كلمة من الإغريقية».

تم توصيلي له. استقبلني بكثير من الاحترام لكونه يعرفني. فقال بالحرف: مر بعض الوقت. وسألني ألف سؤال متعلق بالحرب، الوضع الحالي للدين، للحرية، للحكومة في فرنسا. فقلتُ «أنت لا تسأل إذن عن صديقتك العزيزة، مدام (إيليفيسيوس)، رغم أنها تحبك بشكل متزايد. كنتُ برفقتها منذ أقل من ساعة». فقال «آه، أنت تجعلني أعود إلى سعادتي الماضية والتي يجب أن تُنسى كي تكون سعيداً هنا. فعلى مدى عدة سنوات لم أكن أستطيع التفكير إلا بها، رغم أنه في النهاية تمت مواساتي. فقد اتخذتُ زوجة أخرى، أكثر زوجة مُحِبّة وجدتُها. هي حقّاً ليست جميلة تماماً، لكن لديها رصيد كبير من الإدراك والحس وحسن التمييز، وكل رسالتها إسعادي. لقد ذهبت في هذه اللحظة لتجلب أفضل رحيق وطعام شهي لتسعدني. ابقَ هنا لبرهة وستراها». فقلتُ «أنا ألاحظ بأن صديقتك السابقة هي أكثر وفاءً لك مما أنت وفيّ لها. كانت قد حظيت بعدة عروض جيدة للزواج، لكنها رفضتهم جميعاً. سوف أعترف لك بأنني أحببتُها بشدة، لكنها كانت قاسية معي ورفضتْني بشكل قاطع من أجلك». فقال «أنا أشفق عليك بصدق، لأنها امرأة ممتازة، جميلة وودودة. لكن ألا يزورها الأب (دي لا روشيه) والأب (موريل)؟».

ـ «بالتأكيد يفعلان. لم يغفل ولا واحد من أصدقائها عن زيارتها».

ـ «لو كنتَ كسبتَ الأب (موريل) برشوة من القهوة الجيدة والقشدة،

ربما كنتَ ستنجح. لأنه مفكر عميق مثل (دانس سكوتاس) أو القديس (توماس). فهو يرتب ويمنهج جدالاته بطريقة لا تُقاوَم تقريباً. أو من خلال طبعة أنيقة لبعض الكلاسيكيات القديمة، كنتَ كسبتَ الأب (دي لا روشيه) كي يتكلم ضدك، كان سيكون أفضل مع ذلك، لأنني لاحظتُ دائماً بأنه عندما يذكر أي شيء لها، يصبح لها ميل كبير لتفعل العكس تماماً».

حالما أكملَ هذه الكلمات، دخلت مدام (إيليفيسيوس) الجديدة بالرحيق، فعرفتُها على الفور، أنها صديقتي الأميركية السابقة، السيدة فرانكلين!. استرجعتُها، لكنها أجابتني ببرود: «كنتُ زوجة وفية لك لمدة 49 عاماً وأربعة أشهر، ما يقارب النصف قرن. فليكن ذلك يرضيك. لقد كونتُ علاقة جديدة هنا، والتي ستدوم إلى الأبد».

قررتُ فوراً ترك أولئك الخيالات الجاحدة، ساخطاً على هذا الرفض من (يوريديس)[1] خاصتي، والعودة إلى هذا العالم الجميل ثانيةً كي أرى الشمس وأراكِ!.

ها أنا ذا،

فلنثأر لأنفسنا!.

[كانون الثاني/1780]

[1] يوريديس: شخصية في الأساطير اليونانية، زوجة أورفيوس، زعموا أن أفعى لدغتها فماتت فلحق بها إلى مثوى الأموات وأخذ يغني ويعزف على القيثارة سائلاً الآلهة أن يعيدوها إليه. (المترجمة)

## إلى (جورج واشنطن)

**باسي، 5 من آذار/1780**

سيدي، لقد تلقيتُ، لكن مؤخراً، الرسالة التي شرفتني سيادتكم بكتابتها بالتوصية بالماركيز (دي لا فايته)، فقد أخّرها حيازه بين يديه طويلاً. لقد تعارفنا منذ وقت وصوله إلى باريس. وإن حماسته لشرف بلادنا، ونشاطه في قضايانا هنا، وارتباطه الوثيق بقضيتنا وبك، قد أثّرت بي بنفس الإجلال والتبجيل له كما فعلتْ رسالة سيادتك حالما تم تسليمها لي.

في حالة إذا توصلنا للسلام بعد حملة أخرى أو اثنتين ومنحونا وقت استراحة، سأكون سعيداً برؤية سيادتكم في أوروبا وأن أرافقك ـ إذا كان سيسمح عمري وقوتي ـ بزيارة بعضاً من مملكاتها العريقة والأكثر شهرة. ستُسعَد، على هذا الجانب من البحر، بالصيت العظيم الذي أحرزتَه، النقي والخالي من تلك الظلال الضئيلة التي تحاول دائماً الغيرة والحسد لمواطني ومعاصري الإنسان إلقاءها على الفضيلة الحية. هنا كنتَ ستعرف وستُسعَد ماذا ستقول الأجيال القادمة عن (واشنطن). لأن لألف لغة نفس التأثير تقريباً لمدة ألف سنة. إن الصوت الواهن لتلك المشاعر الصاغرة لا يتمكن من الانتشار بعيداً جداً من حيث الزمن والمسافة. في الوقت الحاضر، أنا أستمتع بتلك السعادة لأجلك لأنني دائماً ما أسمع الجنرالات القدامى للبلد الأم هذا (الذين درسوا خرائط أميركا ووضعوا عليها علامات على

جميع عملياتك العسكرية) يتحدثون باستحسان صادق وثناء عظيم عن سلوكك، ويشتركون لمنحك صفة، وهي أنك واحد من أعظم قادة العصر.

لا بد أنني سأترك الساحة عاجلاً، لكنك قد تعيش لترى بلادنا تزدهر بشكل يدعو للدهشة وبسرعة، بعد أن تنتهي الحرب، كحقل ذرة صفراء جديد أنهكه وبهّته الطقس المعتدل الطويل وشروق الشمس. وهو بهذه الحالة الضعيفة، أتى عليه الانفجار الرعدي، الرياح العاتية، الثلج، المطر وبدا أنه مهدد بالدمار التام. لكن بعد انتهاء العاصفة، استعاد خضاره الجديد، وقوة إنبات مضاعفة، لا تُسرُّ فقط عين مالكها وإنما عين كل مسافر متأمل.

أطيب التمنيات التي يمكن أن تُصاغ لصحتك وشرفك وسعادتك أن تُصاحبك دوماً، من خادم سيادتكم الأكثر طاعة والأكثر تواضعاً.

ب. ف.

## محاورة بين فرانكلين ومرض النقرس

**منتصف الليل، 22 من تشرين الأول/1780**

فرانكلين: إيه! أوه! إيه! ماذا فعلت كي أستحق هذه المعاناة القاسية؟

النقرس: العديد من الأمور. لقد أكلتَ وشربتَ بحرية جداً، ودلّعتَ ساقيك هاتين بكسلهما.

فرانكلين: من هذا الذي يتهمني؟

النقرس: إنه أنا، حتى أنا، النقرس.

فرانكلين: ماذا! عدوّتي شخصياً؟

النقرس: كلا، لستُ عدوّتك.

فرانكلين: بل أكررها، عدوّتي، لأنك لم تعذبي جسدي فقط إلى حد الموت، بل دمرتِ اسمي اللامع. أنت توبخينني كأني شره أو مدمن خمر. والآن سيسلّم كل العالم الذي يعرفني بأنني لستُ هذا ولا ذاك.

النقرس: ربما يفكر العالم بما يحلو له، فهو دائماً مجامل جداً لنفسه، وأحياناً لأصدقائه. لكنني أعلم جيداً أن مقدار اللحم والشراب المناسبة لإنسان ما (والذي يقوم بدرجة معينة من التمارين) سيكون كثير جداً على إنسان آخر والذي لا يمارسها أبداً.

فرانكلين: أنا أمارس ـ إيه! أوه! ـ الكثير من التمارين ـ إيه! ـ قدر ما أستطيع، يا مدام نقرس. فأنتِ تعرفين حالتي المقعدة، وعلى هذا الاعتبار سيبدو يا مدام نقرس، وكأنكِ تبتعدين عني قليلاً، بالنظر إلى أنه ليس كله خطأي.

النقرس: ليس صحيحاً، ففصاحتك ولطفك ضعها جانباً. فلن يفيد عذرك شيئاً، فإذا كان حالك في الحياة مُقعد، فعلى الأقل يجب أن تكون وسائل تسليتك وراحتك فعّالة. فعليك أن تمشي أو تسافر. فإذا كان الطقس يمنع ذلك، العب البلياردو. لكن دعنا نتفحص طريقة حياتك. بما أن ساعات الصباح طويلة، ولديك وقت فراغ عليك أن تقضيه، فماذا ستفعل؟ لماذا تسلي نفسك بكتب ومنشورات أو صحف لا تستحق القراءة عموماً، بدلاً من اشتهاء طعام الإفطار أو بممارسة تمرين مفيد. مع ذلك فأنت تأكل إفطاراً مبالغ فيه؛ أربعة أطباق من الشاي، مع القشدة، وقطعة خبز محمصة واحدة أو اثنتين مدهونة بالزبدة، مع شرائح من لحم البقر، وهي أشياء أتخيل بأنها لا تُهضَم بسهولة. بعدها مباشرةً تجلس للكتابة عند مكتبك، أو تتحدث مع أشخاص يخاطبونك بشأن العمل. وهكذا يمر الوقت بدون أي نوع من التمارين الجسدية. لكن، كل ذلك بإمكاني أن أغفره، من ناحية، كما قلتَ، حالتك المقعدة. لكن ما هو نشاطك بعد العشاء؟ سيكون المشي في الحدائق الجميلة لأولئك الأصدقاء الذين تناولت العشاء معهم، خيار الإنسان العاقل. بينما نشاطك هو أن تتسمّر على الشطرنج حيث تجد نفسك منغمساً لساعتين أو ثلاث!. هذه وسيلة راحتك الدائمة، والتي هي أقل الوسائل صلاحاً لرجل مُقعد، لأنها بدلاً من أن تُسرِّع حركة السوائل، يساعد الانتباه المتزمت الذي تتطلبه اللعبة

على إبطاء الدورة الدموية وإعاقة الإفرازات الداخلية. أنت تدمر جِبِلَّتِكَ بتخمينات هذه اللعبة التعيسة. ما الذي يمكن توقُّعُهُ من طريقة حياة كهذه سوى جسد مليء بسوائل راكدة، جاهز ليقع فريسة لكل أنواع الأمراض الخطرة، لو أنا، النقرس، لم أُرِحْكَ من الألم من حين لآخر بتحريك تلك السوائل، وبالتالي تنقيتها وتبديدها؟ إذا كان ركن أو زقاق في باريس، خالي من طرق المشاة، والذي لعبتَ فيه الشطرنج لفترة قصيرة بعد العشاء، قد يكون هذا ممكن اغتفاره. لكن نفس الحالة استحوذت عليك في باسي، أوتيل، مونت مارتر، أو سانوي، وهي أماكن فيها أجمل الحدائق والأرصفة، هواء نقي، نساء جميلات، وأكثر الأحاديث راحةً وفائدة، وهو كل ما يجب أن تستمتع به بالتردد على طرق المشاة. لكن كل ذلك امتنعت عنه لأجل لعبة الشطرنج الكريهة تلك. أف، إذن يا سيد فرانكلين! لكن في خضم نصائحي، نسيتُ تقريباً أن أعطي عقوباتي النافعة، لذا، خذ هذه الوخزة ـ وهذه.

فرانكلين: أوه! إيه! أوه! أوووه! قدمي قدر ما يحلو لكِ من النصائح يا مدام نقرس، وبعدد ما يحلو لكِ من العقوبات، لكن أتضرع، يا مدام، بهدنة من عقوباتكِ!.

النقرس: كلا، يا سيدي، كلا ـ لن أهدأ دقيقة عن ما هو في صالحك، ـ لذا ـ

فرانكلين: أوه! إيييه! ـ من غير المنصف أن أقول بأنني لا أمارس التمارين، عندما أفعل مراراً، أخرج للعشاء وأعود في عربتي.

النقرس: إن ذلك أكثر التمارين سهولة ورداءة يمكن تخيله، إذا كنتَ

تلمح إلى حركة العربة على النوابض المعلقة. فبمراقبة درجة الحرارة التي نحصل عليها بالأنواع المختلفة من الحركة ربما سنعمل تقييماً بمقدار التمارين المبذولة في كل منها. وعليه، على سبيل المثال، إذا غيّرتَ نحو المشي في الشتاء بقدمين باردتين في زمن مقداره ساعة فستصبح في حالة إحماء في كل جسمك. اركبْ على ظهر الحصان، نفس التأثير يمكن بالكاد لمسه بهرولة أربع ساعات. لكن إذا استرخيتَ في عربة، كما ذكرت، وتنقلت طوال اليوم، ودخلتَ بسرور آخر حانة لتدفئ قدميك بالنار، عندها جامِل نفسك بأنه لم يعد تروُّحْ نصف ساعة في عربتك يستحق اسم تمرين. إن العناية الإلهية قد عيّنت القليلين كي يتمرغوا في العربات، بينما مَنحت للجميع ساقين، والتي هي آلات مريحة ومفيدة بلا حدود. إذن كن ممتناً واستفد بشكل مناسب من ساقيك. هل كنتَ تعلم كيف تحسنان دورة السوائل لديك بعملية نقلك بالذات من مكان لآخر. لاحظ عندما تمشي بأن كل وزنك يُلقى بالتبادل من ساق إلى أخرى. إن هذا يسبب ضغط كبير على الأوعية الدموية للقدم ويبعد محتوياتها. عندما تستريح، تمتلئ الأوعية الدموية بالوزن الملقى على القدم الأخرى، وبعودة هذا الوزن، يعقبه هذا الامتلاء مرة أخرى، وبهذه الطريقة تتسرَّع دورة الدم. إن الحرارة الناتجة في أي زمن محدد تعتمد على درجة هذا التسريع. فالسوائل تهتز، الرطوبات تضعف، الإفرازات تتيسر، وكل شيء يسير على ما يرام، الوجنتان محمرتان، والصحة تتعزز.

انظُرْ إلى صديقتك الجميلة في أوتيل [1]، سيدة تلقت من الطبيعة الكريمة علماً أكثر فائدة حقاً مما كان الكثير جداً من مدّعي الفلسفة أمثالك

(1) يقصد مدام إيليفيسيوس.

قادرين على استخلاصه من جميع كتبكم. عندما شرفتكَ بزيارة، كانت مشياً. فهي تمشي كل ساعات النهار وتترك الكسل وكل أمراضه المرافقة كي تعانيه خيولها. في هذا انظر في الحال إلى حفاظها على صحتها وسحرها الشخصي. لكنك عندما ذهبتَ إلى أوتيل، كان عليك أن تأخذ عربتك على الرغم من أنه ليس أبعد من باسي إلى أوتيل مما هو من أوتيل إلى باسي.

فرانكلين: إن أسبابكِ تغدو مزعجةً جداً.

النقرس: سأكون صامتة وأواصل وظيفتي. خذ هذه، وهذه.

فرانكلين: أوه! أووه!. استمري بالحديث، أتوسل لكِ!

النقرس: كلا، كلا. فلديّ عدد جيد من الوخزات لك هذه الليلة، وينبغي أن تكون متأكداً من بعضها غداً صباحاً.

فرانكلين: ماذا، فبحمى كهذه! سأصبح هالكاً. أوه! إيه! ألا يستطيع أحد تحمل ذلك من أجلي؟

النقرس: اطلب ذلك من خيولك، فقد خدمتك بأمانة.

فرانكلين: كيف يمكنكِ أن تهزئي بقسوة جداً من عذاباتي؟

النقرس: أهزأ! أنا جادة جداً. فلديّ قائمة بالإساءات ضد صحتك الخاصة قد كُتبت بوضوح، ويمكنك أن تبرر كل ضربة سُدِّدَتْ إليك.

فرانكلين: اقرئيها إذن.

النقرس: إن تفاصيلها طويلة جداً، لكنني سأذكر باختصار بعض التفاصيل.

فرانكلين: استمري، فكلي آذان مصغية.

النقرس: هل تتذكر كم مرة وعدتَّ نفسك، في كل يوم يأتي، بمشية في بستان (بولون)، في حديقة (دي لا موته)، أو في حديقتك الشخصية، وخالفتَ وعدكَ، زاعماً، إنه في مرة كان بارداً جداً، وفي مرة أخرى حار جداً، عاصف جداً، رطب جداً، أو ما يحلو لك. متى في الحقيقة كان (لا شيء جداً)، سوى حبك الذي لا يُقهَر للراحة؟.

فرانكلين: أن أعترف بأن ذلك حصل نادراً، ربما عشر مرات في السنة.

النقرس: أن اعترافك هو مختصر جداً للحقيقة. فالقيمة الإجمالية هي 199 مرة.

فرانكلين: هل هذا ممكن؟

النقرس: ممكن جداً، وإنه حقيقة. ينبغي لك أن تعتمد على دقة إفادتي. أنت تعرف حدائق (مدام بريلون) وطرق المشاة الملساء التي تحويها. تعرف مجموعة درجات السلم الجميل ذي المائة درجة والذي يقود من الشرفة في الأعلى إلى المرج في الأسفل. كنتَ تمارس زيارة هذه العائلة اللطيفة مرتين في الأسبوع بعد العشاء، وهو أقصى حد لك. إن «الإنسان قد يمارس تمريناً بمشيه ميلاً، أو صعوده ونزوله درجات سلم، ما يعادل عشرة على أرض مستوية». يا لها من فرصة كانت لك هنا كي تمارس تمريناً بهاتين الطريقتين كلاهما! هل اغتنمتها، وكم مرة؟

فرانكلين: لا أستطيع أن أجيب مباشرةً على هذا السؤال.

النقرس: أنا سأجيب عنك، ولا مرة.

فرانكلين: ولا مرة؟

النقرس: مع ذلك، فخلال الصيف ذهبتَ إلى هناك في الساعة السادسة. وجدتَ السيدة الفاتنة مع أطفالها المحبوبين وأصدقائها وهم تواقين للمشي معك وليرفهوا عنك بحديثهم السائغ. وما كان خيارك؟ لِمَ عليكم أن تجلسوا على الشرفة، تسعدون أنفسكم بالمشهد الجميل، وتمررون ناظريكم على جمال الحديقة التي تحت بدون أن تنزلوا خطوة واحدة وتمشون فيها. بل على العكس، فقد طلبتَ الشاي ولوح الشطرنج، وانظر! لقد أخذتَ مقعدكَ حتى الساعة التاسعة، هذا إضافةً إلى لعب الساعتين بعد العشاء. وبعد ذلك، بدلاً من الذهاب إلى البيت مشياً والذي كان سيحثك كثيراً، صعدتَ إلى عربتك.

كم هو غريب أن تفترض بأن كل هذا الإهمال يمكن أن يتوافق مع الصحة بدون تدخلي!

فرانكلين: أنا مقتنع الآن بعدالة ملاحظة ريتشارد المسكين، وهي «أن ديوننا وذنوبنا دائماً أعظم مما نحتسب لها».

النقرس: هو كذلك.أنتم معشر الفلاسفة حكماء في أقوالكم المأثورة، وحمقى في تصرفاتكم.

فرانكلين: لكن هل تتهمينني من بين جرائمي، بأنني عدتُ من السيد (بريلون) في عربة؟

النقرس: بالتأكيد. لأنك لم تمانع على إعياء اليوم ببقائك جالساً طوال الوقت، ولذلك لم يستلزم راحة عربة.

فرانكلين: ماذا تريدينني أن أفعل بعربتي إذن؟

النقرس: إحرقها إن كنتَ ترغب بذلك، فعلى الأقل ستُخرج الحرارة التي بداخلها مرة بهذه الطريقة، أو إذا كنتَ تكره هذا المقترح فهناك مقترح آخر لك؛ راقِب الفلاحين الفقراء الذين يعملون في حقول العنب والمزارع التي حول قرى باسي، أوتيل، شايلوت...إلخ، قد تجد كل يوم من بين هذه المخلوقات المؤهلة، أربعة أو خمسة رجال كبار في السن ونساء منحنين وربما كسيحين بسبب ثقل السنين والعمل الطويل جداً والعظيم جداً. فبعد يوم كثير التعب، على هؤلاء الناس أن يخوضوا في الوحل ميلاً أو اثنين إلى أكواخهم الدخانية اللون. أأمر حوذيكَ بأن يقيدهم. فهذا قانون سيكون جيداً لروحك، وفي نفس الوقت، بعد زيارتك إلى آل بريلون، إذا عدتَ مشياً فسيكون ذلك مفيداً لجسدك.

فرانكلين: آه! كم أنتِ مزعجة!

النقرس: حسناً، إذن، إلى العمل، لا يجب أن تنسى بأنني طبيبك. خُذ.

فرانكلين: أوووه! يا لكِ من طبيبة بحق الشيطان!

النقرس: كم أنت جاحد لتقول ذلك! ألستُ أنا، بمقام طبيبك، من أنقذك من الشلل، الاستسقاء، والسكتة؟ والتي كانت ستصيبك واحدة منها أو أخرى منذ مدة طويلة، لولاي.

فرانكلين: أنا أستسلم، وأشكرك على الماضي، لكن أتوسل أن تقطعي زياراتكِ في المستقبل لأن برأيي من الأفضل للشخص أن يموت على أن يُعالَج بهذه الطريقة المحزنة. اسمحي لي أن ألمح فقط بأنني لم أكن أيضاً عدوانياً تجاهكِ. إذ لم أشجع طبيباً أو دجالاً من أي نوع على أن يدخل

القائمة ضدكِ. إذن إذا لم تتركيني لشأني فربما سيقال عنكِ بأنكِ جاحدة أيضاً.

النقرس: يمكنني بالكاد أن أعترف بذلك كأي اعتراض. أما بالنسبة للدجالين، فأنا أزدريهم، فقد يقتلونك فعلاً لكن لا يستطيعون أن يؤذونني. أما بالنسبة للأطباء النظاميين فهم مقتنعون في النهاية بأن النقرس في شخص مثل حالتك هو ليس مرض وإنما دواء، فلِمَ يعالجون دواء؟ ـ لكن هذه مهمتنا ـ لذا خُذْ.

فرانكلين: أوه! أوه! ـ اتركيني من أجل السماء! وأعدكِ بصدق بأنني أبداً لن ألعب الشطرنج، بل سأمارس التمارين كل يوم وأعيش بزهد.

النقرس: أنا أعرفك جيداً. أنت تفي بالوعد، لكن بعد أشهر قلائل من الصحة الجيدة، ستعود إلى عاداتك القديمة، فوعودك الرقيقة ستُنسى كهيئة غيوم العام الماضي. فلنُنهِ إذن القصة وسأذهب. لكنني سأتركك مؤكدةً على زيارتي لك ثانيةً في الوقت والزمان المناسبين، لأن هدفي هو صالحك، وأنت تعي الآن بأنني صديقتك الحقيقية.

# ملحق صحيفة (بـوسطن إنديبيندنت كرونكل)

[كانت هذه نكتة كُتبت من قبل فرانكلين كي يؤثر في الرأي ضد الوزارة البريطانية التي استفادت من الهنود كحلفاء ضد الأميركيين].

**بوسطن، 12 من آذار/1782**

ملخص رسالة من القائد (جيريش) من ميليشيا (نيوإنغلاند)، مؤرخة في 7 آذار من (ألباني)

إن الجلود الغير مدبوغة والتي حصلنا عليها في الحملة [انظر قصة الحملة إلى (أوزفيكاتشي) على نهر سانت لورانس في صحيفتنا للأول من الشهر الجاري] سوف تبلغ قيمتها كما ترى كمية كبيرة من المال. إن امتلاك هذه الغنيمة قد منحنا سعادة في البداية، لكننا صُعقنا مرعوبين لاكتشافنا بين الصناديق 8 جلود كبيرة تحوي فروات رؤوس لأبناء بلدنا التعساء والذين تم اختطافهم في الثلاث سنوات السابقة من قبل هنود السينيكا من أهالي مناطق حدود نيويورك، نيوجرسي، بنسلفانيا، وفرجينيا، وأُرسِلوا من قبلهم كهدية إلى العقيد (هالديماند)، محافظ كندا، كي يتم إرسالهم إلى إنكلترا من قبله. كانوا مرفقين بالرسالة التالية المثيرة للاهتمام إلى ذلك الرجل النبيل:

«تيوجا، 3 من كانون الثاني/ 1782»

عسى أن تسعد سيادتكم، بطلبٍ من رؤساء السينيكا، أرسل مرفقاً بهذا إلىٰ سيادتكم، وبعهدة (جيمس بويد)، ثمانية صناديق من فروات الرؤوس، مُقَدَّدة، مجففة، مطوقة، ومصبوغة بكل شعارات النصر الهندية، مع الفاتورة والإيضاح التالي:

«رقم.1. يحوي 43 فروة رأس لجنود مجلس النواب الأميركي، والذين قُتلوا في مناوشات مختلفة. هذه الفروات فُرِدَتْ على أطواق سوداء بنصف قطر 4 إنجات. تم صبغ الجزء الداخلي للجلد باللون الأحمر، مع نقطة سوداء صغيرة كي تشير إلى أنهم قُتلوا بالرصاص. وكذلك 62 فروة رأس لمزارعين قُتلوا في منازلهم؛ الأطواق حمراء، الجلد مصبوغ باللون البني، ووضعت علامة الفأس عليها. تشير الدائرة السوداء حولها إلى أنه تمت مداهمتهم في الليل، وتشير الفأس السوداء في الوسط إلى أنهم قُتلوا بهذا السلاح».

«رقم.2. يحوي 98 فروة رأس لمزارعين قُتلوا في منازلهم. الأطواق حمراء. يمثل شكل الفأس علامة على مهنتهم. تُظهِر الدائرة البيضاء الكبيرة إلى أنه تمت مداهمتهم في وضح النهار. تُظهِر القدم الحمراء الصغيرة إلى أنهم صمدوا في دفاعهم، وماتوا وهم يدافعون عن حياتهم وعوائلهم».

«رقم.3. يحوي 97 فروة رأس لمزارعين. تُظهِر الأطواق الخضراء إلى أنهم قُتلوا في حقولهم. تُظهِر الدائرة البيضاء الكبيرة مع العلامة المستديرة الصغيرة التي تشير إلى الشمس عليها، إلى أنه حصل في وضح النهار. توجد علامة الطلقة السوداء على بعضهم، وعلامة الفأس على البعض الآخر».

«رقم.4. يحوي 102 فروة رأس لمزارعين بمزيج من العلامات العديدة المذكورة أعلاه. تم وضع علامة شعلة صفراء صغيرة على 18 منها فقط لتشير إلى أنهم سجناء وأُحرقوا أحياء بعد سلخ فروات رؤوسهم، تم خلع أظافرهم من الجذر، وعذابات أخرى. أحد أولئك الأخيرين كان من المفترض أن يكون قس معربِد، تم تثبيت حزامه إلى طوق فروة رأسه. تُظهر فروات رأس معظم المزارعين من خلال الشعر إلى أنهم كانوا من الشبان أو رجال متوسطي العمر، سوى 67 من بينهم جميعاً، ذات شعر رمادي داكن، والذي يجعل الخدمة جوهرية أكثر».

«رقم.5. يحوي 88 فروة رأس لنساء، الشعر طويل، مظفور على الطريقة الهندية ليشير إلى أنهم أمهات. الأطواق زرقاء، يمثل، من باب النصر، التراب الأصفر بلون الجلد مع الضفادع الحمراء الصغيرة، دموع الحزن التي انهمرت على أقاربهم. تشير علامة السكّينة السوداء أو الفأس في الأسفل إلى أنهم قُتلوا بهذه الأدوات. أما 17 الأخريات فذات شعر رمادي داكن، الحلقات سوداء، لون بني فاتح. لا توجد علامة سوى الهراوة القصيرة لتشير إلى أنهم ضُربوا حتى الموت أو تم سحق أدمغتهم».

«رقم.6. يحوي 193 فروات رأس لصِبْية ذوي أعمار مختلفة. الأطواق صغيرة خضراء، تراب أبيض على الجلد مع شقوق حمراء في الوسط، تمثل علامة الطلقات السوداء، السكينة، الفأس أو الهراوة، طريقة حدوث موتهم».

«رقم.7. 211 من فروات رأس لفتيات، كبيرات وصغيرات. الأطواق صغيرة صفراء. تراب أبيض، شقوق. فأس، هراوة، سكينة... إلخ».

«رقم.8. إن هذا الصندوق هو مزيج من كل الأنواع المذكورة أعلاه. العدد 122، يحوي صندوق من لحاء شجرة البتولا على 29 فروات رؤوس أطفال صغار من مختلف الأحجام. الأطواق صغيرة بيضاء، تراب أبيض، لا وجود لشقوق، وتمثل سكينة سوداء صغيرة فقط في الوسط بأنهم اقتُلعوا من بطون أمهاتهم».

أرسل الرؤساء مع هذه الصناديق إلى سيادتكم الخطاب التالي الذي تم تسليمه من قبل (كونجوكاتشي) في المجلس، وتُرجم من قبل الزعيم (مور)، التاجر، ووُثِّقَ من قبلي كتابةً:

أيها الأب،

أرسلنا لكم مرفقة بهذا العديد من فروات الرؤوس، عسى أن ترى بأننا لسنا أصدقاء غير نافعين.

حزام أزرق.

أيها الأب،

نرغب بإرسال فروات الرؤوس هذه عبر البحر إلى الملك العظيم عسى أن يراها ويكون مرتاحاً، وعسى أن يرى إخلاصنا بتدمير أعدائه ويكون مقتنعاً بأن هداياه لم تُصنَع إلى أناس جاحدين.

حزام أزرق وأبيض مع شرابات حمراء.

أيها الاب،

بدايةً إن ما سأقوله الآن هو أمر ذو أهمية كبيرة. إن أعداء الملك العظيم كثيرون، وهم يزيدون باستمرار في العدد. كانوا سابقاً كالنمور الفتية، لا يمكنهم العض أو الخدش، وكان بإمكاننا أن نلعب معهم بأمان، ولم نكن نخف بما يمكنهم أن يفعلوه بنا. لكن الآن أصبحت أجسادهم كبيرة كالأيل، وقوية كالجاموس، وأصبح لديهم أيضاً مخالب كبيرة وحادة. لقد أخرجونا من بلادنا كي نشارك في قتالك. نحن ننتظر من الملك العظيم بأن يمنحنا بلاداً أخرى يعيش فيها أبناؤنا بعدنا ويكونون أصدقاءه وأبناءه كما نحن. اذكر ذلك إلى الملك العظيم لأجلنا. ولتعزيز ذلك، نمنحه حزامه.

حزام أبيض كبير مع شرابات زرقاء.

أيها الأب،

علينا فقط أن نقول أيها الأب بأن تجارك يطلبون على بضائعهم أكثر مما كان، وقد قلَّ صيدنا بسبب الحرب، لذا لدينا جلوداً أقل من أن نعطيه لهم. إن هذا يدمرنا. فكِّرْ في علاجٍ ما. فنحن فقراء، وأنت لديك الكثير من كل شيء. نحن نعلم بأنك سترسل لنا القوة والسلاح، والسكاكين والفؤوس، لكننا أيضاً نطلب القمصان والبطانيات.

حزام أبيض صغير.

«أنا لا أشك بأن سيادتكم سيعتقد أنه من الملائم منح بعض التشجيع الإضافي لأولئك الناس الصادقين. إن الأسعار العالية التي يشتكون منها

هي النتيجة الحتمية للحرب. أيًا ستكون الهدايا التي ستُرسَل لهم من خلالي، فسيتم توزيعها بحكمة وبحرص. لي الشرف بأن أكون خادم سيادتكم الأكثر طاعة والأكثر تواضعاً»

«جيمس كروفورد»

في البداية تم الاقتراح بدفن فروات الرؤوس تلك. لكن الملازم فيتزجيرالد، الذي تعرفه والذي أخذ إجازة بالغياب للذهاب إلى إيرلندا في بعض شؤونه الخاصة، قال بأنه فكّر أنه من الأفضل دفعها إلى قدرها، وإذا أُعطيت له، فسيأخذ على عاتقه حملها إلى إنكلترا وتعليقها كلها في ليلة ظلماء على الأشجار في متنزه سانت جيمس، حيث يمكن رؤيتها من قصور الملك والملكة في الصباح، لهذا ربما سيصدم منظرها مَوْلاي إسماعيل (كما يسمي نفسه) مع القليل من وخز الضمير. لذا تم تسليمها إلى فيتزجيرالد وقد جلبها بأمان إلى هنا. ستذهب غداً مع أمتعته في عربة إلى بوسطن، وستصل هناك على الأرجح بواسطتهم في أيام قلائل بعد هذه الرسالة.

أنا....إلخ

صاموئيل جيريش

بوسطن، 20 من آذار

وصل إلى هنا يوم الإثنين الماضي الملازم فيتزجيرالد المذكور أعلاه، ويوم أمس الأمتعة مع فروات الرؤوس. إحتشد آلاف الناس لرؤيتها هذا الصباح، وكل الأفواه تصب اللعنات. تثبيتها على الأشجار أمر غير مستحسن. فتم الاقتراح الآن بوضعها في صناديق صغيرة لائقة، وختمها

وإرسالها. واحد إلى الملك يحوي عينة من كل نوع لمتحفه. واحد للملكة يحوي بعض فروات النساء والأطفال الصغار. على أن يتم توزيع البقية بين كل من مجلسيّ البرلمان، وكمية مضاعفة إلى الأساقفة.

## إلى (جوزيف بريستلي)[1]

**باسي بالقرب من باريس، 7 من حزيران/1782**

سيدي العزيز، تلقيتُ رسالتك الكريمة للسابع من نيسان، وكذلك رسالة الثالث من أيار. يسعدني كثيراً دائماً بالسماع منك بأنك بخير وبأنك تواصل تجاربك. وسأُسعد كثيراً لو كان بإمكاني استعادة متعة البحث مرة أخرى معك عن أعمال الطبيعة، أقصد جانب الجماد وليس الجانب الحي أو الأخلاقي لها. فكلما اكتشفتُ أكثر عن الأولى، ازداد إعجابي بها. وكلما عرفتُ أكثر عن الأخيرة، زاد نفوري منها.

لقد اكتشفتُ أن البشر نوع من المخلوقات تم تشكيله بشكل سيّئ، لأنهم بشكل عام يُستَفَزّونَ بسهولة أكثر من أن يتآلفوا بسهولة، ميالين أكثر لعمل الأذى لبعضهم البعض من عمل المصالحات، يُظَلَّلون بشكل أسهل مما أن يتم تنويرهم، ويملكون غروراً أكبر، وحتى المتعة، في قتل أحدهم الآخر من إكثار أحدهم الآخر، لأن بدون الحمرة التي يجمعونها في الجيوش الكبيرة في وقت الظهيرة كي يدمروا، وعندما يَقتلون بقدر ما يستطيعون، يقومون بمضاعفة الرقم ليزيد من المجد الوهمي. لكنهم يزحفوا إلى الأركان أو يغطوا أنفسهم بظلام الليل عندما يقصدوا التناسل لكونهم خجلين من عمل

(1) عالم كيميائي إنكليزي ....... المترجمة.

فاضل. إن العمل الفاضل سيكون العمل الفاسد قَتْلَهُم، إذا كانت الأصناف تستحق حقاً التكاثر أو البقاء، لكنني بدأتُ أشك في هذا.

أنا أعلم بأنك لا تملك شكوكاً كهذه لأن بحماستك لرفاهيتهم فأنت تعاني كثيراً للحفاظ على أرواحهم. ربما عندما تكبر في السن ستنظر إلى هذا على أنه مشروع لا أمل فيه، أو تسلية فاشلة، وستندم على قتلك بالهواء النتن العديد من الفئران الصادقة والمسالمة، وستتمنى لو منعت الخطأ باستبدالهم بالصبيان والفتيات بدلاً منهم. تحت أي ضوء يُنظر لنا من قبل الكائنات العليا. قد يُعرَف ذلك من خلال خبر في صحيفة (ويست إنديا نيوز) والتي من المحتمل أنها لم تصلك بعد. كان هناك ملاك شاب ذو منزلة قد تم إرساله للمرة الأولى إلى هذا العالم في بعض الشؤون، وكان قد عُيِّنت له روح مرافقة كبيرة في السن كمرشد. وصلا عبر بحار (مارتينيكو) في خضم يوم طويل من قتال بين أساطيل (رودني) و(دي غراسه). وعندما رأى من خلال غيوم الدخان نيران البنادق، ظهور المراكب مغطاة بأطراف مبتورة، وأجساد ميتة أو تموت، السفن تغرق، تحترق، أو تُنسَف في الهواء، ومقدار الألم، البؤس، والدمار، الطاقم الذي كان لا يزال حيًّا يبيع أحدهم الآخر بلهفة بسبب ذلك؛ استدار غاضباً نحو مرشده وقال «لقد ارتكبتَ خطأً أيها الغبي، أنت لا تعرف عملك. لقد أخذتَ على عاتقك كي توصلني إلى الأرض وقد جلبتني للجحيم!». فقال المرشد «كلا يا سيدي، فأنا لم أرتكب خطأً، فهذه حقاً الأرض، وهؤلاء هم بشر. فالشياطين لم يعامل أبداً واحدها الآخر بهذه الطريقة الوحشية، فهم لديهم عقل أكثر، والكثير مما يسميه البشر (بغرور) إنسانية».

لكن كي أكون جاداً يا صديقي القديم العزيز، فأنا أحبك كما دائماً،

وأحب كل الأرواح الصادقة التي تلتقي عند مقهى لندن. أنا فقط أتساءل كيف حدث أن أصبح هم وأصدقائي الآخرون في إنكلترا مخلوقات طيبة كهذه في وسط جيل فاسد جداً. كان عليّ أن أراهم وأراك منذ مدة طويلة مرة أخرى، وأنا أعمل بجهد من أجل سلام جاد أكثر، وأنني ربما سأكون سعيداً ثانيةً في مجتمعك اللطيف.

لقد أريتُ رسالتك إلى الدوق (دي لاروشيفوكولت) الذي يعتقد مثلي بأن التجارب الجديدة التي أجريتَها هي مثيرة للاهتمام للغاية، وأنه منحني على ذلك ملاحظة والتي أرفقتُها، وأنا أطلب منك أن تزودني بالإجابة المطلوبة.

كان الكونت (دو نورد) في أكاديمية العلوم يوم أمس عندما تم عرض تجارب مختلفة لإمتاعه. كان من بينها تجربة لـ (السيد لافوازييه) تُظهِر أن أقوى نار نعرفها لحد الآن تُوَلَّد في فحم نُفِخَ عليه الأوكسجين. وقام، بواسطة حرارة متولدة بهذه الطريقة، بصهر البلاتين في الحال. إن النار كانت أقوى بكثير من النار المتولدة من أقوى مرآة حارقة.

الوداع، وثق بي دوماً، المخلص،

ب. فرانكلين

إلى السيد (جوزيف بانكس)

**باسي، 27 من تموز/1783**

سيدي العزيز، تلقيتُ رسالتك الكريمة جداً من قبل الدكتور (بلاغدين)، وأبجّل نفسي لأنها تشرفتْ كثيراً بتذكرك اللطيف لها. لقد كنتُ منهمكاً كثيراً جداً وبشكل سّري جداً في قضايا الشأن العام. لكي نستمتع بكامل الفائدة لمحادثته، عملتَ صالحاً أن قصدتّني. فأنا آمل قريباً أن أحظى بوقت فراغ أكبر وأن أقضي جزءاً منه في تلك الأبحاث المستحبة بالنسبة لي أكثر من العمليات السياسية.

أتشارك معك بكل حب بالابتهاج بعودة السلام. أتمنى أن يكون سلاماً دائماً، وأن تمتلك البشرية، كما تسمي نفسها مخلوقات متعقّلة، في نهاية المطاف المنطق والإحساس الكافي كي يحسموا خلافاتهم بدون قطع الرقاب، لأن، برأيي، لا يوجد هناك أبداً حرب جيدة أو سلام سيّئ. فكم هي ضخمة الإضافات لوسائل الراحة والترفيه للحياة التي قد يحققها البشر لو كان المال الذي أُنفِقَ في الحروب استُخدِمِ في أعمال المنفعة العامة! يا له من امتداد في الزراعة، حتى إلى قمم جبالنا. كم هي الأنهر التي ستصبح صالحة للملاحة، أو التي سنتمكن من ربطها بالقنوات. كم هي الجسور، القنوات المائية، الطرق الجديدة، وأعمال عامة أخرى، الصروح، والتحسينات التي تجعل إنكلترا جنة متكاملة والتي قد نحصل عليها بإنفاق

تلك الملايين في عمل الخير، والتي أُنفقت في الحرب الأخيرة في عمل الأخطاء، في جلب البؤس لآلاف العائلات، وتدمير الحياة للآلاف العديدة جداً من الناس العاملة الذين لكانوا أنجزوا العمل المفيد!

أنا مسرور بالاكتشافات الفلكية الأخيرة المنجزة من قبل مجتمعنا. إن تقدم المعرفة الإنسانية سيكون سريعاً وسيتم عمل الاكتشافات التي لا ندركها في الوقت الحاضر، لوجود أكاديميات العلوم، كما في كل أوروبا الآن، والمزودة بأجهزة جميلة وروح التجربة. بدأتُ أصبح متأسفاً تقريباً لكوني ولدتُ في زمن بعيد، لأنني لن أتمكن من أن أحظى بسعادة معرفة ما سيتم معرفته بعد 100 سنة من الآن.

أتمنى لك النجاح المتواصل في أعمال المجتمع الملكي، وأن تزيّن طويلاً ترؤسه. تقبل فائق الاحترامات، سيدي.

ب. فرانكلين

ملحوظة: سيُعَرِّفُكَ الدكتور بلاغدين بتجربة الكرة العملاقة التي أُطلِقَت في الهواء والتي قيل الكثير بشأنها هنا، والتي إذا تمت متابعتها، قد تمدنا بوسائل المعرفة الجديدة.

# ملاحظات حول همج أميركا الشمالية

نسميهم همج لأن سلوكهم يختلف عن سلوكنا الذي نعتقد بأنه قمة التحضّر، وهم يعتقدون نفس الشيء عن سلوكهم.

ربما، لو تمكنا من دراسة سلوك الأمم المختلفة بنزاهة، فلن نجد أناس فظّين جداً بدون بعض من قواعد الأدب، ولا مؤدبين جداً لا يمتلكون بعض الفظاظة.

فالرجال الهنود، فصيادين ومحاربين عند الشباب، ومستشارين عند الشيخوخة. لأن كل حكمهم بمشورة الحكماء. لا توجد هناك قوة، لا يوجد هناك سجون، لا ضباط يفرضون الطاعة أو يُنزلون عقوبة.

من هنا يدرس جميعهم الخطابة بشكل عام، وأفضل متحدث هو الذي يمتلك التأثير الأقصى. المرأة الهندية تحرث الأرض، تحضّر الطعام، ترضع وتربي الأطفال، وتحفظ وتسلم إلى الأجيال القادمة ذكرى المعاملات العامة. إن وظائف الرجال والنساء هذه تعتبر طبيعية ومشرفة. ولكون لديهم القليل من الاحتياجات المتصنعة، يمتلكون الكثير من وقت الفراغ لتحسين محادثاتهم. إن سلوكنا الحياتي التحرري مقارنةً بهم، يعتبرونه لئيم وخسيس، ويعتبرون التعليم الذي نقيّم به أنفسنا تافهاً وعديم النفع. حصلت حالة مثل هذه عند معاهدة لانكاستر في بنسلفانيا، السنة

1744، بين حكومة فيرجينيا والأمم الستة. فبعد حسم الشأن الأساسي، قام المبعوثون من فيرجينيا بتعريف الهنود عن طريق الخطاب، بأنه كانت هناك في (ويليامزبيرغ) كلية مع منحة لتعليم الهنود الشباب. وأنه إذا كانت الأمم الستة سترسل ستة من أولادهم إلى تلك الكلية فستحرص الحكومة بأن تؤمن معاشهم بشكل جيد. ونصحتْ بكل التعليم لجميع البيض. إن إحدى قواعد الأدب الهندي هو عدم الرد على مقترح عام في نفس يوم إبدائه، لأنهم يعتقدون أن ذلك معاملة له على أنه أمر لا أهمية له وأنهم يُظهِرون له الاحترام بأخذ وقت كي يعتبرونه أمراً ذا أهمية. لذا قاموا بتأجيل إجابتهم حتى اليوم التالي. عندما بدأ متحدثهم بالتعبير عن إحساسهم العميق بكرم حكومة فيرجينيا بتقديمها هذا العرض لهم، قال «لأننا نعلم بأنكم تحترمون نوع التعليم المُعَلَّم في تلك الكليات، وأن بقاء رجالنا الشباب، بينما هم معكم، سيكون مكلفاً جداً لكم. لذا، نحن مقتنعون بأنكم تعملون الخير لنا باقتراحكم، ونشكركم من كل قلبنا. لكن أنتم، الحكماء، لا بد أن تعلموا بأن للأمم المختلفة مبادئ مختلفة عن الأشياء، ولذا لن تسيؤوا فهمنا إذا صادف وأن كانت أفكارنا عن هذا النوع من التعليم لا تشبه أفكاركم. فلدينا تجربة عن ذلك. فبعض من شبابنا نشأوا سابقاً في كليات المقاطعات الشمالية، وتم تدريسهم كل علومكم. لكن عندما عادوا إلينا، كانوا راكضين سيّئين، جاهلين بكل وسائل العيش في الغابات، غير قادرين على تحمل البرد أو الجوع، لا يعرفون كيفية بناء حجرة، اصطياد غزالة، أو قتل عدو، يتحدثون لغتنا بشكل غير مثالي. لذا لم يكونوا مناسبين كصيادين، محاربين، ولا مستشارين. بالمجمل، لم يكونوا بارعين بشيء. نحن على أية حال ممتنون كثيراً لعرضكم الكريم

رغم رفضنا بقبوله. ولإبداء شعورنا بالامتنان نحوه، لو أرسل سادة فيرجينيا إلينا اثني عشر من أبنائهم، فسنحرص كثيراً على تعليمهم، ننصحهم بكل ما نعرفه، ونجعل منهم رجالاً».

لكون لديهم مناسبات متكررة كي يعقدوا مجالس عامة، فقد اكتسبوا نظام وأدب جمّين في إدارتها. فالرجال الكبار في السن يجلسون في الصفوف الأمامية الرئيسية، والمحاربون في التالية، والنساء والأطفال في أقصى الخلف. إن وظيفة النساء هو الانتباه الدقيق لما يحدث وطبعه في ذاكرتهن (لانعدام الكتابة لديهم) وتوصيله لأطفالهن. فهنّ سجلات المجلس، وهن يحفظن سماع النصوص في معاهدات رجوعاً إلى 100 عام، والتي عندما نقارنها بكتاباتنا نجدها مضبوطة دائماً. وذلك الذي يرغب بالتحدث، ينهض. ويلتزم البقية صمتاً شاملاً. وعندما يكمل ويجلس، يمنحونه 5 أو 6 دقائق كي يتذكر لو كان قد أغفل أي شيء أراد قوله أو أن يكون لديه أي شيء يضيفه، يمكنه أن ينهض ثانيةً ويلقيه. إن مقاطعة شخص آخر حتى في الحديث العادي يُعتبر غير لائق بشكل بالغ. كم هذا مختلف عن سلوك مجلس العموم البريطاني المهذّب حيث من النادر أن يمر يوم بدون بعض الإرباك الذي يجعل المتحدث يبح صوته بطلب النظام، وكم هو مختلف عن طريقة التحدث في العديد من الأحزاب الأوروبية المهذبة حيث إذا لم تلقِ بعبارتك بسرعة كبيرة فسيتم اقتطاعها عند منتصفها من قبل ثرثرة مستعجلة لأولئك الذين تتحدث معهم ولن تكلف نفسك عناء إكمالها!

إن أدب أولئك الهمج في المحادثة هو بالفعل مفرط لأنه لا يسمح لهم بأن يعترض أو ينكر حقيقة ما تم تأكيده أثناء وجودهم. إن بهذه الوسيلة

يتفادون فعلاً النزاعات، لكن بعد ذلك يصبح من الصعب معرفة ما في عقولهم أو ماهية الانطباع الذي عَمِلْتَه عليهم. إن البعثات التبشيرية التي حاولت تحويلهم إلى المسيحية تشتكي جميعها من هذا كواحدة من أكبر صعوبات مهمتهم. فالهنود الذين يسمعون بصبر حقائق الإنجيل التي تُشرَح لهم، ويَمنحون تذكاراتهم المعتادة عن الموافقة والاستحسان، ستعتقد بأنهم مقتنعون. إن الأمر ليس كذلك، فهو مجرد كياسة. عمل قسيس سويدي خطبة لهم بعد أن جمع رؤساء هنود الـ (سَسْكْويهانا) يُعَرِّفُهم بالحقائق التأريخية الأساسية التي تأسست عليها عقيدتنا، مثل سقوط آبائنا الأوائل بأكل تفاحة، مجيء المسيح لغفران الخطيئة، معجزاته ومعاناته... إلخ. وعندما انتهى، نهض خطيب هندي ليشكره وقال «إن ما قلتَه لنا كله جيد جداً. فإنه من السيئ فعلاً أكل التفاح. ومن الأفضل بأن نحوله كله إلى خلّ. نحن ممتنون كثيراً بكرمك بالإتيان بنا من بعيد كي تخبرنا هذه الأشياء والتي سمعتَها من أمهاتكم. بالمقابل، سأخبرك ببعض الأمور التي سمعناها من أمهاتنا. ففي البداية، كان لدى آباءنا فقط لحم الحيوانات كي يقتاتوا عليه. وإذا كان صيدهم غير موفق، كانوا يتضورون جوعاً. قام اثنان من صيادينا الشبان بقتل غزال، وأشعلوا النار في الحطب كي يشووا جزءاً منه. وعندما كانا على وشك أن يسكتا جوعهما، رأوا امرأة شابة جميلة تنحدر من الغيوم وتُجلِس نفسها على ذلك التل الذي رأيتمونه هناك بين الجبال الزرقاء. فقال أحدهما للآخر: إنها روح شمّت لحم غزالنا المشوي وترغب بأن تأكل منه، فلنعرض عليها بعضاً منه. فقدموا لها اللسان، فكانت سعيدة بطعمه وقالت (إن كرمكما ستتم مكافأته، تعالا إلى هذا المكان بعد 13 قمراً وستجدا شيئاً سيكون ذا فائدة كبيرة بإطعامكما وإطعام أبنائكما إلى

آخر جيل). ففعلا ذلك، ولدهشتهما وجدا نباتات لم يروها من قبل. لكن منذ ذلك الزمن السحيق تم زراعتها بشكل مستمر بيننا وأفادتنا إفادة كبيرة. فحيث لامست يدها اليمنى الأرض، وجدوا ذرة صفراء. وحيث لامست يدها اليسرى الأرض، وجدوا الفاصولياء. وحيث جلست مؤخرتها عليها، وجدوا التبغ». قال المبشر الصالح الذي ازدرى هذه الحكاية الفارغة «إن ما نقلتُه لك هي حقائق مقدسة، لكن ما أخبرتني به هو مجرد أسطورة، خيال، كذبة». أجاب الهندي وهو مستاء «يا أخي، يبدو أن أصدقاءك لم يوفوا حقك في التعليم، فلم يعلموك جيداً قواعد الكياسة العامة. فأنت رأيت أننا، الذين نفهم ونطبق تلك القواعد، قد صدّقنا كل قصصك، فلماذا ترفض أن تصدق قصصنا؟».

عندما يأتي أي أحد منهم إلى مدننا، يميل أناسنا للاحتشاد حولهم، يحدقون عليهم، ويضايقوهم، بينما هم يرغبون بأن يكونوا منعزلين. هذا أنهم يحترمون الفظاظة الشديدة وتأثير العوز إلى تعليم قواعد الكياسة والسلوك الجيد. يقولون «نحن فضوليون مثلكم، وعندما تأتون إلى مدننا، نتمنى مناسبة لننظر إليكم. لكن لتحقيق هذا الغرض نُخفي أنفسنا وراء الشجيرات حيث تمرون، ولا نُدخِل أنفسنا أبداً إلى مجموعتكم».

إن أسلوبهم بدخول قرية أحدهم الآخر له قواعده أيضاً. إذ يُعتبَر أمر غير لائق بأن يدخل الغرباء المسافرون قريةً بشكل فجائي بدون إعطاء إشعار بوصولهم. لذا، حالما يصلون قريب كفاية بحيث نتمكن من سماعهم، يتوقفون ويصفرون، يبقون هناك إلى أن يُدْعَوْنَ للدخول. يخرج لهم عادةً رجلان كبار في السن ويقودانهما إلى الداخل. هناك في كل قرية منزل فارغ يُدعى (منزل الغرباء). يوضعون هنا بينما يتجول الرجال الكبار في السن

من كوخ إلى كوخ يُعْلِمون السكان بأن غرباء قد وصلوا والذين قد يكونوا جائعين ومتعبين، ويرسل كل واحد إليهم ما أمكنه أن يدخر من المؤونة، وجلود ليستريحوا عليها. وعندما يرتاح الغرباء، يتم جلب الغلايين والتبغ، ومن ثم، وليس قبل، تبدأ المحادثة بأسئلة، مَن هم، إلى أين يتجهون، ما هي الأخبار...إلخ، وتنتهي غالباً بعروض المساعدة، أو فيما إذا كان الغرباء بحاجة للمرشدين أو أية ضروريات أخرى لمواصلة رحلتهم، ولا شيء يُفرَض مقابل الضيافة.

إن حسن الضيافة المذكور آنفاً والذي تُعتبَر بينهم فضيلة أساسية، يُمارَس من قبل أشخاص معينين والذين منحني عنهم مترجمنا (كونراد فايزر) الحادثة التالية:

إنه كان قد تأقلم بين الأمم الستة، وتحدث جيداً لغة هنود الـ (موهوك). عند انتقاله خلال البلاد الهندية لحمل رسالة من حكومتنا إلى المستشار في (أنونداغا)، كان يُدعى إلى مسكن (كاناساتيغو)، وهو معرفة قديمة، الذي يعانقه، وينشر الفراء له كي يجلس عليه، ويضع أمامه بعض الفاصولياء والذرة المسلوقة، ويخلط بعض (الروم) والماء لشرابه. عندما كان يرتاح جيداً، وكان قد أشعل غليونه، يبدأ (كاناساتيغو) بالتحدث معه. كان يسأل، كيف ارتحلَ السنين العديدة منذ أن رأوا بعضهم البعض، من أين أتى بعد ذلك، ما هي مناسبة الرحلة...إلخ. وأجاب كونراد على كل أسئلته، وعندما تبدأ المحادثة بالفتور، على الهندي أن يواصلها، قائلاً «لقد عشت طويلاً بين البيض يا كونراد، وتعرف شيئاً عن عاداتهم. كنتُ لبعض الوقت في ألباني وقد لاحظتُ أنهم يغلقون متاجرهم يوم واحد من السبعة أيام، ويتجمعون كلهم في المنزل الكبير. أخبرني لأجل أي شيء؟

ماذا يفعلون هناك؟». قال كونراد «إنهم يلتقون هناكِ كي يسمعوا ويتعلموا أموراً جيدة». يقول الهندي «أنا لا أشك بأنهم يقولون لكم ذلك، فقد قالوا لي نفس الشيء. لكنني أشك بحقيقة ما يقولونه وسأخبركِ أسبابي. ذهبتُ مؤخراً إلى ألباني لأبيع جلودي وأشتري الأغطية، السكاكين، المسحوق، الروم...إلخ. أنت تعلم بأنني اعتدتُ بشكل عام على أن أتعامل مع (هانز هانسون). لكنني كنتُ أميل قليلاً لأن أبحث عن تاجر آخر. على أية حال، تم استدعائي أولاً من قبل هانز وسألتُه ماذا سيدفع مقابل فراء القندس. فقال بأنه لا يستطيع منح أكثر من 4 شلنات للباوند. لكنه قال «لا أستطيع التحدث بشأن العمل الآن، فهذا اليوم الذيٰ نجتمع فيه سويةً كي نتعلم أموراً جيدة، وأنا ذاهب إلى الاجتماع». لذا فكرتُ بيني وبين نفسي «بما أننا لا نستطيع أداء أي عمل اليوم، ربما أنا كذلك قد أذهب إلى الاجتماع اليوم». فذهبتُ معه. هناك، وقف رجل يرتديٰ ملابس سوداء وبدأ التحدث إلى الناس بشكل غاضب. لم أفهم ما قاله، لكن ظناً مني بأنه نظر كثيراً نحوي ونحو هانسون، فتخيلتُ بأنه كان غاضباً لرؤيتي هناك. لذا خرجتُ، وجلست بالقرب من المنزل، أوقدتُ ناراً وأشعلتُ غليوني، منتظراً حتى انتهاء الاجتماع. فكرتُ أيضاً بأن الرجل قد ذكر شيئاً عن فراء القندس، وشككتُ بأنه قد يكون موضوع اجتماعهم. لذا، عندما خرجوا خاطبتُ تاجري وقلت «حسناً يا هانز، آمل بأنك وافقتَ على أن تمنحني أكثر من 4 شلنات للباوند». فقال «كلا، لا أستطيع منح الكثير جداً، لا يمكنني أن أمنح أكثر من 3 شلنات و6 بنسات». بعد ذلك، تحدثتُ إلى عدة تجار آخرين، لكنهم جميعهم غنوا نفس الأغنية ـ 3 و6 بنسات ـ 3 و6 بنسات. إن هذا أوضح لي بأن شكّي كان في محله، وأنه مهما ادّعَوا بأن الاجتماع كان

لتعلم أموراً جيدة، إلا أن الغرض الحقيقي كان أن يستشيروا كيف يغشوا الهنود في سعر فراء القندس. فكِّرْ قليلاً يا كونراد، ولا بد أنك ستوافقني، إذا كانوا يجتمعون دائماً كي يتعلموا أموراً جيدة، فلا بد أنهم تعلموا بالتأكيد بعض الأمور الجيدة قبل هذا الوقت، لكنهم ما زالوا جهلاء. أنت تعرف عاداتنا. إذا دخل رجل أبيض إلى واحد من منازلنا، عند ترحاله عبر بلادنا، فجميعنا سيعامله كما أعاملك. نجففه إذا كان مبللاً، ندفئه إذا كان مصاباً بالبرد، نعطيه اللحم والشراب الذي يسكن عطشه وجوعه، ونمد الفراء الناعم له كي يرتاح وينام عليه، ولا نطلب شيئاً بالمقابل. لكنني إذا ذهبتُ إلى منزل رجل أبيض في ألباني وطلبتُ مؤونة وشراباً يقولون «أين نقودك؟»، وإذا لم يكن معي نقود يقولون «اخرج، أيها الكلب الهندي». فكما ترى، لم يتعلموا بعد تلك الأشياء الجيدة الصغيرة التي لا نحتاج إلى اجتماع كي ينصحوننا بها، لأن أمهاتنا علمنها لنا عندما كنا أطفالاً، لذلك من المستحيل أن تكون اجتماعاتهم، كما يقولون، لأجل غرض كهذا، أو أن يكون لها أي تأثير كهذا. هم فقط يدبرون وسيلة لغش الهنود في سعر «فراء القندس».

ملاحظة: من الملاحَظ أن في كل العصور والبلدان، كان يُعتَرَف بأن حسن الضيافة هي فضيلة أولئك الذين يحب المتمدنون أن يدعوهم بالبرابرة. فالإغريق أشادوا بالسكيثيين لأجل ذلك. وامتلكها الساراسين[1]

---

(1) الساراسين: مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثم أصبح يطلق على العرب. توسع المصطلح في العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية ليشمل كل الذين يدينون بالاسلام. ويُعتقد أن أصل الكلمة سرياني (مشرقا أو مشرقو) ومن ثم إلى العربية (شرقيون) لوصف المشارقة عموماً. (المترجمة).

بوضوح، وهي إلى هذا اليوم الفضيلة السائدة للعرب المتوحشين. كذلك يقول القديس بول أيضاً فيما يتعلق برحلته وغرق السفينة عند جزيرة مالطة، إن البرابرة أظهروا تجاهنا كرماً كبيراً، لأنهم أشعلوا لنا ناراً واستقبلونا بسبب المطر وبسبب البرد. [1783].

# نبوءة بحرب جوية

**إلى (جان إنجنهاوس)**

**باسي، 16 من كانون الثاني/1784**

صديقي العزيز، تلقيتُ هذا اليوم رسالتك ليوم الثاني من الشهر الحالي. إن كل معلومة في استطاعتي تخص المناطيد، والتي أرسلتُها لك قبل أعياد الميلاد مباشرةً موجودة في نسخ رسائلي إلى السيد جوزيف بانكس. لا يوجد سر في المسألة، ولا أشك في أن الشخص القادم من عندك كان سيشاهد بسهولة المناطيد المختلفة لـ (مونتغولفير) و(تشارلز)، مع كل التعليمات المطلوبة، وإذا أخذتَ على عاتقك بصنع واحد، فأعتقد أنه سيكون من المناسب والضروري للغاية إرسال رجل بارع إلى هنا لهذا الغرض، وإلّا فقد تخفق التجربة بسبب العوز إلى الاهتمام ببعض الحالات الخاصة، أو بسبب عدم المعرفة بها، مما سيكون لها نتائج سيئة (من باب ترقُّب العامّة الكبير جداً) تجر عليك قدر كبير من الاستهجان ويؤثر على سمعتك. إنه لأمر خطير أن تنتزع جميع السكان لمدينة كبيرة وضواحيها من شؤونها، ويسبب لهم الإحباط الغضب. ففي (بوردو) مؤخراً، كان الناس حانقين جداً على شخص، ادّعى بإطلاق منطاد إلى السماء وتسلّم مالاً من أناس عديدين

ولم يكن في مقدوره أن يجعله يرتفع، لدرجة أنهم هدموا منزله وأرادوا قتله.

فكما تلاحظ، يبدو أنه اكتشاف ذو أهمية كبيرة وقد يمنح منعطفاً جديداً لقضايا الإنسان. إن إقناع الملوك بحماقة الحروب قد يكون واحد من تأثيراته، لأنه سيكون من غير المجدي بالنسبة لأقوى واحد منهم أن يحمي ممتلكاته. إذ لن تكلف خمسة آلاف منطاد القادر كل واحد منها على رفع رجلين، أكثر من خمس سفن للرتل. وأين هو الأمير الذي يمكنه شراء ذلك كي يغطي بلده بقوات لحمايتها، لأن أولئك العشرة آلاف رجل الذين ينزلون من الغيوم قد لا يرتكبون في أماكن عدة قدر لا محدود من الأذى قبل أن يكون بالإمكان تجميع قوة لصدّهم. من المؤسف أن تمنع أي غيرة وطنية (كما تخيلتَها تحصل) الإنكليز من تنفيذ التجربة ـ لأنهم صُنّاع بارعين لدرجة أن بأيديهم يمكن أداء عمل أسرع نحو المثالية ـ وكل المنافع التي يمكنها تقديمها.

كانت مناطيد (ميسيرز)، (تشارلز)، و(روبرت) مملوؤة حقاً بهواء قابل للاشتعال. ولكون الكمية كبيرة، فقد كانت مكلفة وملؤها يثير الضجر، إذ يتطلب عمل يومين أو ثلاثة أيام وليالٍ متواصلين. كان له صمّام بالقرب من القمّة والذي يمكنهم فتحه بسحب سلك وبهذه الطريقة يُخرجون بعض الهواء عندما يقررون النزول، ويقذفون بعضاً من أثقال الرمل عندما يرغبون بالارتفاع ثانيةً. لا بد أن كمية كبيرة من الهواء تم إخراجها عندما هبطوا بحيث قد يكون الجزء المرتخي قد غطّى بالكامل واحداً منهما. مع ذلك، لكون تم تخفيف وزن العربة بالصمام الخارج منها، فقد بقي هناك ما يكفي لرفع الآخر بسرعة. لم يحصل لهم حريق. إن ذلك استُعمل فقط في

منطاد (السيد مونتغولفير) والمفتوح عند القاعدة، ويتم حرق قش بشكل مستمر لإبقائه مرتفعاً. إن هذا النوع يُملأ أسرع وأقل ثمناً، لكن لا بد أن يكون أكبر كثيراً كي يحمل نفس الوزن، لأن الهواء المتخلخل بالحرارة أخف بمرتين من الهواء العادي، والهواء القابل للاشتعال أخف بعشر مرات. اكتشف (السيد دي موف)، كيميائي شهير من (ديجون)، هواء قابل للاشتعال يكلف فقط 25 جزءاً من سعر ما هو مصنوع من زيت الزاج المسكوب على برادة الحديد. يقولون بأنه مصنوع من فحم البحر. لم يُذكَر وزنه النسبي.

المخلص،

ب. فرانكلين

### إلى (سارة فرانكلين باخ)

**باسي، 26 من كانون الثاني/1784**

ابنتي العزيزة، إن حرصكِ على إرسال الصحف لي، أمر مريح بالنسبة لي. تلقيتُ من خلال القبطان (بارني) الصحف التي تتحدث عن الـ (سنسناتي). إن رأيي عن المشروع لا يمكن أن يكون ذا أهمية كبيرة، أنا فقط أتساءل، عندما أظهرت الحكمة الموحَّدة لأمتنا كراهيتها لتأسيس مراتب النبالة في بنود التحالف من قِبَل إما سلطة مجلس النواب الأمريكي أو سلطة دولة معينة، اعْتَقَدَ عدد من الأشخاص العاديين، أنه من الملائم أن يميزوا أنفسهم وأجيالهم القادمة عن مواطنيهم، ويؤسسوا رتبة (الفرسان الوراثيين)، في تعارض صريح للاتجاه المعلن بجدية لبلدهم!. أنا أتخيل أنه لا بد أن يكون مخالفاً أيضاً لحسن تمييز غالبية أولئك الذين تم استمالتهم إلى ذلك باستدراج من خططوا لذلك والذين صُدِموا كثيراً جداً بالأشرطة والصلبان التي رأوها بينهم متدلية بعُرى الأزرار للموظفين الأجانب. وأفترضُ أن أولئك الذين يرفضونه، لم يعارضونه كثيراً حتى الآن، من حيث مبدأ يشبه نوعاً ما مبدأ والدتكِ الطيبة المتعلق بالأشخاص المتمسكين بالشكليات الذين يطلبون دائماً التزام الاحترام قليلاً، بقولها «لو رضي الناس بالأمور الصغيرة فذلك شيء يدعو للأسف، بل يجب عليهم الحصول عليها».

ربما من هذا المنظور، إذا طُلِبَتْ نصيحتي، لم أكن أنا نفسي لأعارض ارتدائهم لشريطهم وشعارهم وفقاً لأوهامهم، وهو توريثه كشرف لأخلافهم. فبالنسبة للشرف، الذي يتم الحصول عليه باستحقاق (كما على سبيل المثال تشريف موظفينا) فهو بطبيعته أمر شخصي ويتعذر انتقاله إلى أي أحد سوى لأولئك الذين يمتلكون يداً بالحصول عليه. وعليه، فالشرف بالنسبة للصينيين، الأكثر عراقة وأكثر الأمم حكمة بفعل الخبرة الطويلة، لا ينحدر إلى الخلف بل يصعد إلى السلف. فإذا رُقِّيَ إنسان لعلمه أو لحكمته أو لبسالته من قبل الإمبراطور إلى مرتبة (الموظف الكبير)، فسيتم مباشرةً تلقيب والديه بنفس ألقاب الاحترام كلها من الناس والتي جاءت من الموظف الكبير نفسه على افتراض أن ذلك لا بد وأنه يعزى إلى التعليم والتوجيهات والقدوة الحسنة التي مُنحت له من قبل والديه، والتي جعلته قادراً على خدمة العامة.

لذا، فإن هذا الشرف الصاعد إلى السلف نافع للدولة لأنه يشجع الوالدين على منح أطفالهم تعليماً جيداً وفاضلاً. لكن الشرف المنحدر إلى الخلف الذي لم يكن له يد في الحصول عليه، ليس فقط لا أساس له وغريب، بل ضار لأولئك الخلف، لأنه يميل إلى جعلهم مغرورين، يزدرون أن يتم توظيفهم في أعمال نافعة، وبالتالي يسقطون في الفقر وكل الخسة والدناءة والبؤس المصاحب له، وهو ما يحصل للكثيرين ممن يتم تسميتهم نبلاء في أوروبا. أو، إذا كان علينا الإبقاء على كرامة العائلة، فسيتم توريث الأملاك بأكملها للذكر الأكبر الوريث، ومعنى ذلك أن آفة أخرى أُدخِلَت على صناعة وتطوير البلد والذي سيتبعه كل الخليط الكريه من التكبر والاستجداء

والبطالة التي أخلت نصف إسبانيا من السكان [والزراعة] مسببةً الانقراض المستمر للعائلات بتثبيط العزيمة على الزواج [وإهمال تطوير المقاطعات].

لذا، أتمنى من السنسناتي إذا كان لا بد لهم أن يستمروا بمشروعهم أن يوجهوا شارات مراتبهم كي يتم ارتداؤها من قبل آبائهم بدلاً من توريثها لأبنائهم. فستكون سابقة جيدة وقد يكون لها نتائج جيدة. وستكون أيضاً نوع من الخضوع للوصية الرابعة والتي فيها يأمرنا الله بتشريف والدنا ووالدتنا لكنه لم يوجهنا في أي موضع بتشريف أبنائنا. وبالتأكيد لا يمكن أن توجد طريقة لتشريف أولئك المتسببين المباشرين بوجودنا، مؤثرة أكثر من أداء أعمال تستحق الإشادة والتي ترد الشرف إلى أولئك الذين علّمونا، أو لائقة أكثر من إظهار (من خلال مصطلح أو تكريمٍ شعبي ما) أن فضيلة تلك الأعمال نعزوها إلى نصائحهم وقدوتهم.

لكن غرابة التشريفات المنحدرة للخلف ليست مجرد مسألة رأي فلسفي، وإنما قابلة للبرهنة الحسابية؛ فابن الرجل، على سبيل المثال، هو فقط نصف عائلته، أما النصف الآخر فينتمي إلى عائلة زوجته. ستكون حصة ابنه أيضاً، والمتزوج من عائلة أخرى، في الحفيد الرابع فقط، وفي الحفيد الكبير ومن خلال نفس العملية ستكون ثُمُن فقط، في الجيل التالي ستكون ستة عشر، والذي يليه ستكون 32، والذي يليه 64، التالي 128، التالي 256، والتالي 512. وعليه، وخلال تسعة أجيال والذي لن يأخذ أكثر من 300 سنة (ليس قديماً جداً بالنسبة لعائلة)، ستكون حصة فارسنا الحالي من رتبة الفارس السنسناتي الذي كان موجوداً آنذاك، فقط 512 جزءاً، والتي هي عَوَض صغير جداً والذي، كما يبدو لي، لا يوجد رجل

متعقل يخاطر من أجله والتبعات الغير مرغوبة من الغيرة والحسد والنية الغير طيبة لمواطنيه.

فلنرجع بحساباتنا من هذا النبيل الشاب، والجزء الـ 512 للفارس الحالي، خلال أجياله التسعة، وصولاً إلى سنة التأسيس. لا بد أنه كان لديه أب وأم، هؤلاء اثنين. يمتلك كل واحد منهم أب وأم، هؤلاء أربعة. الجيل التالي اللاحق سيكون 8، التالي 16، التالي 32، التالي 64، التالي 128، التالي 256، والتاسع في هذا التراجع سيكون 512، والذي لا بد أن يكون موجوداً في الوقت الحاضر، وكلهم يمنحون حصصهم لهذا الفارس الحالي للسنسناتي. إن هذا مع البقية يصبح مجموعه كما يلي:

2 + 4 + 8 + 15 + 32 + 64 + 128 + 265 + 512 = 1030 المجموع.

1030 رجلاً وامرأة يشتركون بتكوين فارس واحد. وإذا كان لدينا ألف من هؤلاء الفرسان، فلا بد أن يكون موجوداً الآن وبعد ذلك مليون و22 ألفاً أباً وأمًّا، والذين يشتركون في إنتاجهم، ما لم استُعمِلَ جزء من العدد بعمل فرسان أكثر من واحد. دعينا نحذف إذن الـ 22 ألفاً على افتراض هذا الاستعمال المضاعَف ومن ثم نفكر (بعد حساب منطقي لعدد المحتالين، والمجانين، والمَلَكِيّين والأنذال، والسيئي السمعة الذين تمازجوا معهم وساعد على جعلهم مليون وريث بالضرورة) فيما إذا كان لهذا الجيل تعقُّل كثير بالتباهي بالدم النبيل بمجموعة فرسان السنسناتي الموجودة آنذاك. [إن أصحاب علم الأنساب المستقبليين أيضاً لهؤلاء الفرسان في إثباتهم التوارث المباشر لشرفهم من خلال العديد جداً من الأجيال (حتى على افتراض أن الشرف قادر بطبيعته بالتوريث) سيثبتون فقط الحصة الصغيرة لهذا الشرف والتي يمكن ادعائها بشرعية من قبل أي واحد منهم،

لأن العملية البسيطة أعلاه في الحساب تجعل من السهل جداً والواضح أن الحق بشرف الأسلاف سيتناقص بالتناسب مع عراقة العائلة التي ستزداد، وستقلله المزيد من الأجيال إلى شيء صغير جداً ليكون قريباً من العدم]. لذا، آمل أن يُسقِطَ ذلك التسلسل هذا الجزء من مشروعهم وأن يقنعوا أنفسهم، كما فعل فرسان الـ (غارتر)، (باث)، (تيستيل)، (سانت لويس)، ورتب أخرى في أوروبا بشاراتهم وشرائطهم الصغيرة، وتركوا التميز يموت مع من استحقه.

أتخيل بأن هذا لا يسبب إهانة، لأن من جانبي سأعتبره أمراً مريحاً، عندما أذهب مع رفقة حيث ستكون هناك وجوه غير معروفة لي، أن أكتشف من خلال هذه الشارة الأشخاص الذين يستحقون بعضاً من احترامي الخاص، وسيحفظ ذلك الفضيلة المتواضعة من مشكلة استرعاء انتباهنا بتلميحات خرقاء وملتوية بكونهم موظفين حتى الآن في الخدمة القارّية.

نفّذ الرجل النبيل الذي سافر إلى فرنسا لمنح الأشرطة والميداليات، مهمته. بالنسبة لي، إن المهمة ناجحة بشكل مقبول، لكن تم انتقاد مثل تلك الأشياء. يجد البعض خطأً ما باللغة اللاتينية لافتقارها للرقي الكلاسيكي. ولأن جامعاتنا التسعة لم تكن قادرة على تقديم لاتينية أفضل، فمن المؤسف، كما قالوا، أن الشعارات لم تكن بالإنجليزية. اعترضَ آخرون على العنوان على أنه لا يمكن اتخاذه بشكل لائق سوى القائد واشنطن [وقلائل آخرون] الذين خدموا بلا مقابل. آخرون اعترضوا على النسر الأصلع على أنه يشبه كثيراً الديك الرومي. من جانبي، لم أكن أود أن يتم اختيار النسر الأصلع كشعار لبلادنا، فهو طائر ذو طباع أخلاقية سيئة، فهو لا يكسب عيشه بصدق، ربما رأيتيه جاثماً على شجرة ميتة بالقرب من النهر حيث يراقب

عمل سنارة الصيد، متكاسلاً أن يصطاد لنفسه. وعندما يأخذ طائر مجتهد في النهاية سمكة ويحملها إلى عشّه ليعيل رفيقه وأطفاله، يلاحقه النسر الأصلع ويأخذها منه. ومع كل هذا الظلم، لم يكن في حالة جيدة أبداً، بل يشبه أولئك الرجال الذين يعيشون بالغش والنهب، فهو عامةً فقير، وغالباً قذر جداً. إضافةً إلى ذلك، فهو جبان كريه الرائحة؛ فـ (الطائر الملك) الصغير الذي لم يكن أكبر من عصفور، يهاجمه بعنف ويسوقه خارج الحي. لذلك، فهو ليس رمز ملائم مطلقاً لسنسناتي أميركا الشجعان والصادقين الذين أبعدوا جميع (الطيور الملوك) من بلادنا، مع ذلك فهو مناسب تماماً لسلسلة الفرسان تلك والتي يسميها الفرنسيون (فرسان المثابرة).

بالنسبة لهذه القصة، أنا لستُ غاضباً من أن الشكل لا يظهر كنسر أصلع بل يبدو أكثر كالديك الرومي. لأن الديك الرومي في الحقيقة، بالمقارنة، طائر محترم أكثر، وفوق ذلك موطنه الأصلي أميركا. توجد النسور في كل البلدان، لكن الديك الرومي خاص بنا. فأول الأنواع التي شوهدت في أوروبا كانت قد جُلبت إلى فرنسا من قبل اليسوعيين من كندا، وقُدِّمَ على مائدة عرس تشارلز التاسع. إنه طائر الشجاعة [على الرغم من أنه متبهرج وسخيف قليلاً في الحقيقة، لكنه ليس أسوأ شعار بسبب ذلك] وما كان ليتردد بمهاجمة رامي القنابل للحرس البريطانيين الذين يتجرأون باقتحام حقله وهم يرتدون معطفهم الأحمر.

لن أدخل بشأن الانتقادات التي وُجهت للغتهم اللاتينية، فضباط أميركا الشجعان ربما لم يكونوا مثقفين عظماء، لكنهم بلا شك يستحقون الكثير [كجنود شجعان] من بلدهم الذي يتوجب عليه لهذا السبب أن لا يتركهم

فقط للشهرة عملاً بشعارهم «المكافأة» [1] وهو أحد شعاراتهم اللاتينية. إن شعارهم الآخر «هذا دائم»[2] هو أمنية بديعة إذا كانوا يقصدونه من أجل بلادهم، وسيئة إذا كانوا يقصدون مراتبهم.

على الدول أن لا تعيد لهم فقط كلمة Omnia [3] لشعارهم الأول [4] الذي تركه وأضاعه العديد منهم، لكنه أفادهم مادياً حقاً وكافأهم بكرم. لا يجب أن يبقوا [بكل] فروسيتهم المستحدثة كلياً، في موقف الرجل الذي في القصة التي يذكرني بها شعارهم (reliquit Omnia). أنتِ تعرفين بأن كل شيء يجعلني أتذكر قصةً ما.

كان قد بنى بيتاً جميلاً جداً، وبهذه الطريقة أتلف ثروته كثيراً. رغم ذلك، كان مغروراً كي يريه إلى معارفه. وبعد أن أراه لهم، أشار أحد منهم إلى شعار على الباب «ÖIA VANITAS»

قائلاً: «ما معنى ÖIA هذه، هل هي كلمة لا أفهمها». فقال الرجل سأخبرك: «كنتُ قد قررتُ بأن أحفر الشعارعلى قطعة من الرخام الأملس بأحرف كبيرة بشكل كافٍ للقراءة، لكن لم يكن هناك مساحة كافية له بين الزخارف، لذا استخدمتُ لفظة رخيمة قديمة شائعة جداً بالخط اللاتيني حيث حذفتُ فيها حرفيّ الـ (m) والـ (n) ووضعتُ خطاً صغيراً فوق، دلالة على الحذف، وهو ما تراه هناك، بحيث أن الكلمة هي (omnia)، (omnia vanitas)» [5].

---

(1) في الأصل (Virtutis Premium)... (المترجمة)

(2) في الأصل (Esto perpetua).... (المترجمة)

(3) omnia: كلمة لاتينية تعني (كل).. (المترجمة)

(4) Omnia reliquit servare rempublicam.

(5) vanitas: كلمة لاتينية تعني (الغرور).. (المترجمة).

فقال صديقه «أوه، أفهم الآن معنى شعارك، فهو له علاقة بمبناك الضخم، ويشير إلى أنك أنفقتَ (كل) شيء من أجل (غرورك)».

أنا، إلى الأبد، والدكِ المحب،

ب. فرانكلين

**إلى (ماسون ويمز) و(إدوارد غانت)**

**باسي، 18 من تموز/1784**

أيها السادة، تلقيتُ رسالتكم التي تُعلمني أن مطران [كانتربري] ما كان ليسمح لكما بأن توسَما كاهنين ما لم تحلفا يمين الولاء. لقد استعنتُ بقس من معارفي لإعلامه بموضوع توسيمكما كاهنين هنا. كان رأيه بأن الأمر لا يمكن أن يتم، وإذا تم فسيُطلَب منكما أن تتعهدا بطاعة مطران باريس. بعد ذلك، استفسرتُ من سفير البابا فيما إذا لم يكن بالإمكان أن توسَما من قبل أسقفهم في أميركا، لكون السلطات قد أرسلتْه لهذا الغرض. كان الجواب «أن الأمر مستحيل، ما لم يصبح الرجلان كاثوليكيين».

إن هذه مسألة أعرف عنها القليل، ولذا ينبغي أن أسأل أسئلة وأقترح وسائل غير ملائمة أو غير عملية. ما ضرورة أن تكونا تابعين لكنيسة إنكلترا؟ ألن يكون الأمر نفسه لو كنتما تابعين لكنيسة إيرلندا؟ فالعقيدة هي نفسها، رغم ذلك فان هناك مجموعة مختلفة من الأساقفة والمطارنة. ربما لو لجأتما إلى أسقف (ديري)، وهو رجل ذو آراء متحررة، قد يمنحكما رتباً كتلك الكنيسة. لو رفضتْكُما كل من بريطانيا وإيرلندا (وأنا غير متأكد من أن أساقفة الدنمارك أو السويد سيوسمانكما كاهنين ما لم تصبحا لوثريين) فماذا ستفعلان؟. بعد أن تصبحا مشيخيين، لا يستطيع رجال الدين الأسقفيين لأميركا (برأيي المتواضع) من أن يعملوا شيئاً أفضل

من اتباع كقدوة، رجل الدين الأول لاسكتلندا (بعد تحول تلك البلاد إلى المسيحية مباشرةً) الذي، عندما بنى ملكهم كاتدرائية سانت آندرو، وطلب من ملك النورثمبرلاند أن يعيرهم أسقفه كي يوسم أحداً منهم كاهناً لهم، وأن رجل الدين خاصتهم قد لا يكون حتى الآن مضطراً للذهاب إلى نورثمبرلاند بسبب الأوامر، ورُفِضَ طلبهم؛ تجمعوا في الكاتدرائية وتم وضع قلنسوة، وصولجان، ورداء الأسقف على المذبح. وبعد صلوات صادقة طلباً للمعونة في خيارهم، اختاروا واحداً من أرقامهم الخاصة، حين قال الملك له «انهض، اذهب للمذبح، وتسلَّم منصبك بمعونة الله». فقاده أخوانه إلى المذبح، ألبسوه الرداء، وضعوا الصولجان في يده، والقلنسوة على رأسه، وأصبح أول أسقف لاسكتلندا.

لو غرقت الجزر البريطانية في البحر (وعانى سطح الكرة الأرضية هذا من تغييرات كبيرة)، لربما يمكنك أن تتخذ طريقة مماثلة كهذه. وإذا استمروا برفض توسيمكما كاهنين، فالأمر سيان.

بعد مائة سنة من الآن، عندما يصبح الناس متنورين أكثر، سيكون مثار عجب، إن الناس في أميركا المؤهلين بتعليمهم وتقواهم ليصلّوا ويدعوا بالخير لجيرانهم ويرشدوهم، إن لا يتم السماح لهم بفعل ذلك إلا بعد أن يرتحلوا ستة آلاف ميل خارج الوطن ويعودوا لطلب الرخصة من السيد العجوز الغاضب في كانتربري الذي يبدو من قصتك بأنه قليل الاهتمام لأرواح أهالي (ماريلاند)، مثل تصرف (سيمور) المحامي العام للملك (وليام) تجاه أهالي (فرجينيا). إذ يحكي المبعوث المبجّل (بلير)، الذي صمّم كلية تلك المقاطعة، وكان في إنكلترا كي يلتمس تبرعات وصك، إن الملكة قد أمرت (سيمور)، عند غياب الملك، كي يعدّ صكاً بأنه يجب

أن يُمنَح 2000 $ نقداً، وعارض المنحة قائلاً أن الأمة مشتبكة في حرب مكلفة وأن المال كان ضرورياً لأغراض أفضل، وأنه لم يرَ أدنى سبب لتأسيس كلية في (فيرجينيا). فوضّح (بلير) له بأن نيّته كانت تعليم وتأهيل الشباب كي يصبحوا قساوسة الإنجيل، وهو أمر نحتاجه هناك، وتوسل إلى السيد المحامي بأن أهالي فرجينيا لديهم أرواح يجب أن تُنقَذ مثل أرواح أهالي إنكلترا. فقال «أرواح! اللعنة على أرواحكم. اصنَع التبغ!».

لي الشرف أن أكون، أيها السادة،...إلخ

**ب. فرانكلين**

## إلى (وليام فرانكلين)

[كان وليام فرانكلين آخر محافظ ملكي لنيوجرسي، بقي موالياً للسلطة الملكية، وانشقّ عن والده بالثورة].

**باسي، 16 من آب/1784**

ابني العزيز، تلقيتُ رسالتك للثاني والعشرين الفائت، وأنا سعيد أن أكتشف بأنك ترغب بإعادة إحياء التواصل الودود الذي كان موجود سابقاً بيننا. سيكون ذلك مريحاً جداً بالنسبة لي. ففي الواقع، لا شيء آذاني كثيراً جداً يوماً وأثّر عليّ بمشاعر عنيفة كهذه، مثلما أجد نفسي مهمَلاً في شيخوختي من قبل ابني الوحيد. وليس فقط مهمَلاً، بل أن أجده يحمل السلاح ضدّي في قضية حيث كانت فيها سمعتي الطيبة وثروتي وحياتي كلها على المحكّ. أنت تقول بأنك مقتنع بأن واجبك تجاه ملكك واحترامك لبلدك يتطلب ذلك. لا يجب عليّ أن ألومك للاختلاف بالرأي معي في القضايا العامة. فنحن بشر وكلنا معرّضون للخطأ. إن آراءنا ليست تحت تحكمنا الشخصي، فهي تتكون وتُوَجَّه كثيراً من قبل الظروف التي هي غالباً غير قابلة للتفسير كما هي لا تُقاوَم. إن موقفك مثل هذا، بحيث القليل من انتقد حياديتك الباقية رغم أن هناك واجبات طبيعية تتقدم على الواجبات السياسية ولا يمكن طمسها بواسطتها.

إن هذا موضوع مزعج. وقد أبعدتُه، وسوف نسعى، كما تقترح، بشكل متبادل على نسيان كل ما له علاقة بما حدث قدر استطاعتنا. أرسل لك ابنك كي يتكفل بسداد رسومه لك. سوف تجد بأنه قد تحسن كثيراً. فهو محترم ومحبوب كثيراً في هذا البلد وسوف يشق طريقه أينما كان. كانت رغبتي بأنه يجب عليه أن يدرس القانون، كجزء ضروري من المعرفة لرجل معروف، ومربح في حالة أن حظي بفرصة لممارسته، لذا أود منك أن تضع بين يديه كتب القانون تلك التي لديك، أي (بلاكستون)، (كوك)، (بيكون)...إلخ. سوف يخبرك بأنه تلقى الرسالة التي أُرسلت له من قبل السيد (غالوي)، وتم إرفاق المستند بأمان.

عند مغادرتي أميركا، أودعتُ مع هذا الصديق لك، صندوق فيه أوراق، من ضمنها مطبوع من تسعة أو عشرة أجزاء يتعلق بالصناعة، التجارة، والاقتصاد والذي كلفني في إنكلترا حوالي 70 جنيهاً، وثمانية كراسات تتضمن المسودات الابتدائية لكل رسائلي عندما عشتُ في لندن. إنها مفقودة، آمل أن تحصل عليها، واذا لم تستطع، فقد ضاعت. نشر السيد (فوغان) في لندن كتاباً بما أسماه (أعمالي السياسية) واقترحَ طبعة ثانية، لكن لأن الأولى كانت غير تامة تماماً، وأنت لديك الكثير من الأمور التي حذفتُها (لأنني اعتدتُ أن أرسل لك أحياناً المسودات الابتدائية، وأحيانا الأعمال المطبوعة التي كتبتُها في لندن) فقد وجهتُه كي يخاطبكَ من أجل ما يكون بمقدورك أن تزوده، أو لتؤخر نشره إلى أن أصل البيت ثانيةً، لو حدث ذلك يوماً.

أنا فعلاً قررتُ العودة هذا العام، لكن مجلس النواب الأميركي بدلاً من أن يمنحني إجازة لفعل ذلك، أرسل لي مبعوثاً آخر، والذي سيبقيني هنا

[في فرنسا] عاماً آخر، وربما عندها سأكون عجوزاً جداً وواهناً على أن أتحمل الرحلة. أنا هنا بين أناس يحبونني ويحترمونني، ألطف أمة تعيش بينها، وربما أقرر أن أموت بينهم، لأن أصدقائي في أميركا يموتون الواحد بعد الآخر، وكنتُ خارج البلاد لمدة طويلة جداً بحيث لا بد أنني الآن تقريباً غريبٌ في بلدي.

سأكون سعيداً لرؤيتك عندما يكون الوقت مواتياً، لكنني لا أود أن تأتي هنا في الوقت الحالي. يمكنك أن تأتمن ابنك على شؤون العائلة التي تود أن تتباحث بها معي، لأنه كتوم. وأنا واثق بأنك ستتفادى بحكمة تقديمه إلى جماعة لا يليق به أن يُشاهَد معهم. سوف أسمع منك من خلاله، وستصل الرسائل التي لي بعد ذلك بأمان بشكل سري موجهة إلى السيد (فرديناند غراند)، صاحب بنك في باريس. أتمنى لك الصحة وسعادة أكثر مما يبدو أنك عشتها مؤخراً. سأبقى والدك المحب،

ب. فرانكلين

**إلى (ماري ستيفنسن هوسَن)**

**فيلادلفيا، 6 من أيار/1786**

صديقتي العزيزة، مر شتاء طويل ولم أُسعَد بسطر منكِ تُعْلِميني بشؤونك وشؤون أطفالكِ منذ أن غادرتُ إنكلترا. أعتقد بأنكِ كنتِ في (يوركشاير) منعزلة ولا تملكين الوقت، لأنني لن أعتقد بأنكِ نسيتيني.

إن ما عوّضني، تلقيتُ قبل عدة أيام صندوقاً كبيراً من السيد (وليامز) مؤرخ بشهر أيلول 1776، منذ عشر سنوات تقريباً، يحوي ثلاث رسائل منكِ، واحدة بتاريخ 12 من كانون الأول/ 1775. تم استلام هذا الصندوق من قبل السيد (باخ) بعد مغادرتي لفرنسا، ملقى بين أوراقه طوال فترة غيابي، وقد تم فتحه للتو أمامي، كالكلمات التي، كما يقول أحدهم، تجمدتْ بالرياح الشمالية. وجدتُ فيه كل تاريخ العائلة الصغيرة لأطفالكِ والباعث للسرور؛ كيف بدأ (وليام) بالتهجي، متغلباً بقوة الذاكرة على كل الصعوبات التي تسببتها الأبجدية العامة البائسة، بينما كنتِ مقتنعة بفائدة أبجديتنا الجديدة؛ كيف اكتشف (توم) العبقري طرقاً جديدة، معترضاً على الأسماء القديمة للأحرف، وأطلق تسمية (bell) على حرف الـ (U)، و(bottle) على حرف الـ (P)؛ كيف بدأت (إليزا) تصبح مرحة، سمينة وجميلة، تشبه العمة

(روكه) التي اعتدت أن أسميها محبوبتي؛ مع كل أخبار ذلك الوقت عن إنجاب السيدة (بلونت) في النهاية لصبي؛ عن الأحوال الجيدة لـ (دوللي) وعن موت (كاثرين) الطيبة المسكينة؛ عن شؤونك مع (موير) و (آتكنسون) وعن اتفاقيتهم من أجل إطعام السمك في القناة؛ عن آلـ (فينيز) وعن رحلتهم القصيرة إلى (كمبرج) في العربة الطويلة؛ عن رحلة (دوللي) إلى (ويلز) مع السيد (سكوت)؛ عن آلـ (ويلكيز)، آلـ (بيرسيز)، (الفينستونز)...إلخ ـ وهم يتوصلون إلى نوع من الاتفاق، وهو حالما تتفق الوزارة ومجلس النواب الأمريكي على صنع السلام، عليّ أن آخذكِ معي إلى أميركا. وتم تحقيق السلام، لكن، وأسفاه! لم يتم الوفاء بالوعد.

وجدتُ عائلتي هنا بصحة وأحوال جيدة، ومحترمين جداً من قبل مواطنيهم. إن رفاق شبابي قد رحل جميعهم تقريباً، لكنني أجد صحبة جميلة بين أبنائهم وأحفادهم. لدي من العمل في الشأن العام ما يكفي كي يبعدني عن الملل، وتسلية معينة إضافةً إلى ذلك في المحادثة، الكتب، حديقتي ولعبة الورق. باعتبار حديقتنا الممتدة والوفيرة أفضل الحدائق، فأنا أقوم بتحويل حديقتي، حيث يوجد بيتي في منتصفها، إلى أماكن عشبية وممرات من الحصى للمشي، مع أشجار وشجيرات مزهرة. نلعب هنا الورق أحياناً في مساءات الشتاء الطويلة، لكن، كما نلعب في الشطرنج، ليس من أجل المال وإنما من أجل الشرف أو متعة فوز أحدنا على الآخر. إن ذلك لن يكون بالنسبة لك شيئاً جديداً تماماً، لأنك كما تذكرين بأننا لعبنا سويةً بهذه الطريقة خلال فصل الشتاء في باسي. يراودني في الواقع من حين لآخر القليل من وخز الضمير عند التفكير بأنني أقضي الوقت

عاطلاً تماماً، لكن فكرة أخرى تأتي لتريحني هامسةً «أنت تعلم أن الروح خالدة، فلماذا إذن تكون بخيلاً ذو وقت قليل، بينما لديك الأبدية بكاملها أمامك؟». وهكذا، لكوني أقتنع بسهولة كالمخلوقات العاقلة الأخرى، وراضي بالسبب البسيط عندما يكون مطابقاً لعمل ما أنا مُقْدِم عليه، خلطتُ الورق ثانيةً وبدأتُ باللعبة مرة أخرى.

بالنسبة لوسائل الترفيه العامة، فليس لدينا لا مسرحيات ولا أوبرات، لكن يوم أمس كان لدينا نوعاً من فن الخطابة، كما سترين من خلال الصحيفة المرفقة. ولدينا تجمعات، حفلات راقصة، وحفلات موسيقية، إضافةً إلى حفلات صغيرة في بيوت أحدنا الآخر وفيها أحياناً رقص، وغالباً موسيقى جيدة. لذا فنحن نجري ببطؤ في الحياة بلطف كما تفعلين أنت في إنكلترا وفي أي مكان عدا لندن لأن هناك توجد مسرحيات تؤدّى من قبل ممثلين جيدين. رغم ذلك، أعتقد أنها الميزة الوحيدة التي تتفوق بها لندن على فيلادلفيا.

غيّر (تمبل) تفكيره باتجاه الزراعة التي يتابعها بحماس لكونه يمتلك مزرعة صغيرة والتي نقل أبوه ملكيتها له مؤخراً. بالنسبة لـ (بين)، فهو ينهي دراسته في الكلية ويستمر بالتصرف كما عَهِدتِّهِ، بحيث أعتقد بأنه سينجب لك ابناً جديداً. إن أخوانه وأخواته الصغار واعدون أيضاً، ويبدو أن لديهم طبع ونزعة جيدان، وكذلك مزاج جيد. أما بالنسبة لنفسي، فأعتقد أن صحتي العامة وروحي المعنوية أفضل نوعاً ما مما رأيتيني. إن المرض المعين الذي اشتكيتُ منه عندئذٍ بدأ يصبح محتمَلاً.

أصدق وفائق احتراماتي، يا صديقتي العزيزة، المخلص دوماً،

**ب. فرانكلين**

ملحوظة: يشاركونني أطفالي وأحفادي أطيب التمنيات لك وأطفالك وأحفادكِ. حبي إلى ابني بالمعمودية، وإلى (إليزا) وإلى (توم) البريء. جميعهم سيجدون رفاقاً مناسبين هنا. حبي إلى (دوللي)، وأخبريها بأنها تفعل صالحاً أن تأتي معكِ.

# الخطاب الأخير في المؤتمر الدستوري

سيدي الرئيس، أعترف بأني غير موافق كلياً على هذا الدستور في الوقت الراهن. بل أنني يا سيدي، غير متأكد من أنني سأوافق عليه أبداً. فلأنني عشتُ طويلاً، فقد واجهتُ العديد من الحالات التي أكون فيها مضطراً، بسبب معلومات أفضل أو تفكير أشمل، إلى تغيير رأيي حتى في مواضيع مهمة اعتقدتُها في يومٍ ما صائبة ووجدتُ بأنها عكس ذلك. لذا، كلما كبرتُ في السن، كلما أًصبحتُ ميّالاً أكثر للتشكيك بحكمي الشخصي عن الآخرين. إن أغلب البشر، في الحقيقة، وكذلك أغلب الطوائف في العقيدة، يظنون أنفسهم بأنهم يملكون كل الحقيقة، وإن أي أحد يختلف معهم فهو مخطئ إلى حد بعيد جداً. يخبر (ستيل)، وهو بروتستانتي، البابا، وبتفاني، أن الاختلاف الوحيد بين كنيستينا في آراءهما عن صحة مذهبهما هو أن الكنيسة الرومانية معصومة من الخطأ، وكنيسة إنكلترا ليست على خطأ أبداً. لكن على الرغم من أن العديد من الأشخاص يعتقدون بمعصوميتهم الخاصة بدرجة عالية تقريباً كدرجة معصومية مذهبهم، إلا أن القلة يفسرها بشكل بسيط جداً، كما قالت سيدة فرنسية في جدال صغير مع أختها «أنا أجد نفسي فقط من هي على صواب دائماً».

بهذه المشاعر يا سيدي، أوافق على هذا الدستور بكل أخطائه، إذا كانت كذلك، لأنني أعتقد بأن الحكومة الشاملة ضرورية لنا، ولا يوجد

هناك نموذج من حكومة يكون بركة على الشعب سوى حكومة تُدار جيداً. وأعتقد أيضاً بأن هذه من المحتمل أن تُدار جيداً على مدى سنوات وتنتهي فقط بالاستبداد كما عملت النماذج الأخرى التي قبلها، عندما سيصبح الناس فاسدين جداً، مما يستدعي الحاجة لحكومة استبدادية وليس إلى سواها. وأشك أيضاً بأن يكون أي مؤتمر آخر يمكننا أن نعقده قادر على وضع دستور أفضل، لأنكم عندما تجتمعون بعدد من الرجال كي نستفيد من حكمتهم المشتركة، فإنكم حتماً ستجتمعون أيضاً مع كل تعصبهم، شغفهم، أخطاءهم في الرأي، مصالحهم المحلية، وآرائهم الأنانية. فهل يمكن توقُّع من اجتماع كهذا نتيجة مثالية؟ لذلك، يدهشني يا سيدي، أن أجد هذا النظام يقترب جداً إلى المثالية كما يفعل، وأنا أعتقد بأنه سيُدهِش أعداءنا الذين ينتظرون بثقة أن يسمعوا أن مستشارينا مرتبكين كمستشاري بنّائي بابل، وأن ولاياتنا على حافة الانفصال، فقط ليتلاقوا بعد ذلك لغرض قطع أعناق أحدهم الآخر. وعليه، فأنا، يا سيدي، أصادق على هذا الدستور لأنني لا أتوقع أفضل منه، ولأنني غير متأكد بأنه ليس الأفضل. والآراء التي لديّ عن أخطاءه فأقدمها قربان للصالح العام. لم أهمس أبداً بحرف واحد عنها خارج البلاد. فقد وُلدتْ بين هذه الجدران، وهنا سوف تموت. لو كان على كل واحد منا، عوضاً عن ناخبينا، أن يقدم تقريراً عن الاعتراضات التي لديه تجاهه، ويسعى إلى أن يحظى بأنصار تأييداً لها، ربما قد نَمنع من أن يتم تقبله كلّه وبذلك نفقد كل التأثيرات الناجعة والفوائد التي تنتهي، بشكل طبيعي لصالحنا بين الأمم الأجنبية وكذلك بين أنفسنا، من إجماعنا الحقيقي أو الظاهري. إن الكثير من قوة ونفوذ أية حكومة في تحقيق وتأمين السعادة للشعب يعتمد على الرأي، على الرأي العام عن صلاح

تلك الحكومة وكذلك عن حكمة ونزاهة محافظيها. لذا آمل، من أجلنا نحن، كجزء من الشعب، ومن أجل أجيالنا القادمة، بأن نوصي بحماس وبإجماع بالقبول بهذا الدستور حيثما قد تمتد سيطرتنا، وأن نوجه أفكارنا المستقبلية ومساعينا إلى وسائل جعله أكثر فعالية.

عموماً، يا سيدي، لا أستطيع التعبير عن أمنية؛ وهي أن يقوم معي كل عضو ـ لا يزال لديه ربما اعتراضات على المؤتمر ـ بهذه المناسبة بالتشكيك قليلاً بعصمته، وأن يضع اسمه على هذه الوثيقة لكي نُبدي إجماعنا.

[17 من أيلول/1787]

كل أمم العالم بفن جعل أنفسهم محبوبين من قبل الغرباء لدرجة الكمال البالغ. والآن، أجد حتى في منامي أن مشاهد كل أحلامي السارة قد دُفنت في تلك المدينة أو في مجاوراتها.

أحبُ الشاب السيد (دومون). فهو يبدو رجل متعقل جداً وكريم، وأعتقد بأن والده سيُسعَد به كثيراً.

أرجو أن تهدي تشكراتي إلى السيد (لافوازييه)[1] على (المصطلحات الكيميائية) التي عمل صالحاً بإرسالها لي (فلا بد أنه كتاب مفيد جداً)، وأكّدي له احتراماتي ومودتي الكبيرة والصادقة. فلتصاحبكما أطيب التمنيات؛ وأعتقد بأنني لا أستطيع أن أتمنى لكِ وله سعادة أكبر من ارتباط طويل ومتواصل.

مع احترامي ومحبتي الكبيرين، لي الشرف أن أكون، يا صديقتي العزيزة....إلخ.

**ب. فرانكلين**

(1) انطوان لافوازييه: عالم كيميائي فرنسي.. (المترجمة)

**إلى (عِزرا ستايلز)**

**فيلادلفيا، 9 من آذار/1790**

سيدي العزيز والمبجّل، تلقيتُ رسالتك الكريمة للثامن والعشرين من كانون الثاني، وأنا مسرور لكونك أخيراً تسلمتَ بورتريه المحافظ (يَيْل) من عائلته وأودعتها في مكتبة الكلية. كان رجلاً عظيماً وصالحاً، وله الفضل بعمل خدمة مهمة إلى أبعد الحدود لبلدك بكرمه على تلك المؤسسة. إن التكريم الذي تقترح عمله لي بوضع مكانتي في نفس مكانته، كبير جداً جداً على استحقاقي، لكنك متحيز دائماً إلى صفي، ولا بد أنه يُعزى إلى ذلك. رغم ذلك، فأنا ممتن كثيراً جداً إلى كلية (ييل)، أول مجموعة متعلمة التفتت إليّ وزينتني بتكريماتها، ومجبر لرفض طلباً أتى منها من خلال صديق محترم جداً. لكنني لا أعتقد بأن أي واحد من البورتريهات التي ذكرتَها والتي في حوزتي، جديرة بمكان ومجموعة أنت تقترح أن تضعها فيه. لديك فنان ممتاز، وصل مؤخراً. لو يأخذ على عاتقه عمل واحد لك، فسأتولى دفع التكاليف بسرور. لكن لا يجب عليه أن يطيل جلوسي، وإلا قد تعتلّ صحتي بين يديه لأنني الآن في عمر الخامسة والثمانين، وضعيف جداً.

سأرسل مع هذا كتاب مهم جداً، كما يبدو بالنسبة لي، بشأن العملات

السامرية، طُبع مؤخراً في إسبانيا، ومهتم على الأقل بجمال الطباعة. أرجو أن تقبله لمكتبة كليتك. لقد وقَّعْتُ الموسوعة التي تُطبَع حالياً هنا، بنيّة إهدائها إلى الكلية. ربما أكون قد غادرتُ الحياة قبل أن ينتهي الكتاب، لكنني قد أترك تعليمات لإكماله حتى النهاية. وستستلم مع هذا بعضاً من الأعداد الأولى.

أنت ترغب بمعرفة شيء ما عن عقيدتي. إنها المرة الأولى التي يتم بها سؤالي عن هذا الموضوع. لكنني لا أستطيع أن أسيء فهم فضولك، وسأحاول بكلمات قليلة أن أشبعه. إليك عقيدتي. أنا أؤمن بإله واحد، خالق الكون. وأنه يحكمه بعنايته الإلهية. وأنه يجب أن يُقَدَّس. وأن العمل الأكثر قبولاً والذي نعمله لأجله هو عمل الخير لأبنائه. وأن روح الإنسان خالدة، وسيتم معاملتها بعدالة في حياة أخرى اعتماداً على سلوكه في هذه. أعتبرُ أن هذه هي المبادئ الأساسية لكل عقيدة متينة، وأحترمُها في أية طائفة أجدها فيها.

أما بالنسبة لرأيي، والذي ترغب بمعرفته، في يسوع الناصري، فأنا أعتقد أن نظام الأخلاقيات وعقيدته كما تركها لنا، هي أفضل ما عرفه العالم أو ما قد سيعرف. لكنني أخشى من أنه قد حصل عليها تغييرات فاسدة مختلفة. ولدي بعض الشكوك (كما عند أغلب المرتدّين الحاليين في إنكلترا) فيما يخص ألوهيته، رغم أنها مسألة لا أجزم بها لأنني لم أدرسها، وأعتقد أنه من غير الضروري أن أشغل نفسي بها في الوقت الحاضر، عندما أتوقع عاجلاً فرصة لمعرفة الحقيقة بأقل متاعب ممكنة. رغم ذلك، فأنا لا أرى ضرراً من أن يؤمن أحدٌ بها إذا كان لهذا الإيمان تبعات طيبة، مثل جعل مذاهبه

محترمة أكثر وتأملية بشكل أفضل، خصوصاً لأنني لا أؤمن أن الله الأعلى يميز المنكرين لهيمنته على العالم، بأية علامات خاصة تدل على سخطه.

سأضيف فقط، فيما يتعلق بي، بأنه؛ لأنني عشتُ خير هذا الوجود بإرشاده لي بنجاح خلال حياة طويلة، فلا أشك باستمرارها في التالية، لكن بدون أدنى غرور باستحقاق خير كهذا. إن آرائي بشأن هذا الموضوع ستراها في نسخة لرسالة قديمة مرفقة، والتي كتبتُها كجواب إلى شخص ديني متعصب أسعفتُه (في حالة شلل) بواسطة الكهرباء، والذي أرسل لي تحذيره الجاد لكن الوقح لكونه خائف من أن أصبح مغروراً بشأن هذا. أرسل إليك أيضاً نسخة رسالة أخرى والتي ستوضح شيئاً من اتجاهي فيما يتعلق بالدين.

مع فائق وأصدق احتراماتي ومودتي، أنا، صديقك القديم الممتن وخادمك الأكثر طاعة وتواضعاً،

ب. فرانكلين

ملحوظة: هل حظيت بهدية من الكتب لكليتنا من ملك فرنسا؟ أرجو أن تُعْلِمني إذا تم منحك اعتماداً بالمزيد، وطبيعة هذا الاعتماد. فلدي سبب لهذا التساؤل.

أنا واثق بأنك لن تعرضني للانتقاد واللوم بنشر أي جزء من هذا التواصل معك. كنتُ دائماً أدع الآخرين يتمتعون بآرائهم الدينية بدون التفكير بها، لأنها تبدو لي غير قابلة للدعم وحتى غريبة. إن جميع

الطوائف هنا، ولدينا الكثير منها، قد جربتْ نيتي الحسنة بمساعدتهم بجمع الاشتراكات لبناء أماكنهم الجديدة للعبادة؛ ولأنني لم أعارض أبداً أيًّا من مذاهبهم، لذا فأنا آمل أن أرحل عن العالم وأنا في حالة سلام معهم جميعاً.

# بنيامين فرانكلين

(السيرة الذاتية الأكثر شعبية على الإطلاق).

(بول ليسستر فورد)
مؤرخ وروائي وناقد ومحرر أميركي شهير

(السيرة الذاتية الأميركية الكلاسيكية الأكثر صراحة والقصصية الغير متصنعة من نوعها في اللغة الإنكليزية إذا لم تكن في العالم)

البروفسور(والدو هيلاري دَن)
مؤلف "ثلاث عصور فكتورية بارزة"

(إن فرانكلين , السيرة الذاتية الأكثر قراءة من كتب السيرة الذاتية الأخرى, قد عرف بشكل أفضل من خلال كتابه - السيرة الذاتية بقلمه- وهي نموذج الذكريات والأمانة)

كارل فان دورين، في كتابه "بنيامين فرانكلين"

إن قصة بنيامين فرانكلين معروفة لدى أغلب الأميركيين , هل تعرفون قصة الصبي الذي سار خلال شوارع "فيلادلفيا" وهو جائع يمضغ قطعةِ من الخبز، الشاب الناشر لأوائل صحف هذا البلد، نعلم أنه مؤسس صحيفة (بُور ريتشارد ألماناك)، وأنه ابتكر مانعة الصواعق وأنه كان رجل دولة عظيم وأنه أحد موقعي إعلان الإستقلال. لكن حالما نقرأ قصة حياة (بنيامين فرانكلين) تصبح الأسطورة حقيقة. في البداية سنضحك لخفة دمه اللاذعة ثم نتعجب لصراحته التي لا تصدق وعندما نقترب من النهاية نحبه لحكمته العظيمة ولتفهمه وتواضعه، تواضع رجل نهض من عدم الذكر إلى الشهرة والذي قام بتوقيع وصيته الأخيرة والعهد بـ(عامل المطبعة: بنيامين فرانكلين).



ISBN 978-9-9226237-9-5

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين




